



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمران
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

مِيقَاتُ الْحَجَّ

مؤلف: محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب
مترجم: محمد بن عبد الوهاب
مترجم: محمد بن عبد الوهاب
مترجم: محمد بن عبد الوهاب
مترجم: محمد بن عبد الوهاب

١٤

- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب
- في مكاتب الشيوخ صالح بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

٥	الفهرس
٦	ميقات الحج المجلد ١٤
٦	اشارة
٦	من احاديث الامام الخمينى قدس سره
١١	من احاديث الامام الخامنئى مدّ ظلّه
١٣	بين يديك، سيدي ابا تراب
٥٩	القرآن مع عليّ عليه السلام
٦٨	نظرة موجزة حول كتاب الولاية لمحمد بن جرير الطبري
١٠٨	فقه الحجّ عند الامام على بن ابي طالب عليه السلام
١٣٦	الامام على عليه السلام... والراى الآخر
١٧٩	قراءة في كتاب عليّ وليد الكعبة
٢١٧	الامام على عليه السلام في مرآة الشعر
٢٢٨	حديث الغدير في ضوء الكتاب واللغة
٢٥٧	المصلحة الاسلامية ووحدة المسلمين في منهج الامام على عليه السلام
٢٧٧	البعد المعنوى للحجّ في رؤى الامام عليّ عليه السلام
٢٨٩	الكعبة المشرفة: سرّ البناء والموقع قراءة في خطبة القاصعة
٣٠٣	دور عليّ في فتح مكة
٣٤٤	الامام على عليه السلام باقلام المعاصرين
٣٧٣	تعريف مركز

میقات الحج المجلد ۱۴

اشاره

عنوان و نام پدیدآور: میقات الحج [بیابند: مجله]
 مشخصات نشر: تهران: منظمه الحج و الزیارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -
 فاصله انتشار: شش ماه یکبار

یادداشت: عربی

فهرست نویسی براساس سال ۳ شماره ۵ سال ۱۴۱۷ ق.

یادداشت: این نشریه در بیروت نیز منتشر می شود

یادداشت: مدیرالمسؤول: محمد محمدی ری شهری

رئیس التحریر: علی قاضی عسکر

یادداشت: کتابنامه

ترجمه عنوان: Mighat al - haj

موضوع: حج -- نشریات ادواری

شناسه افزوده: محمدی ری شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردبیر

شناسه افزوده: سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره: BP۱۸۸/۸

رده بندی ...: ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

من احادیث الامام الخمينی قدس سره

ص: ٢

العدد الرابع عشر

من أحاديث الإمام الخميني قدس سره

أَمَا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين (١)

الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون

١-١ النساء: ٦١.

ص: ٣

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«علّي مع القرآن والقرآن مع عليّ، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض.

«علّي مع الحقّ والحقّ مع عليّ».

«أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها، فمن أراد الحكمة فليأت الباب».

«مثل عليّ فيكم - أو قال: في هذه الأمة - كمثل الكعبة المستورة، النظر إليها عبادة، والحجّ إليها فريضة».

«إنما مثلك في الأمة مثل الكعبة نصبها الله علماً، وإنما تؤتى من كلّ فج عميق، وناجٍ سحيق، وإنما أنت العلم علم الهدى ونور الدين،

وهو نور الله» (١).

قال الإمام علي عليه السلام وقوله الحقّ وفعله الصدق:

«يا دنيا غزى غيرى، إلىّ تعرّضت، أم إلىّ تشوّقت، هيهات هيهات. لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير،

وعيشك حقير، آه، آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق».

«... على أئمة الحقّ أن يتأسوا بأضعف رعيتهم حالاً في الأكل واللباس، ولا يتميّزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه، ليراهم الفقير فيرضى

عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغنى فيزداد شكراً وتواضعاً».

الهوامش:

١ - ١ انظر: ذخائر العقبى: ١٤٢، تاريخ بغداد ١١: ٢٠٤، كفاية الطالب: ١٦١، المناقب لابن شهر آشوب: ٢/٣، كلّها عن أبي ذر،

خصائص الأئمة: ٧٣ عن أبي موسى الضريير البجلي عن أبي الحسن عن أبيه عن الإمام علي عليهم السلام وغيرها.

ص: ٥

إنَّ ممَّا يجب أن نأسف له أن أيادي الغدر والخيانة لم تمنح شخصيَّة الإمام على عليه السلام الفرصه لتتبلور وتظهر إلى حيِّز الوجود بأبعادها المختلفة وزواياها المتعدده؛ بسبب ما افتعلته تلك الأيدي من حروب ومعارك خلال فترة خلافته القصيره. إن لشخصيَّة الإمام على عليه السلام أبعاداً ليست لغيره فشخصيته تجمع صفات وخصائص خلقت منه شخصيَّة ربَّانيَّة وإذا قدر للصفات الربَّانيَّة أن تتجلَّى في شخصٍ فإنَّ علياً كان مظهرها لها كلُّ ذلك بفضل رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله. وما خفي من صفات تلك الشخصيه وأبعادها، كان أعظم ممَّا ظهر منها. إن ما تعرفت عليه البشريَّة وستتعرف عليه من صفات وأبعاد متناقضة ومتضاده كلها تجمعت في رجل واحد، ألا وهو أمير المؤمنين على عليه السلام، الزاهد العابد والمقاتل المجاهد...، وهي صفات لا يمكن اجتماعها في رجل واحد، فالزاهد لا يستطيع بطبيعة الحال أن يكون محارباً أو مقاتلاً صنيدياً، والعكس صحيح. فمع كون على بن أبي طالب عليه السلام كان قوى الساعدين شديد البنية قوى الجسم، لكنه كان يعيش في زهد وقناعة كاملتين في مأكله ومشربه وطريقه معيشته، وفي الوقت الذي كان فيه يمتلك من

ص: 6

العلوم المعنوية والروحانية وسائر العلوم الإسلامية الأخرى ما لم يحظ أحد غيره ولو بجزء ضئيل منها، كانت كل ملة تصنفه على أنه منها وأنه ينتمي إليها. فالأبطال والبواسل يعتبرونه منهم بطلاً مغواراً، والفلاسفة تعدّه واحداً منها، والعرفاء ينسبونه عليه السلام إليهم، والفقهاء يدعون أنه ينتمي إلى مذهبهم، وهكذا الحال مع باقي الملل والتحل الأخرى، والحق أن أمير المؤمنين عليه السلام هو واحد من كل تلك الطوائف وفرد من كل ملة من تلك الملل.

إن بعض كمالات أمير المؤمنين عليه السلام وصفاته المتميزة التي لا زالت غير معروفة للكثير يمكننا الاطلاع عليها من خلال قراءة لبعض أدعيته عليه السلام المأثورة. فدعاء كميل هو أحد تلك الأدعية العجيبة، وأقول عجيبة لأن بعض الفقرات الواردة فيه لا يمكن أن تكون صادرة من إنسان عادي على الإطلاق. فلاحظ مثلاً عبارة: «إلهي وسيدى ومولاي وربى هبنى صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟»؛ من من البشر له القدرة على التفوه بمثل هذا الكلام؟ من منّا يحب الله تعالى بهذه الكيفية كما يحبّه على عليه السلام؟ فهو يصرح بأنه لا يخاف من جهنم ولا يخشى نارها، بل إن جل ما يخشاه هو أن يؤدي دخوله إلى جهنم إلى إنزال مرتبته ومكانته بحيث يكون ذلك سبباً في حرمانه من حبّ الله تعالى والقرب منه. إنه عليه السلام ينوح بسبب فراقه عن بارئه واحتمال ابتعاده عنه سبحانه. وليس لنا والحال هذه أن نتعجب أو نشك في أن أعماله وأفعاله وكل تصرفاته نابعة من صميم حبه لله عزّ وجلّ، ذلك الحبّ الذي ملك زمام قلبه، وسيطر على كيانه وهيكله في كل مكان وزمان. إن المعيار الذي يعتمد عليه الإمام على عليه السلام هو حبه لله سبحانه والفناء في ذلك الحبّ من أجله تعالى، وهو ما صرح به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حينما قال: «ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»...

من احاديث الامام الفارسي مد ظله

ص: ٧

من احاديث الامام الخامنئي (مد ظله)

من محاسن الصدق أن عيد الغدير تكرر مرتين في سنة ١٣٧٩ الشمسية (١)، وعلى هذا فليس هناك أجمل ولا أبهى من تسمية هذا العام ب (عام الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام). فلنحاول إذن الاقتراب من هذا الرجل العظيم والاقتداء به، فهو القدوة الحسنة لجميع الناس، فشبابه المليء بالحماسة الجياشة والبطولة الفذة خير أسوة لكل الشباب. وحكومته التي كانت مليئة بالعدل والإنصاف هي أنموذج صالح لكل المؤمنين، ومبادئه الحرة كانت منارة لكل الأحرار في العالم، وكلماته الحكيمة ودروسه الخالدة ظلت مشعل هداية لجميع العلماء والمفكرين والمثقفين..

لقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يدير دفة الحكم ويطبّق أركان العدل والمساواة، بحزم وصلابة، ويأخذ بحقوق الضعفاء والمساكين والمحتاجين بقوة ولا تأخذه في الله لومة لائم، لكنه كان عليه السلام متسامحاً في حقه وحقوقه الخاصة به، فلا يابه بضياعها ما دامت حقوق الآخرين محفوظة مصانة. لقد كان الإمام على بن أبي طالب عليه السلام مثلاً رائعاً ونموذجاً عالياً للعبد الصالح، وشخصية فذة تتمتع بكل

١-١ السنة الشمسية أكثر من السنة القمرية بعشرة أيام؛ ولهذا وقع عيد الغدير في أول هذه السنة وفي آخرها.

ص: ٨

الصفات المعنوية والجهادية العالية. فيا حبذا لو سرنا على هذا النهج القويم والمثل السليم، وبهما نستطيع تحقيق أملنا المنشود وهدفنا المقصود في إرساء أسس العدالة الاجتماعية وتثبيت قواعدها وهو ما ينشده بلدنا العظيم وشعبنا الغالي...
الهوامش:

بين يديك، سيدي ابا تراب

ص: ٩

بين يديك، سيدي ابا تراب

محسن الأسدي

يا من كنت مصباحاً يتلألأ بل مشكاةً فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجه كأنها كوكب دري. ها هي بين يديك المباركتين، مجلّة ميقات الحج في عامها السابع وفي عدد خاص جاء تيمناً بذكرى مولدك المبارك، وإطلاء على عامك هذا (عام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام) الذي تشرف بإعلانه قائد الثورة الإسلامية الإمام الخامنئي حفظه الله. لهذا راحت مجلّتنا تعلن عن مشاركتها، فجاءت ببضاعتها المزجاة هذه رمز ولاءٍ وشكرٍ وحبٍّ ووفاءٍ.. وتمشياً مع اختصاصها ارتأينا أن تدور مضامينها حول ما أفردناه وأسميناه بالمرحلة الأولى من حياتك المباركة؛ التي قضيتها في الحجاز - إلماً إذا اقتضت الضرورة تجاوزها - بما انطوت عليه من صناعة ربانية نبوية صاغت لك مناقب وفضائل وصفات، تركت بصماتها على شخصيتك الفريدة، وارتسمت معالمها

ص: ١٠

وآثارها على سيرتك المفعمة بأحداث عظام وأمور جسام ومواقف عظيمة ومبادرات كريمة ...

ومع أنني واكبتُ جميع أعداد المجلّة هذه محرراً.. وسعيداً بها، إلّا أنّ تلك السعادة لم تغمر قلبي ولم أذق شربةً أنقع لغيلي من هذا العدد- على بساطته- الذي يعيش ذكراك ويتفياً ظلالك...

*** بدءاً نقول: لعلّ الحكمة- سيدي- في إعلان هذا العام عاماً خاصاً، هي تجميع للجهود المحبّة والمتفانية فيك، وتذكير للغافلين، وفرصةً للمناوئين... وإلّا فإنّ من يقصد وجه الله تعالى الذي أحببته وآمنت به وآثرته وسكنت إليه، وأفنيت عمرك الشريف فيه مؤمناً مجاهداً... حتّى قضيت نجحك في سبيله، وفاضت روحك إليه، مضرجاً بدمك في محراب عبادته، في بيت من بيوت الله تعالى، في مسجد الكوفة، وقد انطلق صوتك، ودوى صدهاء عالياً في جنبات المسجد وفي سمائه.. فُزت وربّ الكعبة، فزت وربّ الكعبة..

نعم، إنّ من يقصد ذلك الوجه الكريم ويرجو لقاءه بقلب سليم ويأمل أجره وفضله ويخشى حسابه ويخاف عقابه، يجب أن تبقى ذكراك ماثلة أمامه، حيّة في سيرته، فاعلة في حياته، شجرة خضراء ينعم بظلالها الوارفة ويشمّ عطرها ويستنشق عبيرها، ويرتشف من معينها قيماً جميلةً ومعاني عظيمةً ومفاهيم جليّة، وأن يقرأك إنساناً وإيماناً وتقوى وزهداً وجهاداً وعلماً وأدباً وفكراً..

إذن، أن يبقى كلّ منا يعيشك دائماً قدوةً صالحهً واسوةً حسنةً، وهو الذي يجب أن نعوّد أنفسنا عليه ونتبناه في حياتنا الدينية والاجتماعية بكلّ مفصلها. لا ذكرى فقط تمرّ مرور الكرام..

ولعلّ الحكمة في أن يكون مولدك في جوف الكعبة؛ القلب، لتكون قبله للأنام، للمؤمنين رعاةً كانوا أو رعيّةً مهما بعدت بهم البقاع ونأى بهم الزمن، يستقبلونك مبادئ وقيماً ومثلاً علياً كلّما توجّهوا إليها في فرضٍ أو مستحبٍّ أو دعاء..

لذاك قبله من صلّي لخالقه غداً ومقصد من للصحّ يأتيه

حقّاً لتبقى بل ليقى عليّ شاخصاً أماناً بكلّ ما يحمله من قيم السماء ومبادئ الدين الحنيف، وبكلّ ما يتحلّى به من إيمانٍ ثابت وإسلام وثيق، وجهادٍ مرير وتضحيات جسام، ومن علمٍ غزير وأدبٍ جميل وسيرةٍ عطرة حسنة، تمنّاها كلّ من حولك والذين جاءوا من بعدهم.. فعصت عليهم جميعاً، ولم تجد غيرك إناءً صالحاً، وبوقته تصهرها، فتنتج علياً إسلاماً يتحرّك وقرآناً ناطقاً، وإيماناً حياً يجسّد كلّ معاني السماء.

*** لقد كنت- سيدي- بين محرابي الولادة والشهادة محراباً لا يدانيك أحدٌ أبداً، وكيف لا تكون كذلك وأنت أكثرهم جهاداً وأمضاهم عزيمةً وأشدهم توثباً حتّى قال فيك تلميذك حبرُ الأمة عبد الله بن عباس: ما رأيتُ محراباً مثله؟!

كنت جريئاً على الموت مقتحماً لميادينه، لا تخشى ولا تهاب أحداً بالغاً ما بلغ من القوّة والشجاعة والاقدام، بل لا تجد هيبةً هولاء الأبطال من قلبك شيئاً.

فقد نزل عمرو بن ودّ المعروف بقوّة وصلابته وصولته وبأنّه يعدل ألف فارس، وقد لفّه الحديد من هامته إلى أخصص قدمه، ينادى بصوتٍ مخيف هل من مبارز؟

أين جنتكم التي زعمتم أنّكم داخلوها إن قتلتم؟.. ولا مجيب إلاصوتك «أنا له يا رسول الله» فوثبت إليه، وصوت رسول الله صلى الله عليه وآله يلاحقك: «برز الإيمان كلّهُ إلى الشرك كلّهُ» فإذا هو مجدل بين يديك بضربة تعدل عبادة الثقلين، ولا ذن الأحراب بالفرار.

وأنت في عبادتك الأواب المتبتّل الواله برّبّه، الذي عبد الله كأنه يراه، وأنت القائل: أفأعبد ما لا أرى (١)؟

وأنت القلب الطاهر المطمئن الذي لا يخفق إلابحبّ الله وحبّ رسوله...

وأنت القيّة السامقة في تسليمك وانقيادك إلى الله سبحانه وتعالى، فكنت الإيمان كلّهُ، وكنت الغاية في الإخلاص والغاية في الصدق.

وأنت في فصاحتك الخطيب الأوّل الغنيّ بدائع الخطابة وألوان البيان وضروب الحكمة وفنون الكلام.

١-١ انظر إجابته ذعلب اليماني حينما سأله: هل رأيت ربّك...؟ ١٧٩- من كلامه عليه السلام في نهج البلاغة: ٢٨٥، صبحي الصالح.

ص: ١٢

وأنت الذي اتسمت بالثراء والفراة في إيمانك وفي صدقك وعدلك وورعك وفي علمك وعبريتك وحصافتك وفي زهدك وقناعتك وفي نهجك وطريقتك، فخصائصك ما أعظمها وأخلاقك وما أسماها وفضائلك ما أكثرها!
وهذه كتب التاريخ والحديث عند الفريقين.. وقد ملئت بخصالك ومناقبك وفضائلك وآثارك وجهودك وموافقك ولم يذكر فيها لغيرك ما ذكر لك.

يقول أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي وأحمد بن شعيب بن علي النسائي وأبو علي النيسابوري: «لم يرو في فضائل أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما روى في فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام».

وليس هذا فحسب، بل كان الأوحده في صفاته وفضائله. دلني على فضيلة لم يكن علي فيها الأشهر ولم يكن المتفرد بها دون غيره سواء أكانوا في زمنه أو الأزمان المتعاقبة الأخرى!

*** وهكذا أنت - سيدي - في عطائك الذي كاد أن يبلغ حد الأسطورة، أثريت به تراثنا الديني والأخلاقي والإنساني... وما أوجبنا إلى تراثك الخالد خاصة في عالمنا الصاخب المليء بمختلف الأفكار والأمواج والأعاصير...

وإن الإحاطة بكل ما قدمته في حياتك المباركة أمر صعب، كما أن محاولة التعمق فيه وسبر أغواره هو الآخر أمر عسير فالرجل مهما اوتى من القدرة والاستعداد والصبر فإنه يتخصص بفن واحد أو فنين، إلا أنت - سيدي - فقد جمعت مناقب كثيرة، وفنوناً وعبريات هي الأخرى متعددة.

ما فرق الله شيئاً في خليقته من الفضائل إلا عندك اجتماعاً

لقد اصطنعتك السماء وأفاضت عليك خصائص وفضائل خلقت منك إنساناً ربانياً في كل ما حملته واتسمت به. وأقحمتك عالماً آخر غير ما ألفوه فتحيرت عقولهم وأذهلت نفوسهم، فراحوا يتنازعون أمرهم فيك؛ تعددت آراؤهم وتنوعت فيك اجتهاداتهم، وتقاطعت فيك مواقفهم، ولما أدهشتهم حججك وألجمت ألسنتهم وخيبت أدلتهم وكشفت افتراءاتهم.. لم تطاوعهم أنفسهم المقيتة

ص: ١٣

على الرضوخ للحق والانصياع للعدل فأبت إلانفوراً واستكباراً. وركن شائوك ومن نصبوا لك العداة إلى سيوفهم فلعل آمالهم وأطماعهم تتحقق، فما اشتبكت الأسنة على أحد كما اشتبكت عليك، ولا اختلفت الألسن والأقلام في أحد كما اختلفت فيك.. فظلمك قومٌ وأنصفك آخرون، وختاماً تركوك وحيداً- وإن كنت حقاً الوحيد بينهم بنعم ظلت حسرةً عليهم- إلأنهم لم يتركوك حباً لغيرك وتفضيلاً له عليك، وهم يعرفون أن ليس هناك من يدانك إيماناً وعلماً وفضلاً... بل تركوك؛ لأنهم لم يتحملوا صدقك ولم يطيقوا عدلك.. خافوك على دنياهم وخفتهم على آخرتك.

*** إن تاريخك لحافل وإن حياتك لصالحه وإن ميراثك لعظيم وإنك لفي مقام كريم.. استوقفت هيبتك الجميع، وبهرتهم صفاتك وأذهلتهم فضائلك حتى لم يجدوا شيئاً منها في بشر سواك.. فكانوا طوائف ثلاث:

فطائفة منهم أحببتك حتى ذابت فيك، وأنت القائل: «لو أحبني جبل لتهافت» وذلك هو الفوز العظيم.

وأخرى أحببتك حتى العباد، فيما بغى عليك قومٌ آخرون حسداً لما آتاك الله من فضله، وكلاهما من أصحاب النار هم فيها خالدون.

حقاً ما قلته: «هلك في اثنان، محبٌ غالٍ ومبغضٌ قال!»!

يقول الدكتور الجميلي:

«الرجل الذي هلك في حبه نفرٌ كثيرٌ، وهو ذات الرجل الذي أهلكت عداوته نفرًا كثيراً، فإن من الذين غالوا في حبه هلكي، ومن الذين قلوه ونفسوا عليه هلكي أيضاً؛ لأن حبه جدير بالتفاني فيه، وقلاه أجدر على أن يسحت أعداءه ومبغضيه» (١).

*** لقد راح- سيدي- قوم عاصروك وآخرون جاءوا من بعدهم ينتهلون من علمك ويتعلمون من حلمك ويقلدون شجاعتك.. إلأنهم- وإن تمنوا- لا يكونون مثلك أبداً.. وأنى لهم وخصالك صنعتها يد الغيب، وسمات شخصيتك أفردتها لك

١- انظر الدكتور السيد الجميلي في كتابه، صحابة النبي صلى الله عليه وآله: ٦٢.

ص: ١٤

السماء، ومناقبتك صاغتها مبادئ الدين الحنيف تحت ظلال النبوة المباركة.. كما راحت امتنا وامم أخرى، من ديانات أخر ومذاهب شتى بمفكرتها وعلمائها وادبائها وشعرائها.. يقفون أمام تراثك مبهورين وإزاء عبقريتك متحيرين.. وقد عرفوا ذلك كله، إلا أنهم أبوا إلا أن يقولوا فيك شيئاً. فراحت أفكارهم وأقلامهم ومع سموها لا- تستطيع كشف إلا ما ظهر من عظمتك ولا تذكر إلا ما بان من شخصيتك، وهو غنى ثرى عظيم.. أما ما خفى فالله ورسوله أعلم به.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال: «يا علي ما عرفك إلا الله وأنا وما عرفني إلا الله وأنت».

حقاً- سيدي- إنك نعمة كبرى أنعمتها علينا السماء، إنك كنز عظيم غفلنا عنه، وينبوع لا ينضب جهلنا قدره، وصورة مضيئة للإسلام والإنسانية بكل معانيها الجميلة، لم نعطيها حقها..

لقد أكبرنا- سيدي- الإسلام الذي تجسد فيك، وفضائلك الرائعة ومناقبتك الجميلة ومواقفك الشجاعة والجريئة.. التي باتت رصيد كل خير وعطاء، وثورة وإباء، وعدل ورحمة، وغدوت حياة لأولى الألباب..

إن اسمك- سيدي- شفاء للنفوس، وذكراك ضياء للعقول، وهدى للقلوب، وحافز للثورة والثوار مهما كانت صولة الباطل مريرة وقسوته شديدة..

إن كل ما حولنا يستضيء بنورك ويستهدى بهداك، وكل ما عندنا مدين لمبادئك وقيمك، التي هي قيم السماء، فذكراك لا يحدّها حد ولا يختصرها زمن. وكيف يكون ذلك وعلى بين الولادة والشهادة تجده شمساً مضيئة لا يحجبها شيء، وقمرًا منيراً لا يحبسه سحاب؟!!

وتجده إيماناً لا يشوبه شك ولا يعتريه ريب، وكيف يخالط إيمانه ذلك وهو القائل: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً».

وتجده علماً لا جهل معه ولا نقص يعتريه، أليس هو القائل: «سلوني قبل أن تفقدوني» ولم يقلها غيره؟

كل ذلك وغيره بفضل النبوة التي راحت تشرق عليه منذ نعمة أظفاره، وبنعمة

ص: ١٥

الرسالة التي احتضنته فأسبغت عليه حللها، وبركة ما أودعه رسول الله صلى الله عليه وآله في صدر هذا الفتى حتى يضحى امتداداً طبيعياً للرسالة والنبوة يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام..

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه مبادئ السماء ويثمه علمه ويغذيه أخلاقه طيلة طفولته وصباه، فتخلق بأخلاقه صلى الله عليه وآله التي قالت عنها السماء: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ واتصف بجميع صفاته وتحلى بجميع شمائله، كما راح يستقى منه علماً جماً ممّا جعله بلا- ريب ولا- شك أفضل أصحابه صلى الله عليه وآله وأعلمهم وأفقههم وأورعهم وأزهدهم وأشجعهم وأكثرهم عطاءً للإسلام ومبادئه..

فصاغ لنا تاريخاً مليئاً بالخير والعطاء وحاضراً مشرقاً بالحب ومستقبلاً زاهراً بالأمل، فسيرته المباركة الحافلة بمناقبها وفضائلها وما فيها من أحداث مريرة ووقائع عظام، ومواقف جليئة، والبعيدة عن كل وسائل اللهو والزيغ والانحراف.. المطبوعة بالاستقامة والتقوى.. خير دليل على عظمته.. بل كانت ولا زالت آيةً للحق والعدل والإنسانية والصدق والإخلاص والصلابة والثبات والشجاعة والفداء.

فقد قضى عمره الشريف كله في طاعة الله وعبادته راجياً رضاه محارباً لأعدائه هادفاً تثبيت أركان دين الله بكل ما عنده من قدرة وشجاعة.

يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا أن يقول فيك الغالون من امتي ما قالت النصرارى فى عيسى بن مريم؛ لقلت فيك قولاً لا تمرُّ بملا من الناس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك يستشفون به».

الهوامش:

ص: ١٦

*** إطلالة على حياة الإمام على (عليه السلام)

إطلالة على حياة الإمام على عليه السلام

ذرية بعضها من بعض

كان علي بن أبي طالب من سلالة ذرية طيبة وعائلة كريمة في صفاتها، سالحة في أخلاقها وسيرتها، محمودة في خصالها، رفيعة في شمائلها، متميزة في رجالها وسيادتها، فبنو هاشم، سادة قريش بل سادة الدنيا، «ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، والمعدن الفهم، وينبوع العلم...» (١).

فقد كان منها أكرم خلق الله تعالى على الإطلاق، محمد بن عبدالله وكان منهم آله الطاهرون، وأعظمهم وأفضلهم سيدهم علي بن أبي طالب الذي اجتمع فيه من الخصال ما لم يجتمع لغيره، ومن المكارم ما لم يحظ بها أحد غيره، ومن السجايا ما لم يحظ بها الآخرون، فحسب شريف، وخلق عالٍ، وفطره سليمة لم تتلوث بيرانثن الجاهلية، وعقيدة صافية، وعلم جم، وشجاعة لا مثيل لها...

ص: ١٧

فأبوه: شبيه بنى هاشم شيخ قريش وزعيمها وسيد قومه أبو طالب، الذي انطوت نفسه على خصال كريمة كلها شموخ وعزّة وفضائل... وهو الكافل المدافع الذابّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي أحاط رسول الله بعناية عظيمة ورعاية قلّ نظيرها خصوصاً إذا عرفنا مكانته في قريش وبين زعمائها وما سببه ذلك من إحراج له وضيق وأذى، ومع هذا كلّ فقد صبر أيما صبر دفاعاً عن محمّد ورسالته حتّى إنّ قريشاً لم تكن قادرةً على أذى رسول الله صلى الله عليه وآله مع رغبتها في ذلك حتّى توفى أبو طالب فراحت تكيد له..

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «والله ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب».

ولم يهاجر إلى المدينة إلّا بعد وفاة عمّه رضوان الله عليه. هذا أبوه.

وأما جدّه: فهو عبد المطلب شبيه الحمد أمير مكة وسيد البطحاء له ولاية البيت الحرام من السقاية والرفادة.. وكان ذا مهابة ووقار وميل إلى الدين والنسك، وهو الذي قام بحفر بئر زمزم التي تفجرت تحت قدمي جدّه إسماعيل من قبل، بعد أن غاب أثرها ولم يهتد إليها أحد حتّى هتف به هاتف في منامه، فراح يحضر حتّى اهتدى إليها مستعيناً بابنه الحارث الذي كان وحيداً وقتذاك.

ثم هو الذي خذل الله على يديه ابرهه الحبشى وجنده الذين جاؤوا لهدم الكعبة وصرف الحاج عنها إلى بيت بناه في اليمن، ولما التقى ابرهه بعبد المطلب أراد أن يستميله إلى جنبه، فما وجد منه إلّا الرفض، وإلّا الثقة العالية بالله، مكتفياً بأن يرد إليه إبله وشويهاته التي أخذها جنده.

فقال ابرهه: كنت في نفسى كبيراً وسمعت أنّك وجيه في قومك، فلما سألتك عن حاجتك وذكرت الإبل والشياه ونسيت بلدك وأهلك وبيتك المقدس سقطت من عيني.

فقال عبد المطلب: الإبل لى، وللبيت ربّ يحميه.

ص: ١٨

فقال ابرهه: ما كان ليمنع مني.

فقال عبد المطلب: أنت وذلك، وصعد على الجبل وتضرع إلى الله وأنشد:

يارب عادٍ من عاداك وامنعهموا أن يهدموا حماك

ثم راح يستحث قومه على ترك مكّة واللجوء إلى الجبل خشية بطش ابرهه وجيشه، والتوجه إلى الله بالدعاء. فحلت الكارثة بابرهه وجنده... وهناك سورة الفيل تحكي هذه الحادثة..

أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم فهي ابنة عمّ أبي طالب وهي أول هاشمية تزوجها هاشمي، وعليّ أول مولود (مع اخوته) ولد لهاشميين فقد تعود بنو هاشم أن يصهروا إلى اسر اخرى. كانت ذات منزلة رفيعة، جعلتها من اللاتي امتازت حياتهنّ بمواقف جليّة في حركة الأنبياء ومسيرتهم عبر التاريخ، فقد أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وكان شاكرًا لها ولمعروفها ورعايتها له، فكان يدعوها «أمي بعد أمي التي ولدتنى» (١)

وراحت هي الاخرى تفضله على جميع اولادها الأربعة، فقد كان طالب أكبر اولادها ثم عقيل، ثم جعفر ثم عليّ، وكل واحد أكبر من الذي بعده بعشر سنوات، وكان عليّ عليه السلام أصغر اولادها.

حظيت هذه السيدة والمرأة المؤمنة الطاهرة بمكانة عظيمة في قلب رسول الله، وتركت في نفسه آثاراً طيبة راح يذكرها طيلة حياته، ويترحم عليها ويدعو لها..

تقول الرواية:

لما ماتت فاطمة بنت أسد أمّ عليّ - وكانت قد أوصت لرسول الله صلى الله عليه وآله وقبيل وصيتها- ألبسها النبي صلى الله عليه وآله قميصه واضطجع معها في قبرها، فقالوا: ما رأيناك يا رسول الله صنعت هذا! فقال: إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنما ألبستها قميصي لتكسى من حُلل الجنة واضطجعت معها ليهوّن عليها.

ص: ١٩

وفي دعاءٍ خاص لها قال: اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسّع عليها مدخلها. وخرج من قبرها وعيناه تذرفان. لقد كانت رضوان الله عليها لرسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة الأم، بل كانت أمّاً بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وقد كانت بارّة برسول الله صلى الله عليه وآله «لم يكن بعد أبي طالب أبرّ بي منها» (١). فحنانها وشفقتها ورعايتها له بلغت مبلغاً عظيماً حتى فاقت رعايتها لأبنائها وكأنها تعلم أنّ له مكانة عظيمة وشأناً جميلاً، تقول بعض الروايات كان أولادها يصبحون شعثاً رمصاً ويصبح رسول الله صلى الله عليه وآله كحليلاً دهيئاً. هذا في مداراتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وحبها له.

أمّا في إيمانها فقد كانت بدرجة عظيمة، ومن السابقات إلى الإسلام والمهاجرات الأولى إلى المدينة وهي بدرية (٢). فذاك أبوه وجدّه وهذه أمّه، فهو وليد هذه الأسرة الهاشمية المباركة.

ثم بعد هذا كان عليّ عليه السلام قد اختصّ بقرابه من رسول الله صلى الله عليه وآله فهو إضافة إلى كونه ابن عمّه وقد ربّاه في حجره تربية الوالد لولده... كان زوجاً لابنته الزهراء التي كانت بضعة منه صلى الله عليه وآله، وأباً لريحانتيه المباركتين الحسن والحسين عليهما السلام وكان أخاه يوم المؤاخاة، وكان خليفته ووصيه ووزيره وعييه علمه...

بين يدي النبوة

لقد كنت سيدي شجرة طيبة توسّطت روضة فيحاء وباحة خضراء ودوحة معطاء، فكان أصلها ثابتاً وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها.

ففي ربي النبوة أبصرت النور بعد أن انبرى رسول الرحمة لرعايتك وتربيتك، ومن نسيمها العذب وأريجها الفوّاح تنشقت الحياة، ومن نعيم ساقيتها الصافي الذي كانت النبوة نبعه الدافق ارتشفت أول قطرة ماء، وعلى أديمها الأخضر كانت أول خطواتك. كان حضن النبوة يردّك فكنّت في جنّة عالية، قطوفها دانية.

شممت رائحة النبوة في مراحل حياتك الأولى، ورأيت نور الوحي والرسالة

١- ١ الاستيعاب ٤: ٤٤٦، ٣٤٨٦، سير أعلام النبلاء ٢: ١١٨.

٢- ٢ انظر مقالنا جعفر الطيار في العدد ٨ مجلّة ميقات الحجّ مع بعض التغيير.

ص: ٢٠

بعد أن وضعك رسول الله صلى الله عليه وآله في حجره وضمك إلى صدره وكنفك في فراشه ومسك جسده الطاهر وأشمك عذفه.. فجنيت بروض النبوة ورداً وذقت بكأسها شهيداً.

وكيف لا تجنى ذلك كله وقد اختارتك السماء برعماً تحتضنك شجرة النبوة والرسالة، ثم لتكون بعد ذلك بقيه النبوة والامتداد الطبيعي للرسالة..؟!!

روت فاطمة بنت أسد «أم علي»: بينا أنا أسوق هدياً إذ استقبلني رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يومئذ غلام شاب قبل البعثة فقال لي: يا أمه إنني أعلمك شيئاً فهل تكتمينه علي؟ قلت: نعم.

قال: اذهبي بهذا القربان فقولي: كفرت بهبل (كبير آلهة المشركين وهو أول صنم نصب بمكة) وآمنت بالله وحده لا شريك له. فقلت: أعمل ذلك لِمَا أعلمه من صدقك يا محمد، ففعلت ذلك.

فلما كان بعد أربعة أشهر، ومحمد يأكل معي ومع عمه أبي طالب، إذ نظر إليّ وقال: يا أم ما لك! مالي أراك حائلة اللون؟! ثم قال لأبي طالب: إن كانت حاملاً انثى فزوجنيها.

فقال أبو طالب: إن كان ذكراً فهو لك عبد، وإن كان انثى فهو لك جارية وزوجة.

فلما وضعته - في الكعبة - جعلته في غشاوة، فقال أبو طالب: لا تفتحوها حتى يجيء محمد فيأخذ حقه.

فجاء محمد ففتح الغشاوة فأخرج منها غلاماً حسناً فشاله بيده، وسماه علياً، وأصلح أمره، ثم إنّه لقمه لسانه فما زال يمصّه حتى نام.

وقد سمته أول الأمر حيدرة بمعنى أسد على اسم أبيها، فغلب عليه اسم علي الذي سمّاه به محمد صلى الله عليه وآله.

ص: ٢١

ثم راح علي عليه السلام الذي ما إن فتح عينيه في بيت أبي طالب حتى وجد محمداً صلى الله عليه وآله يضمه إلى صدره ويثته كلماته ويعلمه خطواته...

ولمّا تزوّج خديجة رضوان الله عليها انتقل إلى بيته الجديد، ففارق بيت عمه أبي طالب ولكنه لم يترك برّه لعمه ورعايته لابن عمه علي عليه السلام، ومنذ ذلك اليوم راح يتعهده رسول الله صلى الله عليه وآله ويراعاه رعاية خاصّة ومنذ نومه أظفاره..

وبدأ علي عليه السلام يلتهم زاده الوحيد مبادئ السماء وقيمها حتى شحن بها فكره الثاقب، وغدت نفسه الطاهرة ترتشف الايمان وتستنشق عقيدته وعيبرها؛ لتسمو نفسه ولتصبح مصباحاً يستضيء به من حوله.

اخترت من اختاره الله

ولمّا مرّ أبو طالب في سنه أصابته بل أصابت قريشاً وقحط حلّ بهم وهو ذو عيال كثيرة، ويبدو أنّ الابتلاء هذا كان عامّاً لقريش بسبب ما عانته من الجفاف.

تقول الرواية: إنّ قريشاً أصابتها أزمة وقحط، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعمة حمزة والعبّاس: ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل؟

فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم، فقال: دَعُوا لِي عَقِيلاً وَخَذُوا مِنْ شَيْئِي - وكان شديد الحبّ لعقيل - فأخذ العبّاس طالباً، وأخذ حمزة جعفرأً، وأخذ محمداً صلى الله عليه وآله علياً، وقال لهم: «قد اخترت من اختاره الله لي عليكم، علياً».

فكان علي عليه السلام في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله منذ كان عمره ستّ سنين (١).

والذي أميل إليه أنّ علياً عليه السلام لم يكن ذلك القحط وهذا الجفاف هما السبب في ملازمته لرسول الله صلى الله عليه وآله، بل إنّ الأمر سبق هذا كله وسبق هذا العمر الذي يحدّدونه لبداية هذه الملازمة (٦ سنوات) نعم الانتقال من بيت أبي طالب إلى بيت رسول الله قد يكون تمّ وعليّ له ٦ سنوات، إلّا أنّ تلك الرعاية من رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ وذلك الاهتمام كان منذ اليوم الأوّل لولادته عليه السلام فرسول الله صلى الله عليه وآله حينما عاد من

١- ١ انظر شرح نهج البلاغة ١: ١٥، وانظر المستدرک علی الصحیحین ٣: ٦٦٦، ٦٦٣، وسيرة ابن هشام ١: ٢٦٢، والطبری ٢: ٣١٣.

ص: ٢٢

غار حراء وقد بشر بولادة علي راحت يده المباركة تتوسّده وتضفي عليه بركات انعكست ثمارها على حياته عليه السلام في كلّ الميادين...

تقول الرواية عن يزيد بن قعب: ولدت (فاطمة بنت أسد) عليّاً... في بيت الله الحرام، إكراماً من الله عزّ اسمه وإجلالاً لمحلّه في التعظيم... فأحبه رسول الله صلى الله عليه وآله حبّاً شديداً وقال لها: «اجعلي مهده بقرب فراشي»، وكان يتولى أكثر تربيته، وكان يطهر عليّاً في وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرّك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره (١).

وهنا نعيش لحظات جميلة مع عليّ عليه السلام نفسه، وهو يصوّر لنا منزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله ويصف رعايته له وتعلّقه به وملازمته له حتّى يمكن وصفها بأنّها ملازمة الظلّ لصاحبه لا يفارقه إلّا في أوقاته المخصوصة، فتواشجت روحه مع أجواء ذلك البيت الطاهر وهي أجواء الرسالة والنبوة والوحي، انظره في خطبة القاصعة حيث يصف تلك الملازمة والمواشجة بشكل دقيق طفلاً وصبيّاً وفتياً..

«ولقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وبالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسّني جسده ويضمّني عزّفه، وكان يمضغ الشيء، ثمّ يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل، ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاعتداء به. ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري».

ولدت على الفطرة

من اللافت الذي أدهش من تتبّع حياته أنّ ولادته عليه السلام- التي كانت في الكعبة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب على قول الأكثر- كانت في اليوم الأوّل لدخول رسول الله صلى الله عليه وآله غار حراء للتعبّد والمناجاة، وللتدبّر والتفكير في

ص: ٢٣

ملكوت السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما.. وكان هذا بعد عام الفيل بثلاثين سنة، حقاً أنه أمر يثير العجب، أن السماء راحت تعدّ أمرين في آن واحد ووظيفتين في وقت واحد؛ ففي غار حراء على بعد من الحرم المكي أعدت رسولاً نبياً، وفي داخل الحرم المكي راحت تعدّ إماماً ووزيراً وخليلاً وفتياً؛ ليكمل الشوط ويملاً الفراغ «أنت متى بمنزل هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي أو لا نبوة بعدي» «أنت أخي ووصيي وخليفتي...».

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه القيم لنهج البلاغة في قوله عليه السلام: «فإني ولدت على الفطرة» وفي جوابه عن قول من يقول: كيف علل نهي عن البراءة منه عليه السلام، بقوله: «فإني ولدت على الفطرة»؛ فإن هذا التعليل لا يختص به عليه السلام؛ لأن كل أحد (واحد) يولد على الفطرة، قال النبي صلى الله عليه وآله: «كل مولود يولد على الفطرة؛ وإنما أبواه يهودانه وينصرانه؟ فكان أحد أجوبته الثلاثة: بأنه عليه السلام علل نهيهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة، ولم يعلل بأحد هذا المجموع، ومراده هاهنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل، والنبي صلى الله عليه وآله أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وآله مكث قبل الرسالة سنين عشرًا يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد، وكان ذلك إرهاباً لرسالته عليه السلام فحكم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولى لتربيته مولود في أيام كأيام النبوة، وليس بمولود في جاهلية محضة، ففارقت حاله حال من يدعى له من الصحابة مماثلته في الفضل. وقد روى أن السنة التي ولد فيها علي عليه السلام هي السنة التي بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله، فاسمع الهتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً ولم يخاطب فيها بشيء. وهذه السنة هي السنة التي ابتداء فيها

ص: ٢٤

بالتبتل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل حتى كوشف بالرسالة وأنزل عليه الوحي. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمّن بتلك السنة، وبولادة على عليه السلام فيها، ويسمّيها سنة الخير وسنة البركة، وقال لأهله ليلته ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً: «لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة». وهنا يقول ابن أبي الحديد: وكان كما قال صلى الله عليه وآله فإنه عليه السلام كان ناصره والمحامي عنه، وكاشف الغم عن وجهه، وبسيفه ثبت دين الإسلام وأرست قواعده.

كما يذكر تفسيراً آخر: بأنه عليه السلام أراد بالفطرة العصمة، وأنه منذ أن ولد لم يواقع قبيحاً ولا كان كافراً طرفه عين قط ولا مخطئاً ولا غالطاً في شيء من الأشياء المتعلقة بالدين وهذا تفسير الإمامية (١).

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا طرفه عين: علي بن أبي طالب وصاحب ياسين ومؤمن آل فرعون فهم الصديقون وعلي أفضلهم» (٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ثلاثة لم يكفروا بالله قط: مؤمن آل ياسين وعلي بن أبي طالب وآسية امرأة فرعون» (٣). لم يسجد لصنم قط

بعد نعمة تربية رسول الله صلى الله عليه وآله له وصناعته كما تريدها السماء، راحت نعم الله تترى على هذا العبد الصالح، وتواكبه فلم تنجسه الجاهلية بأنجاسها، لم يعبد صنماً قط بل لم تمل نفسه إليها أبداً، وهذا أمر ليس سهلاً خاصة وهو يعيش في مجتمع حالك متسرّبل برداء الشرك يعيش ركماً من الجهل والعبودية والطغيان، في بيئته أتى اتجاهت وجدت صنماً يُعبد وتمثالاً يركع له ويسجد، ومن حوله كبار قريش وزعمائها وقد ملئت بيوتهم بهذه التماثيل وكانوا لها عاكفين.

في مجتمع فاسد كهذا تمت صياغة على عليه السلام لأن رسول الله صلى الله عليه وآله أحسن غذاءه

١- ١ شرح نهج البلاغة ٤: ١١٤-١١٥.

٢- ٢ المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٦١.

٣- ٣ تاريخ دمشق ٤٢: ٣١٣، ٨١٦٤.

ص: ٢٥

وتنشئته وإعداده، وراحت يده المباركتان ترعاه أحسن رعاية وتحفظه من كلّ تحديات مجتمعه وانحرافات، فولد وعاش طفولته وصباه وقد كرم الله وجهه من أن يسجد للآت أو يركع للعزى أو يشطط به قدم هنا وهناك، ومثل هذا ما نراه فى كلام العقاد الآتى فيما بعد. وكيف يسجد لصنم أو ينحرف به السير.. ولحمه لحم رسول الله ودمه دمه وهو وعلى من نور واحد ومن شجرة واحدة وفى صلبه ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وهو من رسول الله ورسول الله منه (١)؟!

ثم كيف يسجد لصنم وهو يكرهها صغيراً بل وهو جنين - فبغضه لها من بغض رسول الله صلى الله عليه وآله لها - وهو الذى راح يقلعها كبيراً ويطهر الأرض منها والقلوب؟!

يقول عليه السلام: انطلق رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة فقال لى: اجلس.

فجلست، فصعد على منكبى.

فقال لى: انهض.

فنهضت فعرف ضعفى تحته.

قال لى: اجلس.

فجلست، ثم نهض بى رسول الله صلى الله عليه وآله فخيّل إلى أننى لو شئت نلت أفق السماء، فصعدت إلى الكعبة.

وتنحى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: ألق صنمهم الأكبر، صنم قريش. وكان من نحاس مؤتد بأوتاد من حديد فى الأرض.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: عالجه.

فجعلت أعالجه، حتى استمكنت منه. فقال: اقدفه، فقدفته حتى انكسر.

ونزلت من فوق الكعبة، وانطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وآله نسعى وخشينا أن يرانا أحد من قريش وغيرهم.

وهناك مصادر تقول: إن هذه القصة مع بعض التغيير وقعت بعد فتح مكة.

١-١ مزامين لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وأقواله فى على عليه السلام. انظر الخصال ٣١: ١٠٨ وآمال الصدوق: ٣٠٧،

٣٥١، وشرح الأخبار ١: ٢٢٠، ٢٠٠، والفضائل: ٨٢ و ١٠٨.

ص: ٢٦

إسلامه

وقد تعددت واختلفت أقوال المؤرخين في عمره الشريف حين إسلامه وتصديقه بالنبوة، بين من يقول كان له ثمان سنين وبين من يقول له تسع وآخر يقول له عشر، ورابع يقول له إحدى عشرة سنة وخامس يقول له اثنتا عشرة سنة وسادس يقول له ثلاث عشرة سنة وهناك من يقول: له خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة، وكل هذا إنما يدل على تحديد عمره المبارك وقت أن أعلن الرسول رسالته للخاصة من مرديه وموقفه الرسمي إن صح التعبير منها، وإلا فإن روحه لم تتلوث بالشرك فهو الذي لم يكفر بالله قط. وهذا ما نجده في الروايات أعلاه وفي قول الإمام زين العابدين جواباً عن سؤال من سأله عن عمر الإمام علي عليه السلام عند إيمانه، فقال عليه السلام: أو كان كافراً؟! إنما كان لعلي حين بعث الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله عشر سنين ولم يكن كافراً (١). والذي يؤيد أن عمره كان عشر سنوات أن عمر الدعوة الإسلامية في مكة ثلاث عشرة سنة وهاجر إلى المدينة وله ثلاث وعشرون سنة وأنه استشهد سنة ٤٠ هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ويميل ابن أبي الحديد إلى أن عمره الشريف كان ثلاث عشرة سنة، متقيداً من قوله عليه السلام: «لقد عبدت الله قبل أن يعبدني أحد من هذه الأمة سبع سنين»، وقوله عليه السلام:

«كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سبعاً، ورسول الله صلى الله عليه وآله حينئذ صامت ما أذن له في الإنذار والتبليغ». وذلك - والقول ما زال لابن أبي الحديد - لأنه إذا كان عمره يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة، وتسليمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيه وهو ابن ست، فقد صح أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين، وابن ست تصح منه العبادة، إذا كان ذا تمييز، على أن عبادة مثله هي التعظيم والإجلال وخشوع القلب... (٢) وقد جاء في ترجمة الإمام علي عليه السلام في الاستيعاب أن: المروى عن سلمان وأبي

١- الكافي ٨

٢- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٤.

ص: ٢٧

ذر والمقداد وخباب وأبي سعيد الخدرى وزيد بن أسلمه أن علياً عليه السلام أول من أسلم وفضله هؤلاء على غيره. وقال ابن إسحاق: أول من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبي طالب عليه السلام وهو قول ابن شهر آشوب إلا أنه قال: من الرجال بعد خديجة.

وعن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب وعنده جماعة فتذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر: أما عليّ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه ثلاث خصال لوددت أن لى واحدة منهن، فكان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من الصحابة إذ ضرب النبي صلى الله عليه وآله بيده على منكب عليّ فقال له: يا عليّ أنت أول المؤمنين إيماناً وأول المسلمين إسلاماً وأنت منى بمنزلة هارون من موسى (١).

يقول جورج جرداق عن إسلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أول الدعوة احتكاماً للعقل وتخلصاً من الوثنية، وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفق بها رسالة محمد واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطه، وإذا أسلم قوم بعد انتصار النبي امتثالاً للواقع وتزلفاً للمنتصر كما هي الحال بالنسبة لأكثر الأمويين. إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف تتفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية وتتحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن فإنّ علي بن أبي طالب قد ولد مسلماً؛ لأنه من معدن الرسالة مولداً ونشأة وفي ذاته خلقاً وفطرة، ثم إنّ الظرف الذي أعلن فيه عما يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين ولم يرتبط بموجبات العمر؛ لأنّ إسلام عليّ كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف، إذ كان جارياً في روحه كما تجرى الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها، فإنّ الصبى ما كاد يستطيع التعبير عن خلجات نفسه حتى أدى فرض الصلاة وشهد بالله ورسوله دون أن يستأذن أو يستشير.

ص: ٢٨

لقد كان أول سجود المسلمين الأول لآلهة قريش، وكان أول سجود عليّ لإله محمد! إلّا أنّه إسلام الرجل الذي اتيح له أن ينشأ على حبّ الخير وينمو في رعايته النبي ويصبح إمام العادلين من بعده وربّان السفينة في غمرة العواصف والأمواج (١).
كما أنّ العقاد يقول عن إسلام عليّ:

ولد عليّ في داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده إيذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها. وكاد عليّ أن يولد مسلماً.. بل لقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح؛ لأنّه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام... (٢).

الذبيح الثالث

إنّ من قدر له أن يتصفّح حياته عليه السلام لا يجد فيها شيئاً من الخوف أو التردّد من الموت، إنّ قاموس حياته المباركة خالٍ من ذلك كلّ. إنّ عليّاً عليه السلام قهر الموت وقضى عليه فمن أي شيء يا ترى يخاف!؟

ولهذا تراه يستسلم ويطيع رسول الله صلى الله عليه وآله حينما يلقي به في لهوات الحرب ويرمي به في أحلك الأمور وأعسرهما. حان الوقت، وجاء اليوم الموعود وتشابكت خيوط المؤامرة وتسابق القوم من هنا وهناك، واجتمع زعماء القبائل في دار الندوة في مكة، وكان فيهم أبو جهل وعروة بن هشام وأبو البختری، وقرروا أن يضعوا لهذا الأمر نهاية وأن يطووا صفحته إلى الأبد. فجمعوا شجعانهم ليضربوا محمداً ضرباً رجل واحد فيتوزّع دمه هنا وهناك على جميع القبائل فيضيع وتضيع المطالبة به، وحددوا لمكرهم هذا وقتاً وموعداً.

هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله خفيّاً وأمر عليّاً بالمبيت تلك الليلة في فراشه، ليعتم عليهم هجرته، إنّ فراش الموت، فما كان من عليّ إلّا التسليم والانقياد وهو يعلم

١- الإمام عليّ، صوت العدالة الإنسانية: ٣٨.

٢- المجموعة الكاملة ٢: ٣٥.

ص: ٢٩

جَيْدًا أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ تَأَمَّرُوا عَلَى ابْنِ عَمِّهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَنْتُمْ قَاتِلُوهُ فِي فِرَاشِهِ، وَأَنْتُمْ مَبَاغِتُوهُ لَا مُحَالَةً، وَلَا يَنْجُو مِنْهُمْ إِلَّا وَهُوَ أَشْلَاءٌ مَمْرُوقَةٌ وَأَعْضَاءٌ مَقْطُوعَةٌ، مَوْامِرَةٌ نَافِذَةٌ وَاقِعَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا رَيْبَ.

اختاره الرسول صلى الله عليه وآله لهذه المهمة وهو شاب يافع في مقتبل العمر! إنه ثالث قربان يقدم بعد إسماعيل وعبدالله والد النبي صلى الله عليه وآله وشتان بين الذبيحين علي وإسماعيل، وعلي وعبدالله، فكل منهما بيد أب شفيق رحيم يرق قلبه وترتجف يده، وهو بسيف عدو نزع الرحمة من قلبه، وبخنجر يمسك بقوة حاقد بغيض، وبيد صلبة لا يتابها الخوف ولا تربكها الرحمة..

إنه امتحان عسير لهم جميعاً، ولكن أي الثلاثة أشدّ محنةً وأقسى؟! وأي امتحان هذا لإيمانه وانقياده واستسلامه؟!!

لقد تيقن فتى بنى هاشم أنه ما إن يغمض عينيه حتى تنهال عليه مديهم التي امتشطوها وسيوفهم التي حملوها وتبضعه خناجرهم... فلا تردّد ولا خوف بل لسان حاله يقول: نعم ستجدني إن شاء الله من الصابرين..

فأنجاهما الله برحمته من كيد المشركين ومكرهم، وأنزل في ذلك: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (١).

زواجه المبارك

كان عمره عليه السلام حينما هاجر إلى المدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثاً وعشرين سنة، وهناك كانت بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة الزهراء عليها السلام التي طالما تمنى التشرف بها كبار الصحابة؛ ومن أهل السابقة في الإسلام والفضل والشرف والمال؛ لأنها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنها ما كانوا يسمعون منه صلى الله عليه وآله في ثنائها عليها واحترامها وتقديرها، ولموقعها العظيم منه صلى الله عليه وآله. راحت نفوسهم تطمح للاقتران بها، وكانوا كلما تقدّم واحد منهم لم يجد عنده صلى الله عليه وآله إلا أن يعرض بوجهه الكريم حتى يخرج منه

ص: ٣٠

القادم وهو يظن أنه صلى الله عليه وآله ساخط عليه وغير راضٍ عنه، وإلا الرفض، وأنه ينتظر في زواجها أمر الله وقضائه (١).
تقدم عليّ عليه السلام بخطوات يكتنفها الحياء، وراحت نظراته تتوزع هنا وهناك، نظرة إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وأخرى يرسلها بعيداً، وثالثة إلى ما بين يديه، ماذا يقول ويده خالية.

حانت نظرة من رسول الله صلى الله عليه وآله إليه فعرف ما يريد: إن علياً جاء لحاجة، وحاجة عليّ يمنعه حياؤه من التحدث بها، فبادره رسول الله صلى الله عليه وآله مشجعاً حتى ينطق، وما إن نطق حتى كان ذلك البيت من أبهى وأزهى وأزكى وأعظم بيوت الدنيا بل وأغناها إيماناً وطهارةً وأثراها أخلاقاً وعلماً... إنه بيت عليّ وفاطمة ثم ريحانتي رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام والذرية الصالحة!

وفي السنن الكبرى يقول عليّ عليه السلام: «لقد خطبت فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله فقالت لي مولاه: هل علمت أن فاطمة تخطب؟»

قلت: لا - أو نعم -

قالت: فاخطبها إليك.

قال: قلت: وهل عندي شيء أخطبها عليه؟! قال: فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت عليه، - وكنا نجلّه ونعظمه - فلما جلست بين يديه ألجمت حتى ما استطعت الكلام.

قال: هل لك من حاجة؟ فسكتُ فقالها ثلاث مرّات.

قال: لعلك جئت تخطب فاطمة!

قلت: نعم يا رسول الله.

قال: هل عندك من شيء تستحلّها به؟

قال: قلت: لا والله يا رسول الله.

قال: فما فعلت بالدرع التي كنت سلّحتكها؟

١- ١ انظر ذخائر العقبى: ٧٠، تاريخ اليعقوبي ٢: ٤١، المعجم الكبير ١٠: ١٥٦، ١٠٣٥٠، تاريخ دمشق ٤٢: ١٢٥، ٨٤٩٤.

ص: ٣١

قال عليّ: واللّه إنّها درع حُطيمية ما ثمنها إلّا أربعمائه درهم.

قال: اذهب فقد زوّجتكها، وابتع بها إليها فاستحلّها به» (١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله أمرني أن أزوّج فاطمة من عليّ» (٢).

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «والله ما ألوت (أى ما قصّرت فى أمرك وأمرى) أن أزوجك خير أهلى» (٣).

وعن عائشة وأمّ سلمة: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نجّهز فاطمة حتّى ندخلها على عليّ، فعمدنا إلى البيت ففرشناه تراباً لئناً من أعراض البطحاء، ثمّ حشونا مرفقتين ليفاً فنفسناه بأيدينا ثمّ أطعمنا تمرّاً وزيبياً وسقينا ماءً عذباً، وعمدنا إلى عود فعرضناه فى جانب البيت ليلقى عليه الثوب، ويعلق عليه السقاء، فمارأينا عرساً أحسن من عرس فاطمة (٤).

العبادة عند عليّ عليه السلام

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٥)

العبادة كانت عنده عليه السلام وقفه مع السماء يتأمل فيها، ويتدبّر حياته وسيرته، ويرى فيها نفسه ويبعدها عن كلّ مزلق الشيطان، ويقوى فيها إيمانه، ويكسب فيها مزيداً من التقوى.

العبادة عنده عليه السلام عبادة الأحرار لا عبادة التجار أو العبيد «وجدته أهلاً للعبادة فعبدته» إذن لا طمع فى جنّة وثواب ولا خوف من نار وعذاب.

العبادة عنده عليه السلام نموّ مستمر وسمو متواصل واستلهاام واعٍ لكلّ معانى العزّ والفخر والخير والعتاء. «إلهى كفى بى عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بى فخراً أن تكون لى ربّاً، أنت كما أحبّ فاجعلنى كما تحبّ».

العبادة عند عليّ عليه السلام خشوع وتواضع لخالق السماوات والأرض.

العبادة عند أمير المؤمنين عليه السلام شكر لنعمه تعالى المتواصلة على العباد.

العبادة عنده عليه السلام اعتراف بخالق الكون ورضا بقضائه وتسليمٍ لقدره.

١- ١ السنن الكبرى ٧: ٣٨٣، ١٤٣٥١، البداية والنهاية ٣: ٣٤٦، الطبقات الكبرى ٨: ٢٠...

٢- ٢ المعجم الكبير ١٠: ١٥٦، ١٠٣٠٥.

٣- ٣ الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، كنز العمال ١١: ٦٠٥، ٣٢٩٢٦.

٤- ٤ انظر سنن ابن ماجه ١: ٦١٦، ١٩١١.

٥- ٥ البيّنة: ٥.

ص: ٣٢

العبادة عنده عليه السلام تحمّل لأمانه السماء، ومسؤولية كبرى أمام الله سبحانه وتعالى من جهة وإزاء المجتمع من جهة أخرى. إذن فهي ليست عبارات جوفاء ومفردات لا معنى لها و حركات منتظمة وحسب. هكذا يؤدّي عليّ عليه السلام عبادته بخشوع عظيم وبصوت حزين و نغمه شجيّ. فيما رواه عروة بن الزبير: كنّا جلوساً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فتذاكرنا أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم ألا أخبركم بأقلّ القوم مالاً وأكثرهم ورعاً وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟ قالوا: من هو؟

قال: علي بن أبي طالب.

قال: فوالله لقد رأيت كلّ من كان في المجلس إلّا أعرض بوجهه عنّي. فقال: يا عويمر لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد مذ أتيت بها.

فقال أبو الدرداء: يا قوم إنّي قائل ما رأيته. وليقلّ كلّ قوم ما رأى. شهدت علي بن أبي طالب عليه السلام بسويحات بني النجار، وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممّن يليه، واستتر ببعيلات النخل فافتقدته وبعّد عليّ مكانه، فقلت لحق بمنزله. فإذا بصوت حزين، و نغمه شجيّ وهو يقول:

«إلهي كم من موبقة حملتها فقابلتها بنعمتك. وكم من جريرة تكزمت عن كشفها بكرمك. إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا بغير غفرانك طامع، ولا أنا براج غير رضوانك».

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر. فإذا هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعينه.

فاستترت له لأسمع كلامه، فركع ركعات في جوف الليل، ثمّ فرع إلى الدعاء والتضرّع والبكاء والبثّ والشكوى. فكان ممّا ناجى به الله أن قال:

«إلهي أفكر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثمّ أذكر العظيم من أخذك، فتعظم

ص: ٣٣

علّي بليتي».

ثم قال:

«آه إن أنا قرأت في الصحف سيئته أنا ناسيها، وأنت محصيها، فتقول خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته ولا تنفعه قبيلته. يرحمه الملائكة إذا أذن فيه النداء».

ثم قال:

«آه من نار تنضح الأكياد والكلبي. آه من نار نزاعة للشوى. آه من غمرة من ملهبات لظي». ثم انفجر في البكاء، فلم أسمع له حساً ولا حركة فقلت غلب عليه النوم لطول السهر، أوقفه لصلاة الفجر (قال أبو الدرداء) فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. مات والله على بن أبي طالب. فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم.

فقال فاطمة عليها السلام: «يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه و من قصته؟»، فأخبرتها الخبر.

فقلت: «هي والله يا أبا الدرداء الغشبية التي تأخذه من خشية الله»، ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق ونظر إلي وأنا أبكي.

فقال: ممّ بكأؤك يا أبا الدرداء؟

فقلت: ممّا أراه تنزله بنفسك.

فقال: يا أبا الدرداء، فكيف لو رأيتني ودّعي بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشنتني ملائكة غلاظ، وزبانية حفاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الأحناء، ورحمني أهل الدنيا، لكنّ أشدّ رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية.

فقال أبو الدرداء: فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله (1) ممّا قالوه

ما تقول في علّي عليه السلام؟

سؤال أجاب عنه الخليل بن أحمد الفراهيدي.

ص: ٣٤

«فقال: هو إمام الكلّ.

قالوا: ما دليلك عليه؟

قال: استغناؤه عن الكلّ واحتياج الكلّ إليه، دليل على أنه إمام الكلّ».

حقاً سيدي إنك لم تكن نبياً ولكنك كنت إماماً ووصياً، لم تكن رسولاً ولكنك كنت أخاً ووزيراً، وكنت قدوةً، وكنت جوهرهً يتيماً، خلقها الله وصاغها محمد صلى الله عليه وآله وضيعها الناس، كلمة ما أعظمها نطق بها جورج جرداق حينما سئل عن الإمام علي عليه السلام: «ما عساني أن أقول في جوهره يتيماً، خلقها الله وصاغها محمد صلى الله عليه وآله!»

إذن ما عسانا أن نقول فيك - وأنت إمام الكلّ - وفي فضائلك ومناقبك وفي إيمانك وتقواك وجهادك وشجاعتك، وفي علمك وأدبك وفي فصاحتك وبلاغتك، أنستطيع أن نصوغ معانيها البليغة والجميلة والعظيمة؟ وكيف نجرؤ أن نفرغ منقبه من مناقبك سيدي في قوالب حروف وكلمات لا نراها إلاميته؟ اللهم إنا أن نقول وهو الحق: إنها تبعث حيه بذكر خصالك وفضائلك...

وحقاً ما يقوله أبو إسحاق النظام: «علي بن أبي طالب محنة على المتكلم، إن وفاه حقه غلا وإن بخسه حقه أساء!».

وحقاً أيضاً ما يقوله المتنبي في جواب من اعترض عليه في عدم مدحك على كثرة أشعاره وقصائده..

وتركت مدحي للوصي تعمداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً

وإذا استطل الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

حقاً كلمة يتيمة ولدت في غير زمنها ولكنها مشيئة الله.

مسك كلما حاول أعداؤه إخفاءه انتشر عرّفه، وكلما بذلوا جهودهم لأن يكتموه توضع نشره، فشمسك يا سيدي لا تخفيها أكف الظالمين والحاسدين

ص: ٣٥

والمبغضين...

نعم كانوا لا يُطيقون ظهور فضائلك ولا الإصغاء إليها فضلاً عن الارتواء من نميرها.

لقد عثرتُ على قول آخر للخليل بن أحمد الفراهيدي:

«ما أقول في حقِّ امرئٍ كتمت مناقبه أولياؤه خوفاً وأعداؤه حسداً، ثمَّ ظهر ما بين الکتمين ما ملأ الخافقين. بل ظهر نزر يسير فكان له كلُّ هذا».

مما فعلوه

لقد كنت سيدي فريداً نأت عنه هذه الأمة بسوء حظها، ووحيداً جفته لسوء طالعها.

كم دأب الأعداء على محو آثارك ومعالمك، فلعلَّ ذاكرة التاريخ تنساها، فخاب كيدهم، وأنصفك التاريخ، فهذه كتب التاريخ والحديث والآثار تحكى لنا أنَّ الذي زين صفحاتها كان ذكرك، وأنَّ الذي لَوَّن لوحاتها كانت مناقبك وفضائلك، فقد بهر ما ظهر منها العيون وحير العقول خاصةً إذا تتبعنا ما أفرغه الأعداء من جهود وما بذلوه من أموالٍ لشراء الذمم وما سخَّروه من وسائلهم الإعلامية - بعد أن عقد حبك وولاؤك على قلوب محبيك ومريديك - على مدى سبعين سنة أو تزيد: مناير تشتمك، وألسن تتبرأ منك، وأخرى تلعنك.. وفي قبالها نفوس تزهق، وألسن قطعت؛ لأنها لا - تقول فيك شيئاً نكراً لطمس فضائلك ودفنها، فخابت جهودهم وبطلت أحلامهم.

لم يكتفوا بالحسد «فكلَّ ذى نعمة محسود» ونعمتك ما أعظمها: فأيات نزلت بحقك، وروايات تواترت بفضلك، وأقوال لرسول الله صلى الله عليه وآله أخذت تشيد بك، ومواقف رسالية راحت تتباهى بك.. هذا فضلاً عن الصياغة الربانية لك: قدرات عجيبة، وصفات فريدة، ومناقب جليلة... فكيف لا يحسدوك وكلَّ منهم خال الوفاض منها؟!!

ص: ٣٦

يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

إن يحسدوك على علاك فإتما متسافل الدرجات يحسد من علا

بل مزجوا حسدهم بحقد دفين وثارات عقيمة، في حصيلتها النهائية كانت بغضاً لله ولرسوله وعداءً للدين الذي حل بين ظهرانيهم، فلم يستطيعوا الكيد له، رغم كل جهودهم، فكادوك لأن سيفك كان على رؤوسهم لينطقوا بالحق، وما كانوا ليهدوا فقالوها مرغمين، ولم يستطيعوا شتم الرسول صلى الله عليه وآله فشموك..

فهذا عبدالله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، كان يقوده سعيد بن جبير - وقد كف بصره - فمّر على زمزم فإذا بقوم من أهل الشام يسبون علياً كرم الله وجهه، فسمعهم عبدالله بن عباس، فقال لسعيد: ردني إليهم، فردّه إليهم فقال:

أيكم الساب لله عزوجل؟

فقالوا: سبحان الله ما فينا من سب الله عزوجل!

فقال: أيكم الساب لرسول الله صلى الله عليه وآله؟

فقالوا: ما فينا من سب رسول الله صلى الله عليه وآله!

فقال: أيكم الساب لعلي بن أبي طالب؟

فقالوا: أما هذا فكان منه شيء.

فقال: شهدت على رسول الله صلى الله عليه وآله بما سمعته يقول لعلي بن أبي طالب: «يا علي من سبك فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله، ومن سب الله، أكتبه الله على منخرية في النار». ثم تولى عنهم... (١) يقول عبدالله بن أحمد بن حنبل: «سألت أبي عن علي وأعدائه، فقال: يا بني إن علياً كان كثير الأعداء، ففتش عليه أعداؤه شيئاً مكروهاً ولم يجدوا، وجاءوا إليه وحاربوه وقتلوه وخلعوه كيداً منهم له».

نعم، حاربوك فكانت حربهم ظالمة، كادوا لك فردّ كيدهم إلى نحورهم،

ص: ٣٧

افتروا عليك فكانت افتراءاتهم جائرة.

لم يجدوا عيباً فيك سيدي فلاذوا بطمس معالمك وفضائلك وأجموا الألسنة الناطقة بمناقبك، لقد بنوا كيانهم على شتمك وسببك وطمس آثارك.. وكان حكمهم ليس له هدف إلا إنهاء ذكرك، وكان ليس لهم همٌ إلا إخفاء فضلك...

أما آن لك - يا معاوية - أن تترك علياً وشأنه، وتأمر بترك مسبته على المنابر؟

قال: لا، حتى يموت عليها الكبير ويربو عليها الصغير.

فقد أبت نفوس هؤلاء الطلقاء قبول علي بفضائله ومواقفه الجليّة التي كانت دفاعاً عن الرسالة والرسول، وعن كلمة الحق والعدل.. أبت قلوبهم ذلك كله، فراحت سياستهم تقوم على نبذ هذه المناقب والفضائل بل التصدي لها بكلّ حزم حتى صارت أساس سياستهم والبناء الذي تقوم عليه، فأصدر زعيم هؤلاء القوم وعميدهم معاوية بن أبي سفيان أمراً سلطانياً: برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته.

ولم يكتف بهذا بل عمّم كتاباً آخر إلى جميع عماله يقول فيه:

إذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب، إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقرب لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته (١).

وبسبب هذا كله وتشجيعاً من السلطان الظالم ظهر الوضّاعون وكثروا، وظهر البهتان وانتشر وشاعت المختلقات من الروايات وذاعت بين الآفاق، وتجراً أعداء الدين على تشويه معالمه والكيد له..

معاوية يقدم قومه

ولكن هيهات هيهات! فالزوابع بغبارها لا تخفي الحقيقة التي علت ناصعاً تتحداهم جميعاً، فقد ذاع صيتك وعطر الخافقين عبيرك، وحتى هؤلاء الأعداء

ص: ٣٨

راحت ألسنتهم تنطق بالحقّ، نطقت بصفاتك، ونشرت مجالسهم عظيم مناقبك...

فلسان مناوئيك أنطقه الله الذي أنطق كلّ شيء، لتكون الحجّة عليهم أقوى، فالفضل ما شهدت به الأعداء.

جاء ابن أحمور التميمي إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين جئتك من عند أأمّ الناس، وأبخل الناس، وأعيا الناس، وأجبن الناس.

فقال: ويلك وأنى أتاه اللؤم، ولكننا نتحدّث أن لو كان لعليّ بيتٌ من تبنٍ وآخر من تبر، لأنفد التبر قبل التبن، وأنى أتاه العي وإن كنا

لنتحدّث أنه ما جرت المواسي على رأس رجل من قريش أفصح من عليّ، ويلك وأنى أتاه الجبن؟ وما برز له رجل قطّ إلأصرعه،

والله يا ابن أحمور، لولا أن الحرب خدعة لضربتُ عنقك، اخرج فلا تقيمن في بلدي (١).

وله أيضاً: فوالله لو أنّ ألسن الناس جمعت فجعلت لساناً واحداً لكفهاها لسان عليّ (٢). ولو لم يكن للأمة إاللسان على لكفهاها (٣).

ولما جاء ابن أبي محضن معاوية قال له: جئتك من عند أعيا الناس.

قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس؟! فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره (٤).

قال معاوية لضرار بن ضمرة من أصحاب عليّ عليه السلام بعد مصرعه:

صِف لي عليّاً.

فقال ضرار: اعفني.

قال معاوية: لتصِفَنَّهُ.

قال: أمّا إذ لابدّ من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطلق الحكمة

من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته.

وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام

١-١ تاريخ دمشق ٤٢: ٤١٤.

٢-٢ الإمامة والسياسة ١: ١٣٤.

٣-٣ شرح الأخبار ٢: ٩٩.

٤-٤ شرح نهج البلاغة ١: ٢٤.

ص: ٣٩

ما خشن.

وكان فينا كأحدنا، يجيئنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه. ونحن والله - مع تقريبه إيانا وقربه منا - لا نكاد نكلّمه هيئاً له. ويعظّم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطعم القوى في باطله، ولا يئس الضعيف من عدله. وأشهد أنّي لقد رأيت في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويكي بكاء الحزين، ويقول:

يا دنيا غزى غيرى! إلى تعرّضت أم إلى تشوّقت؟!

هيهات هيهات!

قد باينتك ثلاثاً لا رجعه فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل.

آه من قلّة الزاد، وبُعد السفر، ووحشّة الطريق!

ولما انتهى ضرار من وصفه هذا يقول الخير: فبكي معاوية حتّى اخضلت لحيته وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك.

فكيف حزنك عليه يا ضرار؟

قال: حزن من دُبِحَ وحيداً في حجرها.

ولمّا بلغ معاوية قتل علي عليه السلام قال:

ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب.

فقال له أخوه عتبة بن أبي سفيان: لا يسمع هذا منك أهل الشام.

فقال له: دعك مني (١).

وكان يقول عن علم علي عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يغره العلم غراً (٢) رحم الله أبا الحسن فلقد سبق من كان

قبله، وأعجز من يأتي بعده (٣).

... هيهات هيهات! عقت النساء أن يلدن مثله (٤) وهذا عمرو بن العاص العدو اللدود لعلي عليه السلام حينما راح يخير نفسه بين

١- ١ انظر «علي إمام المتقين» لعبد الرحمن الشراقوي: ٢٠.

٢- ٢ فضائل الصحابة لابن حنبل: ٢: ٦٧٥.

٣- ٣ شرح نهج البلاغة ١١: ٢٥٣.

٤- ٤ شرح نهج البلاغة ١١: ٢٥٣.

ص: ٤٠

على ومعاوية:

أما عليّ فدين ليس يشركه دنيا وذاك له دنيا وسلطان.

وفيما كتبه إلى معاوية قبل التحاقه به: ويحك يا معاوية! أما علمت أنّ أبا الحسن بذل نفسه بين رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قال فيه يوم غدير خم: ألا- من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاده... (١)... حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكننا إنّما أردنا هذه الدنيا...

وراح يخاطب معاوية... ومهما نسيت فلا تنسى أنّك على باطل...

أوهل يستغنون عنك؟!

فوجئ عليّ عليه السلام يوماً بجمع من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وكان فيهم حبر الأمة عبد الله بن عباس والخليفة أبو بكر ورجل يهودي يقرعون عليه باب داره.

ذلك أنّ مالك بن أنس روى أنّ يهودياً دخل المسجد فسأل الناس:

أين وصي رسول الله؟ فأشار القوم إلى أبي بكر.

فقال الرجل: أريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمها إلّا وصي أو نبي... قال أبو بكر: سل عمّا بدا لك.

قال اليهودي: اخبرني عمّا ليس لله، وعمّا ليس عند الله.. وعمّا لا يعلمه الله...

قال أبو بكر: هذه مسائل الزنادقة يا يهودي!

همّ أبو بكر والمسلمون رضي الله عنهم باليهودي، فقال ابن عباس رضي الله عنه: ما أنصفتكم الرجل!... فقال أبو بكر: أما سمعت ما تكلم به؟

فقال ابن عباس: إن كان عندكم جوابه، وإلّا فاذهبوا إلى علي رضي الله عنه يجيبه، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب: «اللهم اهد قلبه وثبت لسانه».

فقام أبو بكر رضي الله عنه، ومن حضره، فأتوا عليّ بن أبي طالب في داره، فاستأذنوا عليه.

ص: ٤١

فقال أبو بكر: يا أبا الحسن إن هذا اليهودي سألتني مسائل الزندقة!

فقال عليّ كرم الله وجهه: «ما تقوله يا يهودي؟»

قال: أسألك عن أشياء لا يعلمها إلانبيّ أو وصيّ نبيّ.

فقال له: قلّ.

فأعاد اليهودي الأسئلة.

فقال عليّ رضي الله عنه:

أما ما لا يعلمه الله فذلك قولكم معشر اليهود أن عزيزاً ابن الله، والله لا يعلم أن له ولداً (إذ لو كان له ولد لكان يعلمه).

وأما قولك: أخبرني بما ليس عند الله.

فليس عنده ظلمٌ للعباد.

وأما قولك: أخبرني بما ليس لله.

فليس لله شريك.

فقال اليهودي: أشهد أن محمداً رسول الله وأنك وصي رسول الله.

فارتاح أبو بكر والمسلمون من جواب عليّ، وقالوا: يا مفرّج الكرب! (١).

وهكذا كان يفعل الخليفتان الثاني والثالث فهم جميعاً لم يستغنوا عن آراء الإمام عليّ عليه السلام في الفقه والقضاء والجهاد والسياسة

والإدارة.. وكان يمدّ لهم يد العون والرشد ما دامت هناك مصلحة إسلامية، والشواهد كثيرة على هذا.

مع بعض أقواله عليه السلام

«لا يقيم أمر الله سبحانه وتعالى إلأمن لا يصانع ولا يتبع المطامع..»

ومما كان يعظ به من يتولّى أمراً من أمور المسلمين صغر هذا الأمر أو كبر:

«لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلّهم

بجهله، ولا الجافى

ص: ٤٢

فيقطعهم بجفائهم، ولا الخائف للذول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشى في الحكم فيذهب بالحقوق، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة. ومن نصب نفسه للناس فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم».

ولمّا رأى الثراء فاحشاً في الناس وأخلاق السوء قد دبّت فيهم، ولمّا رآهم يتزاحمون على نيل المناصب والجاه، ولمّا رآهم يتصفون بالتفاخر والتكاثر بالأموال والأنفس، ولمّا رآهم وقد عادت العصبية إلى سيرتهم والقومية تنهش بهم وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال:

«دعوها إنّها تنته»، و «ليس منّا من دعا إلى عصبية».

راح على عليه السلام يعظهم ويحذّرهم ممّا يتركه ذلك على نفوسهم وعواقب ما هم فيه:

«أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

«من أصبح على الدنيا حزينا، فقد أصبح لقضاء الله ساءلاً».

«ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به، فقد أصبح يشكو ربه».

«ومن أتى غنياً فتواضع لغناه ذهب ثلثا دينه».

«ما بال ابن آدم والفخر؟ أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه».

«يا ابن آدم؛ كن وصى نفسك في مالك، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك».

«ظلم الضعيف أفحش الظلم».

«لا تظلم كما لا تُحب أن تُظلم».

«من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خصمه الله أذحض حجته، وكان الله حرباً عليه حتى ينزع عن ظلمه ويتوب،

وليس شيء أدهى إلى تغيير

ص: ٤٣

نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله يسمع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد». «لا يغزّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنّما هو ظلٌّ ممدود إلى أجلٍ محدود».

مداخلات

وختاماً نكتفى بما ذكره بعض كبار الكتاب والمفكرين:

عبّاس محمود العقّاد

تدلّ أخباره- كما تدلّ صفاته- على قوّة جسديّة بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا- حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنّه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنّه لم يصارع أحداً إلّاصرعه، ولم يبارز أحداً إلّاقتله، وقد يزحج الحجر الضخم لا يزححه إلّارجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء، ويصيح الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان... لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت...

ويزيد شجاعته تشريفاً أنّها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقياء.. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها على غير كلفة ولا مجاهدة رأى. وهى التورّع عن البغى، والمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

أمّا مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان. فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترأ أو يأخذوا مالاً. وصلّى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظفر بعبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص

ص: ٤٤

وهم ألد أعدائه المؤلّين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدّة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سواته اتقاءً لضربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً.. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيّد عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفيّة أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها شيئاً، ثم خرج فأعدت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين! أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فانتهره وهو يقول: ويحك؟ إننا أمرنا أن نكفّ عن النساء وهن مشركات أفلا نكفّ عنهنّ وهن مسلمات؟ وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم ودّع السيّد عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويحفّ بها. قيل: إنّه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّهن بالعمائم وقلدهن السيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأفّفت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلّهم بي.. فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهنّ وقلن لها: إنّما نحن نسوة.

[وهنا تقول عائشة: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلّا كراماً.]

وكانت هذه المروءة سنّته مع خصومه، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة رضي الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر القتال..

وتعدّلها في النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه. فنهى أهله وصحبه أن يمثّلوا بقاتله وأن يقتلوا أحداً غيره، ورثى طلحة الذي خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاءً محزون يفيض كلامه بالألم والمودّة، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا

ص: ٤٥

صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شراً عليه من معاوية وجنده، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين.. وعن صفة الثقة والاعتزاز بالنفس في المواقف الحرجة والعلم... يقول العقاد: فما منعت الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير. ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبى عليه السلام يندرونه وينكرونه وهو يقرب عينيه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان بعلى أن يرتاع في مقام نجده أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع. ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين.. فما تردّد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب: أنا نصيرك.. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم..

عليّ هذا هو الذي نام في فراش النبى ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش. وعليّ هذا هو الذي تصدّى لعمر بن ود مرة بعد مرة والنبى يجلسه ويحدّره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبى: اجلس. إنه عمرو.

فيقول: وإن كان عمراً.. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا يعرف إلّا الشجاعة التي هو ممتلئ بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث.

أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأى حين كان يقول:

«اسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسى بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها

ص: ٤٦

وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رحالها».

ومن شواهدا أنه كان يقول والخارجون عليه يرمونه بالمروق: «ما أعرف أحداً من هذه الامة عبيد الله بعد نبينا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذا الامة تسع سنين».

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه، فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهم قال: «نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته. وما استن النبي صلى الله عليه وسلم فاقتيته. فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما...».

ومن أقوال العقاد الأخرى: كان مثلاً يخرج إلى مبارزته حاسر الرأس ومبارزوه مقتعون بالحديد. أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقتعون بالحيلة والرياء؟ وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان. أفعجيب منه، مع هذا، أن يقلل اكرائه لكل خضاب سائراً ما ستر، أو كاشفاً ما كشف، من رأي وخليقة؟

وعن صدقه وزهده فيقول العقاد: ... فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمه خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحره، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعتوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء، حتى قال فيه أقرب الناس إليه: إنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها. وكان أبداً عند قوله: «علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفحك، وألا يكون في حديثك فضل على علمك، وأن تتقى الله في حديث غيرك».

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقاله لسانه. فلم يعرف أحد

ص: ٤٧

من الخلفاء أزهده منه في لذة دنيا أو سيب دولة، وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول: «لا أحب أن يدخل بطني ما لا أعلم».. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التي تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات:

«أزهده الناس في الدنيا علي بن أبي طالب». وقال سفيان: «إن علياً لم يبين آجره على آجره ولا لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه» وقد أبي أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إثارةً للخصاص التي يسكنها الفقراء. وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام. وروى النضر بن منصور عن عقبه بن علقمة قال: «دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذنتي حموضته وكسر يابسه. فقلت: يا أمير المؤمنين، أتاكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيس من هذا ويلبس أحسن من هذا- وأشار إلى ثيابه- فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألقه به»..

... هذه صفات تنتظم في نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوى، وصادق لأنه شجاع، وزاهد مستقيم لأنه صادق، ومثار للخلاف؛ لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها إلا الذي اصطدم بالمطامع...

عبد الفتاح عبد المقصود:

أجل لقد واجه أبو طالب دنياه فقيراً، ومات عبد المطلب عنه وهو بعد في نحو من السن لم يكن كدحه قد أفاء عليه من الخير ما يشتهي. ولم يورثه أيضاً سيادة القوم لأنه أوصى لآخر من بنيه هو الزبير. فلئن أقبلت الدنيا على هذا الفقير فحبته بمكرمه هي آية المكرمات فقد كان هذا من القدر غاية المرتجى عند ذي رجاء...

ص: ٤٨

... فإذا تم لأبي طالب الفقير المعسر بعض أمره في جوار كعبة الحرم، فإن أمره هذا لجليل في عيون القوم لأنه اكتسب أبلغ شرف بأشرف جوار في أقدس دار، فكيف لو تم له أمره ذاك بغير سابق ترتيب منه، بل بصدفة هي عند أولئك الناس من الله وحظوة أراد أن يشرف بها ابن عبد المطلب كما لم يشرف بمثلها قبله أو بعده من الرجال كثير ولا قليل؟

*** تلك ليلة فذة في الليالي، أضاء نجمها على الدنيا مره ثم لم يقدر بعدها لظوئه أن يبرز ثانية كمثل بزوغه لأن مثيلاتها لا تعود. ولكن ضياء أشد لمعاناً من نور النجم توهج، ثم سطع، ثم فاض بنوره على الآفاق سيره كوجه الشمس رفاقة الإشراق.. سيره إن فاتها أن تنفرد وحدها بالمبنى الساحر فقليل سواها ضم ما كان لها من معنى قاهر، بل أقل القليل، بل الأندر منه. ولو أنك استطعت أن تتحلل من شباك الزمن وتنفض خيوطها عنك، وسبحت عائداً إلى الماضي لرأيت ابنه أسد- فاطمة- تجول بالبيت الحرام تلتمس البركة، لأنها سيده تجمعت فيها مزايا آله الكرام وامتلاء- كمثلهم- قلبها طهراً. ثم لرأيتها تأتي الكعبة فتطوف بها مرة فمرات متمسكة بأستارها آونة مقبلتها أخرى. ولكنتك لا تلبث حتى تشهدا وقد أوشك أن يصيبها أعياء تكاد أن تنوء به، وتنكر هي- بادئ الأمر- ما تحسه، ثم تمضي متجلدة تستحث نفسها وتستنفضها. ولكنها رغم هذا لا تقوى، ولا تستطيع أن تقوم عودها. وإذا هي تشبث أصابعها بأستار الكعبة تستعين بها وقد أخذت تحس شيئاً غاب عن ذهنها، وتقف مجهودة لا يستقر بها موطن القدمين، كمن على طرف كتيب رخو من الرمال. وتجيل فيما حولها عيناً حائرة لعلها تبصر زوجها أبا طالب يسعى هنا أو هناك فتجد لديه عوناً على ما تلقى، ولكنها لا تراه لأن ما حضرها في هذه اللحظة غاب عن حسابه..

ثم لعلك تتبعها وقد خشيت هي أن تلقفها الأبصار المتطلعة ممن حضر من

ص: ٤٩

أناس كان دأبهم الاجتماع في أروقة البيت وفي أفنائه فإذا رأيتها قد انحازت ناحية، ودلفت إلى أستار الكعبة فتوارت خلفها عن عيون القوم فكفاك ما شهدت. وقف منها على ملقط السمع دون مرمى العين لأنها شاءت أن تتخذ من الستر المقدس رداءً. واسمع بعد هذا حسيماً خافتاً يأتيك من لدنها. وأنيباً يحكمه الجلد واصطناع الاحتمال، وصرخات مكتومة تكاد أن تضلها الأذن كأنها تأتي من مهوى سحيق بعيد القرار. ثم اسمع نبرة بكاء تخالط هذه الصرخات، لها غير جرسها وغير رنتها، رقيقة، رنانة في غير حدة، كأنها شدو طائر تفتحت عيناه على شعاع فجر أسفر أو أوشك على اسفار. وقد يأخذك العجب، وتملكك الدهشة، ولكنه عجب قصير أجله، ودهشة لن يطول بك مداها ما دامت فاطمة قد بدت ثانية لناظريك، واهنة، وأشد ضعفاً مما رأيتها من قبل، كسا وجهها الشحوب ومشت في أوصالها رجفة الاعياء، وقد احتملت - مدثراً بستر الكعبة الشريف - وليدها بين صدرها وكفيها.

*** تلك ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بعده وليد أكرم به الله وأكرم أمه وأباه، فكان تكريماً لفرعى هاشم الذي انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبي طالب حفيدي الأصل الثابت الكريم.

وأقبل القوم - حين انتبهوا - يستبقون إلى السيدة، يعاونونها: يأخذون بيدها، ويملاؤن الأبصار بطلعة ذلك الذي كان بيت الله مولده، وستر الكعبة ثوبه، كأنما أوسع له في الشرف باجتماعه في كلا المولد والمحتد وهم لو استطاعوا أن يسبقوا زمانهم كما تأخرت أنت لرأوه أيضاً يجتمع له نفس هذا الشرف حين يقبل عليه الموت فيلقاه في بيت الله بهم أن يقوم بالصلاة...

أمّا فاطمة فقد أحبت أن تحي في وليدها اسم أبيها فدعته بمعناه وان لم تدعه بلفظه، وقالت لزوجها وهي تحاوره:

«هو حيدر».

ص: ٥٠

وأما أبو طالب فقد كان أكثر توفيقاً حين اختار. رأى وليده قد علا شرفاً بمكان مولده كما علا من قبل بأصله الرفيع فقال: «بل علي».

وبدأت عند هذا حياة الرجل الذي سائر أخطر الأحداث في هذه الدنيا، وعاشر أظهر الخلق وسيد النبيين، واحتمل نصيبه من عبء كبير ألقاه الله على مختاره الأمين، الذي خصه بوحيه ورسالته الإلهية لهداية العالم. وعاش عليّ عمره لغيره من المثل ومن الرجال، فكان في صباه القريب المفتدى، وفي شبابه الصديق المقتدى بالنبي الكريم، وبين هذا وذاك من أطوار العمر وما جاء في أعقابها من فترات، التزم غايات الكمال في الفعل والخلال، فلمّا انطوى بعض أجله، ومضى من الدنيا وعن هاديه، كان المعقب له وقد ذهب العقب. وأجل من أخذ عنه فأجاد، وركب جادته فما حاد. محمود أبو ريّه

عليّ أول من أسلم وتربى في حجر النبي وعاش تحت كنفه من قبل البعثة وظلّ معه إلى أن انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى، لم يفارقه لا في سفر ولا في حضر، وهو ابن عمّه وزوج ابنته فاطمة الزهراء، شهد المشاهد كلّها سوى تبوك، فقد استخلفه النبي صلى الله عليه وآله فيها على المدينة فقال: يا رسول الله، أتخلفني في النساء والصبيان؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟».

هذا الإمام الذي لا يكاد يضارعه أحد من الصحابة جميعاً في العلم...

ثم واصل أبو ريّه حديثه تحت عنوان: غريبة توجب الحيرة:

من أغرب الأمور، ومما يدعو إلى الحيرة أنّهم لم يذكروا اسم عليّ رضي الله عنه فيمن عهد إليهم بجمع القرآن وكتابته، لا في عهد أبي بكر ولا في عهد عثمان! ويذكرون غيره ممن هم أقل منه درجة في العلم والفقهاء!

ص: ٥١

فهل كان عليّ لا يُحسن شيئاً من هذا الأمر، أو كان من غير الموثوق بهم، أو ممّن لا يصحّ استشارتهم أو إشراكهم في هذا الأمر؟! اللهم إنّ العقل والمنطق ليقضيان بأن يكون عليّ أوّل من يعهد إليه بهذا الأمر، وأعظم من يشارك فيه، وذلك بما أُتيح له من صفات ومزايا لم تتهياً لغيره من بين الصحابة جميعاً، فقد ربّاه النبي صلى الله عليه وآله على عينه، وعاش زمناً طويلاً تحت كنفه، وشهد الوحي من أوّل نزوله إلى يوم انقطاعه، بحيث لم يند عنه آية من آياته!! فإذا لم يدع إلى هذا الأمر الخطير فإلى أيّ شيء يدعى؟! وإذا كانوا قد انتحلوا معاذير ليسوغوا بها تخطيهم إياه في أمر خلافة أبي بكر، فلم يسألوه عنها ولم يستشيروه فيها؛ فبأيّ شيء يعتذرون من عدم دعوته لأمر كتابة القرآن؟

فماذا نعلّل ذلك؟ وبماذا يحكم القاضي العادل فيه؟

حقاً إنّ الأمر لعجيب، وما علينا إلّا أن نقول كلمة لا نملك غيرها وهي:

لك الله يا عليّ! ما أنصفوك في شيء! (١) فتحي يكن في رحاب نهج البلاغة:

يصعب جداً الإحاطة بما تضمّنه كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه وأرضاه، من موضوعات تتعلّق بمختلف شؤون الحياة، سائرة أغوارها، مستكشفة أبعادها، مقدمة المواعظ والعبر والدروس والحكم النافعة الجليلة من خلالها. سأتناول من (نهج البلاغة) سفرًا من أسفاره، وقبساً من قبساته، والذي يلفت فيه ببلاغة العالم، وعلم الرسالي، وإحاطة الداعية، وسرّ نجاح وفلاح الإمام حيث يقول: «من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تهنّيه بسيرته قبل تهنّيه بلسانه، ومعلم نفسه ومهنّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومهنّبهم».

١- ١ أضواء على السنّة المحمّدية أو دفاع عن الحديث: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٩.

ص: ٥٢

إنه سرّ نجاح الإمامة، وخلفيته تألق الإمام... سواء كانت إمامة دعوة، أو إمامة ولاية، وسواء كانت إمامة صغرى أو كبرى.. فسبب النجاح يبقى هو هو، وسرّ الأثر لا يتبدل ولا يتغير... إنه تأكيد للسنة الإلهية الثابتة الماضية: وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا تَلْكُمْ هِيَ (سنة التغيير) التي تتجلى في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ.

فمن يتصدى للإمامة.. للقيادة.. للدعوة.. للرسالة.. للإمامة... لا بد وأن يكون تمكن من إمامة نفسه، وقيادة ذاته برسالة الإسلام، كما لا بد وأن يكون قد أحكم قيادته وفق أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وآله. وهذا مناط قوله عليه السلام: «فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره».

ومن يفعل ذلك يكن ماضياً وفق السنة الإلهية.. ومن التزم السنن الإلهية لا يضل ولا يشقى، وإنما يبقى مسدداً مهتدياً راشداً مسترشداً. إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضى عليه اجتهاده

فالذى يُطَلَّ على الناس بحال الإسلام غير الذى يطل عليهم بمقال الإسلام..

والذى يترجم الإسلام بأعماله غير الذى يترجمه بلسانه.. وهذا مناط قوله رضى الله عنه:

«وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه».

إنّ حالة الانقسام بين الادعاء والواقع، وبين القول والعمل، وبين الشعار والمضمون حالة مرضية ومذمومة، وقبيحة ومقبوحة، ورذيلة ومرذولة، ويجب أن لا ترى النور ضمن الدائرة الإسلامية التي تفرض التجانس والوئام بين النظرية والتطبيق؛ ليتحقق الفوز والفلاح في الحياة الدنيا «ومعلم نفسه ومهذبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومهذبهم». فضلاً عن الفوز برضا الله تعالى، وذلك هو الفوز العظيم.

من هنا كان الخطاب القرآني يتهدد ويتوعد أولئك المصابين بداء انقسام

ص: ٥٣

الشخصية فيقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ.

سليمان كتاني

... آتياً إلينا من فضاء لا ينتهي افقه، ولا ينتهي لألاؤه، إنه الإمام عليّ:

انسوجه بكر - كأنها أبداً - بكر.. سبحان الله، وقد نسله من فسحات المعاني، كأن الفضائل كلها فيه، إنما هي من أجل صفوات المباني، شدت إليه ليكون بها المثال، في بنية الإنسان، وكل مجتمعات الإنسان. ولست أظن فضائله تُحصى برقم، فهي الوسيعة، والرفيعة، والمديدة...

يوسعها الحجى، ويرفعها الصدق، ويمددها الجمال... أما آفاقها - في نعيم انصباباتها - فهي الله - جل شأنه - في اتصافه الوجودي المطلق، تمنطق بها الإمام عليّ، من أجل أن يفسر جلالاته الرسالة النازلة سوراً في قرآن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله... وكلها لبناء مجتمعات الإنسان أكان هناك في الغرب أم هنا في الشرق..

يا للإمام عليّ! كيف له أن يدرك في معانيه الأنيقة وفي مبانيه الوثيقة... إن المعاني كلها عند الإمام، لا تزل تثير فينا المحججات، وتوسع لنا المسافات، وتشدد بنا الخطوات...

الهوامش:

القرآن مع عليّ عليه السلام

ص: ٥٦

القرآن مع عليّ عليه السلام

حسن الحاج

ماذا ينقمنون منك؟ وهل ينقمنون إلابصدق إيمانك وسابقه ولائك وعظيم منزلتك وجهادك وخصالك ومناقبك الكثيرة؟! إضافةً إلى أحاديث رسول الله التي وردت فيك وأقوالٍ عظيمة تشيد بمكانتك وعلو قدرك... هناك آيات نزلت بحقك وتفردت بها وأخرى وقد انضمت إليك فيها نفوس طاهرة: سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء وولداك سيّدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السلام، نأتى على ذكر بعض هذه الآيات بما يتناسب وهذه المقالة المختصرة جداً البعيدة عن الإطالة والتفصيل الذي يتطلبه الخوض في هذه الآيات وفي موردها وما أثير حولها من إيرادات وإشكالات والإجابة عنها، التي تكفّلت بها كتب ومصادر مطولة. ومن شبهات، غرضها إبعاد أى فضيلة للإمام عليه السلام تحملها آيات كريمة أو روايات شريفة أو مواقف جريئة أو أقوال صادقة، فراحت أعلامهم وأفكارهم تختلق منهجاً آخر في محاربتك فعدوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ويبدلون قولاً غير الذى سمعوه وعقلوه... وهو أمر ورثوه من آبائهم وتعبدوا به.. وراحوا يلتزمون روايات مختلقة أو ضعيفة للوصول إلى

ص: ٥٧

أهدافهم في تقويض فضائلك وإلغاء أو تهميش دورك ومواقفك الرسالية...

فبعيداً عن كلّ هذا، نشير إلى بعض تلك الآيات:

إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (١)

هناك حيث راح عليّ عليه السلام يؤدّي صلاته، إذ جاءه سائل يطلب شيئاً، فما كان من الإمام عليه السلام وهو في ركوعه وقد أوجع السائل قلبه، إلّا أنّ مدّ إليه يده متصدّقاً بخاتم كان في إصبعه.

«وقد ذكرت روايات يقوى بعضها بعضاً - وهذا القول للدكتور وهبة الزحيلي - أنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب، الذي سأله السائل وهو راكع في تطوع، فتصدّق عليه بخاتمه...» (٢) الواحدى في أسباب النزول عن ابن عباس أنّه قال:

أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه قد آمنوا، فقالوا: يا رسول الله، إنّ منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدّث، وإن قومنا لما رأونا آمنّا بالله ورسوله وصدّقناه، رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا، ولا يناكحونا ولا يكلمونا، فشقّ ذلك علينا. فقال لهم النبي: إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...
الآية.

ثمّ إنّ النبي صلى الله عليه وآله خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع، فنظر سائلاً، فقال:

هل أعطاك أحد شيئاً؟

قال: نعم خاتم من ذهب [فضة].

قال: من أعطاكه؟

قال: ذلك القائم، وأوماً بيده إلى عليّ بن أبي طالب.

فقال: على أيّ حال أعطاك؟

١- ١ المائدة: ٥٥.

٢- ٢ التفسير المنير ٦: ٢٣٢.

ص: ٥٨

قال: أعطاني وهو راكع.

فكبر النبي صلى الله عليه و آله ثم قرأ: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (١)

وفي هذا يقول حسان بن ثابت:

أبا حَسَنٍ تَفْدِيكَ نَفْسِي وَمَهْجَتِي وَكُلَّ بَطِيءٍ فِي الْهَدْيِ وَمُسَارِعِ
فَأَنْتَ الَّذِي أَعْطَيْتَ إِذْ كُنْتَ رَاكِعًا فَدَتَكَ نَفُوسَ الْخَلْقِ يَا خَيْرَ رَاكِعِ

بخاتمك الميمون يا خير سيد ويا خير شارٍ ثم يا خير بايع

فأنزل فيك الله خير ولاية وبينها في محكمات الشرايع

وهناك مصادر كثيرة من الفريقين أكدت هذا المورد لهذه الآية المباركة (٢).

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ
اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٣)

قد ينتهي الجدل إلى باب أو طريق مسدود، فيقف كلا الطرفين متمسكاً بما عنده، وهنا قد يبادر أحدهما حرصاً منه على الثمرة، فيعلن شيئاً بعيداً عن أدلته كل منهما؛ لأن الحجج والأدلة لم تؤد إلى نتيجة- يحسم ذلك النزاع، وهو ما فعله رسول الله صلى الله عليه و آله- المتيقن للحق الذي بين يديه- في نقاشه الحاد مع نصارى نجران، الذين راحوا يتمسكون بباطلهم، وحتى يكشف القناع عن وجوههم وعنادهم، فدعاهم إلى المباهلة بأن يدعو كل فريق أحباءه الخالص، ثم يدعو الله تعالى أن يصب لعنته وغضبه على الكاذب منهما وأن يطرده من رحمته.

الواحدى فى أسباب النزول عن جابر بن عبد الله أنه قال: قدم وفد أهل نجران على النبي صلى الله عليه و آله: العاقب والسيد، فدعاهما إلى الإسلام، فقالا: أسلمنا قبلك،

١- ١ المائدة: ٥٦؛ أسباب نزول القرآن: ٢٠٢.

٢- ٢ شواهد التنزيل ١: ٢٢٣، ٢٣١، الدرّ المثور ٣: ١٠٥، تفسير الطبرى ٤: الجزء السادس، ٢٨٩، سبط بن الجوزى فى تذكرته وتفسير بن كثير ٣: ١٣٠ وتفسير الفخر الرازى ١٢: ٢٨، تذكره الخواص ١٥، تاريخ دمشق ٤٢: ٣٥٧، المعجم الوسيط ٦: ٢١٨، ٦٢٣٢ والخوارزمى فى مناقبه: ١٨٦ ونصّ عليه الحافظ البلخى الحنفى فى ينايبه... إضافة إلى مصادر الإمامية.

٣- ٣ آل عمران: ٦١.

ص: ٥٩

قال: كذبتما، إن شتتما أخبرتكما بما يمنعكما من الإسلام، فقالا: هات أثبتنا، قال:

حبّ الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير [وفى روايه أخرى عن الحسن أنه عليه السلام قال لهما: كذبتما يمنعكما من الإسلام
[ثلاث]: سجودكما للصليب، وقولكما:

اتخذ الله ولداً، وشربكما الخمر، فقالا: ما تقول في عيسى؟

قال: فسكت النبي صلى الله عليه وآله ونزل القرآن: ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ* إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ - إلى قوله-
فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ... فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الملاعنة، فوعدها إلى الملاعنة على أن يغادياه بالغداة،
فغدا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ بيد عليّ وفاطمة، وبيد الحسن والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيبا، فأقرأ له بالخراج،
فقال النبي صلى الله عليه وآله:

«والذي بعثني بالحق لو فعلا لمطر الوادي ناراً».

قال جابر: فنزلت فيهم هذه الآية: فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ.

قال الشعبي: أبناءنا: الحسن والحسين، ونساءنا: فاطمة، وأنفسنا: عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه (١).

وفي الكشاف... فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى! إنني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا
فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة (٢).

ولما سئل أبو عبد الرحمن محمد بن عائشة عن أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، راح يعدد أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وآله فقال: أبوبكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح.

فقال له السائل: فأين علي بن أبي طالب عليه السلام؟

قال: يا هذا! تستفتي عن أصحابه أم عن نفسه؟

قال: بل عن أصحابه.

١-١ أسباب النزول: ١٠٨.

٢-٢ الكشاف: ١: ١٩٣.

ص: ٦٠

قال: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ فَكَيْفَ يَكُونُ أَصْحَابَهُ مِثْلَ نَفْسِهِ؟! (١) وهناك مصادر أخرى (٢).
 إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣)

إن مسألة طهارة (الإمام علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام) أمر متفق عليه عند جميع المسلمين، بل حتى عند أعدائهم يعدّ أمراً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، ولا شكّ يعتريه، وأمامك التاريخ والتراجم، فلا تجد شخصاً إلّا ويقول بتركيتهم وطهارتهم بل لم يذكر لنا التاريخ عيباً فيهم أو خطأ ارتكبه أو شططاً وقعوا فيه فيما كثرت زلات غيرهم وعظمت أخطاؤهم ومعاصيهم سواء أكانوا رجالاً أو نساء... فسيرتهم عليهم السلام سالحة، ونفوسهم طاهرة، وحياتهم مباركة... نعم اختلفوا معهم، ناصبواهم العدا، ثاروا عليهم، تمردوا عليهم، افتروا عليهم... ولكن لا-شك في طهارتهم وإنّما هي الدنيا ومطامعها و«إنّه الملك لو نازعتني عليه لأخذت الذي فيه عيناك» (٤).

ثم إن عدل القرآن كالقرآن في طهارته وصفائه: «... إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي...».

فقد راح رسول الله صلى الله عليه وآله يعلّمهم ليكونوا منهلماً عذباً تنتهل منه الأمة، ومصدر خير وعطاء للناس و منبع تبليغ لدين الله وأحكامه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، ومرجعاً للأمة تعود إليهم دائماً في تلقى الأحكام وفي اتّخاذ المواقف... فلا بدّ من أن يكونوا عليهم السلام على درجة عالية من تركية النفوس وطهارتها وعلى يقين وبصيرة بدين الله وسنة نبيه الأ-كرم، فطهارتهم وبالتالي عصمتهم هبة إلهية اختصهم بها الله تعالى دون الآخرين.
 وكانت أمّ المؤمنين أم سلمة تتمنى أن تكون من أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا في بيتها مجتمعين تحت كساء واحد.

١- ١ أنظر المحاسن والمساوي: ٤٢.

٢- ٢ الفخر الرازي ٨: ٨٨، تفسير الطبري ٣: ٣٠٠، تذكرة الخواص: ١٤، الصواعق المحرقة: ١٤٥، ١٥٥، التفسير المنير ٣: ٢٤٨، دلائل النبوة لابن نعيم: ٣٥٤، ٣٤٤، تفسير ابن كثير ٢: ٤٥، شواهد التنزيل ١: ١٦٣، ١٧٣. الدر المنثور ٢: ٢٣١... ومصادر الإمامية.

٣- ٣ الأحزاب: ٣٣.

٤- ٤ من كلام هارون الرشيد لابنه المأمون.

ص: ٦١

فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة والحسن والحسين تحت كساء واحد وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

فتقول أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وآله: فأنا معهم يا نبي الله!؟

فيقول لها: «أنتِ علي مكانك، وأنتِ علي خير».

انظر الواحدى فى أسباب النزول: بسنده عن أم سلمة: أن النبي صلى الله عليه وآله كان فى بيتها، فأنته فاطمة رضى الله عنها بئرمه فيها خزيرة، فدخلت بها عليه، فقال لها:

ادعى لى زوجك وابنيك، قالت: فجاء عليّ والحسن والحسين، فدخلوا فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامه له، وكان تحته كساء خبيرى، قالت:

وأنا فى الحجره أصلى، فأنزل الله تعالى هذه الآية: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يديه فألوى بهما إلى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي [وحاميتي] فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

قالت: فأدخلت رأسى البيت فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: إنك إلى خيرٍ إنك إلى خير، ونقل أيضاً عن أبى سعيد أن هذه الآية «نزلت فى خمسة: فى النبي صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم أجمعين (١).

وانظر غيره من المصادر (٢).

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (٣)

الطبرى فى تفسيره عن عطاء بن يسار؛ نزلت بالمدينة فى عليّ بن أبى طالب عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبى معيط، كان بين الوليد وبين عليّ عليه السلام كلام، فقال الوليد بن عقبة: أنا أبسط منك لساناً، وأحدّ منك سناناً، وأردّ منك للكتيبة.

فقال على عليه السلام: اسكت، فإنك فاسق.

١-١ أسباب نزول القرآن: ٣٦٨-٣٦٩.

٢-٢ ابن جرير الطبرى فى تفسيره جامع البيان، والسيوطى فى تفسيره الدرّ المنتثور، والترمذى فى تفسيره والحاكم عن عطاء بن يسار عن أم سلمة.. وقد صحّحه ووافقه الذهبى، وغيرها من كتب التفسير والحديث والتاريخ كالأستيعاب وأسد الغابه... إضافةً إلى روايات الإمامية.

٣-٣ السجدة: ١٨.

ص: ٤٢

فأنزل الله فيهما: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّيَسْتَوُونَ - إلى قوله - بِهِ تُكذَّبُونَ.

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: يعنى بالمؤمن علياً وبالفاسق الوليد ابن عقبه (١).

وختاماً لهذا الإيجاز نقول: إن هذه بعض الآيات التي حظى علياً إما بها كاملة وإما بنصيب وافر منها فعن حليته الأولياء أن رسول الله

صلى الله عليه وآله قال: «ما أنزل الله آية فيها يا أيها الذين آمنوا إلّا عليّ رأسها وأميرها» (٢).

وعن عبد الله بن عباس أنه قال: «ليس من آية في القرآن فيها: يا أيها الذين آمنوا إلّا عليّ رأسها وأميرها وشريفها، [وعن حذيفة بن

اليمان... إلّا وكان لعليّ لبها ولبابها. كما في شواهد التنزيل ١: ٤٣، ٤٧] وقد عاتب الله أصحاب محمّد في القرآن، وما ذكر علياً

إلّا بخير» (٣).

وعنه أيضاً: «ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في عليّ» (٤).

الهوامش:

نظرة موجزة حول كتاب الولاية لمحمد بن جرير الطبري

١-١ تفسير الطبري ١١، الجزء ٢١: ١٠٧، وأنساب الأشراف ٢: ٣٨٠ وتاريخ بغداد ١٣، ٣٢١، ٧١٩١، الأغاني ٥: ١٥٣، فضائل الصحابة

لابن حنبل ٢: ٤١١، ١٠٤٣ تاريخ دمشق ٤٣: ٢٣٥...

٢-٢ حلية الأولياء ١: ٤٤.

٣-٣ فضائل الصحابة لابن حنبل ٢: ٤٥٤، ١١١٤، المعجم الكبير ١١: ٢١١، ١١٦٨٧ تاريخ دمشق، ترجمه عليّ عليه السلام. تاريخ

ال خلفاء: ٢٠٣ شواهد التنزيل ١: ٤٤، ٧٠... ومصادر الإمامية.

٤-٤ شواهد التنزيل ١: ٥٢، ٤٩ وتاريخ الخلفاء: ٢٠٣.

ص: ٦٤

نظرة موجزة حول كتاب «الولاية» لمحمد بن جرير الطبري
رسول جعفریان تمهید:

قلّ من لا يعرف مَنّا محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري الآملي (٢٢٤-٢٨ شوال ٣١٠ هـ) المحدث والمفسّر والفقير والمؤرخ المشهور، من أهل السنّة الذي وُلِدَ في القرن الثالث وتوفى في أوائل القرن الرابع الهجري. وقد تمّ تأليف الكثير من كتب التحقيق والدراسات حول هذه الشخصية العلمية البارزة، وعلى هذا فلا حاجة بنا هنا إلى تكرار ذلك أو التذكير به (١). وعند مقارنتنا بين مؤلفات الطبري وبين ما أفرزته قريحه علماء آخرين من بغداد في القرن نفسه لا- نشك بتقدّم منزلته عليهم في كثير من العلوم كالفقه (٢) والحديث والتفسير، وخصوصاً في مجال التاريخ الذي تناول فيه معظم معاصريه في تلك الفترة. ويمكن اعتبار الطبري في عداد كبار المؤرخين من أهل السنّة من أمثال الخطيب البغدادي وابن الجوزي وشمس الدين الذهبي وابن حجر، وذلك لما خلفه من آثار قيّمة في تاريخ الفكر السنّي ومن تأليف جيّدة وخالدة- خصوصاً كتابيه المشهورين في التاريخ والتفسير- ويعرّف شخصيته الفريدة، ما ولّدت له تلك الكتب من تأثير كبير على

١-١ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٢٧٩-٢٨٦، حيث ذكرت هناك عشرات المصادر في شرح تلك الشخصية. راجع كذلك لسان العرب ٥: ٧٥٧، ش ٧١٩٠، إذ ذكرت هناك بالترتيب المصادر التي شرحت فيها استناداً إلى مصادر كثيرة أخرى. وقد عدّ السيوطي في رسالته الموسومة «التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة» الطبري بأنه جدير اعتباره شخصية متميزة رأس المئة الثانية للهجرة.- خلاصة عبقات الأنوار ٦: ٩٤ طبعه قم ١٤٠٤ هـ، نقلًا عن الرسالة المذكورة.-

٢-٢ يصف الطبراني المتوفى ٣٦٠ المحدث الكبير وصاحب المعاجم الثلاثة الصغيرة المعروفة: الصغير والأوسط والكبير، الطبري ب «الطبري الفقيه». راجع: المعجم الكبير ٩: ٢٩٢.

ص: ٦٥

التأليفات التي كتبها كل من جاء بعده.

وقد تطرّقنا إلى معتقدات الطبري الدينية في مكان آخر وذكرنا الظروف العقائدية الغريبة التي كانت سائدة في بغداد في تلك الحقبة من التاريخ والتي قادت الطبري يومئذ إلى مواجهته مباشرة مع الحنابلة والمتطرفين (١). ويمكننا القول: إنه ليس بمقدورنا الوقوف على الحافظ الرئيس الذي دفع الطبري إلى تأليف كتاب (الولاية) والذي جمع فيه كل طرق الحديث الخاصة بحادثة الغدير، دون مطالعة تلك الكتابات ودراسة أبعادها. فقد كان حنابلة بغداد الذين ورثوا العداوة للإمام على عليه السلام عن الأمويين ينكرون فضائله عليه السلام جهراً وعلانية، حتى بلغت تلك العداوة مبلغاً أثارت معها حفيظة ابن قتيبة (العالم والمحدث وهو من أهل السنة) وأشعلت نار الغضب والسخط في أعماقه (٢). أضف إلى ذلك نظرة العثمانيين إلى الحديث والأخبار وانقيادهم الأعمى وراء بعض الأحاديث المختلفة والمنسوبة إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مما تسببت في عدم إجازتهم علماء الإسلام، ولو للحظة واحدة، التخطي عن ظهور تلك الأحاديث. وفي خضم تلك الأحداث انبرى الطبري الذي كان يرى في نفسه أنه أعلى مرتبة من الجميع بما فيهم أحمد بن حنبل، انبرى للتصدي لتلك المجموعة وفي مختلف الصعد كاسراً بذلك طوق الحصار الذي فرضته تلك العناصر. وسنعالج لاحقاً السبب وراء تأليف الطبري كتاب (الولاية). وأما ما نوّد التنويه إليه هنا هو أنّ مؤلف الكتاب المذكور - والذي فُقدت نسخته الأصلية حسب ما لدينا من المعلومات - لا محالة هو محمد بن جرير الطبري المؤرّخ المشهور الذي ذاع صيته في بغداد. ولحسن الحظ توجد لدينا في هذا المجال مصادر قديمة يبدو أنّها دونت في الجيل الذي تلا الطبري وحتى القرن العاشر الهجري، وهي عبارة عن نصوص قيمة تشير إلى ما نحن بصدد، وسنحاول التعريف بها بعد حين.

١ - ١ راجع المقالة تحت عنوان «أهل الحديث وكتاب - السنة - للطبري» في قسم «المقالات التاريخية» المجلد الثاني؛ وكذلك مقالة «دور أحمد بن حنبل في تعديل مذهب أهل السنة» في قسم «المقالات التاريخية» أيضاً المجلد السادس.

٢ - ٢ يشير ابن قتيبة إلى تفصيل أهل الحديث في نقل الأحاديث الخاصة بفضائل الإمام على عليه السلام تعليقاً له على ردّ فعلهم في مقابل الرفض الذين قيل عنهم أنّهم يُغالون في رفع منزلة على عليه السلام فوق كل منزلة، حيث يقول: «لقد أخرج هؤلاء علياً من زمرة أئمة الهدى مُدخلين إياه في جملته قادة الفتن ولا يثبتون له حقاً الخلافة بحجة أنّ الناس لم يجتمعوا إليه لمبايعته، لكنهم ومن جهة أخرى يقبلون بيزيد كونه خليفة لاجتماع الناس إليه ومبايعته». ثم يستطرد ابن قتيبة بقوله: «وتحامي كثير من المحدثين أن يحدثوا بفضائله كرم الله وجهه أو يظهرها ما يجب له، وكل تلك الأحاديث لها مخارج صحاح. وجعلوا ابنه الحسين عليه السلام خارجاً شاقاً لعصا المسلمين، حلال الدم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم من خرج على امتي وهم جميع، فاقتلوه كائناً من كان. و سؤوا بينه في الفضل وبين أهل الشورى لأن عمر لو تبين له فضله لقدمه عليهم ولم يجعل الأمر شورى بينهم. وأهملوا من ذكره أو روى حديثاً من فضائله حتى تحامى كثير من المحدثين أن يتحدثوا بها وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية كأنهم لا يريدونهما بذلك وإنما يريدونه. فإن قال قائل: أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ وأبو سبطيه الحسن والحسين وأصحاب الكساء عليّ وفاطمة والحسن والحسين؛ تمعرت الوجوه وتنكرت العيون وطرت حسائك الصدور. وإن ذكر ذاكر قول النبي صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعليّ مولاه وأنت مني بمنزلة هارون من موسى؛ وأشبه هذا، التمسوا لتلك الأحاديث المخارج لينقصوه ويبخسوا حقه بعضاً منهم للرافضة وإلزاماً لعليّ عليه السلام بسببهم ما لا يلزمه وهذا هو الجهل بعينه. والسلامة لك أن لا تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضته وأن لا تحتمل ضغناً عليه بجنايته غيره، فإن فعلت فأنت جاهل مفرط في بغضه وإن تعرف له مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتريه

والأخوة والصبر والصبر في مجاهدة أعدائه وبذل مهجته في الحروب بين يديه مع مكانه في العلم والدين والبأس والفضل من غير أن تتجاوز به الموضوع الذي وضعه به خيار السلف لما تسمعه من كثير فضائله فهم كانوا أعلم به وبغيره ولأن ما أجمعوا عليه هو العيان الذي لا شك فيه، والأحاديث المنقولة قد يدخلها تحريف وشوب ولو كان إكرامك لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي دعاك الى محبة من نازع عليك وحاربه ولعنه إذ سحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخدمه وكنتم قد سلكتم في ذلك سبيل المستسلم لأنتم بذلك في علي عليه السلام أولى لسابقته وفضله وخاصته وقربته والدناوة التي جعلها الله بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المباهلة، حين قال تعالى: «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم...» فدعا حسناً وحسيناً «و نساءنا و نساءكم» فدعا فاطمة عليها السلام «و أنفسنا و أنفسكم» فدعا علياً عليه السلام. ومن أراد الله تبصيره بصيره ومن أراد به غير ذلك حيره». راجع: الاختلاف في اللفظ: ٤١-٤٣ بيروت، دارالكتب العلمية.

ص: ٦٦

صحيح أن هناك واحداً أو اثنين من الشخصيات سميت كذلك باسم (الطبري) وأن أحدهم هو الطبري الشيعي صاحب كتاب (المسترشد) (١) والآخر هو الطبري مؤلف كتاب (دلائل الإمامة) (٢)، إلماً أن نسبة ذلك الكتاب (وأعني كتاب الولاية) وهو كتاب بُنيت فيه طُرق حديث (الغدير) إلى ذلك العالم الشيعي لا يمكن أن يدلّ إلأعلى جهل تامّ بالمعلومات الواردة في النصوص التاريخية المتقنة؛ وباختصار ليس ذلك إلأرجماً بالغيب والظنون التي لا تستند إلى أي أساس تاريخي على الإطلاق (٣).

عنوان الكتاب:

لقد أُطلقت أسماء مختلفة على كتاب الطبري، كما جرت العادة على ذلك وكما هو الحال مع الكثير من الرسائل والكتب القديمة، ويمكننا تعليل ذلك في كون أن الأوائل كانوا يطلقون على بعض الكتب تسميات متعددة وذلك حسب ميولهم وحسب ما يقتضيه الموضوع العام للكتاب نفسه معتقدين بتناسب تلك التسميات مع ما تتضمنه تلك الكتب من محتويات. إضافة إلى ذلك يبدو أن بعضاً من تلك التسميات يشير إلى مجموعة من الموضوعات المتنوعة والمكتوبة جنباً إلى جنب، وقد تشير تسميات أخرى إلى بعض أقسام أو فصول الكتاب نفسه والتي قد تُكتب أحياناً بصورة مستقلة. فعلى سبيل المثال العنوان الذي ذكره ابن طاووس على أنه عنوان الكتاب الذي ألفه الطبري هو عنوان يمكن أن يشمل كذلك موضوع حديث الولاية وهو الموضوع الذي غدا بعد ذلك كتاباً مستقلاً بحد ذاته، إضافة إلى استخدام عنوان كتاب (الولاية) وتكرار ذكره من قبل الدارسين والمطالعين لهذا الكتاب، فقد ذكره كذلك ابن شهر آشوب في كتاب بيلوغرافى معروف وأشار إليه بالحرف الواحد (٤).

وورد عنوان آخر للكتاب نفسه في الرجال للنجاشي، وهو: (الرد على الحرقيسيه) مؤكداً على أنه كتاب للطبري (المؤرخ السنّي المعروف) مشيراً إلى أنه

١-١ تحقيق أحمد المحمودي، قم، مؤسسه الثقافه الإسلاميه لكوشانپور، ١٤١٥ مقدمه المصحح.

٢-٢ تحقيق قسم الدراسات الإسلاميه في مؤسسه البعثه، قم، ١٤١٣.

٣-٣ البدايه والنهايه ١١-١٢: ١٦٧، ذيل حوادث سنه ٣١٠؛ والذريعه ١٦: ٣٥؛ وشرح الأخبار ١: ١٣١-١٣٢ الهامش. وقال كلبرك، مشيراً إلى اعتقاد آقازرگ الطهراني في هذا المجال من أن كتاب مناقب أهل البيت والذي نسبه ابن طاووس إلى الطبري المؤرخ المعروف، إنما يعود إلى الطبري الشيعي، قال: «الظاهر هو عدم وجود أي مصدر موثوق يؤيد اعتقاد آقا بزرك». مكتبه ابن طاووس: ٣٩٨، ش ٣٥٦.

٤-٤ معالم العلماء: ١٠٦، ش ٧١٥؛ راجع كذلك عمده عيون صحاح الاخبار لابن بطريق: ١٥٧.

ص: ٦٧

قد تناول في الكتاب المذكور مسألة (حديث الغدير) حيث قال: «له كتاب الردّ على الحرقوصية، ذكر (فيه) طرق خبر يوم الغدير» (١). وصرح ابن طاووس كذلك أنّ الطبري سمّى كتابه (الردّ على الحرقوصية) (٢)، ويعتقد ابن طاووس أنّ السبب الذي دعا الطبري إلى تسمية كتابه بهذا الاسم هو كون أحمد بن حنبل ينحدر نسبه من حرقوص بن زهير زعيم الخوارج (٣). وأما (روزنثال) فقد احتمل أنّ تكون تسمية الكتاب قد جاءت بسبب احتقار الطبري أبا بكر بن أبي داود السجستانيّ وازدراؤه وهو الأمر الذي دعاه إلى تأليف كتاب (الولاية) كردّ على السجستانيّ هذا، مشيراً إلى أنّ كلمة (حرقوص) في اللغة تعني (ذبابه) أو (دويبه نحو البرغوث) (٤). وربما أمكننا إضافة الاحتمال التالي إلى ما سبق وهو أنّ الطبري في استخدامه لهذا الاسم أراد الإشارة إلى فلسفته في تصنيف هذا الكتاب للردّ على شخص ناصبيّ إذا ما علمنا أنّ الخوارج كانوا أعداء لعليّ عليه السلام وأنّ زعيمهم كان حرقوص بن زهير، ومن هنا استلهم الطبري اسم كتابه يريد بذلك إظهار الحنابلة المتطرفين بمظهر الخوارج والناصبين، وبذلك يتنفى الزعم القائل بكون الاسم مستوحى من نسب أحمد بن حنبل.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العنوان (رسالة في طرق حديث الغدير) يتلاءم تماماً مع مضمون الكتاب الذي أطلقت عليه هذه التسمية ودون أيّ التباس أو إبهام (٥). وموازاةً مع ما ذكر، فقد أورد (كالبرگ) عنوان كتاب (الولاية) وكتاب (المناقب) في موضعين، في حين يشير هو شخصياً إلى إمكانية كون كتاب (الولاية) جزءاً من كتاب أشمل يدعى كتاب (الفضائل) أو كتاباً آخر بعنوان (المناقب) (٦).

وأما كلّ من استند إلى هذا الكتاب أو تدارسه أو اقتبس منه فقد أشار إليه تارةً على أنّه كتاب (فضائل عليّ عليه السلام) أو (المناقب) تارةً أخرى، لكنهم جميعاً قاموا بنقل حديث الغدير من هذا الكتاب تماماً، كما فعل البعض من أمثال ابن

١- ١ رجال النجاشي: ٣٢٢، ش ٨٧٩.

٢- ٢ إقبال الأعمال ٢: ٣٠ قم ١٤١٥ هـ.

٣- ٣ الطرائف: ١٤٢.

٤- ٤ مكتبة ابن طاووس: ٢٨٨.

٥- ٥ للحصول على معلومات أكثر بهذا الخصوص راجع: مكتبة ابن طاووس: ٢٨٦.

٦- ٦ مكتبة ابن طاووس: ٢٨٦، ش ١٧١؛ ص ٣٩٨، ش ٣٥٦.

ص: ٦٨

شهر آشوب حين أورد اسم كتاب (الولاية) في مُصنّفه الموسوم ب (المناقب) وقاموا بنقل الفضائل عنه. ومن هنا يتّضح لنا عدم مراعاة الدقة في هذه المسألة بالشكل الكافي.

من الذي كان يملك كتاب (الغدِير) أو (المناقب)؟:

كلّ ما نعلمه هو أنّ كتاب (الغدِير) أو (المناقب) كان بحيازة عدد قليل من المؤلفين والمؤرخين والمحدثين المسلمين والكبار منهم على الأخصّ وذلك حتى القرن التاسع (١)(٢). وإليك أسماء بعض مَن تداولوا الكتاب المذكور:

١- القاضي نعمان الإسماعيلي (ت: ٣٦٣) وهو أكثر من نقل عن هذا الكتاب.

٢- النجاشي (٣٧٢- ٤٥٠)؛ ذكر اسم الكتاب وأشار إلى أنّه اعتمد عليه في تثبيت طرق اسناده.

٣- الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠) أيضاً.

٤- ياقوت الحمويّ (ت: ٦٢٦) الذي نوّه بالتفصيل إلى كيفية تصنيف هذا الكتاب.

٥- ابن بطريق (ت: ٦٠٠) الذي أشار إلى عدد الطرق في نقل حديث الغدير الوارد في هذا الكتاب.

٦- ابن شهر آشوب (ت: ٥٨٨) والذي أورد اسم الكتاب خلال ترجمته للمصنّف، وأشار كذلك إلى عدد الطرق في نقل حديث الغدير الوارد في هذا الكتاب، وذكر أيضاً اسم هذا الكتاب في مواضع عديدة من كتابه (المناقب).

٧- ابن طاووس (ت: ٦٦٤)؛ فقد أورد اسم الكتاب وقام بالتّقل عنه.

٨- شمس الدين الذهبيّ (ت: ٧٤٨) الذي قيل إنّه رأى الكتاب المذكور بأمّ عينه وقام كذلك بنقل أحاديث كثيرة عنه.

٩- ابن كثير (ت: ٧٧٤) وهو كذلك مَن رأى الكتاب وقام بنقل عدّة روايات عنه.

١- ١ الغريب أنّ فؤاد سزگين لم يُشر إلى أيّ من محتويات كتاب الطبريّ هذا لا من قريب ولا من بعيد تاريخ التراث العربيّ المجلّد الأوّل، التدوين التاريخي: ١٦٨، ولا حتى الإشارة إليه في فهرست أسماء الكتب بكونه من مصنفات الطبريّ سوى إلماعه بسيطة عن رسالة الرّد على الحرقوصية في ذيل هامش ت

٢- ١ الغريب أنّ فؤاد سزگين لم يُشر إلى أيّ من محتويات كتاب الطبريّ هذا لا من قريب ولا من بعيد تاريخ التراث العربيّ المجلّد الأوّل، التدوين التاريخي: ١٦٨، ولا حتى الإشارة إليه في فهرست أسماء الكتب بكونه من مصنفات الطبريّ سوى إلماعه بسيطة عن رسالة الرّد على الحرقوصية في ذيل هامش تلك الصفحة نقلًا عن (بروكلمان) مشيراً إلى حديث النّجاشي دون التّنبؤ به في كتبه اللاحقة إلى باقي محتويات هذا الكتاب القيم.

ص: ٦٩

١٠- ابن حجر (ت: ٨٥٢) وهو أيضاً كان قد شاهد الكتاب بنفسه.

والواقع أن هذا الأمر على قدر من الوضوح والجلء بحيث لا يحتاج إلى مزيد إثبات من أحد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحداً لم يتطرق إلى التعريف بهذا الكتاب النفيس مثلما فعل الأستاذ العلامة المرحوم السيد عبد العزيز الطباطبائي الذي أوقف جلّ عمره في التحقيق فيما يخص الإمام أمير المؤمنين وأهل البيت (عليهم السلام) عموماً (١).

والآن دعونا نطالع ما قيل في حق الكتاب الذي نحن بصددده:

إن القاضي نعمان - أبو حنيفة نعمان بن محمّد التميمي المغربي الكاتب العالم والإسماعيلي المذهب في عهد الدولة الفاطمية (ت: ٣٦٣) - أكثر من نقل عن الكتاب المذكور (كتاب الولاية) وذلك في المجلد الأول من كتاب (شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار)، وستحدث عن ذلك بالتفصيل في السطور التالية.

كتب أبو العباس أحمد بن علي النجاشي عن الطبري وكتابه (الغدِير) يقول:

«أبو جعفر الطبري عامي، له كتاب الردّ على الحرّوصية، ذكر طرق خبر يوم الغدير، أخبرنا القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن مخلد، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثنا محمد بن جرير بكتابه (الردّ على الحرّوصية)» (٢).

وقال الشيخ الطوسي كذلك مشيراً إلى الكتاب المذكور:

«محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، صاحب التاريخ، عامي المذهب. له كتاب خبر غدِير خمّ، تصنيفه وشرح أمره. أخبرنا أحمد بن عبدون، عن أبي بكر الدوري، عن ابن كامل، عنه» (٣).

وعلق يحيى بن الحسن المعروف بابن البطريق (٥٢٣-٦٠٠) بقوله:

«وقد ذكر محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ خبر يوم الغدير وطرقه من خمسة وسبعين طريقاً، وأفرد له كتاباً سماه كتاب (الولاية)» (٤).

وأشار ابن شهر آشوب إلى كتاب (الولاية) للطبري أيضاً حيث قال:

١- ١ الغدير في التراث الاسلامي: ٣٥-٣٧؛ أهل البيت في المكتبة العربية: ٦٦١-٦٦٤.

٢- ٢ رجال النجاشي، تحقيق السيد موسى الشيبيري، قم: ٣٢٢، ش ٨٧٩.

٣- ٣ كذا؛ وفي موضع آخر: كتاب خبر غدِير خمّ وشرح أمره، تصنيفه. فهرسة كتب الشيعة وأصولها، تحقيق السيد عبدالعزیز الطباطبائي، قم، ١٤٢٠: ٤٢٤، ش ٦٥٥.

٤- ٤ عمدة عيون صحاح الأخبار: ١٥٧، قم، ١٤١٢ هـ.

ص: ٧٠

«أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب التاريخ، عامي، له كتاب غدير خمّ وشرح أمره، وسمّاه كتاب (الولاية)» (١).
وسنرى كيف أنه (أي ابن شهر آشوب) قام بنقل بعض الروايات عن هذا الكتاب في مصنفه الموسوم ب (مناقب آل أبي طالب).
وخلال إثباته لتواتر حديث الغدير، أشار الشيخ سديد الدين محمود الحمصي الرازي (من علماء القرن السابع الهجري) إلى مؤلفات أصحاب الحديث، ومن جملة ما قال معلقاً على ذلك:

«لأن أصحاب الحديث أوردوه من طرق كثيرة، كمحمد بن جرير الطبري فإنه أوردته من ثيف وسبعين طريقاً في كتابه» (٢).
وكتب أحمد بن موسى بن طاووس (أحد العلماء الذين اشتهروا في منتصف القرن السابع الهجري) بهذا الصدد قائلاً:

«وساقه [أي حديث الغدير] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (صاحب التفسير والتاريخ الكبير) من خمسة وسبعين طريقاً» (٣).
ونقل رضي الدين علي بن طاووس (٥٨٩-٦٦٤) بعض النصوص من كتاب (مناقب أهل البيت) للطبري (٤) وفي مكان آخر أشار كذلك إلى كتاب (الولاية) أيضاً والذي سنأتي على تفصيله فيما بعد. وأما ما قاله ابن طاووس تعليقا على كتاب (الولاية) للطبري فهو كالآتي:

«ومن ذلك ما رواه محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ الكبير صنّفه وسمّاه كتاب (الردّ على الحرقوصية)، روى فيه حديث يوم الغدير وما نصّ النبي على علي عليه السلام بالولاية والمقام الكبير، وروى ذلك من خمس وسبعين طريقاً» (٥).
وقال في مكان آخر:

«وأما الذي ذكره محمد بن جرير صاحب التاريخ فإنه في مجلد» (٦).

وكتب في موضع غيره:

١-١ معالم العلماء: ١٠٦، ش ٧١٥.

٢-٢ المنقذ من الضلال ١: ٣٣٤، مؤسسه النشر الاسلامي، ١٤١٤ هـ.

٣-٣ بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية، مؤسسه آل البيت، قم، ١٤١١ هـ: ٢٩٩-٣٠٠.

٤-٤ اليقين: ٢١٥.

٥-٥ إقبال الأعمال ٢: ٣٠، قم ١٤١٥ هـ.

٦-٦ المصدر السابق ٢: ٢٤٨.

ص: ٧١

«وقد روى الحديث في ذلك محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ من خمس وسبعين طريقاً وأفرد له كتاباً سماه (حديث الولاية)»
(١).

وكتب شمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٨) يقول:

«ولما بلغه أن ابن أبي داود تكلم في حديث غدير خم، عمل كتاب (الفضائل) وتكلم على تصحيح الحديث. قلت: رأيت مجلداً من طرق الحديث لابن جرير فاندعشت له لكثرة الطرق» (٢).

وسنرى أن الذهبي الذي نظنه لم ير من الكتاب إلا جزؤه الثاني، كيف ينقل بعض الروايات من هذا الكتاب في كتابه (طرق حديث- من كنت مولاه-). وقال الذهبي في موضع غير هذا:

«قال محمد بن جرير الطبري في المجلد الثاني من كتاب (غدير خم) له، وأظنه بمثل جمع هذا الكتاب نسب إلى الشيع، فقال:....» (٣). وذكر ابن كثير (ت: ٧٧٤) في ترجمته للطبري في ذيل حوادث سنة (٣١٠) ما يلي:

«وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين» (٤).

وكتب ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢) معلقاً على ما أورده المزني في (تهذيب الكمال) بقوله:

«لم يزد على ما أتى به ابن عبد ربه في الاستيعاب سوى نقله لحديث الموالاته (٥) وقد جمعه ابن جرير الطبري في مؤلف فيه أضعاف من ذكر (٦) وصححه واعتنى بجمع طرقه أبو العباس بن عقدة فأخرجه من حديث سبعين صحابياً أو أكثر» (٧).

هدف الطبري من تأليف كتاب (الولاية):

أشار بعض المصادر إلى الهدف الذي توخاه الطبري وراء تأليفه لكتاب (الولاية). وخلصه الأمر أن عالماً من سجستان (هو ابن السجستاني المعروف

١-١ الطرائف: ١٤٢؛ وانظر أيضاً: ١٥٤، قم، ١٤٠٠ هـ.

٢-٢ تذكرة الحفاظ، بيروت، دار الكتب العلمية ٢: ٧١٣.

٣-٣ «طرق حديث من كنت...»: ٦٢، ش ٦١.

٤-٤ البداية والنهاية ١١-١٢: ١٦٧، ذيل حوادث سنة ٣١٠.

٥-٥ تهذيب الكمال ٢٠: ٤٨٤.

٦-٦ كتب في فتح الباري ٧: ٦١ دون الإشارة إلى كتاب الطبري يقول: «وأوعب من جمع مناقبه [يعني علياً] من الأحاديث الجياد النسائي في كتاب الخصائص؛ وأما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه، فقد أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً، وقد استودعها ابن عقدة في كتاب مفرد؛ وكثير من أسانيدنا صحاح وحسان».

٧-٧ «تهذيب التهذيب» ٧: ٢٩٧، بيروت، دارالفكر. وكانت توجد نسخة من كتاب «جمع طرق حديث الغدير» لابن عقدة في حوزة ابن حجر. راجع: «المقالات التاريخية»، المجلد السادس، مقالة المصادر التاريخية لابن حجر في الإصاغة: ٣٦٣.

ص: ٧٢

صاحب السنن) قام بتفنيد حديث الغدير مما حدا بالطبري إلى تأليف الكتاب المذكور (كرد على تلك الصيحة). دعونا نتابع التقارير المدونة في المصادر القديمة فيما يخص هذا الأمر.

يعد القاضي نعمان أول من بين العلة في تأليف كتاب (الولاية)، فهو القائل:

«فمن ذلك أن كتابه الذي ذكرناه وهو كتاب لطيف بسيط ذكر فيه فضائل علي عليه السلام وذكر أن سبب بسطه إياه، إنما كان لأن سائلاً سأله عن ذلك لأمر بلغه عن قائل زعم أن علياً عليه السلام لم يكن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع التي قيل إنه قام فيها بولاية علي بغدير خمّ ليدفع بذلك - بزعمه - عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه». فأكثر الطبري التعجب من جهل هذا القائل واحتج على ذلك بالروايات الثابتة على قدوم علي من اليمن على رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

وأما ياقوت الحموي فقد أخذ جلّ معلوماته من أبي بكر بن كامل بخصوص الطبري. فمن جملة ما قال (عند إحصائه لعدد من مؤلفات الطبري):

«وكتاب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه تكلم في أوله بصحة الأخبار الواردة في غدير خمّ، ثم تلاه بالفضائل ولم يتم» (٢). وفي إشارة له على كون الطبري كان قد غفر لكل من أساء إليه إلا أولئك الذين اتهموه بالبدعة، مدح ياقوت الحموي الطبري على سجيته هذه، ثم ينقل ما قاله أبو بكر بن كامل:

«وكان إذا عرف من إنسان بدعة أبعد وأطرحه. وكان قد قال بعض الشيوخ ببغداد بتكذيب حديث غدير خمّ، وقال: إن علي بن أبي طالب كان باليمن في الوقت الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله بغدير خمّ. وقال هذا الإنسان في قصيدة مزدوجة يصف فيه بلداً بلداً ومنزلاً منزلاً يُلوّح فيها إلى معنى حديث

١-١ شرح الأخبار ١: ١٣٠-١٣٢.

٢-٢ معجم الأدباء ١٨: ٨٠.

ص: ٧٣

غدير خَم فقال:

ثم مَرَرنا بغدير خَم كم قائل فيه بزور جَم

على عليّ والنبيّ الأُمّي

وبلغ أبا جعفر ذلك، فابتدأ بالكلام في فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام وذكر طريق حديث خَم، فكثُر الناس لاستماع ذلك

واستمع [اجتمع] قوم من الزوافض من بسط لسانه بما لا يَصُلُح في الصحابة فابتدأ بفضائل أبي بكر وعمر» (١).

ويلاحظ في النص السابق عدم ذكر اسم الشخص الذي طرح هذا الإشكال، لكنّ شمس الدين الذهبي يعطى صورة أوضح لهذه

المسألة مقتبساً قوله من أبي محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانيّ (الذي اعتبره الذهبي صديقاً للطبري (٢) وأنه هو الذي قام

بنقل أغلب ما نعلمه عن الطبري، وهو الذي وشح كتاب التاريخ للطبري بحاشيته) (٣). يقول الذهبي:

«ولما بلغه [الطبري] أن ابن أبي داود تكلم في حديث غدير خَم، عمل كتاب الفضائل وتكلم على تصحيح الحديث» (٤).

وفي مكان آخر حينما عدّ ما ألفه الطبري من الكتب يقول الذهبي:

«ولمّا بلغه أن أبا بكر بن أبي داود تكلم في حديث غدير خَم، حمل كتاب الفضائل، فبدأ بفضل الخلفاء الراشدين، وتكلم على

تصحيح حديث غدير خَم، واحتجّ لتصحيحه» (٥).

والفرغانيّ هو القائل لهذه الكلمات وابن عساكر هو الذي نقلها بأكملها، فقد كتب يقول بعد أن عدّ مؤلفات الطبري بالتفصيل:

«ولمّا بلغه أن أبا بكر بن أبي داود السجستانيّ [ت ٣١٦] تكلم في حديث غدير خَم عمل كتاب الفضائل، فبدأ بفضل أبي بكر وعمر

وعثمان وعلى رحمة الله عليهم، وتكلم على تصحيح حديث غدير خَم واحتجّ لتصحيحه وأتى من فضائل

١-١ المصدر السابق ١٨: ٨٤-٨٥.

٢-٢ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٢٨١.

٣-٣ راجع بهذا الخصوص: سير أعلام النبلاء ١٦: ١٣٢.

٤-٤ تذكرة الحفاظ ٢: ٧١٣.

٥-٥ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٢٨٣.

ص: ٧٤

أمير المؤمنين عليّ بما انتهى إليه ولم يتم الكتاب، وكان ممن لا يأخذه في دين الله لومة لائم...» (١). وهناك إشارات واضحة كذلك إلى الإشكال الذي صدر عن أبي بكر عبد الله ابن أبي داود سليمان السجستاني في مؤلفات الشيعة في مجال علم الكلام عند بحث مسألة حديث الغدير، وأشار أيضاً إلى تصدّي الطبري للسجستاني هذا. فمن جملة تلك الإشارات ما ورد عن السيد الشريف المرتضى في (الذخيرة) حيث أبطل كلام السجستاني مشيراً إلى مواجهته الطبري له (٢). وعبر المرتضى كذلك في (الشافى) عمّا صدر عن السجستاني بأنه مجرد إشكال محض مشيراً إلى أنّ جميع الرواة من سنة وشيعة قاموا بنقل حديث الغدير المتنازع عليه. وإلى جانب ما ذكره من أنّ وجهه نظر السجستاني ليست إلاّ وجهه نظر شاذة وفريدة من نوعها، ونقل الشريف المرتضى كلام السجستاني الذي ينكر فيه حديث الغدير وذلك في خضم مواجهته للطبري ومنازعتة في المسألة إياها (٣).

وقد ورد في هذه المصادر أيضاً أنّ السجستاني قد هذه النسبة مصرّحاً بأنّه لا ينكر أصل الحديث وحسب، بل وينكر كذلك وجود مسجد باسم مسجد غدير خمّ حتى ذلك التاريخ.

وكتب أبو الصلاح الحلبيّ في (تقريب المعارف) مشيراً إلى تواتر حديث الغدير يقول:

«ولا يقدح في هذا ما حكاه الطبري عن ابن أبي داود السجستاني من انكار خبر الغدير... على أنّ المضاف إلى السجستاني من ذلك موقوف على حكاية الطبري، مع ما بينهما من الملاحاة والشنآن، وقد أكذب الطبري في حكايته عنه، وصرّح بأنه لم ينكر الخبر وإنما أنكر أن يكون المسجد بغدير خمّ متقدماً وصنّف كتاباً معروفاً يتعدّر مما قرّفه به الطبري ويتبرأ منه» (٤).

١-١ تاريخ دمشق ٥٢: ١٩٨.

٢-٢ الذخيرة: ٤٤٢ تصحيح السيد أحمد الحسيني الأشكوري. على الرغم من الإشارة في نسختي كليهما من أنّ المقصود ب أبي بكر هو ابن أبي داود السجستاني صاحب السنن، فقد توهم المصحح وقام بتخطئه ذلك، فأورد اسم السجستاني نفسه في النصّ.

٣-٣ الشافى في الإمامة ٢: ٢٦٤ تصحيح السيد عبد الزهراء الخطيب، طهران، مؤسسة الصادق عليه السلام.

٤-٤ تقريب المعارف، تحقيق فارس حسون، قم، ١٤١٧ هـ: ٢٠٧-٢٠٨.

ص: ٧٥

كتاب (الولاية) وتهمته (التشيع):

ذكر الذهبي أن السب وراء اتهام الطبري بالتشيع هو تأليفه كتاب (الولاية)؛ (١) وذلك لأن أصحاب الحديث لا يؤيدون حديث (الغدیر)، وحتى الذين يقبلون هذا الحديث (من أصحاب الحديث) لم يُجيزوا لأحد على الإطلاق تأليف كتب في طرق الحديث المذكور حتى للطبري الذي كان يومها إماماً وعلماً مرهوب الجانب، ذلك أن من شأن كتاب كهذا أن يكون حجّة في يد الشيعة. بل ولم يجرؤ حتى البخاري على ذكر حديث الغدير واكتفى بنقل الأحاديث الموجودة في حوزة أهل الحديث مع أن للحديث المذكور طرقاً كثيرة ومتعددة.

وإذا سلطنا الضوء على الكتاب الآخر الذي ألفه الطبري والمعروف بكتاب (حديث الطير) الذي بين فيه بالتفصيل أفضلية الإمام على عليه السلام على باقي الصحابة، ستوضح لنا الأسباب التي حثت بالكثيرين إلى اتهامه بالتشيع.

وقد قال ابن كثير واصفاً الكتاب المشار إليه: «ورأيت فيه مجلداً في جمع طرقه وألفاظه لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المفسر صاحب التاريخ». ثم يستطرد قائلاً بأن أبا بكر الباقلاني ألف كتاباً في تضعيف طرق ودلالات هذه الرواية وذلك في معرض رده على كتاب الطبري (٢).

وبعد كل ما ذكرنا، تبدو المسألة واضحة المعالم تماماً؛ فلم يكن أمام أعداء الطبري خيار آخر إلا اللجوء إلى اتهامه بالتشيع وخصوصاً في ظروف مثل تلك التي كانت سائدة في بغداد آنذاك حيث تتمركز قوة الحنابلة وثقلها الأكبر فيخرج عليهم الطبري بتأليفاته في (حديث الغدير) تارةً، وفي كتاباته التي يبين فيها فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام صراحةً تارةً أخرى، على ذلك فلا بد وان يتهم بالتشيع.

وطريف هنا أن نذكر أن ابن خزيمة (المحدث السنّي المعروف وأحد رجال الحديث المشهورين وهو من المشبهة) نزيل نيسابور كتب يقول: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة» (٣).

١- ١ طرق حديث «من كنت...»: ٦٢؛ وأظنه بسبب جمع هذا الكتاب نسب إلى التشيع.

٢- ٢ البداية والنهاية ٧: ٣٩٠ دار إحياء التراث العربي، ١٤١٣ هـ.

٣- ٣ تاريخ بغداد ٢: ١٦٤؛ تاريخ دمشق ٥٢: ١٩٦؛ الأنساب ٤: ٤٦؛ معجم الأدباء ١٨: ٤٣؛ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٢٨٢.

ص: ٧٦

وتجدر الإشارة إلى أن حقد الحنابلة على ابن جرير الطبري (١) له أسباب أخرى غير التي ذكرت (٢)، لكن هذه الواحدة تعتبر الأكبر بين أخواتها. والحق أنه لم تكن بيد الحنابلة وسيلة أنجع من هذه ولا في جمعيتهم حيلة أخرى غير تلك لاثهام الطبري بالتشيع. وكتب ابن مسكويه بهذا الخصوص يقول:

«وفيها [سنة ٣١٠] تُوفى محمد بن جرير الطبري، وله نحو تسعين سنة، ودفن ليلاً، لأن العامة اجتمعت و منعته من دفنه نهاراً. وادعت عليه الرّفص، ثم ادعت عليه الإلحاد» (٣).

وقد نقل ياقوت الحمويّ كلاماً للخطيب البغداديّ حول الطبري، منه:

«قال غير الخطيب: ودُفن ليلاً خوفاً من العامة لأنه كان يتّهم بالتشيع» (٤).

ونقل ابن الجوزي كذلك ما قاله ثابت بن سنان عن الطبري جاء فيه:

«وذكر ثابت بن سنان في تاريخه: أنه إنما أخفيت حاله؛ لأن العامة اجتمعوا ومنعوا من دفنه بالنهار و ادعوا عليه الرّفص، ثم ادعوا عليه الإلحاد» (٥).

ويضيف ابن الجوزي أن السبب الآخر في اتّهام الحنابلة الطبري بالرّفص هو الفتوى التي أصدرها الطبري في جواز مسح القدم في الوضوء واعتباره الغسل والشطف أمراً غير ذي ضرورة، بقوله «فلهذا نُسب إلى الرّفص» (٦).

وكتب ابن الأثير، مقتبساً ذلك من كلام لابن مسكويه، يقول:

«وفي هذه السنة [٣١٠] تُوفى محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ ببغداد، ومولده سنة أربع وعشرين ومئتين، ودفن ليلاً بداره، لأن العامة اجتمعت، ومنعت من دفنه نهاراً، وادعوا عليه الرّفص، ثم ادعوا عليه الإلحاد» (٧).

وتجدر الإشارة إلى أن ابن الأثير لا يوافق على استخدام لفظه (العامة) كتعبير عن أهل السّنة، وبعد تأكيده على عدم اتیان المخالفة من قبل العامة (أى أهل

١- قال: كانت الحنابلة تمنع ولا تتشرك أحداً يسمع عليه. معجم الأدباء ١٨: ٤٣.

٢- من جملة ذلك إنكار حديث الجلوس على العرش والذي كان عنه أنه محال وكان يردّد البيت التالي:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء ١٨: ٥٨؛ الوافي بالوفيات ٢: ٢٨٧. ويضيف قائلاً: فلما سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث، وثبوا ورموه بمحابرهم وقيل كانت الوفا، فقام أبو جعفر بنفسه ودخل داره، فرموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتلّ العظيم، وركب نازوك صاحب الشّربة في عشرات الألوف من الجند يمنع عنه العامة. ووقف على بابه يوماً إلى الليل وأمر برفع الحجارة عنه. وكان قد كتب على بابه:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

فأمر نازوك بمحو ذلك. وكتب مكانه بعض أصحاب الحديث...

واستسلم الطبري أمام هذه الضغوط وكتب ما وافق ميل الحنابلة.

وإضافة إلى ما ذكر، فقد ذكر ابن الجوزي قولاً حول وجود اختلافات أخرى في وجهات النظر بين الطبري وأبي بكر بن أبي داود فيما يخصّ المسائل العقائدية، وحول سعي ابن أبي داود في إيصال الأمر إلى السلطات آنئذ وجواب الطبري عن ذلك. راجع: المنتظم ١٣:

.٢١٧

والسبب الآخر وراء عداة الحنابلة للطبري يكمن في أنه لم ير أهمية تُذكر لفقهِ أحمد بن حنبل ولم يعتن به، فقد كتب ابن الوردي يقول: وصنّف كتاباً فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك، فقال: إنّما كان أحمد بن حنبل محدثاً. فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرةً ببغداد، ورموه بالرّفص تعصّباً وتشنيعاً عليه. [تاريخ ابن الوردي ١: ٣٥٦ النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، ١٣٨٩ ق.؛ المختصر في أخبار البشر ١: ٧١ القاهرة، مكتبة المتنبى].

٣-٣ تجارب الأمم ٥: ١٤٢ تصحيح الدكتور أبو القاسم الإمامي، طهران، سروش، ١٩٩٨ م.

٤-٤ معجم الأدباء ١٨: ٤٠ دار الفكر.

٥-٥ المنتظم ١٣: ٢١٧.

٦-٦ المصدر السابق.

٧-٧ الكامل في التاريخ ٥: ٧٤ ذيل حوادث سنة ٣١٠ بيروت، مؤسسة التاريخ العربي.

ص: ٧٧

السنة) يلقي باللوم والتقصير على الحنابلة فيقول: «وإنما بعض الحنابلة تعصّبوا عليه ووقعوا فيه، فتبعهم غيرهم» (١).

وكتب ابن كثير أيضاً حول المواجهة التي كانت بين الحنابلة والطبري حيث قال:

«وَدُفِنَ فِي دَارِهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ عَوَامِ الْحَنَابِلَةِ وَرِعَاعِهِمْ مَنَعُوا دَفْنَ نَهَاراً وَنَسَبُوهُ إِلَى الرَّفْضِ... وَإِنَّمَا تَقَلَّدُوا ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ

دَاوُدَ الْفَقِيهِ الظَّاهِرِيِّ، حَيْثُ تَكَلَّمَ فِيهِ وَيَرْمِيهِ بِالْعِظَائِمِ وَبِالرَّفْضِ» (٢).

وإذا أمعنا النظر في عبارات ابن كثير السابقة نجده قد خلط (إن عمداً أو سهواً) بين أبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت:

٣١٦) والمتهم بكونه ناصبياً وبين أبي بكر محمّد بن علي بن داود الفقيه الظاهري (٣). فالشخص الذي كان يتهم الطبري بالتشيع هو

السجستاني - ابن السجستاني صاحب السنين - والذي هو نفسه كان متهماً بأنه ناصبي، ولهذا فعندما وصل الخبر إلى الطبري بأن

السجستاني يروي فضائل علي عليه السلام علق على ذلك بقوله: تكيّرة من حارس (٤).

ثم يُشير الذهبي بعد ذلك إلى العداة القائم بينهما، وعن السجستاني بأنه ناصبي، حيث ينكر هو ذلك بالطبع (٥). وخلال شرحه لحال

السجستاني يُشير ابن النديم إلى قيامه بتصنيف كتاب في التفسير وكان الطبري قد سبقه بتأليف مُشابه (٦)، وهذا شاهد آخر على شدة

المنافسة بين هذين الرجلين.

وأما ناصبية السجستاني فقد أدت إلى قيام ابن فرات إلى نفيه إلى واسط وإبعاده عن بغداد إلى أن قيل عنه بأنه بدأ يُشيع فضائل الإمام

علي عليه السلام وحينئذ سمح له علي بن عيسى بالرجوع إلى بغداد حتى أصبح شيخاً للحنابلة «ثم تَحَبَّلَ، فصار شيخاً فيهم وهو مقبول

عند أهل الحديث. وقد وصل الأمر بالسجستاني حدّاً مزيماً حتى قال فيه أبوه: ابني عبد الله كذاب!» (٧).

ونقل الذهبي في كتابه (ميزان الاعتدال) عند ترجمته للطبري كلام أحد

١-١ المصدر السابق.

٢-٢ البداية والنهاية ١١-١٢: ١٦٧ بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٣ هـ.

٣-٣ لا- شك في وجود اختلاف في وجهات النظر بين الطبري وبين علي بن داود الظاهري، والذي كان السبب في قيام ابن الظاهري

محمّد بن علي بن داود الظاهري، إلّا أنّ تلك الحادثة لا علاقة لها فيما نحن بصددده وهو مسألة الغدير. [راجع: معجم الأدباء ١٨: ٧٩-

٨٠].

٤-٤ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٥١٦.

٥-٥ المصدر السابق: ٥١٧.

٦-٦ الفهرست: ٢٨٨.

٧-٧ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٥١٨.

ص: ٧٨

المحدثين من أهل السنة حوله قائلاً: «أذع أحمد بن علي السليمانى الحافظ فقال: كان يضع للروافض» (١)، ثم قام بالردّ عليه مادحاً الطبري بقوله: «ثقة صادق فيه تشييع يسير وموالاة لاتصّر» (٢)، واحتمل أن يكون السليمانى قاصداً الردّ على ابن جرير الشيعي الذي قام بتأليف كتاب (الرواه عن أهل البيت). وبعد الأخذ بنظر الاعتبار النصوص الموجودة لدينا والخاصة باتهام الطبري بالتشييع، يتأكد لنا من أن الشخص الذي قصده السليمانى في كتابه هو الطبري لا غير، علاوةً على ذلك فإن ابن جرير الشيعي لم يكن معروفاً في الأوساط السنية. وفي كتابه (لسان الميزان) قام ابن حجر بنقل كلام الذهبي مؤيداً إياه ومدافعاً عن السليمانى الذي اعتبره إماماً متقناً، ثم أكد أنه إنما عنى بكلامه ابن جرير الثانى (أى الإمامي المذهب)! لكنّه مع ذلك يُشير إلى نقطة مهمّة تتعلّق بالطبري بقوله: «وإنما نُزِرَ بالتشييع لأنّه صحّ حديثٌ غدِير حُمّ» (٣).

تشييع الطبري (٤)

قبل الشروع بالبحث في روايات الغدير في كتاب الطبري، لا بأس من طرح سؤال هنا على سبيل الاستدراك وهو: هل كان هذا هو السبب الوحيد الذي بواسطته اتهم الطبري بالتشييع، أم كانت هناك أسباب أخرى؟ ثم لم يذكر بل لم يُشر الطبري إلى حديثي (الغدير) و (الطير) المشهورين في كتابيه (التاريخ) و (التفسير) ولكنّه قام في سنن عمره الأخيرة بتأليف كتاب يتناول الحديثين المذكورين بشكل مفصّل وهو يعلم علم اليقين العواقب الخطيرة التي يمكن أن تترتب على تأليفه مثل ذلك الكتاب؟ هل يمكن أن نقول: إنّ تحوّلاً جذرياً قد طرأ على عقيدة الطبري الدينيّة؟ إنّ احتمالاً كهذا يبدو غير صحيح؛ وذلك إذا ما أخذنا شخصية الطبري وتأليفه المعروفة بنظر الاعتبار. الحقّ أنّ هذه المسألة تكمن وراءها أمور عديدة تعمل كلّها على تشويه الصورة الأصليّة لها.

١-١ ميزان الاعتدال ٣: ٤٩٩.

٢-٢ المصدر السابق.

٣-٣ لسان الميزان ٥: ٧٥٨ بيروت، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي.

٤-٤ إنّ هناك فرقاً بين الاتهام بالتشييع والاتهام بالزّفض. راجع بهذا الخصوص البحوث الأوليّة في كتاب- تاريخ التشيع في إيران- المجلد الأول.

ص: ٧٩

كل ما في الأمر أن أبا بكر محمد بن عباس الخوارزمي (٣١٦-٣٨٣) (١) الأديب المعروف والشاعر الذائع الصيت في العصر البويهّي والمعروف بتشيّعه (٢) كان ابن أخت الطبري، وهو نفسه يُشير إلى ذلك في أبيات شعريّة ذكراً أنّه أخذ تشيّعه عن أخواله (أى عائلة ابن جرير الطبري هذا).

هذا وقد ثبتت نسبة الخوارزمي إلى الطبري بكون الأخير خاله وذلك في نصوص المصادر القديمة من جملتها ما كتبه السمعاني (ت: ٥٦٢) في ذيل مدخل الخوارزمي حيث قال: «... والشاعر المعروف أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الأديب، وقيل له: الطبري لأنه ابن أخت محمد بن جرير بن يزيد الطبري» (٣). وذكر هذا المسألة كذلك كل من ابن خلكان (٤)، شمس الدين الذهبي (٥)، الصفدي (٦)، ابن عماد الحنبلي (٧)، اليافعي (٨) وغيرهم.

وربما اقتبس هؤلاء هذه النكتة من بعضهم البعض، لكنّ النصّ الأهمّ والأقدم من كلّ ما سبق، حتى من نصّ السمعاني نفسه، هو النصّ الذي كتبه الحاكم النيسابوري (ربيع الأول من عام ٣٢١- صفر عام ٤٠٥) في كتابه المفقود (تاريخ نيسابور) والذي ذكر فيه كلّ تلك الأمور (٩).

وكتب ابن فندق البيهقي في شرحه للتأليفات التاريخيّة يقول: «ثم صنّف بعده محمد بن جرير الطبري (وهو خال أبو بكر الخوارزمي الأديب) (التاريخ الكبير)، وقد قادني ذلك إلى معرفة نسب محمد بن جرير المؤرّخ كما ذكر هذا الحاكم أبو عبد الله الحافظ في (تاريخ نيسابور)» (١٠). وكتب في مكان آخر أيضاً: «وكان الخواجه أبو القاسم الحسين بن أبي الحسن البيهقي رجلاً شجاعاً شهماً وكانت ملوك عصره تعزّه وتقدره. والدته هي بنت أبي الفضل بن الأستاذ العالم أبي بكر الخوارزمي.

والأستاذ العالم الفاضل أبو بكر الخوارزمي هو ابن أخت محمد بن جرير الطبري والذي يُنسبون كتابي (التاريخ) و (التفسير) وقد ذكر هذا الحاكم أبو عبد الله الحافظ في كتابه (تاريخ نيسابور)» (١١).

١-١ حول سنة ولادته، راجع: مقدمه ديوان أبي بكر الخوارزمي، للدكتور حامد صدقي: ١٠٧.

٢-٢ انظر رسالته إلى الشيعة في نيسابور والمجموعة في كتاب رسائل الخوارزمي، طبعه بيروت: ١٦. وكان الأستاذ صدقي قد جمع كلّ عباراته التي يمكن من خلالها استشمام رائحة التشيع عند الرجل ووضعها في مقدمه ديوان أبي بكر الخوارزمي طهران، التراث المكتوب، ١٩٩٧ م: ١١٥-١١٧.

٣-٣ الأنساب ٢: ٤٠٨.

٤-٤ وفيات الأعيان ٤: ١٩٢ و ٤٠٠.

٥-٥ سير أعلام النبلاء ١٦: ٥٢٦.

٦-٦ الوافي بالوفيات ٢: ٢٨٤.

٧-٧ شذرات الذهب ٣: ١٠٥.

٨-٨ مرآة الزمان ٢: ٤١٦.

٩-٩ تاريخ نيسابور، تصحيح محمد رضا شفيعي كدكني، طهران، ١٩٩٦ م: ١٨٥. وردت هناك العبارة التالية: «محمد بن العباس، ابن أخت محمد بن جرير، أبو بكر الأديب الخوارزمي»: ١٨٥، ش ٢٤٤٥.

١٠-١٠ تاريخ بيهق: ١٦.

١١-١١ المصدر السابق: ١٦.

ص: ٨٠

إذاً، ومع كل تلك التصاريح لا يبقى بوسع أحد تفنيدها بأي شكل من الأشكال، إلاًياقوت وحده حيث شكك في هذا الأمر حين قال: «وكان يزعم أن أبا جعفر الطبري خاله» (١).

هذا وقد قام الأقا محمد علي الكرمانشاهي (٢)، مؤلف (روضات الجنّات) (٣) وصاحب (أعيان الشيعة) (٤) بمساعدة القاضي نور الله الشوشترى (٥) بالرد على ياقوت مبرهنًا على كون الخوارزمي هو ابن أخت الطبري الشيعي وهو لا ريب يناقض ما ورد في النصوص التأريخية (٦).

وأما محمد حسين الأعرجي فقد أورد إشكالاً في مقدمة كتاب (الأمثال) للخوارزمي (٧) حول تأريخ ولادة الخوارزمي وتزامن ذلك مع فترة حياة الطبري المؤرخ، يريد بذلك دحض مسألة كون الخوارزمي ابن أخت الطبري. وتجدد الإشارة إلى أنه لو ثبتت معاصرة محمد بن جرير الشيعي للطبري المؤرخ فإن الإشكال عينه أيضاً سيرز إلى السطح. إضافةً إلى ذلك فإن الفترة من وفاة الطبري المؤرخ (ت: ٣١٠) إلى الفترة التي عاش خلالها الخوارزمي والتي تبلغ (٧٣) سنة تبدو نادرة بعض الشيء، لكنّها قد تصدق في نفس الوقت. ثم ليس بالضرورة أن يكون الخوارزمي ابن أخت الطبري مباشرةً، فقد يكون مثلاً حفيد أخت الطبري. على أيّ حال، المهم لدينا هنا هو النصوص التأريخية وخصوصاً تلك المدونة في كتاب (تاريخ نيسابور)، فمؤلف هذا الكتاب أعلم من أن يكون قد جهل شخصية الطبري المؤرخ، أو أن يكون قد خلط بينه وبين غيره. ونتيجة لهذا لا يعقل أن يذكر الحاكم النيسابوري أمراً كهذا بالصدفة، ثم من ناحية أخرى يقوم أبو بكر الخوارزمي بالإشارة إلى نفس الموضوع صراحةً في شعره. ومهما يكن من أمر، فبالرغم من كون مؤلفات الطبري المؤرخ لا تمت إلى الإمامية ولا التشيع بصله، وبالرغم كذلك من عدم وجود نصّ تأريخيّ يثبت ولو بقدر ضئيل كون أبي بكر الخوارزمي كان إمامي المذهب (٨) - برغم تشييعه الشديد

١- ١ معجم البلدان ١: ٧٧.

٢- ٢ مقام الفضل ١: ٤٦٤-٤٦٥ قم، تحقيق ونشر مؤسسة العلامة الوحيد البهبهاني، ١٤٢١ هـ.

٣- ٣ المجلد السابع: ٢٩٣-٢٩٤.

٤- ٤ المجلد التاسع: ٣٧٧-٣٧٨.

٥- ٥ مجالس المؤمنين ١: ٩٨.

٦- ٦ وعلى هذا استند المرحوم المحدّث الأرموي في تعليقات التّقض ٢: ٦٥٨؛ معتبراً الخوارزمي ابن أخت الطبري المؤرخ، وهو ما أيده الأستاذ حامد صدقي واعتبره مطابقاً لما ورد في المصادر التأريخية. راجع: مقدمة ديوان أبي بكر الخوارزمي: ١١١.

٧- ٧ مقدمة ديوان أبي بكر الخوارزمي: ١١٢-١١٣.

٨- ٨ سوى الأبيات التي سنأتي على ذكرها فيما بعد.

ص: ٨١

كما هو الحال مع الصحاب بن عباد- فإن هذا الإشكال قائم وباقي.

وبعد تجاوز مسألة النسبة بين الخوارزمي والطبري، نواجه أمراً آخر لا يقل أهميته عن سابقه، وهو نسبة أبي بكر الخوارزمي نفسه إلى التشيع والرفض من خلال بيتين للشعر ثم يُرجع ذلك إلى كون أحواله هم من الشيعة أيضاً.

كتب ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦) في مادة (آمل) (١) ما نصّه:

«ولذلك قال أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، وأصله من آمل أيضاً، وكان يزعم أن أبا جعفر الطبري خاله:

بأمل مولدي وبنو جرير فأخوالي، ويحكي المرء خاله

فها أنا رافضي عن تراث وغيري رافضي عن كلاله

وكذب، لم يكن أبو جعفر، رحمه الله، رافضياً، وإنما حسدته الحنابلة فرموه بذلك، فاغتنمها الخوارزمي، وكان سبباً رافضياً مجاهراً بذلك متبجحاً».

وكتب عبد الجليل القزويني (٢) كذلك يقول:

«وأبو بكر الخوارزمي معروف بتشيعه ولا ينكر أحد من الفضلاء قدره ومنزلته وفضله. والبيتان التاليان يدلان على حقيقة ذلك وإن كان المصنف (ويعني بذلك الشخص الذي ألف عبد الجليل كتابه- التَّقْض- للردّ عليه) يعتقد بعدم تسمية الشيعة نفسه ب (أبي بكر):

بأمل مولدي وبنو جرير فأخوالي، ويحكي المرء خاله

فمن يك رافضياً عن تراث فإني رافضي عن كلاله».

والمصرع الأول للبيت الثاني هنا وإن كان يشبه مثيله الذي ذكره ياقوت الحموي إلا أنه يبدو صحيحاً أكثر من سابقه. وأورد ابن فندق البيهقي كذلك البيت الأوّل دون الثاني (٣).

١- ١ معجم البلدان ١: ٧٧؛ أورد القاضي نور الله البيتين المذكورين كذلك في كتابه مجالس المؤمنين ١: ٩٨.

٢- ٢ التَّقْض: ٢١٨.

٣- ٣ تاريخ بيهقي: ١٠٨. بالرغم من أن هذين البيتين قد وردا في ثلاثة مصادر قديمة، إلا أن ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢: ٣٦ ذكر كلاماً غير هذا. فقد كتب مشيراً إلى كتاب المسترشد الذي صنفه محمد بن جرير الطبري، يقول: «ذاك ليس بمحمد بن جرير صاحب التاريخ بل هو من رجال الشيعة، وأعتقد أن أمه من بني جرير من مدينة آمل بطبرستان. بنو جرير الآمليون شيعة مستهترون بالتشيع، فنسب إلى أحواله». ثم يستطرد قائلاً: «وله بيتين من الشعر يؤكّدان هذا الأمر». ثم أورد البيتين المذكورين مع تغيير طفيف:

بأمل مولدي وبنو جرير فأخوالي ويحكي المرء خاله

فمن يك رافضياً عن أبيه فإني رافضي عن كلاله

ولا يُعرف السبب وراء نسبة ابن أبي الحديد تشيع محمد بن جرير الرافضي وهو نفسه من بني جرير إلى أحواله الذين نسبهم كذلك إلى بني جرير.

ص: ٨٢

إضافةً إلى ذلك، فإن ما ذكره الطبري من نصوص في كتابه (مناقب أهل البيت عليهم السلام) رغم قوة شوكة الحنابلة في بغداد وقتئذٍ وتسلطهم عليها، يمكن أن تكون خير شاهد على أن الطبري كان شيعياً وليس رافضياً. بل وهناك روايات تدل صراحةً ودون أيّ التباس على كونه شيعياً إمامياً إثنى عشرياً. من جملة تلك الروايات، تلك التي ذكرها ابن طاووس في كتاب (اليقين) وفيها دلالة واضحة على أن سلمان [الفارسي] نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «إن علي بن أبي طالب عليه السلام وصي ووارثي و قاضي ديني وعدتي وهو الفاروق بين الحق والباطل، وهو يعسوب المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين والحامل غداً لواء رب العالمين. هو وولده من بعده. ثم من الحسين ابني، أئمة تسعة هداة مهديون إلى يوم القيامة.

أشكو إلى الله جحود أمتي لأخي وتظاهرهم عليه وظلمهم له وأخذهم حقه».

ولأهمية النص المذكور لديه ونقله على لسان الطبري، كتب ابن طاووس يقول: «إذا لم يكن في الإسلام حديث معتمد قد نُقل إلّا هذا (الذي ينقله لنا الطبري الذي ما علمناه إلّا ممدوحاً موثقاً) لكان ذلك حسب علي بن أبي طالب، والنبى صلى الله عليه وآله الذي صرح باستقرار الإمامة في ولد علي» (١).

القاضي نعمان وكتاب الولاية:

يُعتبر كتاب (شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار عليهم السلام) الذي صنّفه القاضي نعمان بن محمد التميمي المغربي الإسماعيلي المذهب (ت: ٣٦٣) من أقدم المصادر التي تفرّدت بحصّة الأسد في الاقتباس عن كتابي (الولاية) و (مناقب أهل البيت) للطبري. ولكن، ومما يؤسف له أن الكتاب المذكور مع تصريحه بنقل معظم رواياته عن كتاب الطبري إلّا أنّ مؤلفه أسقط اسناد الكثير من الروايات المنقولة سوى التزر اليسير منها، الأمر الذي أفقد الكتاب اعتباره وأهميته. فعلى سبيل المثال كتب القاضي نعمان تعليقاً بعد نقله لخبر «أنت أخي ووصي وخليفتي من بعدي» يقول فيه:

ص: ٨٣

«وممن رواه وأدخله في كتاب ذكر فيه فضائل علي عليه السلام - غير من تقدّم ذكره - محمد بن جرير الطبري وهو أحد أهل بغداد من العامة عن قرب عهد في العلم والحديث والفقهاء عندهم» (١)، ثم يذكر الطرق المختلفة التي نقل الطبري عنها ذلك الحديث (٢). ثم بعد نقله لعدد من الروايات عن كتاب الطبري، أشار في نهاية ذكره للكثير من الأحاديث بهذه العبارة: «وهو كتاب لطيف بسيط ذكر فيه فضائل علي عليه السلام». ويبيّن بعد ذلك القسم الخاص برواية الغدير في كتاب الطبري والغرض الذي توخاه في تصنيفه الكتاب المذكور والذي تقدّم شرحه (٣).

ربما كان يقصد بكتاب (فضائل علي عليه السلام) كتاب (الولاية) أو كتاباً آخر في فضائل علي، والذي ربما كان قسم منه يتناول طرق حديث الغدير. وفي آخر نقله للأحاديث في باب الوصاية للإمام علي (عن الطبري) يشير مرة أخرى إلى البساطة التي استخدمها الطبري في كتابه في نقل فضائل الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «وما رواه وبسطه من فضائل علي عليه السلام...» (٤). وعلى أي حال يمكن القول: إن القاضي نعمان هو الأكثر من بين الناقلين عن كتاب الطبري في مصنفه (شرح الأخبار) قياساً بغيره. لكنّه كما ذكرنا أسقط اسناد الأحاديث التي أوردها الطبري في نقله لها، ونتيجة لذلك فهو لم يأت بتفصيل الروايات التي جاءت عند نقل الطبري لحديث الغدير؛ وذلك أن أسناد تلك الروايات وحدها كانت مختلفة. لكنّه صرح مع ذلك بأن الطبري كان قد أفرد باباً خاصاً لرواية الغدير رداً على أبي بكر السجستاني.

وكان السجستاني قد ذكر بأن علياً عليه السلام لم يرافق النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع وعلى هذا تكون رواية الغدير باطلة من أساسها. هذا الأمر هو الذي أثار حفيظة الطبري فقام بتأليف كتاب (الولاية). وكتب القاضي نعمان يقول: «واحتج [الطبري] على ذلك بالروايات الثابتة على قدم علي - صلوات الله عليه - من اليمن على رسول الله صلى الله عليه وآله عند وصوله إلى مكة...» (٥). ويستطرد

١-١ شرح الأخبار ١: ١١٦.

٢-٢ المصدر السابق: ١١٧.

٣-٣ المصدر السابق: ١٣٠-١٣١.

٤-٤ المصدر السابق ١: ١٢٨.

٥-٥ المصدر السابق ١: ١٣٢.

ص: ٨٤

القاضي كذلك في بحثه عن كتاب (الولاية) الذي تناول جزءاً منه فضائل عليّ ثم عرّف فيما بعد بشكله المستقل، بقوله: «ثم جاء أيضاً في هذا الكتاب باب أفرد فيه الروايات الثابتة التي جاءت من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَ حِجَّةِ الْوُدَاعِ وَبَعْدَهُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مِنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مِنْ عَادَاهُ، وَانصِرْ مِنْ نَصْرِهِ، وَاخْذَلْ مَنْ خَذَلَهُ». وقوله: «عليّ أمير المؤمنين وعليّ أخي، وعليّ وزير، وعليّ وصي، وعليّ خليفتي عليّ أمتي من بعدى، وعليّ أولى الناس بالناس من بعدى».

وغير ذلك ممّا يوجب له مقامه من بعده، وتسليم الأئمة له ذلك، وأن لا يتقدّم عليه أحد منها، ولا يتأمر عليه، في كلام طويل ذكر ذلك فيه، واحتجاج أكيد أطاله على قائل حكى قوله ولا نعلم أحداً قال بمثله، وما حكاه عنه من دفع ما اجتمعت عليه الأئمة عليه ونفيه أن يكون عليّ عليه السلام مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي حِجَّةِ الْوُدَاعِ. وعمامة أهل العلم، وأصحاب الحديث مجمعون على أنه كان معه... فأشغل الطبري أكثر كتابه بالاحتجاج على هذا القائل الجاحد الشاذّ قوله الذي لم يثبت عند أحد من أهل العلم» (١).

وقد تعجّب القاضي نعمان من أن الطبري رغم نقله لتلك الأحاديث، لماذا عمل طبق مذهب العامة؟ حيث يقول: «وأغفل الطبري أو تجاهل خلفه، لما أثبتته ورواه وصحّحه ممّا قدمنا ذكره. وحكايته عنه في عليّ عليه السلام وذهب فيه إلى ما ذهب أصحابه من العامة إليه من تقديم أبي بكر وعمر وعثمان عليه» (٢).

وبعد نقله لروايات الغدير قام القاضي نعمان بنقل روايات أخر في فضائل الإمام عليّ عليه السلام من كتاب الطبري، وأولها حديث (الطير)، قائلاً: «ونحن بعد هذا نحكي ممّا رواه الطبري هذا من مناقب عليّ صلوات الله عليه وفضائله الموجبة لما خالفه هو لنؤكد بذلك ما ذكرناه عنه» (٣). ثم قال (بعد نقله لحديث (الطير): «وجاء الطبري بهذا الحديث بروايات كثيرة وطُرُق شتى» (٤). ثم بعد أن يأتي بحديث

١-١ المصدر السابق: ١٣٥. ويقصد الكلام الذي قيل فيه: إن الإمام عليّاً عليه السلام كان موجوداً في اليمن وقت حجة الوداع.

٢-٢ المصدر السابق ١: ١٣٦-١٣٧.

٣-٣ المصدر السابق: ١٣٧.

٤-٤ المصدر السابق: ١٣٨.

ص: ٨٥

(الراية) يقول: «فجاء الطبري بهذا الخبر وما قبله من الأخبار من طرق كثيرة» (١). وعقب نقله للخبر الذي ذكر فيه أن الإمام علياً عليه السلام قال مخاطباً أصحابه: (ستجبرون على سبى من بعدى) قال: «وهذا مما أثبتناه في هذا الكتاب مما آثره الطبري الذي قدمنا ذكره» (٢)، وجاء ببقية حديث رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأما الشخصية الأخرى التي اقتبست من كتاب (الولاية) للطبري بعد القاضي نعمان، هو ابن عبد البر الأندلسي (٣٦٨ - ٤٦٣). والأندلسي هذا قام بنقل ثلاثة أحاديث من كتاب الطبري في الجزء الشيق فيه الخاصّ بشرح حال الإمام علي عليه السلام (٣) من كتابه «الاستيعاب»، لكن لا توجد دلائل تؤكد على أن الأندلسي قام بنقل الأحاديث أو الروايات عن كتاب الولاية أو كتاب الفضائل، إلا أنه من المؤكد أن الطبري قد أورد تلك الأحاديث في كتابه (فضائل علي عليه السلام).

ابن شهر آشوب وكتاب الولاية:

أبو جعفر رشيد الدين محمد بن علي المعروف بابن شهر آشوب (ت: ٥٨٨) هو الشخصية الأخرى التي أشارت إلى كتاب الولاية للطبري في كتاب «المناقب».

فقد كتب يذكر جملة من الذين ذكروا حديث (الغدیر) خلال مؤلفاتهم، ومنهم الطبري حيث يقول:

«ابن جرير الطبري من ثيف وسبعين طريقاً في كتاب الولاية» (٤). وقام ابن شهر آشوب كذلك بالاقْتباس عن كتاب (الولاية) في مواطن عديدة من كتابه المناقب، لكننا لا نعلم أنه قد فعل ذلك بصورة مباشرة، والمهمّ لدينا هو أنه قام بالاقْتباس عن هذا الكتاب مواضع لم تُذكر في مصادر أخرى. وقد اعتاد ابن شهر آشوب على ذكر المصادر في بداية كلّ جملة، كقوله: «حلية أبو نعيم وولاية الطبري، قال النبي...» (٥)، أو قوله: «ابن مجاهد في التاريخ والطبري في الولاية» (٦)، أو قوله في موضع آخر: «الطبريان في الولاية والمناقب» (٧). ولا ريب أنه قد قصد كتابي (الولاية) و (المناقب) للطبري. وقال في مكان

١-١ المصدر السابق ١: ١٤٩.

٢-٢ شرح الأخبار: ١٦٤.

٣-٣ الاستيعاب ٣: ١٠٩٠، ١١١٨، ١١٢٦.

٤-٤ المناقب ٤: ٢٥.

٥-٥ المصدر السابق ٣: ٤٨.

٦-٦ المصدر السابق ٣: ٦٧.

٧-٧ المصدر السابق ٣: ٧٠ و ٤: ٧٣.

ص: ٨٦

آخر: «والطبري في التاريخ والمناقب» (١). ويبدو من خلال ذكره لعبارة: (أورد الطبري حديث الطير في كتابه - الولاية) أنه كان يعتبر كتاب (الولاية) (٢) أعم وأشمل من كتاب (الفضائل). وكان استعمل مرة هذه العبارة: (الطبري في الولاية) في كتابه الموسوم ب (متشابه القرآن) (٣).

والنقطة المهمة الأخرى هي أن ابن شهر آشوب راوح بين نقله صراحةً من كتاب (الولاية) تارةً ومن كتاب (تاريخ الطبري) تارةً أخرى، لكننا نجد في مواطن أخرى يقوم بنقل الحديث عن الطبري دون أن يشير إلى أي كتاب من كتب الطبري، إلا أنه وبعد التمعن بفحوى بعض تلك الأحاديث التي يستشف منها فضائل الإمام علي عليه السلام، يمكننا الاستنتاج بأنها منقولة لا محالة عن كتاب (الولاية). ابن طاووس وكتاب (المناقب) وحديث (الولاية):

وأما ابن طاووس (ت: ٦٦٤) فقد ذكر كتابي الطبري معاً ثم قام بنقل بعض النصوص عن كتاب (المناقب) خاصة. يقول ابن طاووس في كتابه (اليقين): «فيما نذكره من كتاب المناقب لأهل البيت عليهم السلام تأليف محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ، من تسميته ذي الفقار لعلي عليه السلام بأمر المؤمنين»، ثم يبدأ في نقله عن الكتاب المذكور بالكلام التالي:

«قال في خطبته ما هذا لفظه: حدثنا الشيخ الموفق [المدقق] محمد بن جرير الطبري ببغداد في مسجد الرصافة، قال: هذا ما ألفت من جميع الروايات من الكوفيين والبصريين والمكيين والشاميين وأهل الفضل كلهم واختلافهم في أهل البيت عليهم السلام، فجمعته وألفته أبواباً ومناقب ذكرت فيه باباً باباً وفصلت بينهم وبين فضائل غيرهم. وخصصت أهل هذا البيت بما خصهم الله به من الفضل». ونستنتج من عبارات ابن طاووس هذه أنه يريد الإشارة إلى أن كتاب الطبري كان مصنفاً على أبواب وفصول لقوله (فجمعته وألفته أبواباً ومناقب ذكرت فيه باباً باباً...)، لكنه مع ذلك لم يوضح الأساس الذي استند عليه في هذا

١-١ المصدر السابق ٣: ١٢٩.

٢-٢ المصدر السابق ٢: ٢٨٢.

٣-٣ متشابه القرآن، قم، منشورات «بيدار»، ١٤١٠ هـ ٢: ٤١.

ص: ٨٧

التبويب، إلا إشارة واحدة من خلال كلام ذكره ابن طاووس في مكان آخر حيث قال: «قال محمد بن جرير الطبري المذكور في كتاب مناقب أهل البيت عليهم السلام في باب الهاء من حديث نذكر اسناده والمراد منه بلفظه» (١). وقال كذلك في كتاب (الطرف) مشيراً إلى كتاب (المناقب) للطبري: «ورتبته أبواباً على حروف المعجم، فقال في باب الياء ما لفظه:» (٢). وإذا أردنا تبين المراد من (باب الهاء) أو (باب الياء) توجب علينا التركيز أكثر على بعض الأمور (٣). وعلى هذا تبدو إعادة ترتيب الكتاب بالشكل الذي كان قد رتبته هو بنفسه أمراً صعباً بعض الشيء.

ثم ينقل ابن طاووس كلاماً للخطيب البغدادي (بحذافيره) - كما هو موجود في كتاب (تاريخ بغداد، ٢/ ١٦٢) عند ترجمته لابن جرير الطبري (٤). وضمن تأكيده على أنه لم يقم بهذا النقل إلا ليؤكد قاعدة استدلاله - قال ابن طاووس:

«وقد ذكر في كتاب المناقب المشار إليه من تسميته مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام بأمر المؤمنين ثلاثة أحاديث نذكرها في ثلاثة أبواب ما هذا لفظه» (٥)، ثم يأتي على ذكر نصوص تلك الأحاديث. ولابن طاووس أيضاً إشارات إلى كتاب (الولاية) والذي ذكرناه في مواضع أخرى نقلًا عن (الطرائف).

شمس الدين الذهبي وكتاب (الولاية):

ذكرنا آنفاً أن الذهبي كان قد أطلع على مجلد واحد من مجموع مجلدين لكتاب الطبري فيما يخص طرق حديث (الغدِير) وأنه دُهِش لكثرة ما رأى من الطرق المذكورة لذلك الحديث. وقد قام الذهبي محاكاةً - كما يبدو - لمصنف الطبري بتأليف رسالة مستقلة في طرق حديث (الغدِير) ونقل عدداً من الروايات من كتاب الطبري في مواضع كثيرة في كتابه. وقال في موضع ما من كتابه، بعد إيراد لرواية:

«هكذا روى الحديث بتمامه محمد بن جرير الطبري» (٦)، وقال أيضاً: «حدثنا ابن جرير في كتاب غدِير خَم» (٧)، وفي موضع آخر كتب يقول: «قال محمد بن جرير الطبري في المجلد الثاني من كتاب (غدِير خَم) له وأظنه به

١- ١ اليقين: ٤٧٧.

٢- ٢ الطرف، ميراث اسلامي ايران، المجلد الثالث: ١٨٦.

٣- ٣ كتب كلبرك - مكتبة ابن طاووس: ٣٩٨، ش ٣٥٦ - يقول: إن المقصود من ذلك هو ترتيبه الأبواب بحسب أسماء الرواة. ومع ذلك لا يمكننا تأييد هذا القول بالكامل إذا ما علمنا أنه قام مثلاً بنقل حديث عن سلمان في اليقين: ٤٧٧ لا يناسب وضعه في باب الهاء، وشبهه هذا الأمر موجود كذلك في كتاب الطرف.

٤- ٤ وقام كذلك بنقل نصوص أخرى لعلماء من أهل السنة يمدحون فيها الطبري ويشنون عليه. [اليقين باختصاص مولانا علي أمير المؤمنين، تصحيح الأنصاري، قم دار الكتب، ١٤١٣ هـ: ٤٨٧].

٥- ٥ اليقين: ٢١٥-٢١٦.

٦- ٦ طرق حديث «من كنت مولاه...»: ٢٩.

٧- ٧ المصدر السابق: ٤١.

ص: ٨٨

مثل جمع هذا الكتاب نسب إلى التشيع § ١ المصدر السابق: ٦٢، § وله كذلك: «رواه محمد بن جرير في كتاب (الغدیر §)» ٢ المصدر السابق: §.٩١.

ابن كثير وكتاب (الولاية):

وذكرنا أيضاً أن ابن كثير قد أشار هو الآخر إلى كتاب (الولاية). فقد تطرق إلى حديث (الغدیر) في موضعين في كتابه (البداية والنهاية)؛ الموضوع الأول في حوادث سنة (١٠) للهجرة مشيراً إلى بعض طرقه § ٣ البداية والنهاية ٥: ٢٢٧-٢٣٣ بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢ هـ § ٣ البداية والنهاية ٥: ٢٢٧-٢٣٣ بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢ هـ. § والموضع الثاني جاء به في آخر أيام أمير المؤمنين عليه السلام وذلك خلال ذكره فضائله سلام الله عليه، وهنا كذلك أورد بعض طرق حديث (الغدیر) إلا أنه لم يُشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى كتاب الطبري § ٤ المصدر السابق ٧: ٣٨٣-٣٨٧ §.

ففي الموضوع الأول، وبعد التنويه إلى أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قام ببيان إحدى فضائل علي عليه السلام على الملاّ بالقرب من غدیر (خم) وذلك عند عودته من حجة الوداع، كتب ابن كثير يقول: «ولهذا لما تفرغ عليه السلام من بيان المناسك ورجع إلى المدينة بين ذلك في أثناء الطريق، فخطب خطبة عظيمة في اليوم (١٨) من ذي حجة عامئذ وكان يوم الأحد بغدير خم تحت شجرة هناك. فبين فيها أشياء. وذكر من فضل علي وأمانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه! ونحن نورد عيون الأحاديث الواردة في ذلك ونبين ما فيها من صحيح وضعيف بحول الله وقوته وعونه. وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتأريخ، فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه وساق الغث والسمين والصحيح والسقيم، على ما جرت به عادة كثير من المحدثين يوردون ما وقع لهم في ذلك الباب من غير تمييز صحيحه وضعيفه § ٥ المصدر السابق ٥: ٢٢٧ §.

ثم يُشير بعد ذلك إلى أنه ينوي نقل بعض طرق الحديث المذكور، فقام بنقل ذلك.

وباللقاء نظرة سريعة على الطرق التي قام بنقلها يتضح لنا بأن النص هو في

ص: ٨٩

الواقع جزء من كتاب الطبري. ويبدو ممّا جاء في كتاب (البداية والنهاية) أنّ الرسالة المذكورة (في طرق حديث الغدير) كانت بحوزة ابن كثير.

البياضى وكتاب (الولاية):

ذكر زين الدين على بن يونس العاملى فى مقدمه كتاب (الصراط المستقيم) فهرساً من مصادره، ومن جملتها اسم كتاب (الولاية) للطبري (١). وفى مكان آخر وخلال ذكره لمؤلفات أهل السنّة حول أهل البيت عليه السلام، بدأ بذكر كتاب الطبري، حيث قال: «فصنّف ابن جرير كتاب الغدير وابن شاهين كتاب المناقب...» (٢)، وعلى هذا الأساس قام بنقل بعض النصوص من الكتاب المذكور مستنداً أغلب الظنّ إلى كتب لابن شهر آشوب وابن طاووس أو مصادر أخرى. ومن بين تلك المقتبسات، اقتباس مفصّل عن زيد بن أرقم نقلًا عن كتاب (الولاية) للطبري، والذي يبدو أنّ العلامة الأميني قد قام بنقل ذلك عن البياضى (٣)، وذلك لأننا لا نجد عين هذا النصّ فى مكان آخر غير هذا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ البياضى يذكر تارةً كتاب (الولاية) للطبري بصريح العبارة، وتارةً أخرى يقوم بنقل نصّ عنه واضعاً اسمه إلى جانب أسماء الرواة الآخرين من أهل السنّة ممّا يؤكّد كون الطبري هذا هو نفسه الطبري المؤرّخ المعروف.

هذا وقد أشار البياضى فى كثير من المواطن إلى كتاب (التاريخ) للطبري (٤)، كما أشار أيضاً إلى الطبري الشيعي وكتابه (المسترشد) (٥) واقتطف منه مقاطع كذلك. وجدير بالذكر، أنّه يصعب علينا تحديد من هو المقصود بكلمة (الطبري) التى يذكرها البياضى فى بعض المواضع التى لا يذكر فيها الاسم الكامل سوى ذكره لكلمة (الطبري) وحسب (٦).

وقد نقل عن كتاب الطبري (المناقب) مورداً يتعلّق بأبي بكر (٧).

ومن الشخصيات التى قامت بنقل بعض الروايات فى فضائل الإمام على عليه السلام

١-١ الصراط المستقيم ١: ٩.

٢-٢ المصدر السابق ١: ١٥٣.

٣-٣ الغدير ١: ٢١٤؛ راجع: الصراط المستقيم ١: ٣٠١.

٤-٤ الصراط ٣: ٧٩، ٨١، و ١٦٢.

٥-٥ المصدر السابق ١: ٤، و ٣: ٢٥٥.

٦-٦ المصدر السابق ١: ٢٤٦. وفى ١: ٢٦١ يُدرج اسمه فى عداد كتّاب الشيعة كابن بطريق وابن بابويه، ويحتمل أنّه قد قصد من الطبري صاحب «المسترشد».

٧-٧ الصراط ١: ٢٣٣؛ وأسند ابن جرير الطبري فى كتاب المناقب إلى النبي...

ص: ٩٠

كذلك عن الطبري، هو العالم المحدث المشهور لدى أهل السنّة علاء الدين علي المعروف ب (المتقى الهندي) (ت: ٩٧٥)، حيث قام بنقل العديد من الروايات في كتابه (كنز العمال) (١) والخاصة بفضائل الإمام علي عليه السلام واضعاً اسم ابن جرير في آخر تلك الروايات. ويقول المتقى الهندي في مقدمة الكتاب ما شرحه: «إذا كان أورد اسم ابن جرير مطلقاً فحينئذ يقصد كتابه (تهذيب الآثار)، وأما إذا نقله عن كتاب (التفسير) أو كتاب (التاريخ) فإنه يذكر ذلك صراحةً. وهنا ننوّه أنّه لمّا كانت الروايات المنقولة عنه في باب فضائل أهل البيت كانت كذلك موجودةً يقيناً في كتاب (مناقب أهل البيت)، ولمّا كان بعضها يتعلّق بطرق حديث (الغدیر)، يمكن اعتبار هذه الأحاديث أيضاً بمثابة جزء من كتاب (الفضائل) أو كتاب (الولاية) اللذين للطبري.

وتجدر الإشارة إلى أنّه لم يصل إلينا من كتاب (تهذيب الآثار) إلّاقسم من أجزائه فقط، وعلى هذا فالقسم الأكبر من تلك الروايات غير موجود في النسخة المطبوعة منه والموجودة في أيدينا اليوم.

وأخيراً لوحظ اهتمام بالغ بهذا الكتاب في كتاب (الغدیر) للعلامة الأميني (١٣٢٠ - ١٣٩٠ هجرية) الذي ذكر حديث (الغدیر) برواية الطبري نقلًا عن (كنز العمال) و (البداية والنهاية) (٢). ونشير إلى أنّ الأستاذ المرحوم السيد عبد العزيز الطباطبائي (ت: ١٤١٦) قد ذكر أيضاً كتاب (الولاية) ضمن مؤلفات أهل السنّة عن أهل البيت عليه السلام (٣).

١-١ بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩ هـ.

٢-٢ حول كتاب الولاية راجع: الغدير ١: ١٥٢.

٣-٣ الغدير في التراث الاسلامي، بيروت، دار المؤرخ العربي، ١٤١٤ هـ: ٣٥-٣٧؛ أهل البيت في المكتبة العربية، قم، مؤسسة آل البيت، ١٤١٧ هـ: ٦٦١-٦٦٤، ش ٨٥٢.

ص: ٩١

الهوامش:

ص: ٩٩

فقه الحجّ عند الإمام على بن أبي طالب (عليه السلام)

فقه الحجّ عند الإمام على بن أبي طالب عليه السلام

فقه الحجّ عند الإمام على بن أبي طالب عليه السلام
عبد الكريم آل نجف

ما كادت الفضائل تجتمع في إنسان اجتماعها في على بن أبي طالب عليه السلام وما كادت فضائله تبرز بروز علمه وفقهه وإحاطته بالأحكام والسنن والقضايا.

ويكفيه منقبة في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في حقّه: «أنا مدينة العلم وعلى بابها» (١)

. فهو المفسّر الأوّل والمتكلّم الأوّل والفقير الأوّل في الإسلام. رغم ما أبداه الزمان له من جفاء ومؤامرات وخيانة أدت إلى إسداد الستار على الكثير من علومه وعطائه الثر للإسلام والإنسانية، إلى الحدّ الذي يتقطّع معه المنصف المأ وهو يرى صحيحى البخارى ومسلم فى احتفاء تامّ بأسماء الضعفاء والنكرات فى الموازين الصحيحة للدين والفقهاء بعيداً عن ضوضاء السياسة وصخبها، أمثال أبى هريرة وعكرمة وكعب الأحبار بينما لم ير فى أسانيدهما اسم على بن أبى طالب عليه السلام إلّا بنحو عفو الخاطر، وعروض العارض الطارئ.

ومقتضى إمامته الفكرية على المسلمين الرجوع إليه فيما يعترض حياتهم من مشكلات فكرية ومطالب دينية، ومن جملتها المطالب الفقهية.

١-١ انظر مصادر ونصوص هذا الحديث فى كتب الفريقين فى هوامش الشيخ حسين الراضى على الفقرة التاسعة من المراجعة ٤٨ من كتاب المراجعات للإمام السيد عبد الحسين شرف الدين قدس سره.

ص: ١٠٠

والدراسة التي بين أيدينا محاولة لتسليط الضوء على ما وصل إلينا من تراث الإمام عليه السلام الفقهي في كتاب الحج من أبوابه المختلفة، نأمل أن تكون موفقة في تحقيق ما نتوخاه من أغراض تتصل بتخليد تراث الإمام الفقهي من جهة، وتسليط أضواء علوية على فقه الحج من جهة ثانية.

ومصدر روايات وأحاديث هذه الدراسة يتمثل بشكل أساس في:

- ١- ما ورد في وسائل الشيعة للحزب العاملي من أخبار وروايات نسبت إلى الإمام على عليه السلام وعالجت جوانب الحج المختلفة.
 - ٢- ما جمعه الدكتور محمد رؤاس قلعه جى في كتابه «موسوعة فقه على بن أبي طالب» من أخبار وروايات عن الإمام على عليه السلام في أبواب الحج المختلفة، من مصادر الحديث والفقه والتفسير المختلفة لدى مذاهب الجمهور.
- والمصدر الأول هو الأساس، والمصدر الثاني جىء به لغرض المقارنة والإضافة المناسبة لموضوع البحث. وقد قسمنا هذه الدراسة إلى أبواب بحسب الأبواب الفقهية المتعارفة في كتاب الحج قدر الإمكان بعد حذف الأبواب التي لم يرد فيها أثر عن الإمام على عليه السلام.

أولاً- مقدمات الحج

وتشمل الأحكام الفقهية التمهيدية لفريضة الحج، مما له علاقة بمرحلة ما قبل الاحرام، وقد وردت عن الإمام على عليه السلام آثار فقهية عن هذه المرحلة نوردها في النقاط التالية:

- ١- في وجوب الحج وفضيلته وأركانه المعروف من شريعته الإسلام أن الحج هو من أعظم شعائر الإسلام، وأن من سوف الحج حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً، هذا لمن كان مستطيعاً كما في المروى عن النبي صلى الله عليه وآله (١).
- وقد وردت في هذا المعنى آثار عديدة عن أمير المؤمنين عليه السلام منها ما قاله ضمن

١- ١ وسائل الشيعة ١١: ٣٢ ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

ص: ١٠١

خطبته له: «ألا ترون أن الله اختبر الأولين من لدن آدم إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار ما تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع... ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه..» (١).

وقال عليه السلام في خطبة أخرى: «فرض عليكم حج بيته الذي جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته... فرض حجّه وأوجب حجّه وكتب عليكم وفادته...» (٢).

، وكان عليه السلام يخاطب أبناءه بقوله: «انظروا بيت ربكم فلا يخلون منكم فلا تناضروا» (٣). كل هذا في الحج الواجب.

أما في فضيلة الحج واستحبابه فقد ورد عنه عليه السلام في خبر روى في العلل وعيون الأخبار والخصال بسند ينتهي إلى الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام: كم حج آدم من حجّه؟ فقال له: سبعمائه حجّة ماشياً على قدميه، وأول حجّة حجّها كان معه الصرد يدلّه على الماء وخرج معه من الحجّة.. وسأله عن أول من حج من أهل السماء فقال: جبرئيل عليه السلام (٤).

وروى عنه عليه السلام أنه قال: «ضمنت لسنة الحجّة، وعدّ منهم من خرج حاجّاً فمات» (٥).

وكيف كان فضيلة الحج ممّا لا تحتاج إلى بيان، وإنّما وقع البحث في تحديد النوع الأفضل، فذهب مشهور السنّة إلى أفضلية الأفراد، وذهبت الإمامية إلى أفضلية التمتع. قال في الجواهر: «لا خلاف أيضاً في أفضلية التمتع على قسميه لمن كان الحج مندوباً بالنسبة إليه لعدم استطاعته أو لحصول حجّة الإسلام منه.

والنصوص مستفيضة فيه أو متواترة بل هو من قطيعات مذهب الشيعة، بل في بعضها عن الصادق عليه السلام: لو حججت ألفي عام ما قدمتها إلّا متمتّعاً» (٦).

وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك فأجاب عليه السلام: «إنّ عليّاً عليه السلام كان يقول لكلّ شهر عمرة، تمتّع فهو والله أفضل..» (٧)، خلافاً لما ترويه المصادر السنية عنه من

١-١ الوسائل ١١: ١١-١٢.

٢-٢ الوسائل ١١: ١٥.

٣-٣ الوسائل ١١: ٢١.

٤-٤ الوسائل ١١: ١٢٨ ح ٢٠.

٥-٥ الوسائل ١١: ١٠٢ ح ٢٩.

٦-٦ جواهر الكلام، محمد حسن النجفي ٦: ٤٤٢.

٧-٧ الوسائل ١١: ٢٥١ ح ١٨.

ص: ١٠٢

أنه، كان يقول: «أفرد الحج فإنه أفضل» (١).

٢- النية

من المعلوم في شريعته الإسلام أن التية شرط في كل عبادة، والحج من جملة العبادات التي لا تتم إلَّا بالتية، وهذا مما لا إشكال فيه، ولا شك يعتريه، إنما وقع البحث بين الفقهاء في الجهة التي تنعقد لها التية، هل هي نية الاحرام أم نية الخروج إلى مكة أم نية النوع من تمتع أو أفراد أو قران، أم الجمع بين النية للنوع والنية لكل فعل من أفعاله؟

وجوه متعدده ذكرها الفقهاء، وأوردها صاحب الجواهر عنهم، ثم اختار منها القول بأن النية هي نية النوع (٢).

وفي موسوعة فقه على بن أبي طالب أورد نصاً عن الإمام عليه السلام نقله عن مسند زيد استفاد منه فقهاء السنه أن النية تكون للنوع، وهو قوله عليه السلام «من شاء ممن لم يحج يتمتع بالعمرة إلى الحج، ومن شاء قرنهما جميعاً، ومن شاء أفرد» (٣). ولكن تخصيص الكلام بمن لم يحج يفيد أن الإمام عليه السلام بصدد أمر آخر غير النية، فإن النية ثابتة في العبادة الواجبة والمستحبة، فيمن حج سابقاً وأراد حجه جديدة مستحبة ومن لم يحج وأراد الضرورة.

٣- يجب الحج على المرأة ولو لم يكن معها محرم

نقل عبدالله بن جعفر في قرب الاسناد، بإسناده عن الحسين بن علوان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه نقل عن أبيه الباقر عليه السلام: «أن علياً كان يقول لا بأس أن تحج المرأة الضرورة مع قوم صالحين إذا لم يكن لها محرم ولا زوج» (٤). فيكفي في الوجوب عليها غلبه ظنها بالسلامة على نفسها لصدق الاستطاعة عليها إذا كانت مأمونة وكان معها في الرفقة ثقات، كما قال في الجواهر (٥)، ومفهوم كلام على عليه السلام وسائر الروايات في المقام أن الوجوب يرتفع إذا غلب عليها الخوف من الطريق.

١- ١ موسوعة فقه على بن أبي طالب، د. رواية قلعه چي: ٢٠٥، نقلًا عن سنن البيهقي، وكنز العمال، والمجموع للنووي.

٢- ٢ الجواهر ٦: ٤٤٢.

٣- ٣ الموسوعة: ٢٠٥.

٤- ٤ الوسائل ١١: ١٥٥.

٥- ٥ الجواهر ٦: ٣٩٣.

ص: ١٠٣

٤- حجّ الصبي والمملوك

المعروف من الفقه أنّ الحجّ لا يجب على الصبي والمملوك، ولو حجّ أحدهما لم يجزه ذلك عن حجّة الإسلام عند حصول البلوغ بالنسبة إلى الصبي وتحقّق العتق بالنسبة إلى المملوك، وفي ذلك روايات كثيرة عن الأئمة عليهم السلام منها ما عن الإمام الصادق عليه السلام «الصبي إذا حجّ به فقد قضى حجّة الإسلام حتى يكبر، والعبد إذا حجّ به فقد قضى حجّة الإسلام حتى يعتق» (١). ولم يستدلّ فقهاء الإمامية في هذا الباب بحديث عن الإمام على عليه السلام، غير أنّ فقهاء السنّة أوردوا عنه حديثاً يقول فيه: «إذا حجّ الصبي أجزاء ما دام صبيّاً، فإذا بلغ فعليه حجّة الإسلام، وإذا حجّ العبد أجزاء ما دام عبداً، فإذا عتق فعليه حجّة الإسلام» (٢).

٥- حجّ القران

ينقسم الحجّ إلى تمتّع وافراد وقران، الأوّل فرض البعيد عن مكة، والثاني والثالث فرض أهل مكة، ولم يرد في مصادر الحديث والفقه الإمامي عن على عليه السلام في هذا الباب شيء، بينما ذكرت المصادر السنّية أنّ أبا نصر السلمي قال: «أهللت بالحجّ فأدرکت عليّاً فقلت: أهللت بالحجّ أفأستطيع أن أضمّ إليه عمرة؟ قال: لا لو كنت أهللت بالعمرة ثم أردت أن تضمّ إليها الحجّ ضمّمته، فإذا بدأت بالحجّ فلا تضمّ إليه عمرة، قال: فما أصنع إذا أردت؟ قال: صب عليك ادواء من ماء ثمّ تحرم بهما جميعاً فتطوف لهما طوافين» (٣). ورووا أيضاً «أنّ المقداد دخل على عليّ بن أبي طالب بالسقيا وهو يسقى بكرات له دقيقاً وخبطاً فقال: هذا عثمان بن عفان ينهى عن أن يقرن بين الحجّ والعمرة، فخرج عليّ وعلى يديه أثر الدقيق والخبط حتى دخل على عثمان فقال: أنت تنهى عن أن يقرن بين الحجّ والعمرة؟ فقال عثمان: ذلك رأيي. فخرج عليّ مغضباً وهو يقول: لئنك اللهم لئنك بحجّ وعمرة معاً» (٤).

١- ١ الوسائل، الباب ١٦، من أبواب وجوب الحجّ، ح ٢.

٢- ٢ الموسوعة: ٢٤، نقلًا عن الروض النضير ٣: ٢٩٦.

٣- ٣ سنن البيهقي ٤: ٣٤٨، والمغنى ٣: ٤٨٤.

٤- ٤ الموطأ ١: ٣٣٦ وكنز العمال ح ١٢٤٦٥.

ص: ١٠٤

وروى ابن أبي شيبه عن مروان بن الحكم قال: «كنا نسير مع عثمان فسمع رجلاً يلتي بهما جميعاً فقال عثمان: من هذا؟ قالوا: علي، فأتاه عثمان فقال له: ألم تعلم أنني نهيت عن هذا؟ فقال: بلى ولكن لم أكن لأدع فعل رسول الله بقولك» (١).

واضطربت رواياتهم عنه في كفيته ففي رواية عنه عليه السلام أن القارن يطوف طوافاً واحداً وسعيًا واحداً، وفي أخرى أنه يطوف طوافين ويسعى سعيًا واحداً (٢).

والمعروف في الفقه الإمامي أن القرآن يتم بسعي واحد وطوافين (٣). ونقلوا عنه عليه السلام أنه قال: «من شاء أن يجمع بين الحج والعمرة فليستق هديه معه» (٤).

٦- النيابة وأحكامها

وفي باب النيابة في الحج وردت عن الإمام علي عليه السلام روايات في نقطتين:

أولاهما- في استتابة الموسر في الحج إذا منعه مرض أو كبر أو عدو. فقد ورد أنه عليه السلام رأى شيخاً لم يحج قط ولم يطق الحج في كبره، فأمره أن يجهز رجلاً فيحج عنه (٥).

ورد صاحب الجواهر دلالة هذا الحديث وأمثاله على الوجوب، خلافاً لما في الحدائق من دلالة على ذلك.

ونقلت المصادر السنية هذا المضمون عن الإمام علي، حيث روى عنه قوله عليه السلام: «الشيخ الفاني الذي لا يستطيع أن يحج يجهز رجلاً على نفقته فيحج عنه» (٦).

. وروى عنه أيضاً أنه لم يكن يرى بأساً أن يحج الرجل عن الرجل ولم يحج قط (٧). وهو الموافق للفقه الإمامي فيما إذا كان النائب مستكماً لشرائط الوجوب في ذلك العام (٨).

وثانيتها- في وجوب أن يأتي النائب بما شرط عليه من تمتع أو قران أو افراد فقد وردت في ذلك رواية نقلها صاحب الوسائل عن التهذيب والاستبصار عن الحسن بن محبوب عن علي عليه السلام «في رجل أعطى رجلاً دراهم يحج بها حجته بها حجته مفردة قال: ليس له أن يتمتع بالعمرة إلى الحج لا يخالف صاحب الدراهم» (٩).

١- ١ الموسوعة: ٢٠٧.

٢- ٢ الموسوعة: ٢٠٧ نقلًا عن ابن أبي شيبه ١: ١٨٣، والمحلى ٧: ١٧٤، وسنن البيهقي ٥: ١٠٨ وكنز العمال: ح ١٤٤٦٤.

٣- ٣ الجواهر ٦: ٤٦٢-٤٦٣.

٤- ٤ الموسوعة: ٢٠٨ نقلًا عن المحلى ٧: ١٠ والمغنى ٣: ٤٦٨.

٥- ٥ الوسائل ١١: ٦٣، ح ١، ومثله الحديث الثالث والخامس والسادس من الباب نفسه.

٦- ٦ الموسوعة: ٢٠٤ نقلًا عن مصنف ابن أبي شيبه ١: ١٩٤، ١٦٩ والمحلى ٧: ٦١ والمجموع ٧: ٨٠ والمغنى ٣: ٢٢٨.

٧- ٧ المصدر نفسه.

٨- ٨ الجواهر ٦: ٤١٠.

٩- ٩ الوسائل ١١: ١٨٢، ح ٢.

ص: ١٠٥

ولم يعلم الإمام المسؤول في هذه الرواية لوضوح أنّ الحسن بن محبوب لا يروى عن الإمام عليّ عليه السلام، ففيها إرسال في أكثر من واسطة إذا كان المقصود بعليّ هو أمير المؤمنين عليه السلام وكانت الرواية منقولة عن الإمام الكاظم عليه السلام أو الإمام الرضا عليه السلام اللذين عاصرهما الحسن بن محبوب وروى عنهما، ويحتمل أن يكون الإمام المقصود هو علي بن موسى الرضا عليه السلام الذي عرف الحسن بروايته عنه، ولأجل تردد الرواية بين هذين الاحتمالين، فقد اعتبرها الشيخ الطوسي في التهذيب موقوفة غير مسندة إلى أحد من الأئمة (١). واعتبرها صاحب الجواهر مضمرة لم يُعرف الإمام المسؤول فيها (٢)، ولكن اشتهاه التعبير عن الإمام علي عليه السلام في لسان الروايات بما هو وارد في هذه الرواية، واشتهاه التعبير عن أسمائه من الأئمة بالكنى أو بالألقاب أو بالاسم الثنائي أو الثلاثي بنحو جعل التعبير بالاسم المفرد وكأنه من خواص الروايات عن الإمام علي عليه السلام يجعل احتمال كونها عنه قوياً، فتكون مرسله حينئذٍ.

٧- من نذر الحج ماشياً

المعروف في مسألة من نذر الحج ماشياً وجوب ذلك عليه، وأدعى الإجماع على ذلك، وكتفريع على ذلك ظهرت مسألة حكم مواضع العبور التي يضطرّ الحاج إلى ركوب السفينة فيها، ونحوها، وقد روى عن الباقر عليه السلام عن آبائه: أنّ عليّاً سئل عن ذلك فقال: «فليقم في المعبر قائماً حتّى يجوز» (٣).

٨- المواقيت

لم تورد مصادر الحديث والفقه الإمامي شيئاً مأثوراً عن الإمام علي عليه السلام في باب المواقيت، بينما ذكرت بعض المصادر السيئة خبراً عنه عليه السلام يقول فيه: «مِقات من حجّ من المدينة أو اعتمر ذو الحليفة، فمن شاء استمتع بشبابه وأهله حتّى يبلغ ذو الحليفة، ومِقات من حجّ أو اعتمر من أهل العراق العقيق، فمن شاء استمتع بشبابه وأهله حتّى يبلغ العقيق، ومِقات من حجّ أو اعتمر من أهل الشام الجحفة، فمن

١- ١ الوسائل ١١: ٩٢.

٢- ٢ الجواهر ٦: ٤١٠.

٣- ٣ الوسائل ١١: ٩٢.

ص: ١٠٦

شاء استمتع بشبابه وأهله حتى يبلغ الجحفة، وميقات من حج أو اعتمر من أهل اليمن يللمن فمن شاء استمتع بشبابه وأهله حتى يبلغ يللمن. وميقات من حج من أهل نجد واعتمر قرن المنازل، وميقات من كان دون المواقيت من أهله» (١). وهذه المواقيت مطابقتها لما عليه الفقه الإمامي سوى تفاوت طفيف (٢).

٩- حكم الإحرام قبل الميقات

الميقات هو النقطة التي يجب عندها ارتداء ثوبي الإحرام، أما إذا كان الحاج قد أحرم قبل الميقات فما هو حكمه؟ المعروف في الفقه السني جواز ذلك وكونه من تمام الحج، ورووا في ذلك روايات عن الإمام علي عليه السلام أنه يفسر قوله تعالى: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ بِأَنَّ: «إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك»، وإن رجلاً أتى عمر فقال: إنني ركبت السفن والخيول والإبل فمن أين أحرم؟ فقال: أتت علياً فأسأله، فسأل علياً فقال له: «من حيث بدأت أن تنشئها من بلادك»، وأنه عليه السلام أحرم من المدينة المنورة (٣)..

غير أن الفقه الإمامي قائم على عكس ذلك تماماً، وهو أن الإحرام لا- ينعقد قبل الميقات وأنه غير جائز (٤)، وفي ذلك روايات عديدة عن أئمة أهل البيت، منها رواية عن الإمام الباقر وروايتان عن الإمام الصادق عليه السلام في نقض ما يرويه أهل السنة عن الإمام علي عليه السلام وفيها جميعاً الاستغراب من ذلك، وأن الأمر لو كان كما يقولون لما ترك الرسول صلى الله عليه وآله فضيلة ذلك ولأحرم من المدينة، مع أنه قد أحرم من ذي الحليفة (٥).

ثانياً- محرمات الاحرام وجزاء مخالفتها

أما في باب محرمات الاحرام فقد وردت عنه عليه السلام الآثار التالية من مصادر الفريقين:

١- عدم جواز صيد البر على المحرم وحرمة أكله على المحرم والمحل

فقد ورد في صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مرّ

١- ١ الموسوعة: ٢٠٤ نقلًا عن الروض النضير ٣: ١٣٨.

٢- ٢ الجواهر ٦: ٤٨٩-٤٩٨.

٣- ٣ الموسوعة: ٢٠٨ نقلًا عن المغني ٣: ٢٦٦، المحلّي ٧: ٧٥، وسنن البيهقي ٥: ٣٠، ٤: ٣٤١، ومسنند زيد ٣: ١٤٤ والمجموع ٧: ٢٠١

وآثار أبي يوسف: ٤٨٤، وابن أبي شيبة ١: ١٦٢-١٦٤، وتفسير ابن كثير ٢: ١٠٣.

٤- ٤ الجواهر ٦: ٥٠٠.

٥- ٥ الوسائل ١١: ٣٢١ ح ٥، ص ٣٢٣ ح ٢، ص ٣٢٤ ح ٤.

ص: ١٠٧

على عليه السلام على قوم يأكلون جراداً فقال: سبحان الله وأنتم محرمون؟ فقالوا: إنما هو من صيد البحر، فقال لهم: إرموه في الماء إذن» (١).

ومقتضى شبهتهم في ذلك أنه يكون حلالاً؛ لأن صيد البحر قد نص القرآن على حليته قال تعالى: «أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ» فقال الإمام عليه السلام لهم في مقام دحض شبهتهم: إرموه في الماء، أى لو كان بحرياً لعاش في الماء.

ونقل في الجواهر عن المنتهى والتذكرة للعلامة أن كونه من صيد البر قول أكثر علمائنا وأكثر علماء العامة أيضاً، وعن المسالك أنه لا خلاف فيه عندنا، خلافاً لأبي سعيد الخدرى والشافعى وأحمد فى رواية (٢).

وجمع صاحب موسوعه فقه على بن أبى طالب آثاراً عنه فى هذا الباب وردت فى المصادر السنية فكتب يقول:

يحرم على المحرم قتل الصيد، والإشارة إليه، والدلالة عليه، واتباعه، وأكله.

قال على: «لا يقتل المحرم الصيد ولا يشير إليه ولا يدل عليه ولا يتبعه» (٣).

فإن فعل شيئاً من ذلك فقتله هو أو قتله الحلال فالمحرم ضامن لذلك (٤).

ولا يحل للمحرم أكل لحم الصيد سواء أصاده الحلال أو المحرم وسواء أصيد للمحرم أو لم يُصَدَّ له (٥).

فقد كان الحارث بن نوفل خليفة عثمان على مكة، فلما قدم عثمان مكة استقبل بقديد، فاصطاد أهل الماء حجلاً، فطبخ وقدم إلى عثمان وأصحابه، فأمسكوا، فقال عثمان: صيد لم نصده ولم نأمر بصيده، اصطاده قوم حل، فأطعمونا، فما بأس به، فبعث إلى على فجاءه، فذكر له، فغضب على وقال: «أنشد الله رجلاً شهد رسول الله حين أتى بقائمة حمار وحش، فقال رسول الله: إنا قوم حُرْم فأطعموه أهل الحل، فشهد اثنا عشر رجلاً من أصحاب رسول الله، ثم قال على: أنشد الله رجلاً شهد رسول الله حين أتى ببيض النعام، فقال رسول الله: إنا قوم حرم فأطعموه أهل

١-١ الوسائل ١٢: ٤٢٨، ح ١.

٢-٢ الجواهر ٦: ٥٩٠.

٣-٣ الروض النضير ٣: ٢٢١.

٤-٤ المغنى ٣: ٣٠٩ والمجموع ٧: ٣٣٧.

٥-٥ المحلى ٧: ٢٥٠ والمغنى ٣: ٣١٢ والمجموع ٧: ٣٣١.

ص: ١٠٨

«الحل»، فشهد دونهم من العدة- من الاثنى عشر- قال: فثنى عثمان ورکه من الطعام، فدخل رحله وأكل الطعام أهل الماء (١). وروى عبد الرزاق أنّ علياً كره الصيد وهو محرم وتلا هذه الآية أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دُمتم حُرماً (٢).

ويعتبر قتل الضبع غير العادي صيداً يوجب الجزاء، أما إذا عدا على المحرم فقتله المحرم فلا شيء فيه، قال على: «إذا عدا الضبع على المحرم فليقتله، فإن قتله قبل أن يعدو عليه فعليه شاة مسنة» (٣).

ويحلّ للمحرم قتل الحية السوداء والأفعى، والعقرب، والكلب العقور، ويحلّ له أن يقتل من عدا عليه من الحيوان (٤)، ويحلّ له قتل الغراب (٥) ويحلّ له أن يقرد بغيره (٦) (٧).

وقال في الجواهر: إنّ المحرم إذا ذبح صيده البري كان ميتة حراماً على المحل والمحرم، كما صرح به الشيخ والحلي والقاضي ويحيى بن سعيد والفاضلان وغيرهم على ما حكى عن بعضهم... بل في النهاية والمبسوط والتهذيب والوسيلة والجواهر على ما حكى عن بعضها أنه كالميتة، بل في الأخير الإجماع عليه أيضاً ثم استدلل على ذلك بخبرين عن الإمام على عليه السلام في هذا المورد وهما: «خبر وهب بن وهب عن جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام: إذا ذبح المحرم الصيد لم يأكله الحرام والحلال، وهو كالميتة، وإذا ذبح الصيد في الحرم فهو ميتة حلال ذبحة أم حرام، وخبر إسحاق عن جعفر عليه السلام أيضاً: إنّ علياً عليه السلام كان يقول: إذا ذبح المحرم الصيد في غير الحرم فهو ميتة لا- يأكله محل ولا محرم، وإذا ذبح المحل الصيد في جوف الحرم فهو ميتة لا يأكله محل ولا محرم» (٨).

٢- جواز الإدهان قبل الإحرام

المعروف في فقه الحج حرمة الادهان على الحاج بعد الاحرام، وكذا يحرم عليه ذلك قبل الاحرام إذا كان للطيب ريح تبقى إلى بعد الإحرام (٩) ويجوز له ذلك

١- سنن البيهقي ٥: ١٨٢ وسنن أبي داود في المناسك باب لحم الصيد للمحرم، والمغني ٣: ٣١٢ ورواه ابن أبي شيبة مختصراً ١: ١٨٥ والأمام ٧: ١٧٠.

٢- عبد الرزاق ٤: ٤٢٧ وتفسير الطبري ٧: ٧٠ الطبعة الثالثة.

٣- ابن أبي شيبة ١: ٢٠٣ و ١: ١٩١ والأمام ٧: ١٧١ والأوسط ٢: ٣١٢ والإشراف ٢: ٣١٩.

٤- الروض النضير ٣: ٢٦٩.

٥- ابن أبي شيبة ١: ٢٠٤ ب والروض النضير ٣: ٢٦٩.

٦- ابن أبي شيبة ١: ١٩٨ والمحلي ٧: ٢٤٤.

٧- الموسوعة: ٢٠٨-٢٠٩.

٨- الجواهر ٦: ٥٨٨ والخبران المذكوران في الوسائل ١١: ٤٣٢، ح ٤ و ٥.

٩- الجواهر ٦: ٦٣٣.

ص: ١٠٩

قبل الإحرام إذا لم يكن للطيب رائحة تبقى بعد الاحرام، وعلى ذلك يحمل الخبر الوارد عن محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام أنه: كان عليّ عليه السلام في هذا الباب يقول: «لا يدهن المحرم ولا يتطيب، فإن أصابه شقاق دهنه ممّا يأكل، وإن اشتكى عينه اكتحل بالصبر، وليس بالزعفران» (١).

٣- جواز الاحرام بثوب مصبوغ بالمشق

اشتهر بين الفقهاء القول بكراهة الاحرام بالثياب المصبوغة سوى ما استثنى من ذلك بدليل. ومما ورد الدليل باستثنائه الثياب المصبوغة بالمشق، وهو طين أحمر كانوا يصبغون به الثياب، فقد ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «كان عليّ عليه السلام محرماً ومعه بعض صبيانه وعليه ثوبان مصبوغان فمرّ به عمر بن الخطاب فقال:

يا أبا الحسن ما هذان الثوبان المصبوغان؟

فقال عليه السلام: ما نريد أحداً يعلمنا السنّة إنّما هما ثوبان صبغا بالمشق» (٢).

وأورد صاحب موسوعه فقه على بن أبي طالب مضمون هذا الخبر وأخباراً أخرى تحت عنوان «ما يحرم على المحرم من اللباس» فكتب يقول:

ويباح للرجل لبس المورد من الثياب إذا لم يكن تورده بزعفران أو ورس أو عصف (٣)، فعن محمد بن علي بن الحسين قال: رأى عمر بن الخطاب عليّ عبد الله ابن جعفر ثوبين مضرّجين وهو محرم، فقال: ما هذا؟

فقال علي بن أبي طالب: «ما أخال أحداً يعلمنا السنّة»، فسكت عمر (٤).

ولا يجوز للمحرم أن يغطّي رأسه، قال عليّ: «إحرام الرجل في رأسه (٥)، أما المرأة فإنّها تلبس ما شاءت من الثياب غير ما صبغ بطيب، وتلبس الخفين والسراويل والجبّة (٦) ولكنها لا تتنقب - أي لا تتلثم - فإن أرادت أن تستر وجهها فلتسدل الثوب عليه سدلاً. فقد روى ابن أبي شيبه بسنده عن عليّ أنه كان ينهى النساء عن النقاب وهن حرم، ولكن يسدلن الثوب على وجوههن سدلاً (٧)، كما نهاهن عن لبس القفازين (٨)، ويباح للمحرم لبس الخاتم، فعن إسماعيل بن

١- ١ الموسوعة: ٢١٠ نقلًا عن الروض النضير ٣: ٢٥٧، ٢٦٥.

٢- ٢ الوسائل ١٢: ٤٨٢.

٣- ٣ المحلى ٢: ٨٢.

٤- ٤ المحلى ٧: ٢٦٠.

٥- ٥ الروض النضير ٣: ٢١٧.

٦- ٦ الروض النضير ٣: ٢١٦.

٧- ٧ ابن أبي شيبه ١٢: ١٨٣ و ١٨١ ب.

٨- ٨ المحلى ٧: ٨٢ و ر: المغنى ٣: ٣٢٩.

ص: ١١٠

عبدالملك قال: رأيت على بن ابي خاتماً وهو محرم» (١) (٢).

كما أورد أخباراً عنه عليه السلام وردت في المصادر السنية في أبواب حرمة النكاح على المحرم، وحرمة فصل شيء من جسده، وإباحة الحجامة له فكتب يقول:

٤- النكاح ودواعيه: ولا يجوز للمحرم النكاح فإن فعل رد نكاحه، قال على كرم الله وجهه: «المحرم لا ينكح ولا ينكح، فإن نكح فنكاحه باطل» ومن رواية أنه قال: «من تزوج وهو محرم نزعنا منه امرأته» (٣).
فإن وطئ زوجته فسد حجّه.

فقد سئل على بن ابي عن رجل أصاب أهله وهو محرم بالحج فقال: «ينفذان، يمضيان لوجههما حتى يقضيا حجّهما، ثم عليهما حجّ قابل والهدى، وإذا أهلاً بالحج من عام قابل تفرّقا حتى يقضيا حجّهما» (٤).

وكما يحرم الجماع في الحج يحرم دواعيه كالقبلة ونحوها، ولكنّها لا تفسد الحج قال على: «إذا قبل المحرم امرأته فعليه دم» (٥).

٥- فصل شيء من أعضاء جسده: كالسن والظفر والشعر. قال على: «لا يتزع المحرم سنه ولا ظفره إلّا أن يؤذياه» (٦).

وخرج حسين بن على مع عثمان في سفره إلى مكة فمرض في الطريق، فمر به عبدالله بن جعفر وهو مريض بالسقيا، فأقام عليه عبدالله بن جعفر، حتى إذا خاف فوات الحج خرج وبعث إلى على بن ابي طالب وأسماء بنت عميس وهما بالمدينة، فقدا عليه، ثم إن حسينا أشار إلى رأسه، فأمر على برأسه فحلق، ثم نسك عنه بالسقيا فنحر عنه بعيراً (٧).

ويباح للمحرم: غسل بدنه ورأسه (٨)، وتباح له الحجامة، قال على كرم الله وجهه: «يحتجم المحرم إن شاء» (٩) (١٠).

هذا ما ورد عنه عليه السلام في باب محرّمات الإحرام، أمّا في جزاء مخالفة هذه المحرّمات فقد وردت عنه جملة أخرى من الآثار هي:

١- حرمة وضمان صيد طير على فرع شجرة أصلها في الحرم وفرعها في الحلّ.

١- ١ ابن أبي شيبة ١: ١٨١ ب.

٢- ٢ الموسوعة: ٢١٠.

٣- ٣ ابن أبي شيبة ١: ١٦٤ والمحلى ٧: ١٩٩ وسنن البيهقي ٥: ٦٦ و ٧: ٢١٣ وكنز العمال ١٢٨٤٥ والمجموع ٧: ٢٩٠.

٤- ٤ الموطأ ١: ٣٨١ والمحلى ٧: ١٨٠ وابن أبي شيبة ١: ١٦٥ ب وسنن البيهقي ٥: ١٦٧ والروض النضير ٣: ٢٥٠ وكنز العمال ١٢٨١٥ والمجموع ٧: ٣٨٠ والمغنى ٣: ٣٦٥ وكشف الغمة ٢: ٢٢٠.

٥- ٥ ابن أبي شيبة ١: ١٦٣ ب وسنن البيهقي ٥: ١٦٨ وكنز العمال ١٢٧٩٨.

٦- ٦ الروض النضير ٣: ٢٦٥.

٧- ٧ الموطأ ١: ٣٨٨ وابن أبي شيبة ١: ١٦٧ ب والمحلى ٧: ٢١٣ و ٢٠٥ وسنن البيهقي ٥: ٢١٨ والمغنى ٣: ٤٩٨ و ٥٤٥.

٨- ٨ المغنى ٣: ٢٩٩.

٩- ٩ الروض النضير ٣: ٢٦٧.

١٠- ١٠ الموسوعة: ٢١١.

ص: ١١١

فقد روى أنه عليه السلام سُئل عن ذلك فأجاب عليه السلام: «عليه جزاؤه إذا كان أصلها في الحرم» (١).

٢- في قتل الحمامة شاء

قال في الجواهر: «في قتلها شاء على المحرم في الحل على المشهور بين الأصحاب بل في التذكرة ومحكى الخلاف والمنتهى الإجماع عليه، بل في الأوّل أيضاً، وبه قال على عليه السلام وعمر وعثمان وابن عمر..» (٢) ولم أجد له خيراً يدلّ عليه في الوسائل، ولعلّ صاحب الجواهر نقله عن مصادر العامّة كما سيأتي.

٣- في قتل القطاة حمل

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وجدنا في كتاب على عليه السلام في القطاة إذا أصابها المحرم حمل قد فطم من اللبن وأكل الشجر» ومثله خبر آخر عن الإمام الباقر عليه السلام (٣)، وعلى ذلك فتوى الفقهاء (٤).

٤- حكم المحرم والمحلّ إذا قتلا صيداً

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه يقول: «كان على عليه السلام يقول في محرم ومحلّ قتلا صيداً فقال: على المحرم الفداء كاملاً وعلى المحلّ نصف الفداء» (٥).

وفي المسألة خلاف بين الفقهاء (٦).

٥- في كسر بيض النعام

وفي هذه المسألة صورتان، صورة ما إذا كان في البيض فرخ يتحرّك، وفيها ورد عن الإمام الصادق عليه السلام «أنّ في كتاب على عليه السلام في بيض القطا بكاره من الغنم إذا أصابه المحرم مثل ما في بيض النعام بكاره من الابل» (٧).

لكلّ بيضه. وصورة ما إذا كُسرت البيضة قبل أن يتحرّك فيها الفرخ، أو مع عدم وجود فرخ فيها أصلاً، وفيها ورد أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنه: «قضى فيها أمير المؤمنين عليه السلام أن يرسل الفحل في مثل عدد البيض من الإبل الاناث فما لقح وسلم

كان النتاج هدياً بالغ الكعبة» (٨).

. وجرت على ذلك كلمة الفقهاء في الصورتين (٩).

١- ١ الوسائل ١٢: ٥٦١.

٢- ٢ الجواهر ٧: ٣٦١.

٣- ٣ الوسائل ١٣: ١٨، ح ١ و ٢.

٤- ٤ الجواهر ٧: ٣٦٨.

٥- ٥ الوسائل ١٣: ٥٠.

٦- ٦ الجواهر ٧: ٣٨٢-٣٨٣.

٧- ٧ الوسائل ١٣: ٥٥، ح ٢ و ٤.

٨- ٨ الوسائل ١٣: ٥٢، ح ٢ ومثله: ٥٤، ح ٦ ومثله: ٥٣ ح ٤.

٩- ٩ الجواهر ٧: ٣٥٢-٣٥٣.

ص: ١١٢

٦- لو جرح صيداً ولم يعلم حاله

لو جرح المحرم صيداً ومضى عنه ولم يعلم حاله بعد أن جرحه لزمه الفداء الكامل، وردت في ذلك رواية عن الإمام الباقر عن آبائه عن علي عليه السلام «في المحرم يصيب الصيد فيدميه ثم يرسله قال: عليه جزاؤه» (١).

٧- لو اضطرَّ المحرم إلى أكل صيد أو ميتة

ما حكم المحرم إذا اضطرَّ إلى تناول الصيد أو ميتة كانت عنده؟ ورد عن الإمام علي عليه السلام خبر في ذلك يقول فيه: «إذا اضطرَّ المحرم إلى الصيد والميتة فليأكل الميتة التي أحلَّ الله له» (٢).

، وهذه الرواية مخالفة لما استقرَّ عليه المذهب الإمامي من اختيار الصيد مع التمكن من الفداء، فإن لم يمكنه الفداء اجتنب الصيد وأكل من الميتة، ونقل صاحب الجواهر ادعاء السيد المرتضى الإجماع عليه، كما احتل صاحب الجواهر أن يكون مورد الرواية ما إذا لم يكن واجداً للصيد وإن اضطرَّ إليه (٣).

أما ما أوردته المصادر السنية من آثار فقهية عن الإمام علي عليه السلام في جزاء مخالفات الإحرام فقد جمع صاحب موسوعة فقه علي بن أبي طالب عليه السلام ما نصه:

«لقد قضى علي في النعامة ببدنه - جمل - (٤) وفي بيضها جنين ناقه، فعن ابن عباس قال: قضى علي بن أبي طالب في بيض النعامة يصيبها المحرم: ترسل الفحل على إبلك، فإذا تبين لقاحها سميت عدد ما أصبت من البيض فقلت: هذا هدى، ثم ليس عليك ضمان ما فسد، قال ابن عباس: فعجب معاوية من قضاء علي، قال ابن عباس: لم يعجب معاوية من عجب، ما هو إلما يباع به البيض في السوق فيتصدق به (٥)».

وفي سنن البيهقي أن هذا القضاء كان مما قضى به علي في حياة رسول الله، فانطلق الرجل إلى نبي الله فأخبره بما قال علي، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «قد قال علي ما تسمع، ولكن هلم إلى الرخصة، عليك في كل بيضة صيام يوم أو إطعام مسكين» (٦).

١- ١ الوسائل ١٣: ٦٣.

٢- ٢ الوسائل ١٣: ٨٧.

٣- ٣ الجواهر ٧: ٤١٩ - ٤٢٠.

٤- ٤ المجموع ٧: ٤٠٣ و ٤٢١ والمغنى ٣: ٥٠٩ و ٥١٧ والمحلى ٧: ٢٢٧ والروض النضير ٣: ٢٦٦.

٥- ٥ عبد الرزاق ٤: ٤٢٢ والمحلى ٧: ٢٣٤.

٦- ٦ سنن البيهقي ٥: ٢٠٨.

ص: ١١٣

وقضى فى الضبع يصيده المحرم دون أن يعدو عليه بكبش وإن عدا عليه فلا شيء فيه (١).
وفى الطبى شاء (٢).

وفى حمام الحرم يحكم به ذوا عدل منكم، قال: شاء (٣).

وفى كل بيضتين من بيوض الحمام درهم (٤).

جزاء حلق الشعر: قال على فيمن يصيبه أذى من رأسه فحلق: «يصوم ثلاثة أيام، وإن شاء أطعم ستّة مساكين لكل مسكين نصف صاع،
وإن شاء نسك ذبح شاء» (٥).

، ويفعل ذلك أين شاء، وفى الحرم أو فى غيره.

أما ذبح على بدنة بالسقيا عندما حلق شعر ابنه حسين فهو تطوع منه رضى الله عنه (٦).

جزاء الوطء: قال على فى الرجل يقع على امرأته- وهو محرم-: «على كل واحد منهما بدنة» (٧).
، وعليه الحج من قابل.

جزاء القبلة واللمس بشهوة: قال على: «إذا قتل المحرم امرأته فعليه دم» (٨).
، أى شاء.

ولا يجوز لمن ذبح هدياً جزاءً أن يأكل شيئاً منه، قال على: «لا يأكل من النذر ولا من جزاء الصيد ولا مما جعل للمساكين» (٩) (١٠).
ثالثاً- أفعال الحجّ

الواجب فى الحجّ من الأفعال اثنا عشر: الاحرام، والوقوف بعرفات، والوقوف بالمشعر، ونزول منى، والرمى، والذبح، والحلق بها أو
التقصير، والطواف، وركعتاه، والسعى، وطواف النساء، وركعتاه.

وقد وردت آثار عن الإمام على عليه السلام فى أكثر هذه الأبواب. وعلى النحو التالى:

١- من واجبات الاحرام التلبيات الأربع

ولا ينعقد إحرام عمره التمتع وحجّه إلّا بها، والواجب منها مرّة واحدة،

١- ابن أبى شيبه ١: ١٧٧ و ١٩١ و ٢٠٣ وعبد الرزاق ٤: ٤٠٣ والمحلى ٧: ٢٢٧ والروض النضير ٣: ٢٢٦ والمجموع ٧: ٤٠١ والمغنى
٣: ٥١٠.

٢- ٢ المغنى ٣: ٥٠٩ و ٥١١ والروض النضير ٣: ٢٢٦.

٣- ٣ عبد الرزاق ٤: ٤١٨.

٤- ٤ عبد الرزاق ٤: ٤٢٠ و ٤١٨ والمجموع ٧: ٣٣٩.

٥- ٥ الروض النضير ٣: ٢٤٨ وتفسير الطبرى ٢: ٢٣٥.

٦- ٦ تفسير الطبرى ٢: ٢٣٩.

٧- ٧ ابن أبى شيبه ١: ١٦٥ ب.

٨- ٨ ابن أبى شيبه ١: ١٦٣ ب وسنن البيهقى ٥: ١٦٨ وكتر العمال ١٢٧٩٨.

٩- ٩ ابن أبى شيبه ١: ١٦٦ ب.

ص: ١١٤

ويستحب الإكثار والتكرار للحاج حتى زوال يوم عرفة (١).

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المورد خبران، أحدهما يدل على استحباب رفع الصوت بالتلبية بالنسبة إلى الرجل. وهو قوله عليه السلام «جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: إن التلبية شعار المحرم فارفع صوتك بالتلبية»

(٢)

، وعلى ذلك مشهور الفقهاء، وقد استدلوا عليه بأخبار أخرى ولم يوردوا هذا الخبر، ربما لعل الإرسال فيه (٣)، وثانيهما قوله عليه السلام: «تلبية الأخرس وتشهده وقراءته القرآن في الصلاة تحريك لسانه وإشارته بأصبعه» (٤).

أمّا المصادر السنية فذكر صاحب موسوعة فقه علي بن أبي طالب: «روى كل من ابن أبي شيبة والبيهقي وابن حزم في المحلى بأسانيدهم أن علياً رضي الله عنه ما زال يهمل حتى انتهى إلى جمرة العقبة، فعن عكرمة قال: أفضت مع الحسين بن علي فما زال - أسمع - يلبي حتى رمى جمرة العقبة، وأخبرني أن رسول الله كان يفعل ذلك».

وذكر النووي في المجموع أن علياً كان يقطع التلبية قبل الوقوف بعرفات، ويعارض هذا ما رواه ابن أبي شيبة بسنده أنه ذكر لابن عباس أن معاوية نهى عن التلبية يوم عرفة، فجاء حتى أخذ بعمودي الفسطاط ثم لبى، ثم قال:

«علم - معاوية - أن علياً كان يلبي في هذا اليوم فأحب أن يخالفه»، وذكر ابن قدامة في المغني أن علياً كان يلبي حتى تزول الشمس يوم عرفة» (٥).

٢- الوقوف بعرفات

الوقوف بعرفات من أركان الحج، فمن فاته الوقوف فيها عامداً من زوال يوم عرفة فقد فاتته الحج؛ ولذا فقد ورد في بعض الآثار أن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة، وفي ذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام «أن فضيل بن عياض سأله عن الحج الأكبر، فقال عليه السلام: أعندك فيه شيء؟ فقلت: نعم كان ابن عباس يقول: الحج الأكبر يوم عرفة، يعني أنه من أدرك يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر فقد أدرك

١- ١ تحرير الوسيلة ١: ٤١٦.

٢- ٢ الوسائل ١٢: ٣٧٩.

٣- ٣ الجواهر ٦: ٥٧٩.

٤- ٤ الوسائل ١٢: ٣٨١.

٥- ٥ الموسوعة: ٢١٣-٢١٤.

ص: ١١٥

الحج، ومن فاته ذلك فقد فاته الحج... فقال الإمام الصادق عليه السلام له: قال أمير المؤمنين عليه السلام الحج الأكبر يوم النحر، واحتج بقول الله عز وجل: فَسَيَحُورُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فِيهِ عَشْرُونَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمِ وَصَفْرٍ وَرَبِيعِ الْأَوَّلِ وَعَشْرٍ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ، ولو كان الحج الأكبر يوم عرفه لكان السيح أربعة أشهر ويوماً...» (١)

وورد عنه عليه السلام في مسند زيد أنه قال: «من فاته الموقف بعرفة مع الناس أتاها ليلاً، ثم أدرك الناس في جمع قبل انصراف الإمام فقد أدرك الحج» (٢).

٣- أعمال منى

تجب في منى على الحاج ثلاثة أعمال هي: الرمي والهدى والحلق أو التقصير.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام آثار فقهية في الثاني والثالث، ولم أعر على أثر له في الأول.

أما الهدى فوردت عنه فيه آثار عديدة نوردتها ضمن المسائل التالية:

أقل ما يجرى في الهدى

ورد عنه أنه عليه السلام يقول: «الثنية في الإبل، والثنية في البقرة، والثنية من المعز، والجذعة من الضأن» (٣).

والثني من الإبل ما كان له خمس سنوات و دخل في السادسة، ومن المعز والبقر ما له سنة و دخل في الثانية، على المشهور، أما الجذع

ما أتم سنة و دخل في الثانية. هذا هو أقل ما يجرى في الهدى، وعلى ذلك رأى الفقهاء (٤).

ما يشترط في الهدى

ذكر الفقهاء شروطاً في الهدى، قال المحقق في الشرائع: «الثالث أن يكون تاماً، فلا تجزى العوراء ولا العرجاء البين عرجها ولا التي

انكسر قرننها الداخل، ولا المقطوعة الاذن، ولا الخصى من الفحول، ولا المهزومة وهي التي ليس على كليتيها شحم و.... والمستحب

أن تكون سميئة تنظر في سواد وتبرك في سواد وتمشى في مثله..» (٥).

١- ١ الوسائل ١٤: ٤٤.

٢- ٢ الموسوعة: ٢١٥ نقلًا عن مسند زيد ٣: ١٨٣.

٣- ٣ الوسائل ٤: ١٠٣، وتكرر هذا المعنى منه عليه السلام في روايتين أخريين في ص ١٠٥.

٤- ٤ الجواهر ٧: ٧٧.

٥- ٥ الجواهر ٧: ٧٩-٨٤، انظر كلام المحقق واستدلال صاحب الجواهر عليه.

ص: ١١٦

وقد وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك أخبار صحيحة كانت مورد استدلال الفقهاء، وأخرى ضعيفة استأنسوا بها لأدلتهم (١). مثل قوله عليه السلام «من تمام الأضحية استشراف عينها واذنها، وإذا سلمت العين والاذن تمت الأضحية، وإن كانت عضباء القرن أو تجر رجلها إلى المنسك فلا تجزى» (٢).

وعنه عليه السلام: «إذا اشترى الرجل البدنة عجفاء فلا تجزى عنه، وإن اشترى سمينه فوجدها عجفاء أجزأت عنه وفي هدى التمتع مثل ذلك» (٣).

، وعنه عليه السلام أيضاً «كان على عليه السلام يكره التشريم في الاذان والخرم، ولا يرى بأساً إن كان ثغب في بعض المواسم..» (٤). الهدى يجزى مع الضرورة عن خمسة وعن سبعة

الأصل أن الهدى الواحد لا يجزى عن أكثر من مكلف واحد، ووردت أخبار تفيد أن الهدى الواحد يجزى عند الضرورات عن أكثر من واحد إذا كانوا أهل خوان واحد، ومن ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «البقرة الجذعة تجزى عن ثلاثة من أهل بيت واحد، والمسنة تجزى عن سبعة نفر متفرقين، والجزور تجزى عن عشرة متفرقين».

وقد حمل صاحب الجواهر هذا الخبر وأمثاله عن سائر الأئمة على الأضحية المندوبة، إذ لا تصريح فيها على الهدى الواجب (٥). حكم نتاج الهدى والحمل عليه

وورد عنه عليه السلام ما يفيد جواز الانتفاع بحليب الهدى والحمل عليه، فقد روى عنه أنه كان: «يحب البدنة ويحمل عليها غير مضر» (٦).

و «كان إذا رأى ناساً يمشون قد جهدهم المشى حملهم على بدنة، وقال: إن ضلت راحلة الرجل أو هلكت ومعه هدى فليركب على هديه» (٧).

، وعلى ذلك كلمة الفقهاء (٨).

أحكام الأضحية

من سنن الإسلام استحباب الأضحية حتى قال على عليه السلام: «لو علم الناس ما

١- ١ انظر: المصدر السابق.

٢- ٢ الوسائل ١٤: ١١٠-١١١.

٣- ٣ الوسائل ١٤: ١١٥.

٤- ٤ الوسائل ١٤: ١٢٩.

٥- ٥ الجواهر ٧: ٧٠.

٦- ٦ الوسائل ١٤: ١٤٦.

٧- ٧ الوسائل ١٤: ١٤٧.

٨- ٨ الجواهر ٧: ١١٥.

ص: ١١٧

في الأضحى لأستدانوا وضحوا، إنّه ليغفر لصاحب الأضحى عند أوّل قطرة تقطر من دمها» (١).
 ، وكان عليه السلام يضحى عن رسول الله كلّ سنه بكبش، وعن نفسه بكبش آخر (٢). وكان يقول: «ضح بنى فصاعداً وأشتره سليم
 الاذنين والعينين واستقبل القبلة...» (٣).
 ، ونقل عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «نهيتكم عن ثلاثة...»
 ونهيتكم عن خروج لحوم الأضاحي من بعد ثلاثة أيام فكلوا وادّخروا..» (٤)، وورد عنه أيضاً أنه يقول: «الأضحى ثلاثة أيام وأفضلها
 أوّلها» (٥).

وقد استدللّ الفقهاء على هذه المطالب الفقهية بأدلة منها كلمات أمير المؤمنين عليه السلام هذه (٦).

من لم يجد الهدى فصيام عشرة أيام
 إذا عجز الحاج عن الهدى ودفع ثمنه وجب عليه بدلاً عن ذلك صيام عشرة أيام، ثلاثة منها في الحجّ، وسبعة في موطنه، وثلاثة الحج
 يجب أن تكون متواليه لا متفرقة، وقال الإمام علي عليه السلام في آية فصيام ثلاثة أيام في الحجّ: «قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفه
 فمن فاتته هذه الأيام فلينشئ يوم الحصبه وهي ليلة النفر» (٧).
 هذه جملة الآثار الواردة عن الإمام علي عليه السلام في الهدى.

أما الحلق وهو العمل الثالث في منى فقد ورد فيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه يقول: «السنّة في الحلق أن يبلغ العظمين» (٨)
 وعلى ذلك فتوى الفقهاء (٩).

هذا كلّ ما ورد عن أمير المؤمنين في أعمال منى من مصادر الإمامية، أمّا ما ورد عنه فيها من مصادر أهل السنّة فقد جمعها صاحب
 موسوعة «فقه علي بن أبي طالب» فكتب يقول:
 «ومن مزدلفه يذهب الحجج إلى منى وفي اليوم الأوّل من أيام منى - وهو يوم النحر - يقوم الحجج بعدة أعمال مرتبة هي: رمى جمرة
 العقبة، فالدبح، فالحلق، فطواف الإفاضة. قال علي: «أوّل المناسك يوم النحر رمى الجمرة ثمّ الذبح ثمّ الحلق ثمّ طواف الزيارة» (١٠).

١-١ الوسائل ١٤: ٢١٠.

٢-٢ الوسائل ١٤: ٢٠٦.

٣-٣ الوسائل ١٤: ٢٠٧.

٤-٤ الوسائل ١٤: ١٧٠.

٥-٥ الوسائل ١٤: ٩٣.

٦-٦ انظر: الجواهر ٧: ١٢١-١٢٤.

٧-٧ الوسائل ١٤: ١٨٣ وبهذا المعنى أخبار أخرى وردت عنه عليه السلام في ص ١٨٤.

٨-٨ الوسائل ١٤: ٢٢٩.

٩-٩ الجواهر ٧: ١٣٤.

١٠-١٠ مسند زيد ٣: ٢٤٤.

ص: ١١٨

رمى جمرة العقبة: قال علي: «في اليوم العاشر- من ذى الحجة- يرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس، بسبع حصيات، ويكبر مع كل حصاة، ولا يرمى يومئذ من الجمار غيرها» (١).

ذبح الهدى: إذا وجب على الحاج دم لكونه قارناً أو متمتعاً، أو جزاءً على مخالفة ارتكبتها، فإن هذا هو وقت الذبح وإذا ذبح تحلل التحلل الأول.

الحلق أو التقصير: بعد الذبح يتحلل بحلق شعره أو تقصيره ولا يجزئ التقصير عمّن لبّد أو عقص أو ضفر شعره، ولكن لا بدّ له من الحلق (٢). أمّا المرأة فإنّها تقصر شعرها ولا تحلقه، فقد روى الترمذى والنسائى عن علي رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله أن تحلق المرأة رأسها» (٣).

وكتب عن صيام بدل الهدى في فقه الإمام عليه السلام يقول:

«وهذه الأيام الثلاثة التي عليه أن يصومها في الحج آخرها يوم عرفه قال علي في تفسير قوله تعالى: فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ: «آخرها يوم عرفه»، وقال: «صم قبل يوم التروية بيوم، ويوم التروية، ويوم عرفه» (٤).

فإن لم يصم الأيام الثلاثة حتى يوم عرفه، فهل يصومها بعد ذلك؟ يرى علي أنه لا يجوز له أن يصومها أيام منى؛ لأنها أيام تشريق، وأيام التشريق أيام أكل وشرب، وفي ذلك يقول علي: «يصوم بعد أيام التشريق إن فاته الصوم» (٥) ويقول: «يصوم بعد ذلك ثلاثة أيام في الحرم، وسبعة إذا رجع» (٦).

٤- الطواف

وبعد أعمال منى يجب على الحاج خمسة أعمال هي:

طواف الحجّ وركعتاه، والسعى بين الصفا والمروة، وطواف النساء وركعتاه.

وقد وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام في الطواف آثار فقهية نوردها ضمن النقاط التالية:

استحباب اختيار الطواف المندوب على الصلاة المندوبة في الكعبة وذلك

١- ١ مسند زيد بن علي ٣: ١٩٤.

٢- ٢ كنز العمال ١٢٧٣٣.

٣- ٣ الموسوعة: ٢١٦.

٤- ٤ ابن أبي شيبة ١: ١٩٦ وتفسير الطبري ٢: ٢٤٧.

٥- ٥ سنن البيهقي ٥: ٢٥ والمغني ٩: ٤٧٩.

٦- ٦ الموسوعة: ٢٠٦.

ص: ١١٩

في قوله عليه السلام: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ وَعِشْرِينَ رَحْمَةً عِنْدَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، مِنْهَا سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ، وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ، وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ» (١).

استحباب استلام الحجر الأسود عند الطواف

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أن عمر بن الخطاب مرّ على الحجر الأسود فقال: واللّه يا حجر إنّنا لنعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع إلّا أنّنا رأينا رسول الله صلى الله عليه وآله يحكيك فنحن نحكيك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كيف يا ابن الخطاب! فوالله ليعتّنه الله يوم القيامة وله لسان وشفطان فيشهد لمن وافاه، وهو يمين الله عزّوجلّ في أرضه يبايع بها خلقه»، فقال عمر: لا أبقانا الله في بلد لا يكون فيه علي بن أبي طالب عليه السلام (٢).

وهذا من جملة ما يدلّ على استحباب الوقوف عند الحجر ورفع اليدين بالدعاء عنده، واستلامه وتقبيله وذلك أثناء الطواف، وقد أورده صاحب الجواهر لدى بحثه هذه المسألة (٣).

الأقطع يستلم الحجر من موضع القطع

روى الإمام الصادق عليه السلام: «أَنْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ كَيْفَ يَسْتَلِمُ الْأَقْطَعَ الْحَجْرَ؟ قَالَ:

يَسْتَلِمُ الْحَجْرَ مِنْ حَيْثُ الْقَطْعِ، فَإِنْ كَانَتْ مَقْطُوعَةً مِنَ الْمَرْفِقِ اسْتَلِمَ الْحَجْرَ بِشِمَالِهِ» (٤).

. وقد اعتمد الفقهاء على هذه الرواية في الإفتاء بهذه المسألة (٥).

من زاد شوطاً أكمل اسبوعين

الواجب في الطواف سبعة أشواط، والمستحبّ لا حدّ له، وإذا كان في طواف واجب وزاد شوطاً وجب عليه الإتيان بسنّة أشواط أخرى ليكمل بذلك اسبوعين من الطواف (٦).

وعمدة الدليل في ذلك روايات عن أمير المؤمنين عليه السلام كصحيحه محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: «إِنَّ فِي كِتَابِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا طَافَ الرَّجُلُ بِالْبَيْتِ ثَمَانِيَةَ أَشْوَاطٍ الْفَرِيضَةُ فَاسْتَيْقَنَ ثَمَانِيَةَ أَضْفَافٍ إِلَيْهَا سِتًّا...» (٧)، وعن الصادق عليه السلام قال:

١- ١ الوسائل ١٣: ٣١٢.

٢- ٢ الوسائل ١٣: ٣٢٠.

٣- ٣ الجواهر ٧: ١٨٤.

٤- ٤ الوسائل ١٣: ٣٤٣.

٥- ٥ الجواهر ٧: ١٨٧.

٦- ٦ الجواهر ٧: ١٩٧-١٩٩.

٧- ٧ الوسائل ١٣: ٣٦٦.

ص: ١٢٠

«إِنَّ عَلِيًّا طَافَ ثَمَانِيَةَ أَشْوَاطٍ فَزَادَ سِتَّةَ رُكْعٍ أَرْبَعِ رُكْعَاتٍ» (١)

هذا ما أوردته المصادر الإمامية عنه عليه السلام في باب الطواف.

وذكرت المصادر السنية عنه في هذا الباب آثاراً أخرى مثل قوله عليه السلام: «يرجع من نسي الطواف ولو من خراسان» وقوله عليه السلام: «من حجّ فليكن آخر عهده بالبيت إلما النساء في الحيض فإنّ رسول الله رخص لهن في ذلك» وقوله عليه السلام: «الحائض تعرّف - أى تقف بعرفات - وتنسك المناسك كلّها وتأتى المشعر الحرام وترمي الجمار وتسعى بين الصفا والمروة ولا تطوف بالبيت حتّى تطهر» (٢).

وقوله عليه السلام: «إذا طفت في البيت فلم تدر أتممت أو لم تتم، فأتم ما شككت، فإنّ الله لا يعذب على الزيادة».

وقوله عليه السلام في الرجل ينسى فيطوف ثمانية: «فليرد عليها ستة حتّى تكون أربعة عشر، ويصلّى أربع ركعات».

وروا عنه أنّه كان عليه السلام إذا استلم الحجر الأسود يقول: «اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وآله» (٣).

الهوامش:

١- ١ الوسائل ١٣: ٣٦٥.

٢- ٢ الموسوعة: ٢١٧ نقلًا عن: مسند زيد ٣: ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٧٥ وابن أبي شيبة ١: ١٦٥.

٣- ٣ الموسوعة: ١١٤ نقلًا عن: ابن أبي شيبة ١: ١٦٨ و ٢٠٥- ومسند زيد ٣: ١٦٩ ومصنف عبد الرزاق ٥: ٥٠١، والمجموع ٨: ٣٤ وكنز العمال ح ١٢٥١٩.

الامام على عليه السلام... والرأى الآخر

ص: ١٢٦

الإمام على عليه السلام... والرأى الآخر

حسن السعيد

حفلت الممارسة التاريخية الحضارية للإسلام فى مسألة العلاقة مع «الأخر» ..

بنماذج إنسانية رفيعة... وهناك شواهد كثيرة تزخر بها صفحات التاريخ، وكلها تدعم الاتجاه المنفتح على «الأخر» والمتفهم له والمعاش معه، رغم ما اعتور التجربة الإسلامية من انحرافات وخروقات.

فلئن كان الشيعة والخوارج هما العنوانان الأكثر ضجة فى تاريخ المعارضات والثورات على امتداد التاريخ الإسلامى، إلّا أنّ الجذور التاريخية للمعارضة فى الإسلام يرجعها البعض إلى عهد الرسول صلى الله عليه وآله، عبر تصنيف اليهود والمنافقين كمعارضة دينية سياسية داخل دولة المدينة (١).

والملاحظ أنّ التعامل العام مع هذه المعارضة، كان تعاملًا سلميًا هادئًا، فلم يخسر اليهود مواظنتهم وحقوقهم فى الدولة إلّا بعد أن تحرّكوا عسكرياً، كما أنّ المنافقين واصلوا نهجهم ولم يتمّ التعامل معهم بسلبهم حقوق المواطنة، ولكن قد يُسجّل على هذه المعارضة بأنّها كانت مختلفة فى الانتماء العقائدى أو ما يمكن تسميته مجازاً معارضة أقلية دينية بالنسبة لليهود لا تلتقى مع

١- ١ إبراهيم العبادى؛ مقال «المعارضة فى الدولة الإسلامية»، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد الثانى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص: ١٧٣.

ص: ١٢٧

القاعدة الفكرية للدولة، وإن شاركت مجتمع الدولة في حقوق المواطنة (١).

ويطول المقام لو سمحنا لأنفسنا استعراض الشواهد المؤكدة على هذا المنحى، بيد أننا سنقتصر، لأسباب منهجية، على نموذج واحد، هو الإمام على عليه السلام، لما يمثله من موقع متقدم في الدعوة؛ سابقة، وريادة، وأسوة، وما يعزّز ذلك شهادات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بحق الإمام على عليه السلام: «أنا وأنت يا عليّ أبوا هذه الأمة»، «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» (٢).

وقد أرسى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هذا النهج الرسالي، بكلّ ما يتّسم به من سعة صدر، وامتداد أفق، واستعداد للاستيعاب، وفيما يرويه الصحابي جابر ابن عبد الله: «لما قسّم رسول الله صلى الله عليه وآله غنائم هوازن بين الناس بالجعرانة، قام رجل من بني تميم فقال:

- اعدل يا محمّد!

- فقال صلى الله عليه وآله: «ويلك! ومن يعدل إذا لم اعدل! لقد خبت وخسرت إن لم اعدل!».

فقال عمر بن الخطّاب: يا رسول الله، ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟!

فقال صلى الله عليه وآله: معاذ الله أن تتسامع الامم أن محمّداً يقتل أصحابه» (٣).

وجاء الإمام على عليه السلام ليكرّس هذا المنهج الربّاني والخصال النبوية، في حقبة هبت عليها أعاصير الأهواء ولواقح الفتن، وهو ما سنستعرض بعض جوانبه:

الإمام على عليه السلام النموذج المتألّق

ولئن كان بعض الصحابة يعدّون مشايخ الإسلام «فإنّ على بن أبي طالب هو ابن الإسلام البار، والوريث للشريعة، وهو أفضى الصحابة، وأقدرهم على الحكم بما أنزل الله، نشأ على في بيت النبوة وتفتح في صباه على الإسلام، وقد أتاه الله عقلاً ذا ملكات فريدة، فشرّب الإسلام وتكوّن عقله على فهمه ومعرفة أحكامه وخبائاه.

وكان شأنه شأن نبي الله يحيى حيث أتاه الله الحكم صبيّاً. فكان رغم صغر سنّه بين الصحابة أقدرهم على معرفة أحكام الإسلام. وقد قال ابن الخطّاب:

«لولا على لهلك عمر»، حيث كان إذا استشكل عليه أمر من أمور الدين لجأ

١-٢ المرجع نفسه.

٢-٣ لمزيد الاطلاع على الروايات الواردة بحق الإمام عليه السلام تراجع موسوعة «ميزان الحكمة» لمحمدي رى شهرى ١: ٢٠١-٢٢٦ مكتب الإعلام الإسلامى إيران، ١٣٦٧ هـ ش.

٣-٤ رواه الإمام أحمد، نقلًا عن مقال الدكتور محمّد عمارة آنف الذكر.

ص: ١٢٨

إلى على فاستشاره فيه. وكان على أشبه بما نطلق عليه اليوم فيلسوف الدين الجديد، فقد كان حريصاً في كل موقف أن يظهر حكم الإسلام، وافقه الناس على رأيه أم خالفوه. فالتائج ليست مهمّة عنده، بل المهم هو أداء الواجب.

وكان يرى أن واجبه يحتم عليه أن يظهر حكم الشريعة، فهي عنده السيد الذى يجب احترامه وطاعته.. (١)

وظل الإمام على عليه السلام ملتصقاً بهذا المنهج لا يحد عنه، سواء قبل استلامه الخلافة أو بعدها. داخل الصف المسلم أو خارجه «ما شككت فى الحقّ مُذ أريت» لذا كان سلام الله عليه النموذج الفذ للشخصية الإسلامية، بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، والتي يجب أن يحتذيها المسلمون اليوم، وهم يخوضون المعركة الضارية، لكي يستأنف الإسلام دوره من جديد.

وبالإمكان رصد موقف الإمام على عليه السلام من «الآخر» على ثلاثة أبعاد:

أولاً: موقفه معارضاً من السلطة.

ثانياً: موقفه حاكماً من المعارضة.

ثالثاً: موقفه من «الآخر» غير المسلم.

موقفه معارضاً

يقول عباس محمود العقاد: «فى كلّ ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه..» (٢)، وليس ثمة شكّ فى خصوصيته المتميزة، إذ «اجتمع للإمام على بن أبى طالب من صفات الكمال، ومحمود الشمائل والخلال، وسناء الحساب وباذخ الشرف؛ مع الفطرة النقية، والنفوس المرضية، ما لم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال» (٣).

إن الحديث عن أبعاد شخصية الإمام على عليه السلام ليس بالأمر اليسير أبداً، إن لم يعجز عنه الفطاحل، أو يهابون الخوض فيه. ونحن إذ نسمح لأنفسنا أن نمسّ جانباً محدداً من مواقفه، «لا نقصد انجاز مشروع صياغة وتحديد كامل فكر الإمام.. (فى هذه الإثارة)، وإنما نهدف من هذا العمل المتواضع الإطالة على بعض ملامح وصور هذا الفكر العملاق» (٤) ليس إلّا.

فعلى صعيد الحكم وتحمل تبعاته، لم

١- ٥ سمير الهضبي؛ مقال «نظام الحكم فى الإسلام: التجربة ومؤثرات الثقافة والحضارة العربية»، مجلّة النور لندن، العدد ٣٥- شوال ١٤١٤ هـ، ص ٢٧.

٢- ٦ عباس محمود العقاد؛ «عبرية الإمام على» المجموعة الكاملة ٢: ١١، بيروت، ١٩٧٤ م.

٣- ٧ تراجع المقدمة القيمة التى كتبها الأستاذ محمّد أبو الفضل إبراهيم، محقق شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ط ٢، القاهرة، ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٥ م، ص ٣ وما بعدها.

٤- ٨ اقتبسنا هذه الفكرة، بشيء يسير جداً من التصرف، عن المقال الافتتاحي لمجلّة المنطلق، العدد المزدوج ٧٥ / ٧٦: شعبان- رمضان ١٤١١ هـ/ شباط- اذار ١٩٩١ م، ص ٥.

ص: ١٢٩

يكن الإمام على عليه السلام طارئاً أو هامشياً، «فقد كان عليه السلام على تمام الأهبة لولاية الحكم، كان قد خبر المجتمع الإسلامي في أقطاره، وخالط كافة طبقاته، وراقب حياتها عن كثب، ونفذ إلى أعماقها، وتعرف على الوجدان الطبقي الذي يشدها ويجمعها. وقد مكّنه من ذلك كله المركز الفريد الذي كان يتمتع به من النبي صلى الله عليه وآله، فهو وزيره ونجيته، وأمين سرّه، وقائد جيوشه، ومنفذ خطته، ومعلن بلاغاته.. هذه المنزلة الفريدة التي لم يكن أحد من الصحابة يتمتع بها أعدته إعداداً تاماً لمهمّة الحكم. وقد كان النبي يتغى من وراء إناطة هذه المهام كلها به إعداده للمنصب الإسلامي، ليصل إليه وهو على أتم ما يكون أهلية واستعداداً. ولقد غدا من نافلة القول أن يُقال:

«إنّ عليه السلام هو الخليفة الذي كان يجب أن يلي حكومة النبي في المجتمع الإسلامي.

وإذا لم يُقدّر له أن يصل إلى الحكم بعد النبي فإنّه لم ينقطع عن الحياة العامّة، بل ساهم فيها مساهمة خصبة» (١)، وإن فسحة الربع قرن التي مرّت على ابن أبي طالب، منذ رحيل الرسول حتّى تسلّمه الخلافة «لم تكن بالفسحة البسيطة، لا بطول مداها ولا بقيمة الأحداث التي مرّت عليها. وهي وإن تكن تعتبر فراغاً بالنسبة لعدم تحمّله فيها أيّة مسؤوليّة إدارية، فإنّها بالحقيقة كانت فراغاً يمتلأ. وليس يفهم من كلمة «فراغ» أن ابن أبي طالب غاب في هذا الوقت الطويل عن الساحة، بل بالعكس، كان فيها ملء السمع والبصر، غير أنّه كان يحتلّ فيها برج المراقبة» (٢)، فقد كان أبو بكر ثمّ عمر ومن بعدهما عثمان لا يسعهم الاستغناء عن آرائه في السياسة والقضاء والحرب، وخاصّة في خلافة عثمان فقد كان فيها على أتم الصلّة بالتيارات التي تمخر المجتمع الإسلامي، لكن عثمان لم ينتفع كثيراً بالتوجيه الذي كان الإمام يقدّمه إليه لأنّ بطانه متعفّنه كانت تحيط بهذا الخليفة (٣).

ورغم ما لقيه من جحود وإقصاء وتهميش، من لدن العقلية الحاكمة فإنّه لم يقابل ذلك بالمثل، وإنّما كان ينطلق،

١- ٩ محمّد مهدي شمس الدين؛ «دراسات في نهج البلاغة»، ط ٢، بيروت، ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م، ص ٢٠٤.

٢- ١٠ سليمان كتانى؛ «الإمام على: نبراس ومتراس»، النجف، ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٧ م، ص ١١٥.

٣- ١١ محمّد مهدي شمس الدين؛ م. س: ٢٠٥.

ص: ١٣٠

وفق الموقف الشرعى، من منطلق الحرص على وحدة الموقف وما تتطلبه المصلحة العليا، ولهذا نجده - على طول الخط - «قد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله. ولم يدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم.. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رُمى بها كما يأنف العزيز الكريم. وفي ذلك يقول فى خطابه إلى معاوية: «ذكرت ابطائى عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك».

وأولى أن يقال: إن دلائل وفائه فى حياتهم، وبعد ذهابهم، كانت أظهر من دلائل جفائه. فإنه احتضن ابن أبى بكر محمداً وكفله بالرعاية ورشحه للولاية، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله...» (١).

ورغم انفتاحه الإيجابى على مجمل الحياة الإسلامية، وبمختلف مشاربها، إلا أن ذلك لا يلغى معارضة الإمام على عليه السلام للنهج القائم، مع حرص شديد على الطابع السلمى لمعارضته تلك.

وهكذا بدأت أول معارضة من داخل الصف الإسلامى نفسه تبلور بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، حينما تخلف العديد من الصحابة الكبار عن بيعه أبى بكر وآزروا الإمام على بن أبى طالب وزوجته فاطمة عليهما السلام فى معارضتهم لمنطق السقيفة عندما تولى أبو بكر الخلافة بدون إجماع إسلامى (٢) وكانت خطبة فاطمة عليها السلام فى مسجد الرسول واحتجاجها العلنى الصريح على الخليفة الأول معارضة فكرية - سياسية امتدت لفترة من الزمن، وانتهت بمبايعه الإمام على ومن تخلف معه من الصحابة (٣).

ويبقى موقف الإمام على عليه السلام من مسألة «السقيفة» أول موقف معارض له، وظلت القضية موضع إدانته، لأنه أمر دُبر فى ليل. ومن المعروف تاريخياً أن نفس رسول الله صلى الله عليه وآله فاضت فى حجر على عليه السلام، وما إن انتقل صلى الله عليه وآله إلى ربّه الأعلى، حتى اشتغل على عليه السلام وأهل بيته بتجهيزه من أجل مواراة جسده الطاهر فى مثواه الأخير، حتى عقدت الأنصار وبعض المهاجرين اجتماعاً فى سقيفة

١- ١٢ عباس محمود العقاد؛ م. س: ١٣٠.

٢- ١٣ إبراهيم العبادى؛ م. س: ١٧٣.

٣- ١٤ المرجع نفسه.

ص: ١٣١

بنى ساعده لتنصيب من يخلف النبى صلى الله عليه وآله فى قياده المسلمين.

وبعد مناقشات حاده وطويله سادها جو من التوتر والقلق والعنف والخلاف بادر عمر بن الخطاب الى بيعه ابنى بكر بالخلافه، وطلب من الحاضرين ذلك، ولم يكن على عليه السلام على علم بما حدث، ولكن النبأ قد انساب الى مسامعه من خلال الضجيج الذى أحدثه خروج القوم من السقيفه، وهم فى طريق توجيههم للمسجد النبوى.

وحتى تلك الساعه ما زال على وأهل البيت عليهم السلام مشغولين بتجهيز فقيه الأيمه العظيم رسول الله صلى الله عليه وآله إذ ظل جثمانه الطاهر ثلاثه أيام دون دفن ليتسنى للمسلمين توديعه والصلاه عليه.

ولعدم قناعه الإمام عليه السلام بما جرى ظل مؤمناً بحقه فى الخلافه واعتزل الناس وما هم سته شهور، ولم يسمع له صوت فيما يسمى بحروب الردة ولا سواها (١).

ومن الواضح أن هذا الاعتزال لم يكن سوى احتجاج سياسى على ما حدث تحت خيمه السقيفه. وبعيداً عن الاستنتاجات السطحيه التى حاولت إظهار هذا الموقف وكأنه انتصار للذات، فإن قراءه متأنيه للموقف وتداعياته تقودنا الى تحليل آخر، وهو ما قام به باحث إسلامى معاصر، حين قال:

«نظن أن اعتراضه كان لثلاثه امور:

الأول: لكى يثبت حق المعارضه للمسلمين، حتى لو كانوا أقلية، وحتى لو كانت المعارضه لما استقر عليه رأى الأغلبيه، وكذلك حتى لو كانت المعارضه لأكثر الامور حساسيه وهى اختيار الحاكم.

الثانى: اعتراضه على طريقه اختيار الحاكم، لكى لا يثبت فى ذهن الناس أن ما تم هو النموذج الأوحده أو الأمثل الذى يجب أن يسير عليه المسلمون، ولكى يفترق الناس بين ما تم وما كان يجب أن يكون عليه الأمر. فالبيعه التى تمت فى سقيفه بنى ساعده هى أمر قضى بليل ولا تصح أن تكون نموذجاً لاختيار المسلمين لحاكمهم.

الثالث: أنه كان يرى فى نفسه أقدر الناس على الحكم، ولو حكم لحمل الناس على الجاده، وأظهر النموذج

١- ١٥ لجنة التأليف فى دار التوحيد؛ «أمير المؤمنين على بن أبى طالب» ١: ٥٥، الكويت، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

ص: ١٣٢

الإسلامى الصحيح الذى كان يؤمن به هو، وهو يخالف منهج أبو بكر وعمر (١).

وبذا يكون الإمام على أول مؤسس للمعارضة المسئولة التى لم تخرق القاعدة الفكرية للدولة، وحرصت على وحدة الجماعة واستقرار التنظيم الاجتماعى السياسى (الدولة). فقد تحدت بصراحة فى خطبة له عن السبب الذى حدا به إلى رفض كل عروض الانشقاق السياسى مقدماً المصلحة العامة ووحدة الأمة والدولة (٢) مؤثراً أمور المسلمين على ما سواها، بما فى ذلك شأنه الخاص وحقه الشخصى:

«لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلالعى خاصة» (٣).

وقد هدرت منه، ذات مرة، شقشقتة المعروفة، متعرضاً إلى ما لحق به من جور وحيف: «أما والله لقد تميمصها ابن أبى قحافة (٤) وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحا؛ ينحدر عتى السيل، ولا يرقى إلى الطير.

فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت ارتتى بين أن أصول بيد جداء، أو أصبر على طخيئة عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه!

فرايت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت فى العين قذى، وفى الحلق شجاً، أرى تراثى نهياً، حتى مضى الأول لسيله، فأدلى بها إلى فلان بعده (تم تمثّل بقول الأعشى:).

شتان ما يومى على كورها ويوم حيان أخى جابر

فياعجباً!! بينا هو يستقيها فى حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته! لشد ما تشطرا ضرعتها! فصيرها فى حوزة خشاء يغلظ كلمها، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمنى الناس - لعمر الله - بخبط وشماس، وتلون واعتراض، فصبرت على طول المدّة، وشدة المحنة، حتى إذا مضى لسيله جعلها فى جماعة زعم أنى أحدهم، فيالله وللشورى! متى

١-١٦ سمير الهضبي؛ مرجع سابق، ومن المأثور تاريخياً، أن عبدالرحمن بن عوف قال للإمام عليه السلام أثناء تداول الشورى لاختيار خليفة لعمر بن الخطاب: «أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين؛ أبى بكر وعمر. فقال: بل على كتاب الله - وسنة رسوله واجتهاد رأى، فعدل عنه إلى عثمان...» - شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، المرجع آنف الذكر، ١: ١٨٨.

٢-١٧ إبراهيم العبادى؛ مرجع سابق. هناك أكثر من محاولة تحريضية فى هذا المقام، ومن ذلك لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله خاطبه العباس وأبوسفيان بن حرب فى أن يبايعا له بالخلافة، بعد أن تمت البيعة لأبى بكر فى السقيفة ولكنه أبى الاستجابة ابتغاء للمصلحة العليا، ونأياً عن الفتنة والفرقة.

٣-١٨ نقلًا عن المرجع السابق.

٤-١٩ وفى بعض النسخ «فلان»، وأياً فالمقصود به هو أبوبكر.

ص: ١٣٣

اعترضَ الربُّ فيَّ مع الأئول منهم، حتَّى صَرتُ اقرن إلى هذه النظائر! لكنِّي أسففتُ إذ أسقوا، وطرثُ إذ طاروا، فصغنا رجلٌ منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هَنٍ وهَنٍ، إلى أن قام ثالثُ القوم نافجاً حُصنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمه الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه قتله، وأجهز عليه عمله، وكبث به بطنته» (١).

بهذه النبرة المشحونة بالأسى والمرارة.. اختزل الإمام على محتته المريرة مع مَنْ سبقوه في الخلافة..

ورغم كلِّ ذلك وما رافقه من محاولات الاقصاء الدائبة والعمل على إبقائه في الظلِّ، فإنَّ هذا لم ينعكس سلباً على موقفه العام، ولم تفلح تلك الممارسات في تحقيق مآرب أصحابها، إذ لم تجعله بمنأى عن هموم الأمة، إن لم يندك في عمق حركتها، ولم تشغله عن وعى التحديّات التي تواجهها، فلم يعزف طرفه عين عن رصد خيوطها وقراءة نتائجها.

في عهد الخلافة الراشدة

فلم يمضِ إلّا وقت قصير على رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، حتَّى استجدت أمور وأحداث خطيرة تهتدّد الإسلام وأمته بالفناء، فقد قوى أمر المتنبئين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله واشتدَّ خطرهم في الجزيرة العربية من أمثال: مسيلمة الكذاب، وطلحة بن خويلد الأفاك، وسجاح بنت الحرث الدجاله..

وغيرهم، وصار وجودهم يشكلُّ خطراً حقيقياً على الدولة الإسلامية.

واشتد ساعد المنافقين وقويت شوكتهم في داخل المدينة، وكان الروم والفرس للمسلمين بالمرصاد. هذا عدا ظهور التكتلات السياسيّة في المجتمع الإسلامي على أثر بيعة السقيفة.

ولقد تعامل الإمام عليه السلام مع الخلافة حسب ما تحكّم به المصلحة الإسلامية حفظاً للإسلام وحماية للجماعة الإسلامية من التمزق والضياح، وتحقيقاً للمصالح العليا الإسلامية التي جاهد من أجلها.

وللإمام على عليه السلام كتاب جاء فيه- بهذا الصدد- ما نصّه: «... فأمسكت

ص: ١٣٤

يدى حتى رأيت راجعاً الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهه».

بيد أن صوت على عليه السلام كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتى، وقد تصدى - في هذا المضمار - لتوجيه الحياة الإسلامية، وفقاً لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ومن أجل ذلك فإن الباحث التاريخي في حياة الإمام على عليه السلام لا يلبث إلا أن يلتقى مع مئات المواقف والأحداث - في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان - التي لا تجد غير على عليه السلام مدبراً لها ومعالماً وقاضياً بأمر الشريعة فيها (١).

وطيلة هذا العهد مارس الإمام مهمّة النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقديم المشورة - رغم اختلافه مع الحاكمين - حتى في ذروة الثورة على الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٢).

والخلفاء الثلاثة لم يروا بداً من استشارته إذا التبت عليهم الأمور، وهكذا نجده - مرّة - مرشداً إلى الحكم الإسلامي الصحيح في أمر ما، ومرّة نجده قاضياً في شأن من شؤون الأمة، وأخرى موجّهاً للحاكم الوجهة التي تحقّق المصلحة الإسلامية العليا.

وبمقدورنا أن نلمس دوره الرسالي ذلك إذا طرحنا بعض مفردات منهجه المتبني أيام الخلفاء الذين سبقوه:

فكر أبو بكر بغزو الروم، فاستشار جماعة من الصحابة فقدموا وأخروا، ولم يقطعوا برأى، فاستشار علياً عليه السلام في الأمر فقال عليه السلام: «إن فعلت ظفرت».

فقال أبو بكر: بشرت بخير. وأمر الناس بالخروج، بعد أن أمر عليهم خالد بن سعيد (٣).

أراد أبو بكر أن يقيم الحدّ على شارب خمر... فقال الرجل: إنى

١- ٢١ لجنة التأليف في دار التوحيد؛ مرجع سابق؛ ١: ٥٧.

٢- ٢٢ إبراهيم العبادي؛ م. س: ١٧٤.

٣- ٢٣ للمزيد يُراجع؛ لجنة التأليف في دار التوحيد، مرجع سابق، ١: ٥٨ وما بعدها.

ص: ١٣٥

شربتها ولا- علم لى بتحريمها، فأرسل إلى الإمام يسأله فى ذلك، فقال عليه السلام: «مر نقيبين من رجال المسلمين يطوفان به على المهاجرين والأنصار وينشدانهم؛ هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن شهد بذلك رجلا نمنهم فأقم الحدّ عليه، وإن لم يشهد أحد بذلك، فاستتبه وخلّ سييله» (١).

قدم جائلق النصارى يصحبه مائة من قومه، فسأل أبا بكر أسئلة، فدعا علياً عليه السلام فأجابه عنها.. وأرسل ملك الروم رسولاً إلى أبى بكر يسأله أسئلة محيرة.. لم يجد غير على حرياً بالإجابة عنها.

وحين أراد عمر بن الخطاب أن يغزو الروم راجع الإمام علياً عليه السلام فى الأمر، فنصحه الإمام بألا يقود الجيش بنفسه مبيناً علّة ذلك قائلاً: «.. فابعث إليهم رجلاً مجرباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تحبّ، وإن تكن الأخرى كنت رداً للناس، ومثابّة للمسلمين» (٢).

بعد أن فتح المسلمون الشام جمع أبو عبيدة بن الجراح المسلمين واستشارهم بالمسير إلى بيت المقدس أو إلى قيساريّة، فقال له معاذ بن جبل:

اكتب إلى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك فامثله، فكتب ابن الجراح إلى عمر بالأمر، فلما قرأ الكتاب، استشار المسلمين بالأمر. فقال على عليه السلام: مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس، فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه إلى قيساريّة، فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى، كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال عمر: صدق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وصدقت أنت يا أبا الحسن.. ثم كتب إلى أبى عبيدة بالذى أشار به على عليه السلام (٣).

ورد إلى بيت مال المسلمين مال كثير من البحرين، فقسّمه عمر بين المسلمين، ففضل منه شىء، فجمع عمر المهاجرين والأنصار واستفتاهم بأمره قائلاً: ما ترون فى فضل، فضل عندنا من هذا المال؟

قالوا: يا أمير المؤمنين إنا شغلناك

١- ٢٤ نقلًا عن المرجع السابق، ١: ٥٩.

٢- ٢٥ نهج البلاغة، تبويب د. صبحى الصالح، بيروت، ١٣٨٧ هـ، ص: ١٩٢.

٣- ٢٦ نقلًا عن؛ «لجنة التأليف فى دار التوحيد»، م. س: ١: ٦٥.

ص: ١٣٦

بولايه أمورنا من أهلك وتجارتك وضيعتك، فهو لك.

فالتفت عمر إلى على قائلاً: ما تقول أنت؟

قال الإمام: قد أشاروا عليك.

قال الخليفة: فقل أنت.

قال عليه السلام: لِمَ تجعل يقينك ظناً؟ ثم حدّثه بواقعه مشابهة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.. وأخيراً أشار عليه الإمام عليه السلام بتوزيعه على الفقراء، قائلاً:

«أشير عليك أن لا تأخذ من هذا الفضل وأن تفضّه على فقراء المسلمين».

فقال عمر: صدقت والله.

وقد ورد أنّ عمر بن الخطّاب رأى ليلةً رجلاً وامرأة على فاحش، فلما أصبح قال للناس: رأيتم أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحش، فأقام عليهما الحدّ ما كنتم فاعلين؟

قالوا: إنّما أنت إمام.

فقال على بن أبي طالب: «ليس ذلك لك، اذن يُقام عليك الحدّ، إنّ الله لم يأمن على هذا الأمر أقلّ من أربعة شهداء».

ثمّ إنّ عمر ترك الناس ما شاء الله، ثمّ سألهم؛ فقال القوم مثل مقالتهم الأولى..

وقال على عليه السلام مثل مقالته. فأخذ عمر بقول الإمام عليه السلام.

شاوور ابن الخطّاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله في سواد الكوفة، فقال بعضهم: تقسمها بيننا، ثمّ شاوور علياً عليه السلام في الأمر، فقال: إنّ قسّمتمها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن تقرّها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا. فقال عمر لعلى: وفّقك الله.. هذا الرأى.

عن الطبرى فى تاريخه عن سعيد ابن المسيب، قال: جمع عمر بن الخطّاب الناس فسألهم: من أى يوم نكتب التاريخ؟

فقال على عليه السلام: من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وترك أرض الشرك، ففعله عمر (١)، وهكذا وجد التاريخ الهجرى ليؤرّخ به المسلمون.

الفتنة الكبرى

رغم ما مثلته مرحلة الخلافة من معاناة فادحة للإمام على عليه السلام، بيد أنّ حقبه عثمان بن عفّان كانت من نوع آخر؛ أشدّ وطأة، وأنكى جراحاً، وأمّض فجاجةً.

لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ

ص: ١٣٧

كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام، على حدّ تعبير سيّد قطب، كما أنّ طبيعة عثمان الرخيّة، وحده الشديّد على أهله، قد أسهم كلاهما فى صدور تصرّفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة، وآثار فى الفتنة التى عانى الإسلام منها كثيراً (١).

ويبدو أنّ الفرع الأموى، بزعامته أبى سفيان، قد رأى فى تولّى عثمان الخلافة فرصة طالما انتظروها كى تعود لهم المكانة الأولى التى فقدوها منذ ظهور الإسلام على يد محمّد بن عبد الله.. لقد سنحت لهم الفرصة، ورأوا فى شخصيّة عثمان المناخ المناسب كى يحقّقوا ما يريدون.. (٢).

كان القلق يستبدّ بالصحابة الذين لم يجرفهم تيار الترف، وهم يرون عثمان قد أطلق العنان لبني أمية فى الاستئثار بالمواقع والامتيازات والخروج على الشرع الحنيف. بل إنّ عثمان قد دشّن خلافته بمخالفة صريحه للحكم الشرعى، حينما عفا عن عبيد الله بن عمر بن الخطّاب ولم يُقِم عليه الحدّ.

وقد كان عمر أمر بسجن ابنه عبيد الله ليحكم فيه الخليفة من بعده.

يقول ابن الأثير: «.. جلس عثمان فى جانب المسجد بعد بيعته، ودعا عبيد الله بن عمر بن الخطّاب، وكان قتل قاتل أبيه أبا لؤلؤة، وقتل جُفينة رجلاً نصرانياً من أهل الحيرة كان ظهيراً لسعد بن مالك، وقتل الهرمزان، فلمّا ضربه بالسيف قال: لا إله إلاّ الله! فلمّا قتل هؤلاء أخذ سعد بن أبى وقاص وحسه فى داره وأخذ سيفه وأحضره عند عثمان، وكان عبيد الله يقول: والله لأقتلن رجلاً ممّن شرك فى دم أبى، يعرض بالمهاجرين والأنصار، وإنما قتل هؤلاء النفس لأنّ عبد الرحمن بن أبى بكر قال غداة قتل عمر: رأيت عشية أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة وجُفينة وهم يتناجون، فلمّا رأونى ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه، وهو الخنجر الذى ضرب به عمر، فقتلهم عبيد الله. فلمّا أحضره عثمان قال:

أشيروا علىّ فى هذا الرجل الذى فتق فى الإسلام ما فتق! فقال على: أرى أن

١- ٢٨ سيّد قطب؛ «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، دون ذكر لمكان الطبع.

٢- ٢٩ د. محمّد عمارة؛ «مسلمون ثوار» ط ٣، القاهرة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ص ٧٩.

ص: ١٣٨

تقتله. فقال بعض المهاجرين: قُتل عمر أمس ويُقتل ابنه اليوم! فقال عمرو بن العاص: إنَّ الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان. فقال عثمان: أنا وليه وقد جعلتها دية واحتملها في مالي.. (١).

غير أن هذا الحلَّ التريعي كان بمثابة الثغرة الأولى في حقه عثمان، ولتوالي الثغرات لاحقاً، ويتسع الخرق على الرافع. دون أن يتمكن عثمان من دفع الشبهات عن حكمه، فلقد «أكثر الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيدالله بن عمر، فصعد عثمان المنبر فخطب الناس، ثم قال: ألا أنى ولي دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر. فقام المقداد بن عمر فقال: إنَّ الهرمزان مولى لله ولرسوله، وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله. قال: فننظر وتنظرون. ثم أخرج عثمان عبيدالله بن عمر من المدينة إلى الكوفة، وأنزله داراً، فنُسب الموضع إليه، كُوَيْفَهُ ابن عمر (٢).

ما يجدر ذكره؛ أن الغمازيان بن الهرمزان كان هو ولي الدم ولم يتنازل عن حقه، ولما ولي على عليه السلام الخلافة أراد إقامة الحد على عبيدالله بن عمر بقتله فهرب منه إلى معاوية بالشام، ولو كان إطلاقه بأمر ولي الدم لم يتعرض له على (٣).

وحول هذه النقطة يعلّق عباس محمود العقاد على موقف الإمام عليه السلام منها قائلاً: «يُخطئ جداً من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلاً على كراهيته لعمر أو نعمة منه في أبنائه.. فقد أسرع عبيدالله بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقاماً لأبيه، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه.

فلما أستفتى في هذه القضية أفتى بالقصاص منه، ولم يغيّر رأيه حين تغيّر رأى عثمان، فأعفاه من جريرة عمله..

لأنه هو الرأى الذى استمدّه من حكم الشريعة كما اعتقده وتحزّاه، وبهذا الرأى دان قاتله عبدالرحمن بن ملجم، فأوصى وكّرر الوصاية ألا يقتلوا أحداً غيره لمظنّه المشاركة بينه وبين رفقاءه فى التآمر عليه» (٤).

١- ٣٠ فى صفوف بنى أمية، والتى طفحت على لسان أبى سفيان غداة تولّى عثمان الخلافة، إذ قال فى اجتماع خاصّ ضمّ بنى مية فى دار عثمان: «أفيكم أحدٌ من غيركم؟ (وقد كان عمى)، فقالوا: لا، قال: يا بنى أمية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذى يحلف به أبوسفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثه..»- مروج الذهب للمسعودى، ٢: ٣٥١-٣٥٢، تحقيق محمّد محبى الدين عبدالحميد، ط ٤، مصر، ١٣٨٤-١٩٦٤ م.

٢- ٣١ ابن الأثير؛ «الكامل فى التاريخ»، تحقيق على شيرى، بيروت، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٩ م. المجلد الثانى: ٢٢٥-٢٢٦.

٣- ٣٢ يُراجع: تاريخ اليعقوبى، المجلد الثانى: ١٦٣-١٦٤، بيروت د. ت.

٤- ٣٣ عباس محمود العقاد؛ مرجع سابق: ١٣٠.

ص: ١٣٩

ولمّا قام عثمان بالخلافة طال عتب (الإمام) على عليه؛ لأنّه أباح للعمّال والولاء ما ليس بمباح فى رأيه (١)، ومن كلام له عليه السلام، حول تقييمه لسياسة عثمان: «... وأنا جامع لكم أمره، استأثر فأساء الأثرة» (٢).

ومن أسوأ أساليب الأثرة تلك اتخاذه أبناء عمومته من بنى أمية بطانة سوء، إذ أوطأهم رقاب الناس، وولّاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتتحت إفريقيا فى أيامه، فأخذ الخمس كلّه فوهبه لمروان فقال عبدالرحمن بن حنبل الجمحى:

أحلف بالله ربّ الأنام ما ترك الله شيئاً سدى

ولكن خلقت لنا فتنة لكى نبتلى بك أو تبتلى

فإنّ الأمين قد بينا منار الطريق عليه الهدى

فما أخذنا درهماً غيلةً ولا جعلنا درهماً فى هوى

وأعطيت مروان خمس البلاد فهيهات سعيك ممّن سعى

وطلب منه عبدالله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمائه ألف درهم.

وأعاد الحكم بن أبى العاص، بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد سيّره ثمّ لم يرده أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدّق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق بالمدينة يُعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فداً، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليهما، تارةً بالميراث، وتارةً بالنحلة فدُفعت عنها.

وحمى المراعى حول المدينة كلّها من مواشى المسلمين كلّهم إلّا عن بنى أمية.

وأعطى عبدالله بن أبى سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيا بالمغرب- وهى من طرابلس الغرب إلى طنجة- من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، فى اليوم الذى أمر

١- ٣٤ عباس محمود العقاد؛ مرجع سابق: ٥١.

٢- ٣٥ نهج البلاغة؛ مرجع سابق: ٧٣.

ص: ١٤٠

فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوجته ابنته أمّ أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلتُ رحمتي؟! قال: لا، ولكن أبكى لأنّي أظنّك أنك أخذت هذا المال عوضاً عمّا كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً، فقال: ألق المفاتيح يا ابن أرقم؛ فإننا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليئة، فقسمها كلها في بني أمية.

وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه.

وانضمّ إلى هذه الأمور أمور أخرى نعمها عليه المسلمون، كتسيير أبي ذرّ رحمه الله تعالى إلى الرّبذة؛ وضرب عبدالله بن مسعود حتّى كسر أضلاعه (١) ومن ذلك ما نال عمّار بن ياسر من الفتن والضر (٢) وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقه عمر في إقامة الحدود وردّ المظالم، وكفّ الأيدي العادية، والانتصاب لسياسة الرعية، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين (٣).

وهكذا كثر الطعن على عثمان، وظهر عليه النكير (٤) ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ تقاليد الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان (٥).

وفي هذا الاتجاه أفاضت كتب التاريخ بالأحداث المؤلمة. وقد أتيح لشاهد عيان أن يصرّو لنا جانباً من ذلك المشهد المفجع، فعن أبي كعب الحارثي (المعروف بذي الأدواء) قال: «أتيت عثمان بن عفان وهو الخليفة يومئذ فسألته عن شيء من أمر ديني، وقلت: يا أمير المؤمنين، إنني رجل من أهل اليمن من بني الحارث بن كعب، وإنني أريد أن أسألك فأمر حاجبك ألا يحجبني، فقال: يا وثاب، إذا جاءك هذا الحارثي فأذن له. قال: فكنت إذا جئت، فقرعت الباب، قال: من ذا؟»

١- ٣٦ للمزيد يُراجع؛ «شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد»، مرجع سابق ١: ١٩٨-١٩٩.

٢- ٣٧ تاريخ المسعودي؛ مرجع سابق ٢: ٣٤٧.

٣- ٣٨ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مرجع سابق ١: ١٩٩، وتذكر المصادر التاريخية أنّ كتاباً يحمل توقيع عثمان موجه إلى عامله بمصر عبدالله بن أبي سرح يأمره بقتل حاملي الكتاب!

٤- ٣٩ تاريخ المسعودي؛ مرجع سابق ٢: ٣٤٧، وقد أسهب بعض المؤرخين في تبيان المطاعن التي طعن بها على عثمان، وللمزيد من الاطلاع، يُراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ١١-٧٠.

٥- ٤٠ سيد قطب، مرجع سابق: ٢٧٩.

ص: ١٤١

فقلت: الحارثي، فيقول: ادخل، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس، وحوله نفر سكوت لا يتكلمون، كأنّ على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم جلست، فلم أسأله عن شيءٍ لِمَا رأيتُ من حالهم وحاله، فيينا أنا كذلك إذ جاء نفر، فقالوا: أنّه أبى أن يجيء. قال: فغضب وقال: أبى أن يجيء؟! اذهبوا فجيئوا به؛ فإنّ أبى فجرّوه جرّاً.

قال: فمكثت قليلاً، فجاءوا ومعهم رجل آدم طوال أصلع، فى مقدّم رأسه شعرات، وفى قفاه شعرات، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: عمّار بن ياسر، فقال له عثمان: أنت الذى تأتىك رسلنا فتأبى أن تجيء؟! قال: فكلمه بشيء لم أدر ما هو، ثم خرج. فمزالوا ينفصون من عنده حتّى ما بقى غيرى، فقام، فقلت:

والله لا أسأل عن هذا الأمر أحداً أقول حدّثنى فلان حتّى أدرى ما يصنع.

فتبعته حتّى دخل المسجد، فإذا عمّار جالس إلى ساريه، وحوله نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون، فقال عثمان: يا وثاب علىّ بالشُّرط، فجاءوا، فقال: فرّقوا بين هؤلاء، ففرّقوا بينهم.

ثم أُقيمت الصلاة، فتقدّم عثمان فصلّى بهم، فلَمَّا كبر قالت امرأةٌ من حجرتها: يا أيّها الناس. ثم تكلمت، وذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما بعثه الله به، ثم قالت: تركتم أمر الله وخالفتم عهده... ونحو هذا، ثم صمتت وتكلمت امرأة أخرى بمثل ذلك، فإذا هما عائشة وحفصة.

قال: فسلم عثمان، ثم أقبل على الناس، وقال: إنّ هاتين لفتانتان، يحلّ لى سبهما، وأنا بأصلهما عالم.

فقال له سعد بن أبى وقّاص: أتقول هذا لحبائب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فقال: وفيم أنت؟! وما هاهنا؟ ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربه، فانسلّ سعد.

فخرج من المسجد، فاتبعه عثمان، فلقي عليّاً عليه السلام بباب المسجد، فقال له عليه السلام: أين تريد؟ قال: أريد هذا الذى كذا وكذا- يعنى سعداً يشتمه- فقال له على عليه السلام: أيها الرجل، دع عنك هذا، قال: فلم يزل بينهما كلام، حتّى غضباً، فقال عثمان: ألسن الذى خلّفك رسول الله صلى الله عليه وآله يوم تبوك؟! فقال على:

ألسن الفارّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد؟!!

ص: ١٤٢

قال: ثم حجز الناس بينهما. قال: ثم خرجت من المدينة حتى انتهيت إلى الكوفة، فوجدت أهلها أيضاً وقع بينهم شرٌّ، ونشبووا في الفتنة، وردوا سعيد بن العاص فلم يدعوه يدخل إليهم، فلما رأيت ذلك رجعت حتى أتيت بلاد قومي» (١).

ووقفه متألمة ازاء هذا المشهد الكارثي كثيرى تشير علامات الاستفهام حول طبيعة الوضع الذى كان يقوده عثمان، وهو يوزع الشتائم والإهانات إلى الصحابة وحتى زوجات النبي صلى الله عليه وآله لم يسلمن منه، فأى حضيض آلت إليه الامور؟!

وفيما كان عثمان يتعامل بهذا الاسلوب الفظ الذى أبكى بعضاً من صحابة رسول الله، وجرح كبرياء بعض آخر.. فإنه- فى الوقت نفسه- كان يحيط نفسه بحفنة من المنتفعين، ومعظم ولاته غلمان ثور حول تدينهم وحول أخلاقهم شبهات كثيرة، ولم يكن لهم شىء من الصلاحيات ينفعهم غير صلاتهم بالخليفة (٢)، وفى مقدمه هؤلاء عمه الحكم بن أبى العاص- وهو الذى طرده الرسول من المدينة- وولده مروان والحارث اللذان صاهرهما عثمان وجعل من الأول وزيره المتصرف (٣)، والوليد بن عقبه بن أبى معيط، أخو عثمان من أمه، والذى عينه والياً على الكوفة، وكان يشرب الخمر حتى صلاة الفجر، فيصلى بالناس أربعاً! وهو ممن أخبر النبي صلى الله عليه وآله أنه من أهل النار.. وعبدالله بن أبى سرح (أخوه من الرضاعة) الذى ولّاه مصر، ومعاوية على الشام (ويلتقيان فى الجّد الثانى أمية) وعبدالله بن عامر على البصرة (وهو ابن خاله).

ولقد لقي الإمام على عليه السلام من عثمان وبطانته ما لقي من العنت، ونكتفى هنا بإيراد نموذج واحد لهذا الأمر؛ روى الزبير بن بكار فى «الموفقيات» عن رجال أسند بعضهم عن بعض، عن على بن أبى طالب عليه السلام، قال: أرسل إلى عثمان فى الهاجرة (نصف النهار فى القيظ)، فتقنعت بثوبى وأتيته، فدخلت عليه وهو على سرير، وفى يده قضيب، وبين يديه مال دثر (أى كثير):

صبرتان من ورق وذهب، فقال: دونك

١- ٤١ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، مرجع سابق ٩: ٤-٥.

٢- ٤٢ د. محمد رضا محرم؛ «أفكار الآخرين»، مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٩ صفر ١٤٠٢ هـ يناير ١٩٨٢ م: ٢٨.

٣- ٤٣ سيد قطب؛ مرجع سابق: ٢٧٩.

ص: ١٤٣

خذ من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتني. فقلت: وصلتك رَحِم! إن كان هذا المال ورثته، أو أعطاكه معطٍ، أو اكتسبته من تجار؛ كنتُ أحد رجلين:

إمّا أخذ وأشكر، أو أوفّر وأجهد، وإن كان من مال الله وفيه حقّ المسلمين واليتيم وابن السبيل، فوالله مالك أن تعطنيه ولا لي أن أخذه. فقال: أبيت والله إلّا ما أبيت. ثمّ قام إليّ بالقضيب فضربني، والله ما أردّ يده، حتّى قضى حاجته، فتقنعتُ بثوبى، ورجعت إلى منزلى، وقلت: الله بيني وبينك إن كنتُ أمرتُك بمعروف أو نهيتُ عن منكر! (١).

على خلفيته هذه الممارسات غير المسؤولة من الطبيعي أن يتفشى الفساد فى جهاز السلطة ويضرب بأطنابه فى كلّ الاتجاهات. والسؤال هو: ما هو موقف الإمام عليه السلام من كلّ هذا الذى يجرى باسم الإسلام؟

هناك ثلاثة خيارات لا غير: إمّا أن يجارى الوضع على ما هو عليه، أو يلوذ بالصمت مكتفياً بالتفرّج، أو يتصدى للانحراف. ولما كان الإمام على عليه السلام عارفاً وظيفته الشرعية، فإنّه ليس بمقدوره إلّا الخيار الأخير، وهو التأشير على مواطن الخلل بالنصيحة تارةً، والعقاب أخرى، والتحذير ثالثةً، وقد كاشف الإمام على عليه السلام أهل الكوفة، فى كتاب منه إليهم، جاء فيه: «من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، جبهة الأنصار وسنام العرب، أمّا بعد، فإننى أخبركم عن أمر عثمان حتّى يكون سمعه كعيانه، إن الناس طعنوا عليه، فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعبابه (أى استرضاءه)، وأقلّ عتابه...» (٢).

ولم يكف الإمام على عليه السلام عن نصيحة عثمان ولم يهتبل فرصة متاحة إلّا وحاول إنقاذ عثمان ممّا هو فى مأزق، ولكن دون جدوى، فرأينا كيف كان عثمان يقابل ذلك بمزيد من الانفعال الذى لا يخلو من مظنة سوء. فقد صوّرت له حاشيته الفاسدة أنّ الإمام علياً عليه السلام فى طليعة حسيّاده على نعمته وإمرته! ولطالما أشار عثمان إلى هذه التهمة، تصرّيحاً أو تلميحاً، سواء فى مجالسه الخاصة أو فى خطبه يوم الجمعة.

١- ٤٤ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد؛ مرجع سابق ٩: ١٦.

٢- ٤٥ نهج البلاغة مرجع سابق: ٣٦٣.

ص: ١٤٤

وذاذ جمعة تطرّق إلى هذا الأمر، حتّى كاد أن يسمّى علياً، وبعد انتهاء الخطبة.. «همّ بالنزول فبصر بعليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه عمّار بن ياسر رضى الله عنه، وناس من أهل هواه يتناجون؛ فقال:

إيهأ إيهأ! إسراراً لا جهاراً! أما والذى نفسى بيده ما احتق على جرّة، ولا أوتى من ضعف مرّة؛ ولولا النظر لى ولكم والرفق بى وبكم، لعاجلتكم؛ فقد اغتررتم، وأقلتّم من أنفسكم.

ثم رفع يديه يدعو.. ففتفرّق القوم عن على عليه السلام» (١).

ولا يسع المراقب المحايد إلّا أن يستحضر القول المأثور: «يكاد المريب أن يقول خذونى!»

هذه الحادثة وغيرها كثير جعلت الإمام علياً عليه السلام يتجنّب الاحتكاك بعثمان، وهذا ما أوضحه فى كتاب له إلى معاوية:

«ولعمرى يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمنّ أنّى كنت فى عزله عنه إلّا أن تتجنّى؛ فتجنّ ما بدا لك! والسلام» (٢).

غير أنّ الإمام علياً عليه السلام لا يستكين إذا ما رأى منكراً يجب ردعه، حتّى يتمكن من تحقيق ذلك. ويطول المقام فى هذا الباب، بيد أننا نكتفى بموقفين له مع اثنين من رؤوس الفساد والإفساد فى عهد عثمان، هما: الوليد بن عقبه بن أبى معيط (أخو عثمان من أمّه)، وصهره المدلل مروان بن الحكم.

سكران فى محراب الكوفة

يذكر المسعودى فى تاريخه: «أنّ الوليد بن عقبه كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلاً فى غلائله، فتقدّم إلى المحراب فى صلاة الصبح، فصلّى بهم أربعاً، وقال:

أتريدون أن أزيدكم؟ وقيل: إنّه قال فى سجوده وقد أطال: اشرب واسقنى، فقال له بعض من كان خلفه فى الصفّ الأول: ما تزيد لا زادك الله من الخير.

والله لا أعجب إلّا ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً.

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد، فدخل قصره يترنّح، ويتمثّل بأبيات لتأبّط شراً:

١- ٤٦ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد؛ مرجع سابق ٩: ٧.

٢- ٤٧ نهج البلاغة؛ م. س: ٣٦٧.

ص: ١٤٥

ولستُ بعيداً عن مدام وقينه ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكننى أروى من الخمر هامتى وأمشى الملا بالساحب المتسلسل
وفى ذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقي ربه أن الوليد أحق بالعدر
نادى وقد تمت صلاتهم أزيدكم؟! ثملاً وما يدرى
ليزيدهم أخرى، ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك فى الصلاة ولو خلّوا عنانك لم تزل تجرى

وأشاعوا فى الكوفة فعله، وظهر فسقه ومداومته على شرب الخمر، فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدي وجندب بن زهير الأزدي وغيرهما، فوجدوه سكران مضطجعاً على سريريه لا يعقل، فأيقظوه من رقدته، فلم يستيقظ، ثم تقياً عليهم ما شرب من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفان، فشهدوا عنده على الوليد أنه شرب الخمر، فقال عثمان: وما يدريكما أنه شرب خمرًا؟ فقالا: هى الخمر التى كنا نشربها فى الجاهلية وأخرجنا خاتمه فدفعاه إليه، فزجرهما ودفع فى صدورهما، وقال: تنحيا عنى، فخرجا من عنده وأتيا على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخبراه بالقصة، فأتى عثمان وهو يقول: دفعت الشهود، وأبطلت الحدود، فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره فإن أقاما الشهادة عليه فى وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة أقمت عليه الحد، فلما حضر الوليد دعاهما عثمان: فأقاما الشهادة عليه ولم يُدل بحجة فألقى عثمان السوط إلى على، فقال على لابنه الحسن: قم يا بنى فأقم عليه ما أوجب الله عليه، فقال: يكفينيه بعض من ترى، فلما نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحد عليه توقياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ على السوط ودنا منه، فلما أقبل نحوه سبه الوليد.. فقال عقيل بن أبى طالب وكان ممن حضر: إنك لتتكلم يا ابن أبى معيط

ص: ١٤٦

كأنك لا تدري من أنت، وأنت عالج من أهل صفوريه- وهى قرية بين عكا واللجون من أعمال الأردن من بلاد طبرية، وكان ذكر أن أباه كان يهودياً منها- فأقبل الوليد يروغ من على، فاجتذبه على فضرب به الأرض، وعلاه بالسوط، فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا، قال: بل وشراً من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه (١).

مروان بن الحكم: الصهر المدلل

أما عن موقفه عليه السلام من مروان بن الحكم فهو معروف، إذ كانا على طرفى نقيض تماماً. وقد تفجّر الوضع بينهما إثر حادثة نفى عثمان لأبى ذر رضوان الله عليه إلى الربذة، على خلفيته مشادة حصلت بينه وبين كعب الأبحار فى مجلس عثمان انتصر فيها هذا الأخير لجانب كعب الأبحار، «وأمر عثمان أن يتجافاه الناس، حتى يسير إلى الربذة، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه ومعه ابنه [الحسن والحسين] وعقيل أخوه وعبدالله بن جعفر وعمار بن ياسر، فاعترض مروان فقال: يا على إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أباً ذر فى مسيره ويشيعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه على بن أبى طالب بالسوط وضرب بين اذنى راحلته، وقال: تنح نحاك الله إلى النار، ومضى مع أبى ذر فشيعه ثم ودعه وانصرف، فلما أراد على الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحمكم الله أهل البيت، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به على بن أبى طالب، فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرني من على؟ رد رسولى عمّا وجهته له، وفعل كذا، والله لنعطينه حقه، فلما رجع على استقبله الناس، فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشيعك أباً ذر، فقال على:

غَضِبَ الخيل على اللجم.

فلما كان بالعشى جاء إلى عثمان، فقال له: ما حملك على ما صنعت بمروان ولم اجترأت على ورددت رسولى وأمرى؟! قال: أما مروان فإنه استقبلنى يردنى فرددته عن ردى، وأما

ص: ١٤٧

أمرك فلم أردّه، قال عثمان: ألم يبلغك أنّي قد نهيتُ الناس عن أبي ذرّ وعن تشييعه؟ فقال علي: أوكل ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحقّ في خلافه اتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل.

قال عثمان: أقدّ مروان، قال: وممّ أقيده؟ قال: ضربت بين أذني راحلته، وشمته فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك. قال علي: أما راحلتي فهي تلك فإنّ أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأمّا أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلّا حقّاً. قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته، فوالله ما أنت عندى بأفضل منه! فغضب علي بن أبي طالب: ألى تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، فغضب عثمان واحمرّ وجهه، فقام ودخل داره، وانصرف علي، فاجتمع إليه أهل بيته، ورجال من المهاجرين والأنصار.

فلَمّا كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكّا إليهم عليّاً وقال: إنّه يعينني ويظهر منّ يعينني، يريد بذلك أبا ذرّ وعمّار بن ياسر وغيرهما، فدخل الناس بينهما حتّى اصطلحا وقال له علي: والله ما أردت بتشيع أبي ذرّ إلّا الله تعالى. (١)

وإضافة إلى ما تقدّم، تبدت مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة، في عهد عثمان، ويطول الحديث في هذا المقام، ونكتفي بالإشارة إلى أحد هؤلاء، وهو عبد الرحمن بن عوف، إذ أصبحت ثروته مضرب الأمثال كما يقول الدكتور محمد عماره «فعلى مربوطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم»، وعندما توفي قدّرت ثروته بأكثر من مليونين ونصف من الدراهم، ولقد بلغ حجم القدر الذي أحضر منها إلى عثمان ابن عفّان في «البدر» و «الأكياس» قدرّاً من العظم جعله يحجب رؤية عثمان عن الرجل الواقف أمامه! (٢)

أمّا فيما يتعلّق بالخليفة نفسه، والذي يفترض به أن يكون قدوة ويعيش كأضعف الناس «كيلا يتبيخ بالفقير فقره» (٣) كما يقول الإمام علي عليه السلام، فإنّ المصادر التاريخية تشير إلى أنّ عثمان

١- ٤٩ المرجع نفسه ٢: ٣٥٠-٣٥١.

٢- ٥٠ د. محمّد عماره؛ «مسلمون ثوّار»، م. س: ٨١، وللمزيد يراجع تاريخ المسعودي ٢: ٣٤٢، وما بعدها.

٣- ٥١ نهج البلاغة: ٤٠٠ الخطبة ٢٠٧.

ص: ١٤٨

كان أوّل خليفة يترك عند مماته ثروة طائلة، فيحصون له يوم مقتله «عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم» وذلك غير قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين، تلك التي قدّرت بمبلغ مائة ألف دينار، هذا عدا الخيل والإبل وغيرها من الممتلكات والمقتنيات (١).

ويمضى عثمان بعيداً في سياسته هذه المصحوبة بإغداق المنح والأموال على بنى عمومته الذين أطلق لهم العنان ليعيشوا في الأرض فساداً وعتوّاً.. فيما يحرم الصحابة ويضرب بعضهم على مشهد من الملا ضرب إهانة وإيجاع (٢)، وليوسع دائرة تبرمه من الأمة نفسها، دونما مبرر سوى ضيق الصدر. إذ روى عن عبيد بن حارثة قوله: «سمعت عثمان وهو يخطب، فأكبّ الناس حوله، فقال:

اجلسوا يا أعداء الله! فصاح به طلحة:

أنهم ليسوا بأعداء الله؛ لكنهم عباده، وقد قرأوا كتابه» (٣).

فهذا يعنى - فيما يعنى - أنّ هناك حاجزاً نفسياً خطيراً بين الراعى ورعيته. وتحوّل الحاجز النفسى هذا إلى عقدة مستحكمة من عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين، حاول عثمان أن يردمها أو يعوّضها بالارتقاء أكثر فأكثر في أحضان الشلّة الفاسدة من بنى عمومته، كلّ ذلك انعكس بشكل سلبي على مجمل الأوضاع، الأمر الذى أوجد مناخاً اجتماعياً ونفسياً «ولّد وشهد العديد من التناقضات والصراعات» (٤).

ولقد كان صوت على بن أبى طالب فى مقدّمة الأصوات التي ارتفعت بالنقد والمعارضة لهذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع العربى الإسلامى على عهد عثمان بن عفان.. بل لا نغالى - يقول د. محمد عمارة - إذا قلنا: إنّ صوت معارضته ونقده كان أعلى هذه الأصوات (٥).

ولمّا لم تجد نصائح الإمام على عليه السلام أذناً صاغية من عثمان، رغم أنّه بذل ما فى الوسع لتقديم النصيحة.. فقد اعتزل عثمان بعدما ألقى عليه الحجّة تلو الأخرى. ووصل الأمر إلى امتناع الإمام على عليه السلام عن الاستشفاع بالبعض إلى عثمان، إذ روى سفيان بن عيينة

١- ٥٢ د. محمّد عمارة؛ المرجع السابق: ٨١، أما عن بقية الطبقة الاستقرائية فيراجع حول مظاهر ثرائها تاريخ المسعودى ٢: ٣٤٢، وما بعدها.

٢- ٥٣ عباس محمود العقاد؛ م. س: ٥٦.

٣- ٥٤ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد؛ م. س ٩: ١٧.

٤- ٥٥ د. محمّد عمارة؛ م. س: ٨٢.

٥- ٥٦ المرجع نفسه: ١٠٧.

ص: ١٤٩

قائلاً: جاء رجل إلى علي عليه السلام يستشفع به إلى عثمان، فقال: حمّال الخطايا! لا والله لا أعود إليه أبداً. فأيسه منه (١).
 بيد أن مقاطعة الإمام علي عليه السلام لعثمان لم تخفف من درجة المعارضة المستعرة للسلطة إن لم تساهم أكثر في إزالتها «ومن ثم فإن حركة المعارضة والنقد، ثم الثورة، ضد الأوضاع الجديدة قد اتخذت من علي رمزاً لها وقيادة تلتفت من حولها، كي تمارس الضغط والنقد والتجريح لأصحاب المصلحة الحقيقية في هذه الأوضاع التي طرأت على المجتمع في ذلك الحين» (٢).
 وحين تألب الناس على عثمان..

أرسل في طلب علي ليصرفهم عنه، فلمّا قدم إليه استأذنه في إعطائهم بعض الرغد العاجل من بيت المال، فأذن له..
 فانصرفوا عن زعماء الفتنة، وهدأوا إلى حين.

ثم توافد المتذمرون من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين.. وتولّى زعماء المتذمّرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة، كتبوا صحيفة وقّعوها وأشهدوا فيها المسلمين على ما أخذ الخليفة.. فلمّا حملها عمّار بن ياسر إليه، غضب وزيره مروان بن الحكم، وقال له: «إنّ هذا العبد الأسود قد جرّأ عليك الناس.. وإنّك إن قتلتته نكلت به من وراءه» فضربوه حتّى غشى عليه.
 وفي مرّات أخرى، كان الخليفة يصغى إلى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه، ثم يعلن التوبة إلى رعاياه، ويؤكد لهم الوعد بإقصاء أولئك الأعوان واخلافهم في أعمالهم بمن يرضى المسلمين، ويرضى الله.
 ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته، فيبقّهم حيث كانوا ويملي لهم فيما تعودوه من الترف والنكايه، وعلى رأسهم مروان بن الحكم. أبغض أولئك الأعوان إلى المسلمين (٣).

وعندما زحفت جموع الثائرين على ولاء عثمان والتغييرات الاجتماعية التي أحدثتها.. عندما زحفوا من الولايات: مصر، والعراق، واليمن، والشام- على العاصمة المدينة- يطلبون التغيير، ذهب هذه الجموع إلى علي وكلموه،

١- ٥٧ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد؛ م. س ٩: ١٧.

٢- ٥٨ د. محمّد عماره؛ مسلمون ثوار: ١٠٧.

٣- ٥٩ عبّاس محمود العقاد: ٥٧.

ص: ١٥٠

وطلبوا منه أن يحمل مطالبهم إلى عثمان، ثم يأتيهم بالجواب. ويحكي الإمام على وقائع مقابله لعثمان عندما دخل عليه فقال له: «إنّ الناس ورائي وقد استفسروني (أى جعلوني سفيراً) بينك وبينهم، ووالله ما أدري ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا ادّلك على أمر لا تعرفه.. فالله الله في نفسك!..»

وإنّ الطرق لواضح، وإنّ أعلام الدين لقائمة. فاعلم أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل.. وإنّ شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ وضلّ به، فأما سنّة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة، وإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في نار جهنّم، فيدور كما تدور الرحي، ثم يرتبط في قعرها». وإنّي أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنّه كان يُقال:

يُقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أمرها عليها، ويبثّ الفتن فيها، فلا يبصرون الحقّ من الباطل، يمجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً، فلا تكونن لمروان سَيِّقَةً (أى ما استاقه العدو من الدواب) يسوقك حيث شاء بعد جلال السنّ وتقضى العمر).

فقال له عثمان: «كلم الناس في أن يؤجلوني، حتى أخرج إليهم من مظالمهم» فقال عليه السلام: ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرِك إليه (١).

من نافله القول التأكيد بأنّ هذه ليست الأولى التي حذر فيها الإمام على عليه السلام عثمان من مغبة اعتماده المفرط على سفهاء بنى أمية، فقد سبق وأن طرق هذا الباب غير مرّة.

وقد روى الواقدي في كتاب «الشورى» عن ابن عباس رحمه الله، أنّه شهد عتاب عثمان لعليّ عليه السلام ذات مرّة، ذكره فيه بموقفه المساند للشيخين (ولست بدون واحد منهما، وأنا أمس بك رحماً، وأقرب إليك صهراً.. ولم أقصر عنهما في ديني وحسبي وقرابتي، فكن لي كما كنت لهما).

وفي معرض ردّه أجاب الإمام على عليه السلام عثمان على تساؤلاته، ومما قاله:

«.. وأما التسوية بينك وبينهما، فلست

ص: ١٥١

كأحدهما، أتهدما وليا هذا الأمر فظلفا (أى كفًا) أنفسهما وأهلها عنه، وعُمت في قومك عوم السابح فى اللجة، فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل بقى من عمرك إلّا كظم الحمار! فحتى متى وإلى متى؟! ألا تنهى سفهاء بنى أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟! والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان ائمه مشتركاً بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك العتبي، وافعل واعزل من عمالي كل من تكرهه ويكرهه المسلمون؛ ثم افترقا، فصده مروان بن الحكم عن ذلك، وقال: يجترئ عليك الناس، فلا تعزل أحداً منهم» (١).

وهكذا يتضح مدى الدور القدر الذى كان يلعبه بنو أمية عموماً، ومروان خاصة، فى الوقوف بوجه أية محاولة اصلاح لتدارك الامور، وإيقاف التداعى. ولما آيس الناس من إذعان عثمان واستماعه إلى شكواهم، عم الاستياء، وإلى الحد الذى «لم يبق أحد فى المدينة إلّا حق على عثمان» على ما يقول السيوطى (٢).

ثار الناس وتجمهروا حول قصره «وكانت مدة حصار عثمان فى داره أربعين يوماً أو أكثر قليلاً..» وطلبوا منه أحد أمور ثلاثة: إما أن يعزل نفسه أو يسلم إليهم مروان بن الحكم أو يقتلوه. لكنّه رفض العروض الثلاثة..

وكانت الثورة (٣).

فى تلك الأثناء، كانت مشاعر الغضب على عثمان وبطانته تعتمل فى صدور الصحابة، وبلغ الأمر ببعضهم مشاركة الثور، فيما كانت عائشة تولب على قتل عثمان «اقتلوا نعتلاً، قتل الله نعتلاً! تعنى عثمان، وكان هذا منها لما غاضبته وذهبت إلى مكة» (٤).

أما على فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل فى تلك الأزمنة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجراح، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس.. كلما حيل بينها وبين الانطلاق.

كان ناقداً لسانة عثمان وبطانته التى حجبت عن قلوب رعاياه.. ناصحاً

١- ٦١ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٩: ١٥.

٢- ٦٢ نقلًا عن كتاب «الطاغية» للدكتور إمام عبدالفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م، ص ١٩٧ هامش ٤٨. وللمزيد يراجع شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢: ١٢٩-١٦١.

٣- ٦٣ المرجع السابق: ١٩٧. ويحسن بنا الاستشهاد بمقوله للكاتب الإسلامى المعروف الدكتور عمادالدين خليل إذ يقول، وهو فى معرض الحديث عن «المعارضة والسلطة»: «وها هنا يتوجب ألانقع فى الوهم الخادع الذى يصور السلطة أو القيادة الإسلامية التاريخية كما لو كانت أمراً مقدساً أو تفويضاً إلهياً، فإن أية قيادة فى مدى عام الإسلام، ما أن تعزف بهذه الدرجة أو تلك، وما أن ترفض النقد والتقويم والرجوع إلى الطريق، حتى يغدو على المسلمين أن يثوروا لتحقيق ما عجزت الكلمة والحوار عن تحقيقه» ثم يضيف: «.. لقد كان الحاكم المسلم الحق هو الذى يضع خده على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف، وليس ذلك الذى يعلن نفسه ظللاً لله فى الأرض، لا يستمع لنقد، ولا يغنى لحد، ولا يكفكف طغيانه صوت مظلوم.. إن طاعة أولى الأمر تتحقق يوم يكون أولو الأمر مسلمين حقاً، وإلا فإن الرفض والمجابهة تغدو واجبة كوجوب الصلاة والزكاة والصيام».

يراجع مقاله القيم: «حول المعارضة والسلطة»، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٤١، محرّم، صفر، ربيع الأول ١٤٠٥ هـ، ص ٨-٩.

٤- ٦٤ نقلًا عن كتاب الطاغية؛ مرجع سابق، ونعتله هذا رجل يهودى من أهل مصر كان طويل اللحية، قيل: إنّه كان يشبه عثمان، وكان يعمل اسكافياً، وشاتمو عثمان كانوا يسمونه نعتلاً يراجع لسان العرب، لابن منظور، المجلد الحادى عشر، دار صادر، بيروت.

ص: ١٥٢

للخليفة بإقصاء تلك البطانة، وتبديل السياسة التي تزيتها له وتغريه باتباعها وصم الأذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها. وكان مع هذا أول من يُطالب بالغوث، كلما هجم الثوار على تلك البطانة، وهموا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة.

كان الثوار يحسبونه أول مسؤول عن السعى فى الإصلاح، وكان الخليفة يحسبه أول مسؤول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار. ولم يكن فى العالم الإسلامى كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة التى تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها، ولا خلاص! وضاعف هذا الحرج الشديد الذى كان يلقاه فى كل خطوة من خطواته، أنه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الإصغاء إلى الراى والعمل بالمشورة. وإنما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقرّبين إليه.. لا ينجو من إحدى جناياته التى كان يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود إلى الخليفة فيوقع فى روعه أنّ علياً واخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتآليب الثائرين عليه، وأنه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم..

ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة فى دوامه.

ففى المؤتمر الذى جمعه الخليفة للتشاور فى إصلاح الأمر وقمع الفتنة، لم يكن على مدعوّاً ولا منظوراً إليه بعين الثقة والمودة.. بل كان المدعوون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه..

وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبدالله بن أبى سرح وعبدالله بن عامر وسعيد ابن العاص، وهم فى جملتهم من أولئك الولاة الذين شكاهم على وجمهرة الصحابة وبرحت بهم صدور المهاجرين والأنصار.

كان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه، وفى مقدّماتهم على واخوانه.. ثم تفرّق المؤتمر وقد ردّ عثمان كلّ عامل إلى عمله، وأمره بالتضييق على من قبله.

ص: ١٥٣

فكانت حيلة على في تلك المعضلة العصبية جد قليلة، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة.

إلا أنه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين، معصوب بالتبعين، مسؤول عن الخليفة أمام الثوار ومسؤول عن الثوار أمام الخليفة (١).

فحينما تناهى إلى سمعه، أن الثوار يريدون قتل عثمان، بعث الإمام على عليه السلام بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم (٢) وهكذا هذا حذوه بعض الصحابة اقتداءً بالخطوة، فصدّوهم عن الدار.. واشتبك القوم، وجرح الحسن، وشجّ قنبر، وجرح محمد بن طلحة، فخشى القوم أن يتعصّب بنو هاشم وبنو أمية، فتركوا القوم في القتال على الباب، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوروا عليها، وكان ممن وصل إليه محمد بن أبي بكر ورجلان آخران.. (٣).

وبينما كان البعض يشحذ سيفه استعداداً لخوض الجولة الأخيرة مع عثمان، والبعض الآخر يمّنى نفسه بالأمر.. جاء الثوار إلى الإمام على عليه السلام يعرضون الخلافة عليه.. فلقبهم أسوأ لقاء، وأندرهم لئن عادوا إليها لكونن جزأؤهم عنده وعند الخليفة القائم، جزاء العصاة المفسدين في الأرض (٤).

ووقع المحذور، ويهرع الإمام على عليه السلام إلى دار الخليفة المقتول، ولطم الحسن وضرب الحسين، وشتم محمد ابن طلحة وعبدالله بن الزبير وجعل يسأل ولديه: كيف قُتل الرجل وأنتما على الباب؟ فأجاب طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قُتل (٥).

وبقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على على وهو يهرب إلى الحيطان (البساتين).. وكلهم يقول: لا يصلح لها إلا على (٦).

وهنا، يصل المأزق إلى مرحلة الخيارات الصعبة، فأما أن يقبل أمير المؤمنين على عليه السلام بالتصدى لأمر المسلمين ويتسّم قيادتهم رسمياً أو أن

١- ٦٥ عباس محمود العقاد: ٦٠-٦١، ٦٢.

٢- ٦٦ تاريخ المسعودى ٢: ٣٥٣.

٣- ٦٧ المرجع نفسه، ٢: ٣٥٤.

٤- ٦٨ عباس محمود العقاد: ٦٢.

٥- ٦٩ تاريخ المسعودى ٢: ٣٥٤.

٦- ٧٠ عباس محمود العقاد: ٦٥.

ص: ١٥٤

يلقى الجبل على غاربه، مع ما يترتب على الخطوة الأخيرة من نتائج خطيرة ومهولة لا تتوقف آثارها على حقبه تاريخية معينة وإنما تتعداها بجمله تشويهاتها إلى كل العصور؛ لأن المشكلة كانت تكمن في المنهج المعتمد لا في غيره. وأمام فداحة تلك النتائج المتوقعة، قبل الإمام على عليه السلام بتسلم السلطة، حاملاً معه اطروحة بكل دقائقها، محاولاً استئناف العمل بالمشروع الإسلامي البعيد (١).

ولكن؛ هل أُتيحت الفرصة المواتية للإمام على عليه السلام لإنجاز مشروعه هذا؟!
على.. والمعارضة

إذا كان الإمام على عليه السلام قد أسس المعارضة الشرعية في الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وهو يومئذ في موقع الفرد إزاء السلطة الحاكمة، فإنه يعتبر كذلك المنظر الأول لمنهج التعامل مع المعارضة يوم أصبح حاكماً على المسلمين (٢).
ومنذ البداية كان الشك يخامر البعض، لأسباب عديدة، رغم أن الإمام علياً عليه السلام، وبشهادة حتى أعدائه، الأقدر والأصلح، ولكن ثمّة غيوم كانت تتلبد في أجواء ملبدة أساساً.

فحينما أجمع المسلمون على بيعه الإمام على عليه السلام بعد مقتل عثمان، تخلف عدد من الصحابة عنه، وثار عليه آخرون، وتمرد عليه بعض، وانحرف فريق آخر، فكيف كان موقفه من هذه الفئات المختلفة (٣)؟

بدءاً، كان امتناع البعض عن تقديم البيعة للإمام على عليه السلام أول اختبار لمنهجه في التعاطي مع «الآخر» المختلف. وبالرغم مما كان يمثله الامتناع عن البيعة من خروج سافر على مبدأ الطاعة لخليفة المسلمين، لاسيما وأن بيعته كانت الوحيدة من بين من سبقوه تحققت بمشاركة شعبية واسعة ويأجماع شامل، إلا أن نفر الذين تخلفوا وهم؛ سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، واسامة ابن زيد، وآخرون لا يتجاوزون بضعة نفر.. لم يعاملوا المعاملة المتوقعة بمقاييس المسلمين في ذلك العصر. لقد حصل مع على بن أبي طالب والذين تخلفوا عن بيعه أبي بكر، أنهم هددوا وحوصروا في بيت على، وتم كشف البيت بالقوة في الحادثة التي ندم عليها

١- ٧١ حسن جابر؛ «الحركة التاريخية للمشروع الإسلامي السياسي وأفق المستقبل»، مجلة المنطلق بيروت، العدد ٦٤- شعبان ١٤١٠

٥- آذار ١٩٩٠ م، ص: ٢٣.

٢- ٧٢ إبراهيم العبادي، مرجع سابق: ١٧٥.

٣- ٧٣ المرجع نفسه: ١٧٤.

ص: ١٥٥

أبو بكر فى لحظات احتضاره، إلّا أنّ الإمام عليّاً ترك من تخلف عنه وشأنه ولم يرغمه فى شىء لم يكن مقتنعاً به، حتى ندم النادمون فى لحظة فوات الأوان، مع أنّ أحاديث البيعة والسمع والطاعة للأمر البرّ والفاجر كانت من السمات المعروفة عن عبد الله بن عمر، ممّا يوحى بأنّ موقفه كان سياسياً وليس نابعاً من شبهات حالت بينه وبين أن يساوى بين على فى سنة ٣٦ هجرية وبين يزيد بن معاوية فى سنة ٦٠ هجرية، واحتفظ المتخلفون بكامل حقوقهم فى دولته على، بينما لم يؤدوا واجباتهم المفترضة، وعلى رأسها القبول بالرئيس الأعلى للدولة الإسلامية.

لقد كان مفهوماً أنّ عليّاً يمنح بذلك معارضيه فرصة التعبير عن مواقفهم، ويبيّن ما أشكل عليهم معرفته وفهمه، والدوافع التى كانت تقودهم إلى تبني تلك المواقف، ولم يحجر على أحد أو يقطع عطاء أحد من بيت المال. ويتكزّر الموقف نفسه مع أهالى «صرنا» فى مصر حين امتنعوا عن بيعته، بكلّ ما يعنيه ذلك من تمرد ورفض لسلطة زعيم الدولة الذى اختاره المسلمون ومن بينهم زعماء المصريين الذين شاركوا فى الثورة على عثمان (١).

ومن الواضح أنّ خلافة الإمام على عليه السلام جاءت فى ظروف بالغة الخطورة والتعقيد، فذووا النفوذ من الناس قد ألقوا الاستئثار واستراحوا إليه، وليس يسيراً أبداً أن يذعنوا لأية محاولة إصلاحية تضرّ بمصالحهم الذاتية.

ثمّ إنّ المطامع قد تتبعت لدى الكثير من الرجال، بعد أن أصبحت الخلافة مغنماً لا مسؤولية لحماية الشريعة والأمة. ولقد كان الإمام عليه السلام مدركاً لحقيقة الموقف بدقائقه وخفاياه بشكل جعله يعتذر عن قبول الخلافة حين أجمعت الأمة على بيعته بعد مقتل الخليفة عثمان قائلاً: «دعونى والتمسوا غيرى فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وأنّ الآفاق قد أنماحت والمحجة تنكرت..» (٢). ولكن جماهير

١- ٧٤ المرجع نفسه.

٢- ٧٥ نهج البلاغة: ١٣٦.

ص: ١٥٦

المدينة المنورة، وجماهير الثوار من العراق ومصر أصروا على استخلافه عليهم، فنزل الإمام عند رغبتهم، ولكن وفقاً لشروطه الخاصة هو:

«واعلموا أنى إن أجبتمكم ركبتم بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعبث العابث» (١).

حتى إذا قام بالأمر وأراد إرجاع الحق إلى نصابه، تألب عليه الكثيرون من الساعين وراء مصالحهم الشخصية، ومنهم الزبير وطلحة، مختلفين الأعدار الواهية. فحارب الناكثين من أصحاب الجمل فى البصرة، ثم حارب القاسطين من أصحاب معاوية فى صفين، ثم حارب المارقين من الخوارج فى النهروان، يبغي تطهير المجتمع الإسلامى من الفتن.. والنفوس المريضة (٢).

وفى خطبته الشقشقية أشار إلى التحديات الكبرى التى واجهته، وحدد بدقه حقيقة منطلقاتها: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفه، ومرقت أخرى، وقسط آخرون [يشير بذلك عليه السلام إلى أصحاب الجمل (وهم الناكثون) وإلى أصحاب النهروان الخوارج (وهم المارقون) وإلى أصحاب صفين (وهم القاسطون)]. كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه حيث يقول: تَلَكَّ الدَّارُ الْآخِرَةَ نَجَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. بلى والله لقد سمعوا ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا فى أعينهم وراقهم زبرجها (أى زينتها)» (٣).

هنا وقفه مقتضبة أمام ثلاث جهات تباينت فى شعاراتها ولكنها اتفقت على مناوأة الإمام عليه السلام، وفى كل مره، كان الموقف من قبل الإمام عليه السلام والتعاطى مع هؤلاء منسجماً واضحاً وصادراً من موقف شرعى محدّد.

مع الناكثين

على الرغم من أن طلحة والزبير كانا من أشد الناقلين على سياسة عثمان، ومع أنهما سبقا الناس فى البيعة للإمام على عليه السلام بعد قتل عثمان، فإن الحركة الإصلاحية التى قادها الإمام عليه السلام فى الحياة الإسلامية لم تجد هوى فى نفسيهما (٤) فبدأ فى العمل للخروج على الإمام عليه السلام وإثارة المسلمين عليه (٥).

١- ٧٦ نقلًا عن؛ «لجنة التأليف فى دار التوحيد»، م. س، ٣: ٦١-٦٢.

٢- ٧٧ لبيب بيضون: «تصنيف نهج البلاغة»، ط ٢، مكتب الاعلام الإسلامى ايران، ١٤٠٨ هـ ص: ٤٨٩.

٣- ٧٨ نهج البلاغة: ٤٩ خطبة ٣.

٤- ٧٩ لجنة التأليف فى دار التوحيد، م. س، ٢: ٤٣.

٥- ٨٠ المرجع نفسه، ٢: ٤٢.

ص: ١٥٧

وقاما مع عائشة يوهمون الناس بأنّ علياً عليه السلام قتل عثمان، مع أنّه كان أوّل المدافعين عنه، ولكنهم أرادوا أن يبعدوا تهمة قتله عنهم (١) فكانت حصيلة ذلك فتنة كبّدت الأمة خسارة فادحة.

وقد بذل الإمام عليه السلام جهداً كبيراً لتحاشي هذه الفتنة فلم يأل جهداً في بذل النصح لهم وتحميلهم مغبّة ما سيكون إذا نشبت الحرب. وهذه نصيحته عليه السلام لهما:

«أما بعد يا طلحة، ويا زبير، فقد علمتما أنّي لم أرد الناس حتى أرا دوني، ولم أبايعهم حتى أكرهوني، وأنتما أوّل من بادر إلى بيعتي، ولم تدخلوا في هذا الأمر بسلاطان غالب ولا لعرض حاضر. وأنت يا زبير ففارس قريش، وأنت يا طلحة شيخ المهاجرين، ودفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلوا فيه كان أوسع لكما من خروجكما منه بعد إقراركما، ألا وهؤلاء بنو عثمان هم أولياؤه المطالبون بدمه، وأنتما رجلا من المهاجرين، وقد أخرجتما أمكما من بيتها الذي أمرها الله تعالى أن تقرّ فيه، والله حسبكما ..» (٢).

وناشدهم الله أن لا يقوموا بفتنة في الإسلام يقتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً، فلم يجد ذلك نفعاً. وطلب الإمام أن يجتمع بالزبير بين الصّفين، وناجاه مذكراً إياه بقول النبي صلى الله عليه وآله له: «تقاتله يا زبير وأنت له ظالم». فما كان من الزبير إلّا أن اعتزل الجيشين وتركهما يقتتلان، فلما كان في بعض الصحراء لحقه ابن جرموز فقتله (٣) وحينما جرى إليه عليه السلام بسيف الزبير وخاتمه قال عليه السلام: سيفٌ طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٤).

ثم نادى عليه السلام طلحة حين رجع الزبير:

يا أبا محمّد، ما الذي أخرجك؟ قال:

الطلب بدم عثمان، قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»؟ وأنت أوّل من بايعني ثم نكثت، وقد قال الله عزّ وجلّ: فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ؟ فقال: استغفر الله، ثم رجع، فقال مروان بن الحكم: رجع الزبير ويرجع طلحة، ما أبالي رميت هاهنا أم هاهنا، فرماه في أكحله فقتله، فمرّ عليه بعد الواقعة..

١- ٨١ لبيب بيضون؛ م. س: ٥٢٩.

٢- ٨٢ نقلًا عن لجنة التأليف في دار التوحيد، ٢: ٤٣.

٣- ٨٣ لبيب بيضون: ٥٢٩.

٤- ٨٤ تاريخ المسعودي، ٢: ٣٧٣.

ص: ١٥٨

فوقف عليه، فقال: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَاللَّهُ لَقَدْ كُنْتَ كَارِهًا لِهَذَا (١).

وبعد أن ذهبت كلُّ محاولاته عليه السلام لإصلاح الموقف سدّى.. تفجّر الموقف، غير أن الإمام راح يخاطب جيشه - بعد اندلاع القتال - مطالباً أصحابه بالالتزام بما يريد الله: «أيها الناس أنشدكم الله أن لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا سيياً، ولا تأخذوا سلاحاً ولا متاعاً». طارحاً بذلك أحكام شريعته الله تعالى في البغاء.

وبعد انتصار الإمام عفا عن المشتركين في الحرب فقال بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين تحلّ لنا دماؤهم ولا تحلّ لنا نساؤهم؟ فقال عليه السلام:

كذلك السيرة في أهل القبلة (٢).

وأحسن الإمام عليه السلام معاملة عائشة:

«يا حميراء! رسول الله أمرك بهذا؟ ألم يأمرك أن تقرّى في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك».. وأمر أخاها محمداً فأنزله في دار صفيّة بنت الحارث.. وأتاها في اليوم الثاني ودخل عليها ومعه الحسن والحسين وباقي أولاده وأولاد أخوته وفتيان أهله من بنى هاشم وغيرهم من شيعة من همدان، فلما بصرت به النسوان صحن في وجهه وقلن: يا قاتل الأحيّة، فقال: لو كنت قاتل الأحيّة لقتلت من في هذا البيت، وأشار إلى بيت من تلك البيوت قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عامر وغيرهم..

طلبت منه عائشة أن يؤمّن ابن اختها عبدالله بن الزبير، فأمنه، وتكلّم الحسن والحسين في مروان فأمنه، وأمن الوليد بن عقبة، وولد عثمان وغيرهم من بنى أمية، وأمن الناس جميعاً، وقد كان نادى يوم الواقعة: من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن (٣). أرجع الإمام على عليه السلام عائشة إلى بيتها في المدينة، وقد بعث معها أخاها محمداً بن أبي بكر وثلاثين رجلاً وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما، ألبسهن العمائم وقلدهن السيوف، وقال لهن: لا تعلمن عائشة أنكن نسوة وتلثمن كأنكن رجال، وكُنّ اللاتي تلين خدمتها وحملها، فلما أتت المدينة قيل لها: كيف

١- ٨٥ المرجع نفسه.

٢- ٨٦ نقلًا عن المرجع السابق: ٤٧.

٣- ٨٧ تاريخ المسعودي، ٢: ٣٧٨.

ص: ١٥٩

رأيت مسيرك؟ قالت: كنت بخير والله، لقد أعطى على بن أبي طالب فأكثر، ولكنه بعث معي رجالاً أنكرتهم، فعرفها النسوة أمرهن، فقالت: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلا كرمًا، ووددت أني لم أخرج.. وإنما قيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس، فكان ما كان.. (١).

وهكذا أبدى الإمام عليه السلام أكثر من موقف إنساني فريد يعكس مدى نبيل المشاعر وقمة الأريحية تجاه الخصم مع القاسطين

بعد اندحار الناكثين، توجه الإمام عليه السلام إلى الكوفة، ومن هناك بعث كتاباً إلى معاوية يدعو إلى البيعة. فكان ردّ معاوية للإمام على عليه السلام: «إنما أفسد عليّ بيعتك خطيتك في عثمان..» (٢)، وتبدلت الرسائل بين الفريقين، وفي أحدها طلب معاوية من الإمام على عليه السلام أن يجعل له الشام ومصر جباية (٣)، وبلغ علياً أن معاوية قد استعد للقتال (٤). بدأ الإمام عليه السلام ببذل مساعيه لإصلاح الموقف بالوسائل السلمية، فأرسل وفداً ثلاثياً إلى معاوية، يدعو إلى تقوى الله والحفاظ على وحدة الصف والدخول في إجماع الأمة.. التقى الوفد بقائد المعارضة، وأبلغوه بنوايا الإمام عليه السلام ووضعوه أمام الله تعالى وحذروه مغتبه ما يقدم عليه، غير أن معاوية أبدى إصراراً، وقد ختم رده على الوفد: «انصرفوا عني فليس عندي إلا السيف». وحينما عسكر الجيشان في صفين، عمل معاوية من جانبه على الحيلولة دون حصول جيش الإمام على عليه السلام على الماء لأنه كان السبب في التجحف.

فأرسل الإمام عليه السلام رسولاً إلى معاوية ليبلغه «أن الذي جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نمنعك عنه» فردّ عليه معاوية بقوله: «لا والله ولا قطرة حتى تموت ظمأً!» الأمر الذي اضطرّ الإمام عليه السلام إلى استعمال العنف في الحصول على الماء لجيشه، ومن ثمّ ليأذن للباغين بالتزوّد منه متى شاءوا: «خلّوا بينهم وبين الماء، والله لا أفعل ما فعل الجاهلون». وحيث إنّ همّ الإمام عليه السلام أن يحقن

١- ٨٨ المرجع نفسه، ٢: ٣٧٩.

٢- ٨٩ ابن قتيبة الدينوري: «الإمامة والسياسة» ١: ١٠٢، القاهرة، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م.

٣- ٩٠ المرجع نفسه، ١: ٩٥.

٤- ٩١ تاريخ يعقوبى، ٢: ١٨٧.

ص: ١٦٠

دماء المسلمين ويصونهم من التمزق، ويدراً التصدع عن صفهم، فقد طلب من معاوية أن ينزله إلى ميدان القتال فيتقاتلا دون الناس لكي تكون إمامة الأمة لمن يغلب: «يا معاوية علام يقتتل الناس؟ ابرز إلى ودع الناس، فيكون الأمر لمن غلب». إلا أن معاوية رفض ذلك خوفاً من الإمام عليه السلام..

ولما لم تلق محاولات الإمام عليه السلام لرأب الصدع- الذي أوجده معاوية في صف الأمة- استجابة، تفجر الموقف بحرب واسعة النطاق.. وحين لاحت تباشير النصر لصالح معسكر الإمام عليه السلام وأوشكت القوى الباغية على الانهزام دبروا «خدعة المصاحف» فرفعوا المصاحف على رؤوس الرماح والسيوف.

كانت مناورة رفع المصاحف مقدمة لمسلسل التدايعات اللاحقة والمتلاحقة، في صفوف جيش الإمام على عليه السلام.. وتمثل الفصل الثاني من المأساة باختيار الغوغاء أبا موسى الأشعري لتمثيل معسكر الإمام عليه السلام في التحكيم، بينما اختار معاوية عمرو بن العاص.

ومنذ اللحظة الأولى، رفض الإمام عليه السلام فكرة تمثيل الأشعري، لأسباب عديدة، دونها ضعفه ووهن رأيه إضافة إلى مرتكزاته الفكرية وموقفه من حكومة الإمام عليه السلام.. ورجح الإمام عبدالله بن عباس، غير أن الغوغاء أصروا على اختيار أبي موسى الأشعري.. وهنا يخاطب الإمام عليه السلام المخدوعين بقوله: «قد عصيتموني في أول الأمر- يشير إلى قبول التحكيم وإيقاف القتال- فلا تعصوني الآن، لا أرى أن تولوا أبا موسى الحكومة فإنه ضعيف عن عمرو ومكائده..» (١).

إلا أنهم أصروا على اختيار الأشعري، فاستجاب الإمام عليه السلام كارهاً وعلى مضض، معبراً بذلك أروع تعبير بقوله: «لا أرى لمن لا يُطاع!»

وانتهت المأساة بهذه المهزلة أو انتهت بهذه المأساة، كما يقول عباس محمود العقاد (٢)، لبدأ فصل آخر من هذه المهزلة- المأساة.. إنها فتنة الخوارج.

١- ٩٢ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ص: ٧٤، نقلًا عن لجنة التأليف في دار التوحيد، ٢: ٥٤.

٢- ٩٣ نقلًا عن موسوعة أعيان الشيعة للعلامة محسن الأمين، طبعة دار التعارف، بيروت ١: ٥١٦ د. ت.

ص: ١٦١

مع المارقين

والخوارج هم الذين كانوا أصحاب الإمام عليه السلام وأنصاره فى الجمل وصفين قبل التحكيم (١). ثم أنكروا التحكيم الذى وقع يوم صفين، وقالوا: «لا- حكم إلا لله»، وتحت هذه اللافتة العريضة التى وصفها الإمام عليه السلام بأنها كلمة حق يُراد بها باطل.. انبثقت ظاهرة خطيرة ولا- سابقة لها فى المجتمع الإسلامى، تلك هى تكفير كل من ارتضى التحكيم، رغم أن أقطابهم كانوا فى مقدمته أولئك الذين فرضوا التحكيم، ولعلنا نتحسس اليوم بصماتهم لدى بعض الجهات التى تبيح دماء المسلمين وتسير على خطى هذا النهج التكفيرى.

فالخوارج الذين تحوّلوا إلى مذهب دينى- سياسى لاحقاً، كانوا طائفة من جيش الإمام عليه السلام تمرّدت عليه بعد واقعة التحكيم. وبهذا فهم معارضة فكرية- سياسية، طالبوا بالتحكيم أولها، ثم رفضوه لاحقاً، ثم جاؤوا يكفرون الحاكم والمحكومين الذين قبلوا التحكيم بسبب ضغطهم وإلحاحهم. إنهم بكلّ صراحة حملت فكر دينى ذى مشروع سياسى يعارض شرعية الدولة (٢).

فالخوارج إذن يتسمون بخصوصية فكرية يفتقرها الآخرون، وإن كانت هذه الخصوصية لا تحول دون القدح فى توجهاتهم، بيد أن هذه النقطة بالذات كانت موضع تقييم خاص من لدن الإمام عليه السلام إذ يقول: «ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»، وهو بصدد النهى عن مقاتلة الخوارج (٣).

وبظهور نتائج التحكيم نادت الخوارج معلنة مبررات خروجها تحت شعار: «لا حكم إلا لله»، لا نرضى بأن تحكم الرجال فى دين الله، قد أمضى الله حكمه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا معنا فى حكمنا عليهم، وقد كانت منا خطيئة وزلمة حين رضينا بالحكمين، وقد تبنا إلى ربنا، ورجعنا عن ذلك، فارجع- يقصدون الإمام عليه السلام- كما رجعنا، وإلا فنحن منك براء». بيد أن الإمام عليه السلام أوضح لهم حينئذ أن الخلق الإسلامى يقتضى الوفاء بالعهد- الهدنة لمدة عام- الذى أبرم بين

١- ٩٤ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ٤: ١٣٢.

٢- ٩٥ إبراهيم العبادى؛ مرجع سابق: ١٧٥.

٣- ٩٦ نهج البلاغة: ٩٤.. «لا تقاتلوا الخوارج بعدى، فليس من طلب الحق... الخ».

ص: ١٦٢

المعسكرين قائلاً: «ويحكم! بعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟ أليس الله يقول: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (١)».

إلا أنهم لم يصغوا إلى توجيهات الإمام عليه السلام، ورغم هذا.. لم يوصد الإمام عليه السلام باب المحاججة في وجوههم، ولم يعلن الحرب عليهم.. بل نجده يفسح المجال لحوار مفتوح بينه وبين خصومه السياسيين، وهذا «الخريت بن راشد الناجي» (وكان قدم مع ثلاثمائة من عمومته من البصرة، وكانوا قد خرجوا إلى الإمام عليه السلام يوم الجمل، وشهدوا معه صفين).. أقبل الخريت إلى الإمام في جمع من أصحابه، حتى قام بين يديه، فقال له: «والله يا على لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، وإني غداً لمفارقك».. بهذا الكلام أعلن هذا الرجل انخلاءه عن البيعة رسمياً (٢) فلم يعتقله الإمام، ولم يأمر بإعدامه، ولم ينهه عن التحدث بهذا الأسلوب، بل قال له:

«ثكلتك أمك إذن تنقض عهدك، وتعصى ربك، ولا تضر إلفانفسك.. أخبرني لم تفعل ذلك؟!»

قال: لأنك حكمت في الكتاب، وضعفت عن الحق إذ جدّ الجدّ، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد وعليهم ناقد ولكم جميعاً مباين.

فماذا كان جواب الإمام على عليه السلام لهذا «المعارض» العنيف ولكلامه الناقد الصريح؟ هل رفع عليه السلام العصا أو السيف في وجهه؟ كلا، بل قال له مرّة أخرى بكل هدوء: «ويحك.. هلم إلى أدارسك وأناظرك في السنن وافاتحك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك فلعلك تعرف ما أنت له منكر، وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل».

فقال الخريت: «فإني غاد عليك غداً».. فقال الإمام: «اغد ولا يستهوينك الشيطان ولا يقتحم بك رأى السوء، ولا يستخفّنك الجهلاء الذين لا يعلمون، فوالله إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مني لأهدينك سبيل الرشاد».. بيد أن

١- ٩٧ نصر بن مزاحم: «وقعة صفين»، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط ٢، القاهرة، ١٣٨٢ هـ، ص ٥١٧.

٢- ٩٨ يُراجع مقال «نصيحة أئمة المسلمين: بحث في مرتكزات المشروعية وآليات التنفيذ»، لمحمد سرور محلاتي، ترجمة جواد

على كسار، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد الأول، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص: ٧١.

ص: ١٦٣

الخريت غادر الكوفة من ليلته، ولم يعد إلى أمير المؤمنين (١).

وذات مرّة قال لهم الإمام عليه السلام بكلّ وضوح: «لكم علينا ثلاث؛ لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نبدؤكم بقتال، ولا نمنعكم الفى ما دامت أيدينا معكم».

ويعقّب باحث معاصر على ما تقدّم بقوله: «إنّ عدم منعهم المسجد يعنى تركهم أحراراً فى الدعوة لأفكارهم دون مطاردة، ودون حرمان من الحقوق المالىة التى كانت لهم، وعدم البدء بقتالهم يعنى اللجوء إلى أساليب الحوار الفكرى والإقناع والمناظرة، وهو ما فعله الإمام معهم حينما أرسل إليهم عبد الله بن عباس محاوراً ومناظراً، بل تركهم يعلنون أفكارهم بصراحة فى حضوره مع المسلمين، داخل المسجد قاطعين كلامه، ولم يقاتلهم الإمام إلّا بعد أن أعلنوا الحرب المسلّحة، وقاتلوا الوالى الذى عيّنه لهم (عبد الله بن خباب) فقتلوه وزوجته، وعندئذ طالبهم بتسليم قاتله، فرفضوا وأدعوا على أنفسهم أنّهم شاركوا جميعاً فى قتله (٢).

الهوامش:

١- ٩٩ يُراجع المرجع السابق، وكذلك: زينب الدهوى؛ «حرية المعارضة ضرورة اجتماعية أقرها الإسلام.. كيف طبقتها الإمام على عليه

السلام؟»، مجلة النور لندن- العدد ٣٤، رمضان ١٤١٤ هـ- آذار ١٩٩٤ م، ص: ٣٥.

٢- ١٠٠ مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مرجع سابق، ١: ٧٢.

ص: ١٦٧

قراءة في كتاب علي وليد الكعبه

ص: ١٦٨

قراءة في كتاب «علي وليد الكعبه»

للمحقق الأديب الشيخ محمد علي الأردوبادي

محمد سليمان

المؤلف:

الميرزا محمد علي بن الميرزا أبو القاسم بن محمد تقى بن محمد قاسم الأردوبادي التبريزي النجفي.

أردوباد المدينة التي استمد لقبه منها تقع على الحدود بين آذربيجان والقفقاز قرب نهر أرس.

ولادته كانت في تبريز في ٢١ رجب سنة ١٣١٢ هـ. بعد ثلاث سنوات من ولادته اصطحبه والده في رحلته إلى النجف الأشرف حيث

المركد الطاهر للإمام علي عليه السلام وحيث الحوزة العلمية المباركة وكان ذاك سنة ١٣١٥ هـ فراح يتعاهده تربيته وتعليماً... «كان

والده عالماً فقيهاً تقياً ورعاً، خشناً في ذات الله، أحد مراجع التقليد في آذربيجان وقفقاسيا... وتوفي رحمه الله سنة ١٣٣٣» (١).

درس عند جمع من العلماء الكبار فقد حضر في الفقه والاصول علي والده وشيخ الشريعة الأصفهانى وأخذ عن الأخير علمي الحديث

والرجال كما درس عند الميرزا علي ابن الحجّة الشيرازي. ودرس الفلسفة عند الشيخ محمد حسين

ص: ١٦٩

الأصفهاني وحظى بدراسة كل من علمى الكلام والتفسير على يد الشيخ محمد جواد البلاغى، ودامت دروسه هذه عند الأساتذة المذكورين لأكثر من عشرين سنة، كانت حصيلتها- وهو صاحب الذكاء الحاد والاستعداد والنبوغ- أن شهد له بالاجتهاد كل من استاذه الشيرازى والنائنى والشيخ عبد الكريم الحائرى والشيخ محمد رضا- أبى المجد- الأصفهاني والسيد حسن الصدر والشيخ محمد باقر البيرجندى وغيرهم. ونال بعد ذلك مكانة عظيمة فى الحوزات العلمية وبين علمائها وأساتذتها، واستجازته فى رواية الحديث أكثر من ستين عالماً من أجلاء علماء العراق وايران وسوريا ولبنان وغيرها. وله إجازات متعدده ضمنها طرقاً للحديث وفوائد رجالية وتراجم المشايخ...

له مؤلفات وآثار قاربت العشرين مؤلفاً فى تفسير القرآن والاصول وله تقارير معتبرة لمشايقه.. ومنها الدرء الغروية والتحفة العلوية تناول فيها طرق حديث الغدير؛ ومنظومة فى واقعه الطف...

كانت وفاته فى النجف ليلة الأحد ١٠ صفر سنة ١٣٨٠ ودفن فى الصحن الشريف.

كتابه الذى بين أيدينا كتاب- كما وصفه الناشر- «فريد فى باب، عزيز فى وجود نظائره، عزيز فى مادته، ضمنه المؤلف بحثاً استدلالياً معتمداً فى ذلك على ما ساقته كتب الفريقين المعتبرة بالأسانيد الصحيحة التى تضم بين مبتدأها إلى منتهاها شيوخ المحدثين وثقات الرواة والنسابين الأثبات والمؤرخين الأعلام ومهرة الفن وصاغة القريض والمحققين الخبراء والشعراء المبدعين...»

كل هؤلاء راحوا يثبتون هذه الكرامة وهذا الشرف لتضاف بهذه الفضيلة منقبة أخرى إلى مناقب سيدنا وإمامنا على بن أبى طالب وهى أول منقبة رافقت ولادته الميمونة. فرح بها المحبون لهذا البيت الهاشمى العريق فى قيمه وشيمه والتزامه والذى يشكّل أرقى البيوت القرشية والعربية وأجلها وأسمائها فى وقت

ص: ١٧٠

أثارت هذه المكرمة ضغائن الآخرين وأعداء الدين فراحوا يبذلون جهودهم لتقويض هذا الخبر وإماتة هذا الذكر بتضعيف رواته. وقد بوب الكتاب هذا تبويباً جميلاً بعنوانين هي الأخرى دقيقة. فعدد صفحاته ١٣٧ مع كلمة الناشر وترجمته حياة المؤلف، أما فصوله فهي:

حديث المولد الشريف وتواتره.

حديث الولادة الشريفة مشهور بين الأمة.

نبأ الولادة والمحدثون.

حديث الولادة والنسابون.

حديث الولادة والمؤرخون.

حديث الولادة والشعراء.

حديث الولادة مجمع عليه.

ثم تأتى الفهارس العامة «الآيات القرآنية، والاعلام، والأشعار والأرجاز ثم فهرس الموضوعات».

وكان جميلاً اطراءً الشيخ العلامة الأمينى صاحب كتاب الغدير: «شيخنا الأوردبادى أَلَفَ فى الموضوع كتاباً فخماً، وقد أغرق نزاعاً فى التحقيق ولم يبق فى القوس منزعاً» (١).

المقدمة

إن فضائل على عليه السلام ومناقبه وصفاته التى تميز بها ولدت معه ورافقتة حتى استشهاده، من ولادته فى جوف الكعبة وهى أعظم بيت من بيوت الله سبحانه وتعالى، وكانت هذه الولادة «إيداناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها» كما يقول عباس محمود العقاد (٢)، حتى استشهاده فى محراب صلواته فى بيت آخر من بيوت الله فى مسجد الكوفة، وهى ولادة ثانية له، ولكن هذه المرة حيث جوار الله سبحانه وتعالى وحيث الحياة الأبدية التى فيها الخلود وحيث الأنبياء والصديقون ...

١- ١ كتاب الغدير ٦: ٣٧.

٢- ٢ المجموعة الكاملة ٢: ٣٥.

ص: ١٧١

الولادة في هذه البقعة المباركة المقدسة تعدّ أولى مناقبه عليه السلام التي كرمها الله فيها، والتي لم تنجو من كيد أعدائه وحقدهم وحسدكم، فراحت جهودهم تتصافروا وأقلامهم المأجورة تنشط لتكيد كيدها لهذه الفضيلة، وبما أنّهم لا يستطيعون نكرانها بالمرّة لشهرتها وتواترها.. اختلقوا ولادة أخرى؛ ولادة حكيم بن حزام في الكعبة، ليصلوا من خلال ذلك إلى أنّ ولادة عليّ لا تعدّ منقبةً يفخر بها أحبّاءه وأولياؤه، وهي ليست كرامة له، فقد ولد غيره داخل الكعبة، فلماذا لا نعدها كرامة أيضاً؟ وعلى فرض أنّها كرامة له فلم يتفرد بها؛ لأنّ حكيماً ولد هو الآخر في الكعبة، وبالتالي توهمين هذه المنقبة.

وحكيم هذا هو ابن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة (١)، فهو ابن أخ لخديجة بنت خويلد (أمّ المؤمنين رضوان الله عليها) ويلتقى بمصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير المتوفى سنة ست وثلاثين ومئتين الذي كان من رواة ولادته في الكعبة إلّا أنّه تفرد بإضافة منه (ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد) لمآرب في نفسه، يلتقى به في جدّهم خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة.

علماً بأنّ هذه الإضافة لم أجدها عند غيره ممّن رووا ولادة حكيم في الكعبة وكلّهم كانوا في القرن الثالث للهجرة، فهي رواية ولدت متأخرة جداً ومقطوعة الإسناد وتعاني من ضعف روايتها وشذوذها..

ولم تكن ولادة حكيم معروفة قبل هذه الرواية بل لم تذكر أبداً في المصادر التاريخية ولا الروائية، كما أنّ حكيماً نفسه لم يذكر أنّ ولادته كانت في الكعبة، لا في جاهليته ولا في إسلامه، وهو شرف عظيم كانوا يفتخرون به في الجاهلية ويتمنونه، فكيف سكت حزام عن ذكر ذلك ولم يشر إليه ولو إشارة بسيطة؟ ولم يكن صاحب مناقب كثيرة حتّى يترك ذكرها كما لم يكن زاهداً فمنعه زهده عن ذكرها. كما لم يذكرها من حوله وهو من وجهاء قريش في الجاهلية والإسلام ومن

ص: ١٧٢

علمائها بالنسب، كما كان جواداً كريماً، وهو بالتالي ليس نكرة حتى يُنسى خبر ولادته في بقعة مباركة.. وكان إذا سئل عن ولادته فلم يزد في إجابته عن: ولدت قبل قدوم أصحاب الفيل بثلاث عشرة سنة.. وذلك قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس سنين (١).

وكان إسلامه يوم الفتح وقيل يوم أحد، وكان من المؤلفه، أعطاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غنائم حنين مائة بعير. عاش مئة وعشرين سنة؛ ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، وتوفي في المدينة سنة أربع وخمسين وقيل سنة ثمان وخمسين (٢).

الروايات

رواية مصعب بن عثمان الذي لم أجد له ترجمة تذكر في تاريخ دمشق ولا في غيره اللهم إلا ما ذكره صاحب التبيين في أنساب القرشيين مكتفياً باسمه: مصعب ابن عثمان بن عروة بن الزبير وبأنه كان عالماً بأخبار قريش (٣).

فلا أقل من أن حاله مجهول، إن لم يكن من أولئك الضعفاء الذين أكثر ابن بكار في الرواية عنهم في الجمهرة أشياء منكرة كثيرة خاصة أنه كان واسطه بين عامر بن صالح وعامر هذا وابن بكار المعروف بالكذب وأنه ليس ثقة كما أن عامه حديثه مسروق وبالتالي فقد يكون مصعب قد تأثر بأستاذه عامر، يروي الموضوعات (٤).

هذا وأن الزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ هـ صاحب جمهرة نسب قريش متهم هو الآخر بالضعف وبأنه منكر الحديث ويضعه وهو ما يذكره صاحب كتاب الضعفاء الحافظ أحمد بن علي السليمانى (٥).

وقال في ميزان الاعتدال ٢: ٦٦: لا يلتفت إلى قوله. وإن ردّه ابن حجر في التهذيب بقوله: هذا جرح مردود، فلعله استنكر إكثاره عن الضعفاء مثل محمد بن الحسن بن زباله وعمر بن أبي بكر المؤملى وعامر بن صالح الزبيرى وغيرهم، فإن في كتاب «النسب» عن هؤلاء أشياء كثيرة منكرة (٦).

١- ١ تاريخ دمشق ١٥: ٩٨.

٢- ٢ تاريخ دمشق ١٥: ٩٥.

٣- ٣ التبيين في أنساب القرشيين: ٢٦٦.

٤- ٤ تهذيب الكمال ١٤: ٤٦، سير أعلام النبلاء ٤: ٤٢٩.

٥- ٥ انظر سير أعلام النبلاء ١٢: ٣١٤، تهذيب التهذيب ٣: ٣١٣، وميزان الاعتدال ٢: ٦٦.

٦- ٦ انظرها في سير أعلام النبلاء ١٢: ٣١٤.

ص: ١٧٣

فسواء أكان الزبير ضعيفاً بنفسه أو ينقل عن هؤلاء الضعفاء في كتابه. فهو بالتالي يفقد الثقة به وبكتابه ولا يعتمد على ما فيه إلا بعد تمحيص دقيق وجهد كبير.

فإذا عرفنا حال مصعب بن عثمان وصاحب كتاب جمهرة نسب قريش فالرواية بعد ذلك لا يمكن أن تكون محل اعتماد. أمّا روايته فكما نقلها أيضاً صاحب تاريخ دمشق هي: أخبرنا أبو غالب بن الحسن وأخوه أبو عبد الله يحيى، قالوا: أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة، أنبأنا أبو طالب المخلص، أنبأنا أحمد بن سليمان الطوسي، أنبأنا الزبير بن بكار، حدثني مصعب بن عثمان، قال: دخلت أم حكيم بن حزام الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل متم بحكيم بن حزام، فضربها المخاض في الكعبة فأتيت بنطح حيث أعجلها الولادة، فولدت حكيم بن حزام في الكعبة على النطح (قطعة من الجلد) وكان حكيم بن حزام من سادات قريش ووجهها في الجاهلية (١).

روايتا المستدرک

الرواية الأولى: ... سمعت أبا الفضل الحسن بن يعقوب يقول: سمعت أبا أحمد محمد بن عبد الوهاب يقول: سمعت علي بن غنام العامري يقول: ولد حكيم بن حزام في جوف الكعبة، دخلت أمه الكعبة فمخضت فيها فولدت في البيت (٢).

الرواية الثانية: أخبرنا أبو بكر بن أحمد بن بالعريه، ثنا إبراهيم بن إسحاق الحرابي، ثنا مصعب بن عبد الله فذكر نسب حكيم بن حزام وزاد فيه وأمه فاختة بنت زهير بن أسد بن عبد العزى، وكانت ولدت حكيماً في الكعبة وهي حامل فضربها المخاض وهي في جوف الكعبة، فولدت فيها فحملت في نطح وغسل ما كان تحتها من الثياب عند حوض زمزم ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد.

هذه العبارة الأخيرة لم ترد في الروايتين السابقتين فهي إضافة منه، وليس هذا غريباً عليه ولم يكن هذا منه بلا قصد ولا هدف فهو يعرف جيداً ماذا يقصد

١-١ تاريخ دمشق ١٥: ٩٨.

٢-٢ المستدرک ٣: ٥٤٩ / ٦٠٤١ / ١٦٣٩.

ص: ١٧٤

بهذا النفي «ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد»، وكيف يعذر وهو يعرف جيداً تواتر خبر ولادة علي عليه السلام في الكعبة ولم يكن جاهلاً به أو غافلاً عنه. وإنما هي «شيشنة أعرفها من أخزم» حقاً إنه حقد موروث وبغض مستحکم ضد علي عليه السلام توارثته هذه العائلة من يوم الناكثين يقول الإمام علي عليه السلام: «وما زال الزبير منا حتى ولد له عبدالله ابنه». فأراد أن ينفي هذه الكرامة لعلي عليه السلام ولم يرض بأن تبقى الرواية «ولادة حكيم» كما رواها غيره وإن كانت أيضاً لا تخلو من الضعف والإرسال، فأضاف عليها ما سؤلت له نفسه.

وبعد ذكر الحاكم النيسابوري لها قال: وهم مصعب في الحرف الأخير.

أقول: وقد عرفت حال الرواية وما تعانیه من ضعف وانقطاع.. وقد يفهم من قول الحاكم هذا وهم، أن مصعباً أصاب في كلامه الأول حول ولادة حكيم في الكعبة، إلا أن هذا نفاه الحاكم في كلام آخر له في كفاية الطالب للكنجي الشافعي. ثم راح يعزّز بشكل قاطع رده هذا بقوله: فقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة (١).

علماً بأن حكيم بن حزام - وكما قلنا - لم يكن شخصاً مجهولاً في الجاهلية وغير معروف في الإسلام مع هذا لم يذكر هذه الفضيلة لنفسه يوماً ولم تذكر عنه بل ولم يذكرها أحد له على الإطلاق حتى رواها كل من مصعب بن عثمان بن عروة بن الزبير ومصعب بن عبدالله.. بعد أكثر من ٢٠٠ سنة أي في القرن الثالث الهجري.

إن أول كتاب ذكرت فيه ولادة حكيم هو (جمهرة النسب) لابن الكلبي، والكلبي وإن ورد فيه أنه متروك الحديث، وأنه غير ثقة وأنه يروي العجائب والأخبار التي لا أصول لها (٢).

إلا أنه ورد فيه مدح كثير، وأن مبعث ما ذكر من مطاعن واتهامات أن الرجل كان شيعياً لا غير.

١- ١ المستدرک ٣: ٥٥٠ / ٦٠٤٤ / ١٦٤٢.

٢- ٢ أنظر سير أعلام النبلاء والأنساب وجمهرة النسب.

ص: ١٧٥

وأما كتابه جمهرة النسب فقد تعرّض لإضافات كثيرة يعود سببها إلى أنّ أباسعيد السكري راوى الكتاب لم ينجو من الاتّهام بأنّه كان وراءها. فالدكتور ناجي حسن الذي يذكر في مقدّمته تحقيقه لجمهرة النسب: «لقد وصلتنا جمهرة النسب لابن الكلبي برواية أبي سعيد السكري عن محمّد بن حبيب عن ابن الكلبي، ومع ذلك ظهرت فيه إضافات واضحة وزيادات وتعليقات بيّنة لم ترد في أصل الجمهرة بل أضافها الرواة والنسّاخ. ولا يستبعد أن يكون أبو سعيد السكري هو نفسه الذي قام بهذا العمل حين وجد لديه أيضاً من الأخبار ذات الصلة بالأنساب» (١).

أمّا الرواية الأخرى التي يذكرها النيسابوري فهي عن علي بن عثم العامري كما هو اسمه في سير أعلام النبلاء ويبدو أنّه حرّف من عثم إلى غنام عند النيسابوري. ولو كانت روايته هذه محل اعتماد لما تغاضى عنها الذهبي في سيره وهو المعروف بموقفه المضاد لمن يذكر مناقباً لعلي عليه السلام. وهذا يكفي في أنّها من الضعف والهزال ما جعل الذهبي يتجاهلها.

وهناك رواية شاذة ذكرها الأزرقى في أخبار مكّة: حدّثني محمد بن يحيى، حدّثنا عبد العزيز بن عمران، عن عبد الله بن أبي سليمان عن أبيه أنّ فاختة بنت زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى - وهي أمّ حكيم بن حزام - دخلت الكعبة وهي حامل، فأدرکها المخاض فيها، فولدت حكيماً في الكعبة، فحملت في نطح وأخذ ما تحت مشبرها (موضع الولادة) فغسل عند حوض زمزم، وأخذت ثبابها التي ولدت فيها فجعلت لقي (٢).

فأولما أنّ محمد بن يحيى كما في كتاب الجرح والتعديل للرازي قال: سألت أبي عنه فقال: كان رجلاً صالحاً وكانت به غفلة، رأيت عنده حديثاً موضوعاً. توفي سنة ٢٤٣ هـ (٣).

أمّا عبد العزيز بن عمران فيقول عنه البخاري: إنّه لا يكتب حديثه، منكر

١-١ مقدّمه جمهرة النسب.

٢-٢ أخبار مكّة للأزرقى ١: ١٧٤.

٣-٣ تذكرة الحفاظ ٢: ٥٠١. الجرح والتعديل ٨/ ١٢٤، سير أعلام النبلاء ١٢: ٩٦.

ص: ١٧٦

الحديث، وقال عنه النسائي: متروك الحديث، وقال عنه الرازي: متروك الحديث، ضعيف الحديث، منكر الحديث جداً، وقال محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري: عليّ بدنة إن حدثت عن عبد العزيز بن عمران حديثاً (١).

هذا مضافاً إلى أن الأزرقى في نفسه محل كلام حيث لم أعثر على شيء يدل على توثيقه وأمامك حياته في كتابه أخبار مكة. والمتحصّل من هذا المختصر ومن غيره أن رواية ولادة حكيم إن لم نقل بسقوطها فهي غير معتبرة عند كثير من المحدثين والمؤرخين، بل نفاها جمع منهم بنفيهم ولادة غير أمير المؤمنين عليه السلام كما سنرى في مضامين هذا الكتاب (٢).
فصول الكتاب

حديث المولد الشريف وتواتره

يفتح المؤلف حديثه في هذا الباب بمقدمة قصيرة جميلة تنم على قدرة عجيبة في اختيار الألفاظ ودقتها على المراد. يقول فيها: «إن المنقب في التاريخ والحديث جدّ عليم بأن هذه الفضيلة من الحقائق التي تطابق على إثباتها الرواء، وتطامن النفوس على اختلاف نزعاتها على الإخبار بها حيث لا يجد الباحث قطّ غميرة في إسنادها، ولا طعناً في أصلها، ولا مُتدحاً للكلام على اعتبارها، وتضافر النقل لها وتواترت الأسانيد إليها، وإن وجد حولها صخباً من شذاذ الناس وطأه بأخمص حجاه، وأهواه إلى هوة البطلان السحيقة».

بعد هذه المقدمة راح ينقل الرواية التي تحكى ولادة أخرى غير ولادة علي عليه السلام داخل الكعبة. ولادة حكيم بن حزام، التي يرويها مصعب بن عبد الله..

والتي ما إن يصل النيسابوري إلى الفقرة الثانية فيها «.. ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد» وهي من زيادة هذا الراوي حتى قال: «وهم مصعب في الحرف

١-١ التاريخ الكبير ٦: ٢٩؛ التاريخ الصغير ٢: ٢٣٤؛ الجرح والتعديل ٥: ٣٩٠؛ تاريخ بغداد ١٠: ٤٤١؛ تهذيب التهذيب ٦: ٣٥١؛ ميزان الاعتدال ٢: ٦٣٢.

٢-٢ من ضمن المصادر التي اعتمدها في هذه المقدمة المختصرة مقالة قيمة ونافعة للأستاذ شاعر شيع الولادة في الكعبة المعظمة نشرت في مجلّة تراثنا العدد ٢٦.

ص: ١٧٧

الأخير وقد تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في جوف الكعبة» (١). من هذا يتضح أنّ الحاكم وإن لم يناقش الفقرة الأولى من الرواية (ولادة حكيم في الكعبة) بل سكت عنها مكتفياً بأنه وصف مصعباً بالتوهم إلاّ أنّه نفاها في كلام آت له أثبتته الحاكم الكنجي.

أقول: إنه لم يكن متوهماً بل يقول ما يعنى ويعنى ما يقول، إنه كان قاصداً لمآرب في نفسه كما ذكرنا ذلك في المقدمة. ومع هذا فإنّ الشيخ الأردوبادي راح ينقل الإطراء على الحاكم: والحاكم من أذعن الكلّ بثقته وحفظه وضبطه وتقدمه في العلم والحديث والرجال والمعاجم طافحة بإطرائه والثناء عليه، والكتب مفعمة بالاحتجاج به والركون إليه، وتآليفه شاهدة بنبوغه وتضلّعه، فناهيك به حاكماً بتواتر الحديث، أى حديث ولادة أمير المؤمنين عليه السلام في جوف الكعبة.

ثم نقل نصوصاً أخرى توافق ما ذكره الحاكم في مستدركه، ومن هذه النصوص:

نصّ لشاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم المحدث الدهلوي وهو والد عبد العزيز الدهلوي مصنف (التحفة الاثنا عشرية) في الردّ على الشيعة. «قد تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّاً في جوف الكعبة، فإنّه ولد في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة في الكعبة ولم يولد فيها أحد سواه قبله ولا بعده».

هذا النصّ ورد في كتابه (إزالة الخفاء ٢: ٢٥١ ط الهند) ويتضمّن أمرين مهمّين:

تواتر الأخبار بالولادة.

نفيه لأى ولادة أخرى غير ولادة أمير المؤمنين عليه السلام.

ص: ١٧٨

وأما الحافظ الكنجي الشافعي (ت ٦٥٨) فقد حمل إلينا في كتابه (كفاية الطالب). الذي ذكره الجلبى في كشف الظنون ونقل عنه ابن الصباغ المالكي في فصوله المهمّة واحتجّ به ابن حجر قال:

«أخبرنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود النجار بقراءة تى عليه ببغداد، قلت له: قرأت على الصفار بنيسابور: أخبرتنى عمّتى عائشة، أخبرنا ابن الشيرازى، أخبرنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيشابورى قال:

ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بمكة في بيت الله الحرام، ليلة الجمعة، لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب، سنة ثلاثين من عام الفيل، ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراماً له بذلك، وإجلالاً لمحلّه في التعظيم» (١).

وهو أيضاً نصّ من الحاكم لا ريب فيه على أنّ الولادة تمّت في الكعبة وفيه نفى لأى ولادة أخرى مزعومة كولادة حكيم.

لشهاب الدين أبو الثناء السيد محمود الآلوسى المفسّر ورد في شرحه لعينية العمرى حينما قرأ:

أنت العليّ الذى فوق العلى رُفعا بطن مكة عند البيت إذ وضعاً

قال: «وفى كون الأمير- كرم الله وجهه- ولد فى البيت، أمر مشهور فى الدنيا، وذكر فى كتب الفريقين السنّة والشيعه... إلى قوله: ولم

يشتهر وضع غيره- كرم الله وجهه- كما اشتهر وضعه، بل لم تتفق الكلمة عليه. وما أحرى بإمام الأئمّة أن يكون وضعه فيما هو قبله

للمؤمنين، وسبحان من يضع الأشياء فى مواضعها وهو أحكم الحاكمين» (٢).

أقول: وحينما وصل إلى بيت آخر من قصيدة العمرى نفسها:

وأنت أنت الذى حطّ له قدم فى موضع يده الرحمن قد وضعاً

وقيل: أحب عليه الصلاة والسلام (يعنى علياً) أن يكافئ الكعبة حيث ولد فى

١- ١ كفاية الطالب: ٤٠٧، وانظر الغدير للشيخ الأمينى ٦: ٢٢.

٢- ٢ الغدير للشيخ الأمينى ٦: ٢٢.

ص: ١٧٩

بطنها بوضع الصنم عن ظهرها، فإنها كما ورد في بعض الآثار كانت تشتكى إلى الله تعالى عبادة الأصنام حولها وتقول: أي ربّ حتّى متى تعبد هذه الأصنام حولي؟

والله تعالى يعدها بتطهيرها من ذلك، وإلى هذا المعنى أشار العلامة السيّد رضا الهندي بقوله:

لَمَّا دَعَاكَ اللَّهُ قَدَمًا لِأَنَّ تَوْلِدَ فِي الْبَيْتِ فَلْتَيْتَهُ

شكرته بنى قريش بأن طهرت من أصنامهم بيته (١)

وبعد ذلك راح المؤلف ينقل أقوالاً أخرى لعلماء من الشيعة منهم العلامة السيّد الحسيني الآملي صاحب كتاب (الكشكول فيما جرى على آل الرسول): «أنّه ولد في الكعبة بالحرم الشريف فلم يسبقه أحد، ولا يلحقه أحد بهذه الكرامة...» (٢).

ومنهم العلامة السيّد هاشم البحراني في (غاية المرام):

«إنّ رواية أمير المؤمنين عليه السلام ولد في الكعبة بلغت حدّ التواتر، معلومة في كتب العامة والخاصة» (٣).

ومنهم السيّد محمد الهادي الحسيني في كتابه (أصول العقائد وجامع الفوائد) حيث قال: «كان مولده عليه السلام في جوف الكعبة على ما روته الشيعة وأهل السنّة..» (٤).

فهو يريد- والكلام للمؤلف- أنّ الحديث ممّا تصافقت الأيدي على نقله، وتطامنت النفوس على روايته، وأصفت الجماهير من الفريقين على إثباته، وذلك الذي نريد إثباته، وبه يثبت التواتر.

خبر الولادة عند من لا يعمل إلّا بالخبر المتواتر:

وبعد كلّ ذلك انتقل المؤلف إلى أنّ هناك بعضاً من العلماء لا يأبه في عمله إلّا بالخبر المتواتر في وقت يعمل فيه جمعٌ منهم بالآحاد. ومن أولئك: الشيخ الطبرسي صاحب تفسير مجمع البيان (ت ٥٤٨) حيث

١- ١ انظر الغدير ٦: ٢٢-٢٣.

٢- ٢ الكشكول: ١٨٩.

٣- ٣ غاية المرام: ١٣.

٤- ٤ أصول العقائد: ١٦٥ مترجماً من الفارسية وملخصاً.

ص: ١٨٠

قال في كتابه (إعلام الوري):

«لم يولد قط في بيت الله تعالى مولود سواه لا قبله ولا بعده، وهذه فضيلة خصه الله تعالى بها إجلالاً لمحله ومنزلته وإعلاءً لقدرته»
(١).

ومن أولئك: الشريف المرتضى (ت ٤٣٦) وهو يشرح القصيدة المذهبة للسيد الحميري، قال:

«وروى أنها- يعني فاطمة بنت أسد- ولدته في الكعبة، ولا نظير له في هذه الفضيلة» (٢).

وهنا يقول المؤلف:

وليس قصده في إيرادها بلفظ «روى» إسنادها إلى رواية مجهولة، وإنما جرى فيها على ديدنه في هذا الكتاب من سرد الحقائق الراهنة مقطوعة عن الأسانيد لشهرتها وتضافر النقل لها وتداولها في الكتب لفتاً للأنظار إليها وإشادة بذكرها على نحو الاختصار، وعلى ذمة الباحث إخراجها من مظانها، ولذلك تراه يقول بعد الرواية غير متلكئ ولا متلثم: «ولا نظير له..» كجازم بحقيقتها، مؤمن بصحتها وتواترها، وإلا للفظها كما هو دأبه في غير واحد من الأحاديث.

والشريف الرضي (ت ٤٠٦) في كتابه (خصائص الأئمة) حيث قال: «ولد عليه السلام بمكة في البيت الحرام لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهو أول هاشمي في الإسلام ولد من هاشم مرتين، ولا نعلم مولوداً في الكعبة غيره» (٣).

كما حذا حذوهما شيخ الطائفة الطوسي (ت ٤٦٠) في (التهذيب) ثالث الكتب الأربعة المعول عليها عند الشيعة حيث قال: «ولد بمكة في البيت الحرام يوم الجمعة...» (٤).

وروى في (مصباح المتعجد) تاريخ شهر الولادة ومحلها... (٥) ومنهم أيضاً الشيخ المفيد (٤١٣) قال في الإرشاد:

١- ١ اعلام الوري: ١٥٣.

٢- ٢ شرح القصيدة المذهبة: ٥١.

٣- ٣ خصائص الأئمة: ٣٩.

٤- ٤ التهذيب ٦: ١٩ كتاب المزار.

٥- ٥ مصباح المتعجد: ٧٤١ و ٧٥٤.

ص: ١٨١

«ولد بمكة في البيت الحرام يوم الجمعة.. ولم يولد قبله ولا- بعده مولود في بيت الله سواء، إكراماً له من الله جلّ اسمه له بذلك، وإجلالاً لمحله في التعظيم» (١). كما روى في مزاره وشاركه في هذا كل من الشهيد في مزاره وابن طاووس في مصباح الزائر ما علمه الإمام الصادق عليه السلام لمحمد بن مسلم حين زيارته أمير المؤمنين عليه السلام:

السلام عليك يا من ولد في الكعبة أو السلام على المولود في الكعبة (٢).

والشيخ المفيد- والقول للمؤلف- من عرفته الأئمة بالنقد والتمحيص وأنه كيف كان يردّ الأخبار لأدنى علة في أسانيدھا أو متونها أو يتردد في مفادھا، يعرف ذلك كله من سير كتبه ورسائله ومسائله، أو هل تراه مع ذلك يعدل عن خطته القويمة فيرمى القول على عواهنه بذكر الواهيات على سبيل الجزم بها، لا سيما في كتاب (الإرشاد) الذي قصد فيه إعلاء ذكر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنويه بفضلهم وإمامتهم وتقدمهم فيها، فهل يذكر فيه إلّما هو مسلم بين الفريقين أو الملائ الشيعي على الأقل؟! وتبع الشيخ المفيد معاصره النسابة ابن الصوفي (٣).

مع السيد الحميري

وقد أوشك هذا الفصل على نهايته، ارتأى الشيخ أن يقتطع شيئاً مما نظمه السيد الحميري (ت ١٧٩) فيما يخصّ ولادة الإمام عليه السلام في الكعبة:

ولدته في حرم الإله وأمنه والبيت حيث فناؤه والمسجد

بيضاء طاهرة الثياب كريمة طابت وطاب وليدها والمولود

وله أبيات أخرى منها:

طبت كهلاً وغلاماً ورضيعاً وجنينا

وبطن البيت مولوداً وفي الرمل دفينا (٤)

وقد أعدّ المؤلف نظم السيد الحميري هذا أثبت لمفاده من أسانيد متساندة.

والسبب في هذا- كما يقول المؤلف-: هو أن السيد الحميري الذي كان يسير بشعره

١- ١ الإرشاد: ٩٠ والمقنعة: ٧٢ ومسار الشيعة: ٣٥.

٢- ٢ انظر الإقبال: ٦٠٨، ومصباح الزائر: ١٠٦، والمزار الكبير: ٢٦٧، والبحار: ١٠٠: ٣٧٤.

٣- ٣ انظر المجدي: ١١.

٤- ٤ انظر مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٧٥، ١٧٦، روضة الواعظين: ٨١، أعيان الشيعة ١: ٣٢٤.

ص: ١٨٢

الركبان في القرن الثاني، والذي راح ينافح الآخرين من أعداء أهل بيت الوحي عليهم السلام وحتّى تكون حجّته قويّة لا بدّ له من أن يحاججهم لا بالواهيات ولا بما لا يعرفه الناس أو لا يعترفون به.

وممّا نظمه كلّ من السرخسي:

ولدته منجبة وكان ولادها في جوف الكعبة أفضل الأكنان

والشفهيني:

أم هل ترى في العالمين بأسرهم بشراً سواه بيت مكة يولد؟

ويختم هذا الفصل بقول ثقة الإسلام النوري: إنّ هذه الفضيلة الباهرة جاءت في أخبار غير محصورة، ومنصوص بها في كلمات العلماء وفي ضمن الخطب والأشعار...».

وهنا يقول المؤلّف: ومهما حملنا قوله إنّها: «جاءت في أخبار غير محصورة» على المبالغة، فإن أقل مراتبه أن تكون متواترة..

حديث الولادة الشريف مشهور بين الأمة

تحت هذا العنوان كتب سماحته:

إنّ أيسر ما يسع الباحث إثباته هو شهرة هذا النبا العظيم بنصوص أئمة الحديث بذلك من ناحية، وبتداول ذكره في الكتب من ناحية أخرى، وبالتسالم على روايته واطراد أسانيد من جهة ثالثة. ولها شواهد أخرى لعلك تقف عليها في غضون هذه الرسالة إن شاء الله.

ثم راح يذكر أقوال كبار علماء الحديث، نكتفي بأسمائهم وكتبهم وبعض أقوالهم، لننتقل بعد ذلك إلى روايات الولادة المباركة للإمام علي عليه السلام.

العلامة المجلسي في جلاء العيون: «إنّ ولادته عليه السلام في البيت، يوم الجمعة

ص: ١٨٣

الثالث عشر من رجب، سنة ثلاثين من عام الفيل، مشهورة بين المحدثين والمؤرخين من الخاصة والعامة» (١).

المولى محمود بن محمد باقر في تحفة السلاطين: «إنّ حديث ولادته عليه السلام في البيت يوم انشقّ جداره لفاطمة بنت أسد فدخلته، مشهور كالشمس في رائعة النهار» (٢).

السلطان محمد بن تاج الدين في تحفة المجالس: «إنّ الأقرب إلى الصواب أنّه عليه السلام ولد في الكعبة» وذكر بعض أخبارها. ثمّ قال: «وفي الأخبار أنّه لم يكن شرف الولادة في البيت لأيّ أحد قبله ولا بعده» (٣).

الشيخ العاملي الاصبهاني (ت ١١٠٠) في ضياء العالمين: «إنّ الولادة في البيت كانت مشهورة في الصدر الأوّل، بحيث لم يمكن إنكارها مع أنّهم - يعني أهل الخلاف - أنكروها أيضاً أخيراً» (٤).

هذا وأن هذه الشهرة في الأخبار لا يباحها التواتر في الأسانيد.

وانظر العلامة الحلّي (ت ٧٢٦) في كشف الحق وكشف اليقين (٥).

والإربلي (ت ٦٩٢) في كشف الغمّة حيث قال: «ولم يولد في البيت أحد سواه قبله ولا بعده، وهي فضيلة خصّه الله بها إجلالاً له وإعلاءً لرتبته وإظهاراً لتكرّمته» (٦).

ومثله الشيخ ابن الفتال النيسابوري في روضة الواعظين.

والحافظ ابن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨) في مناقبه وبعد أن روى أحاديث الولادة (٧).

العلامة العاملي في الصراط المستقيم ذاكراً أرجوزة السيّد الحسيني:

ومولد الوصيّ أيضاً في الحرم بكعبة الله العليّ ذي الكرم (٨)

العلامة الطبرسي الآملي في تحفة الأبرار (٩).

١- ١ جلاء العيون ١: ٢٣٢ فارسي.

٢- ٢ تحفة السلاطين ٢، فارسي.

٣- ٣ تحفة المجالس: ٦٤ فارسي.

٤- ٤ ضياء العالمين ٢.

٥- ٥ نهج الحق وكشف الصدق: ٢٣٢، كشف اليقين: ٥.

٦- ٦ كشف الغمّة ١: ٥٩.

٧- ٧ مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٧٥.

٨- ٨ الصراط المستقيم ٢: ٢١٥.

٩- ٩ تحفة الأبرار، ب ٤، ف ٢.

ص: ١٨٤

القاضي السعيد الشهيد سنة ١٠١٩ التستري حين طفق ينازل ويناضل القاضي روزبهان من علماء المعقول والمنقول، حنفي الفروع أشعري الأصول، في إحقاق الحق حيث قال: «إن الفضيلة والكرامة في أن باب الكعبة كان مقفلاً، ولما ظهر آثار وضع الحمل على فاطمة بنت أسد - رضی اللہ عنہا - عند الطواف خارج الكعبة انفتح لها الباب بإذن الله تعالى، وهتف بها هاتف بالدخول.

كما عقب التستري على مسألة ولادة حكيم قائلاً:

وعلى تقدير صحة تولد حكيم بن حزام قبل الإسلام في وسط بيت الله الحرام، فإنما كان بحسب الاتفاق كما يتفق بسقوط الطفل من المرأة، والعجل من البقرة في الطريق وغيره، على أن الكلام في تشرف الكعبة بولادته فيها، لا في تشرفه بولادته في الكعبة» (١).
 أبو الحسن المالكي في (الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة) يذهب المذهب نفسه في ولادة حكيم: فبعد أن يذكر ولادة علي في جوف الكعبة قال: وأما حكيم بن حزام فولدته أمه في الكعبة اتفاقاً لا قصداً وقد أصفق في هذا الكلام مع الباحث عبد الرحمن الصفوري الشافعي في نزهة المجالس (٢).

بعد هذا فإن كتباً كهذه «المتينة المبنية على الحجاج والنضال لاسيما كتب العلامة والقاضي التستري وابن بطريق لم يتوخ مؤرخوها - والكلام ما زال للشيخ المؤلف - سرد الوقائع التاريخية من أينما حصلت، وإنما قصدوا فيها إلزام الخصوم بالحجج التيرة، فهل يمكنهم إذن أن يسترسلوا بإيراد ما توسع بنقله القالة من دون تثبت؟ لا، ولكن شريعة الحج والدين تلزمهم بإثبات الشائع الذائع المتلقى عند الفريقين بالقبول المشهور نقله، الثابت إسناده بحيث لا يدع للمتعتن وليجة إلى إنكاره، وإلا لعاد ما يذكره ثلماً في بيانه، وقتاً في عضد برهانه، فمن الواجب إذن أن يكون هذا الجواب مما يخضع له الخصم ولا يتقاعس عن الإجابات به الأولياء لمكان شهرة النقل له.

١-١ انظر إحقاق الحق.

٢-٢ الفصول المهمة: ٣٠ وأيضاً نزهة المجالس ٢: ٢٠٤.

ص: ١٨٥

روايات الولادة المباركة

وهنا راح الشيخ المؤلف يذكر بعض روايات الباب، نذكر بعضها ونكتفى بمصادر الأخرى.

روى الوزير السعيد الإربلي في (كشف الغمّة) عن كتاب (بشارة المصطفى) مرفوعاً إلى يزيد بن قَعْب، قال:

كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب -رضى الله عنه- وفريق من بني عبد العزى بإزاء بيت الله الحرام، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت حاملاً به لتسعة أشهر، وقد أخذها الطلق فقالت: يارب، إنني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإنني مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل، وأنه بنى البيت العتيق، فبحقّ الذي بنى هذا البيت، وبحقّ المولود الذي فى بطنى إلاما يسّرت عليّ ولادتي.

قال يزيد بن قَعْب: فرأيت البيت قد انشقّ عن ظهره، ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا، وعاد إلى حاله، والتزق الحائط، فرمنا أن يفتح لنا قفل الباب فلم يفتح، فعلمنا أنّ ذلك من أمر الله عزّ وجلّ، ثم خرجت فى اليوم الرابع وعلى يدها أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب عليه السلام... (١).

ورواه ابن الفتيال في (روضه الواعظين) وفي (كشف اليقين) للعلامة الحلّي، و (كشف الحقّ) عن (بشارة المصطفى) وفي (الإرشاد) لأبى محمّد الحسن الديلمي عن البشارة أيضاً مثله (٢). وروى مختصراً منه محمّد صالح الترمذى فى مناقبه (٣).

ورواه مع بعض التغيير الشيخ الصدوق (ت ٣٨١) فى (الأمالي) و (علل الشرائع) و (معانى الأخبار) (٤).

ورواه الشيخ الطوسى فى (أمالیه) عن أبى الحسن محمد بن أحمد بن الحسن ابن شاذان، عن أحمد بن محمد بن أيوب، عن عمر بن الحسن القاضى، عن عبد الله ابن محمد، عن أبى حبيبه، عن سفيان بن عيينه، عن الزهرى، عن عائشه؛

١- ١ كشف الغمّة ١: ٦٠، بشارة المصطفى: ٧.

٢- ٢ إرشاد القلوب: ٢١١.

٣- ٣ مناقب مرتضوى: ٨٧ ط بمباى ١٣٢١ هـ.

٤- ٤ الأمالي ١: ١١٤، ٩، علل الشرائع ١: ١٣٥، ٣، معانى الأخبار ٦٢: ١٠.

ص: ١٨٦

وعن محمّد بن أحمد بن شاذان، عن سهل بن أحمد، عن أحمد بن عمر الربيعي، عن زكريا بن يحيى، عن أبي داود، عن شُعْبَةَ، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن العباس بن عبد المطلب؛

قال الشيخ: وحدّثنى إبراهيم بن عليّ، بإسناده عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: كان العباس بن عبد المطلب ويزيد بن قَعْنَب جالسين ما بين فريق بني هاشم إلى فريق عبد العزى بإزاء بيت الله الحرام، إذ أتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت حامله بأمر المؤمنين عليه السلام لتسعة أشهر، وكان يوم التمام. قال: فوقفت بإزاء البيت الحرام وقد أخذها الطلق، فرمت بطرفها نحو السماء... رأينا البيت قد انفتح من ظهره، ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا. وبقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيام.

قال: وأهل مكة يتحدّثون بذلك في أفواه السكك، وتحدّث المخدّرات في خدورهنّ.

قال: فلمّا كان بعد ثلاثة أيام انفتح البيت من الموضع الذي كانت دخلت فيه، فخرجت فاطمة وعليّ على يديها... وفي (المناقب) لابن شهر آشوب روايتان:

رواية شُعْبَةَ، عن قتادة، عن أنس، عن العباس بن عبد المطلب؛ وفي رواية الحسن بن محبوب، عن الصادق عليه السلام، والحديث مختصر، أنّه انفتح البيت من ظهره، ودخلت فاطمة فيه، ثمّ عادت الفتحة والتصقت، وبقيت فيه ثلاثة أيام...

عن يزيد بن قَعْنَب؛ وجابر الأنصاري: وهو المعروف بحديث الراهب المثرم بن دعيب.

فلمّا قربت ولادته أتت فاطمة إلى بيت الله وقالت: ربّ إنّي مؤمنة بك...

ص: ١٨٧

فانفتح البيت ودخلت فيه فإذا هي بحواء، ومريم، وآسية، وأم موسى وغيرهن، فصنعن مثل ما صنعن برسول الله صلى الله عليه وآله وقت ولادته.

وحديث الراهب رواه ابن الفثال في (روضه الواعظين) على وجه هو أبسط من هاتين الروايتين المفصلتين (١) كما ذكره غيره (٢).

وفي هذه المصادر وفي غيرها روايات مفصلة أيضاً حول الولادة المباركة (٣).

وقد نظم مضامينها صاحب الوسائل الحرّ العاملي (ت ١١٠٤) أرجوزةً نذكر بيتين منها:

مولده بمكة قد عرفا في داخل الكعبة زيدت شرفا

على رخامة هناك حمرا معروفة زادت بذاك قدرا (٤)

والمشهور بين الخاصة والعامة أنه ولد بين العمودين على البلاطة الحمراء.

وذكر العالم الشكوي (ت ١٣٣٠) في كتابه (مصباح الحرمين) في وداع الكعبة اموراً، منها «الصلة بين الاسطوانتين على الرخامة

الحمراء، وهي على رواية بعض العلماء محل ولادة أمير المؤمنين عليه السلام كما مرّ في فصل المستجار...» (٥).

وقال الشيخ أحمد بن الحسن الحرّ في (الدرّ السلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك) في الفصل الرابع، في ذكر أمير

المؤمنين على عليه السلام... ولادته في الكعبة في البيت على الحجر.

إذن فحديث ولادته عليه السلام أمر مشهور وروايته متواترة عند الفريقين.

نبأ الولادة والمحدثون

حتى يصل سماحة الشيخ إلى المراد من المحدثين راح يميز بين المحدثين الذين يصفهم بأنهم سذج، لم يجيدوا إلّا نقل الأساطير أو

قول بسيط مثل حدثني فلان فيحشد أساطير وأقوالاً بعيداً عن التفقه في مغزى الحديث والتبصر في مؤداه...

١-١ روضة الواعظين: ٧٧-٨١.

٢-٢ الفضائل لشاذان بن جيرئيل: ٥٤، جامع الأخبار: ١٥.

٣-٣ علل الشرائع: ٣: ١٣٥. معاني الأخبار: ١٠: ٦٢، أمالي الصدوق: ٩: ١١٤. أمالي الطوسي: ٢: ٣١٧، مناقب ابن شهر آشوب: ٢: ١٧٢،

روضه الواعظين: ٧٧.

٤-٤ منظومة في تواريخ المعصومين عليهم السلام، مخطوطة.

٥-٥ مصباح الحرمين: ١٩٤.

ص: ١٨٨

يتميز بين هذا النوع من الذين يطلق عليهم أنهم المحدثون وبين نوع آخر أولئك هم أئمة الحديث ومهرة فنه النياقد، الذين - كما يعبر الشيخ عنهم - لا يروقهم رمى القول على عواهنه، فلا يؤمنون بالمنقول إلا بعد التفريح من أمر إسناده والتثبت فيه والتروى في متنه، حذار مخالفته لمعقول أو مصادمته لشيء من الأصول، وبالتالي فإن هذا المحدث هو الحبر الناقد الضليع في العلم الذي ضرب فراغاً في أوقاته للتبصر في هذا الفن، والإحاطة به من أطرافه.. فهو محدث وهو فقيه وهو مفسر حين يتحرى مغازى آى الكتاب الكريم واكتشاف مخبأتها وهو فنى إذا عطف النظر على أى من العلوم. وهذا هو المحدث الذى يقصده سماحته ويريده وذكر لهذا مصاديق كالسيد المرتضى والسيد الرضى والشيخ الطوسى وقبلهم الصدوق وبعدهم ابن شهر آشوب وابن الفثال والعلامة الحلّى وابن بطريق... ومن أهل السنّة كالحاكم وغيره..

وقفه قصيره مع ابن أبى الحديد

يقول ابن أبى الحديد فى شرح النهج: واختلف فى مولد على عليه السلام أين كان؟

فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد فى الكعبه، والمحدثون لا يعترفون بذلك، ويزعمون أن المولود فى الكعبه حكيم بن حزام... (١). كيف يصح هذا والحاكم النيسابورى من أئمة الحديث يقول:... وقد تواترت الأخبار أن فاطمه بنت أسد ولدت أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فى جوف الكعبه، وما قاله المحدث الدهلوى بتواتره وقول الأوسى: إنه أمر مشهور فى الدنيا وغيرهم من المحدثين كما أسلفنا وكما هو آتٍ! اللهم إلا أن يقصد ابن أبى الحديد بالمحدثين أولئك الذين وصفهم الشيخ بالسذج... لا مهرة الحديث وأئمته.

وهذا العلامة المحدث أبو الفتح الكراچكى قال فى (كنز الفوائد) بعد أن ذكر أحاديث فى مقدمه الولادة من خبر الكاهن ورؤيا فاطمه بنت أسد وتعبير الكاهن

ص: ١٨٩

لها ما لفظه: وفي الحديث أنّها- يعني فاطمة بنت أسد- دخلت الكعبة على ما جرت به عاداتها، فصادف دخولها وقت ولادتها فولدت أمير المؤمنين عليه السلام داخلها» (١).

وممن يذكر خبر الولادة المباركة كل من الشيخ أبو الفوارس في كتاب (الأربعين) والرواية التي يذكرها بسندها الطويل المضطرب إلى ميثم التمار وفيها عدّة مناقب للإمام منها الولادة في الحرم (٢).

والفقيه ابن المغازلي المالكي في مناقبه الذي يذكر حديث الولادة مرفوعاً إلى علي بن الحسين عليهما السلام. وأبو عبد الله الشافعي الكنجي الحافظ (ت ٦٥٨) في كفاية الطالب الذي ذكر رواية الولادة لعلي عليه السلام بسندها عن جابر بن عبد الله... (٣) حديث الولادة والنسابةون

نظراً للأهمية الكبيرة التي يمتاز بها النسابةون في معرفة فئهم «النسب وأخباره» نرى شيخنا قد أفرد لهم باباً خاصاً في هذه المسألة مبيّناً مدى أهمية خبرتهم ووظيفتهم في هذا الموضوع، متعرّضاً لبعض أقوالهم في خصوص ولادة الإمام علي عليه السلام. فنصوصهم فيها من الحجج القويمة على إثباتها، ولهم قضاء فصل فيها وحكم عدل.

ومن هؤلاء النسابة:

العمري في (المجدي): وولدت- يعني فاطمة بنت أسد- علياً عليه السلام في الكعبة، وما ولد قبله أحد فيها (٤). جمال الدين الداودي الحسني (ت ٨٢٨) في (عمدة الطالب): ذكر أنّ الولادة كانت في الكعبة... ونفى أن يكون أحد ولد في البيت سواه قبله وبعده، إكراماً له من الله عزّ وجلّ (٥).

العلامة السيد محمد الحسيني النجفي في (المشجر الكشاف لأصول السادة الأشراف)، ولد علي بمكة ثم قال: «ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله

١- ١ كنز الفوائد ١: ٢٥٥.

٢- ٢ الأربعون حديثاً، مخطوط، نوادر المعجزات: ١٠، اليقين: ٧٣، فضائل ابن شاذان: ٢.

٣- ٣ كفاية الطالب: ٤٠٥.

٤- ٤ المجدي: ١١.

٥- ٥ عمدة الطالب: ٥٨.

ص: ١٩٠

الحرام سواه».

ومثلهم النسابة أبو عبدالله الراضى صاحب (مناهل الضرب فى أنساب العرب). وهناك ارجوزة للنسابة أبى صالح النباطى النجفى (ت ١١٨٣):

مولده الجمعة يوم السابع فى شهر شعبان بيت الصانع

حديث الولادة والمؤرخون

إن السابر زُبر التاريخ وحوادثه يجد هذا الحديث- والكلام للشيخ- من أثبت ما تعرّض له مؤلفوها، وقد أثبتوه محبتين به، مدعين بحقيقته، ومنهم من نصّ بصحّته عندهم جميعاً.

وقد اختار الشيخ من هؤلاء المؤرخين جمعاً وصفهم بالبراعة فى فنهم وقدرتهم على الوقوف على المختلف فيه والمتفق عليه. وإن تعرّضت بحوث هذا الكتاب لمثل أقوال هؤلاء المؤرخين أو بما يربو عليها أو يقاربها، ومع هذا نقرأ لبعضهم:

المؤرخ محمد خاوندشاه فى (روضه الصفاء)، قال: «كانت ولادته عليه السلام فى روايه يوم الجمعة فى الثالث عشر من رجب سنه ثلاثين من عام الفيل... وكان ميلاده عليه السلام فى جوف الكعبة، فإنّ امه كانت تطوف بالبيت، أو أنّ المشيئة الإلهية أجازتها إلى فائه، وكانت فى أوّل الطلق، فكانت ولادته فيها، ولم تتح هذه السعادة لأى أحد منذ بدء الخليقة إلى الغاية. وإن لصحّته هذا الخبر بين المؤرخين المتحفّظين على الفضائل صيتاً لا تشوبه شبهة، وتجاوز عن أن يصحبه الشك والترديد» (١).

والرجل مع ذلك- كما يقول الشيخ- يوافق من تقدّمه على أنّها ممّا اختصّ بها أمير المؤمنين عليه السلام ولا يشاركه فيها أى أحد.

ولا ريب فى ذلك غير أن أعداء آل البيت النبوى افتعلوا حديث حكيم بن

ص: ١٩١

حِزَامٌ قَتِيًّا فِي عَضُدِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ، لَكِنَّ الْمُنْقَبِينَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لَمْ يَأْبَهُوا بِهِ، وَبِذَلِكَ تَعْرِفُ قِيَمَهُ مَا هَمَلَجَ بِهِ الْقَاضِي رُوزْبَهَانَ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ مَشْهُورٌ بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَلَمْ يَصَحِّحْهُ عُلَمَاءُ التَّارِيخِ، بَلْ عِنْدَ أَهْلِ التَّوَارِيخِ أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ وَوَلَدَهُ فِي الْكَعْبَةِ وَلَمْ يُولَدْ فِيهِ غَيْرُهُ... إِلَى آخِرِهِ.

وَسَتَجِدُ نِصُوصَ التَّارِيخِ بِذَلِكَ، وَعَرَفْتَ رَدَّ الْحَاكِمِ النَّيْسَابُورِيِّ عَلَى مَنْ حَصَرَ وِلَادَةَ الْبَيْتِ بِحَكِيمٍ، وَذَكَرَ تَوَاتُرَ النُّقْلِ بِوِلَادَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ.

وَمَرَّ أَيْضًا رِوَايَةُ أُسَاطِينِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلِذَلِكَ مَا يَتْلُوهُ:

الْمَسْعُودِيُّ وَهُوَ الْحِجَّةُ عِنْدَ الْفَرِيقَيْنِ يَقُولُ فِي (مَرْجُوحِ الذَّهَبِ) عِنْدَ ذِكْرِ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَثْبُتًا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، جَازِمًا بِهَا مِنْ غَيْرِ تَرْدِيدٍ، قَالَ: «وَكَانَ مَوْلِدُهُ فِي الْكَعْبَةِ» (١).

وَقَدْ احْتَجَّ بِكِتَابِهِ هَذَا الْمَوَافِقُ وَالْمُخَالَفُ وَهُوَ مِنَ الْمَصَادِرِ الْمُوثِقَةِ وَقَدْ رَاعَى فِيهِ - وَالْقَوْلُ لِلْمُؤَلِّفِ - جَانِبَ التَّقْيَّةِ بِمَا يَسَعُهُ، بِتَأْلِيفِهِ عَلَى نَسْقِ كِتَابِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَمَا يَرْتَضُونَهُ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ، حَتَّى حَسِبَهُ بَعْضُ مَنْ لَمْ يَرَ مِنْ كِتَابِهِ غَيْرَهُ أَنَّهُ مِنْهُمْ.

فَهَلْ مِنَ السَّائِغِ إِذْنُ أَنْ يَذَكَرَ فِي كِتَابِ هَذَا شَأْنَهُ غَيْرَ الثَّابِتِ الْمَتَسَالِمِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْأُمَّةِ جَمْعَاءَ، لَا سَيِّمًا فِي مِثْلِ الْمَقَامِ الَّذِي يَكْثُرُ فِيهِ بِطَبْعِ الْحَالِ وَرَوَّطَاتِ الْقَالَةِ؟

وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ الْآخِرِ (الْوَصِيَّةُ):

«وَرَوَى أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ أَسَدٍ كَانَتْ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ وَهِيَ فِي الطَّوَافِ، فَلَمَّا اشْتَدَّ بِهَا دَخَلَتْ الْكَعْبَةَ، فَوَلَدَتْهُ فِي جُوفِ الْبَيْتِ... وَمَا وُلِدَ فِي الْكَعْبَةِ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ غَيْرُهُ» (٢).

وَإِثْبَاتِ الْوَصِيَّةِ) مِنْ أَنْفَسِ كِتَابِ الْإِمَامِيَّةِ، وَلَيْسَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَحْتَجَّ وَيَتَّبِحَّ فِيهِ بِمَا لَا يَقَرُّ بِهِ الْخَصْمُ، وَلَا تَدْعُنَ بِهِ أُمَّتَهُ، ثُمَّ يَقُولُ بِكُلِّ صِرَاحَةٍ: «وَمَا وُلِدَ...» وَبِمَشْهَدٍ مِنْهُ وَمَسْمُوعٍ مَا تَحْدَلِقُوا بِهِ مِنْ أَمْرِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، غَيْرَ أَنَّ الْمَوْرُخَ لَا يُقِيمُ لَهُ وَزْنَ.

١-١ مَرْجُوحِ الذَّهَبِ ٢: ٣٤٩.

٢-٢ إِثْبَاتِ الْوَصِيَّةِ: ١١١.

ص: ١٩٢

وذكر حمد الله المستوفى (ت ٧٥٠هـ) في (تاريخ كزیده): «أن مولده عليه السلام كان سنة ثلاثين من عام الفيل، وكان في الكعبة حيث كانت أمه في الطواف فبان عليها أثر الطلق، فأشارت إلى البيت ووضعت في جوفه» (١).

محمد بن طلحة الشافعي في (مطالب السؤل) وقيل: ولد في الكعبة، البيت الحرام» (٢).

ولا نكترث ياسناد ولادة البيت إلى القيل، بعد قول الحاكم بتواترها، وقول الآلوسی باشتهارها في الدنيا.

المؤرخ نشانجی في (مرآة الكائنات): «أنه عليه السلام ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثون سنة، كانت أمه فاطمة زائرة البيت فولدته فيه لحكمة لله سبحانه فيه، ولم يرزق هذا غيره وغير حكيم بن حزام» (٣). حيث عدّ ولادته عليه السلام من حكم الله سبحانه.

عبد الحميد خان الدهلوی في (سير الخلفاء) نقل عن غير واحد من المؤرخين، أنه «ولد في مكّة المكرّمة... ولم يتولّد أحد قبله في حصار البيت»... (٤).

المؤرخ والمحدّث القمی في (تاريخ قم) سنة ٣٧٨: «إن ولادة أمير المؤمنين في الكعبة...» (٥).

وقال السيد عليّ الحسيني المؤرخ المصري في كتابه (الحسين عليه السلام): «أنه [الإمام علي عليه السلام] ولد بمكّة في البيت الحرام، يوم الجمعة الثالث عشر من رجب، سنة ثلاثين من عام الفيل...» (٦).

أحمد الغفاري القزويني من مؤرّخي القرن العاشر ذكر في (تاريخ نكارستان) أنه عليه السلام ولد في جوف الكعبة (٧).

المؤرخ الشروانيّ أنه عليه السلام ولد في جوف الكعبة وأنّ غيره لم يولد هناك (٨).

الكاشفي ذكر حديث بن قعب في (روضه الشهداء) عن (بشارة المصطفى).

١-١ تاريخ كزیده فارسی: ١٩٢ مترجمًا وملخصًا.

٢-٢ مطالب السؤل: ١١.

٣-٣ مرآة الكائنات ١: ٣٨٣.

٤-٤ سير الخلفاء: ٢٠٨ مترجمًا من الهنديّة وملخصًا.

٥-٥ تاريخ قم: ١٩١.

٦-٦ كتاب الحسين عليه السلام ١: ١٦.

٧-٧ تاريخ نكارستان: ١٠، وانظر بشأنه كشف الظنون ٢: ١٩٧٦، الذريعة ٢٤: ٣٠٨.

٨-٨ روضه الصفا الجزء العاشر مترجمًا من الفارسيّة وملخصًا كتاب خاماسب: ٥١.

ص: ١٩٣

الإمام البناكتي أنه «لم يولد أحد قبله ولا بعده في البيت» (١).

عبد المسيح الأنطاكي صاحب مجلة (العمران) المصريه، ونحن نقبس طاقة من خمسة آلاف بيت نظمها في حياة أمير المؤمنين عليه السلام:

في رحبة الكعبة الزهرا قد انبثقت أنوار طفل وضاءت في مغانيها
واستبشر الناس في زاهي ولادته قالوا: السُّعود له لا بدَّ لاقبها
قالوا: ابن مَنْ؟ فأجيبوا أنه ولد من نسل هاشم من أسمى ذراريها
هتوا أبا طالب الجواد والده والأم فاطمة هتوا نهنّيا
إن الرضيع الذي شام (٢) الضياء ببي - ت الله عزته لا عزّ يحكيها
أما الوليد فلاقى الأرض مبتسماً فما رغا رهباً ما كان خاشيها
وعام مولده العام الذي بدأت بشائر الوحي تأتي من أعاليها
فيه الحجارة والأشجار قد هتفت للمصطفى وهو رائبها وصاغيها
وإذ درى المصطفى فيه ولادة مولانا العلي غدا بالبشر يطريها
وبات مستبشراً بالطفل قال به لنا من النعم الزهراء ضايفها
ثم راح الأنطاكي يقول:

«كانت ولادة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين في العام الثلاثين لولادة المصطفى - عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام - على ما حقق المحققون، فتكون ولادته الشريفة حول سنة سته مائة وواحد مسيحية، ومن بشائر سعدة - عليه صلوات الله - أنه ولد في الكعبة كرمها الله، ولدته أمه فيها فاستبشر بذلك أبوه وعمومه.

وعند ولادته الشريفة - والكلام ما زال للناظم الأنطاكي - دعت أمه:

حيدر، ومعنى هذه الكلمة: الأسد، فكأنها أرادت أن تسميه باسم أبيها، فلما وقع نظر أبيه أبي طالب عليه توسم بملامحه الغلاء، ودعاه علياً. وقد صدقت الأيام

١- ١ روضة الشهداء: ١٤٦.

٢- ٢ شام: تطلع، انظر «لسان العرب - شيم - ١٢: ٣٢٩».

ص: ١٩٤

فراسته، فكان عليه صلوات الله علياً في الدنيا والآخرة.

وعام مولد سيدنا أمير المؤمنين - عليه صلوات الله - هو العام المبارك الذي بُدئ فيه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ يسمع الهتاف من الأحجار والأشجار ومن السماء، وكشف عن بصره فشهد أنواراً وأشخاصاً. وفي هذا العام ابتداءً بالتبتل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمن بذلك العام وبولادة سيدنا علي - عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام - وكان يسميه: سنة الخير، وسنة البركة.

وقال المصطفى صلى الله عليه وآله لأهله عندما بلغت بشرى ولادة المرتضى: «لقد ولد لنا الليلة مولود، يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة». وكان قوله هذا أول نبوءته، فإن المرتضى - عليه صلوات الله - كان ناصره، والهامي عنه، وكاشف الغم عن وجهه، وبسيفه ثبت الإسلام، ورسخت دعائمه وتمهدت قواعده» (١).

وقد ضمن قصيدته كل ذلك وغيره من حياة الإمام عليه السلام.

العلامة السيد محمد الطباطبائي في الرسالة الموضوعه لتأريخ مواليده أئمة الدين عليهم السلام ووفياتهم: أنه عليه السلام «ولد بمكة في جوف الكعبة، ولم يولد قبله ولا بعده أحد فيه سواه، إكراماً له من الله جل اسمه بذلك...».

السيد أبو جعفر الحسيني في شرح قصيدة أبي فراس الحمداني، تعيين يوم ولادته بالجمعة... ومحلها بالكعبة (٢).

قال الكفعمي في (المصباح): «... ولد علي بن أبي طالب عليه السلام في الكعبة...» (٣).

شيخ الإسلام الزنوزي في (بحر العلوم): «أن محل ولادته عليه السلام الكعبة».

النخجواني في (تجارب السلف في تواريخ الخلفاء ووزرائهم)، فرغ منه سنة ٧٢٤: «أن علياً عليه السلام ولد في الكعبة... وسماه النبي صلى الله عليه وآله علياً، وكناه بأبي تراب» (٤).

قال الحلبي في سيرته (إنسان العيون): «إنه عليه السلام ولد في الكعبة...».

١-١ القصيدة العلوية: ٦١، وهذه القصيدة تشتمل على ٥٥٩٥ بيتاً، انظر الذريعة ١٧: ١٢٠، والأعلام للزركلي ٤: ٢٩٧.

٢-٢ شرح الشافية: ١٥.

٣-٣ مصباح الكفعمي: ٥١٢.

٤-٤ تجارب السلف: ٣٧، ط طهران سنة ١٣١٣ هـ. ش، مترجماً من الفارسية.

ص: ١٩٥

ثم قال: «وقيل: الذي ولد في الكعبة حكيم بن حزام، قال بعضهم: لا مانع من ولادة كليهما في الكعبة، لكن في (النور) حكيم بن حزام ولد في الكعبة، ولا يعرف ذلك لغيره، وأمّا ما روى أنّ عليّاً عليه السلام ولد فيها، فضعيف عند العلماء» (١).
وأنت تجد من سياق العبارة- وهذا القول للشيخ- أنّ المعتمد عند الرجل هو ولادة الإمام عليه السلام في الكعبة، ولذلك ذكرها أولاً مُرسِّلاً إياها إرسال المسلم، ثم عزا ولادة حكيم بن حزام فيها إلى القيل إيعازاً إلى وهنه، ولذلك أردفه بجواب البعض عنه، لكنّه وجد لصاحب (النور) كلمة لم يرقه الإغضاء عنها بما هو مؤرّخ، أخذ على عاتقه إثبات المقول في كلّ باب، وإذ لم يجد جواباً عنها لغيره لم يشفعها به، واكتفى هو بما ذكرناه من اعتماده على حديث الولادة عن أن يردّ كلمة الرجل، لأنّه مؤرّخ لا مُتَقَب. ووقفه مع صاحب كتاب النور:

ويكفينا تفيدياً لقول صاحب النور نصوص علماء أهل السنّة في ذلك، ورواياتهم، كنصّ الحاكم والمحدث الدهلوي بتواتر حديثه، وقول الآلوسي: «إنّه أمر مشهور في الدنيا».

ثمّ واصل شيخنا كلامه: وأيّ عالم يردّ المتواتر، أو يعدوه أمر مشهور ثبوته في الدنيا فيضعفه حتّى يقول الرجل بملء فيه: «إنّه ضعيف عند العلماء»؟! وإن تعجب فعجب إثباته ولادة حكيم التي لم يستقم إسنادها، ولا اعترف بها مخالفوه وأمّم من موافقيه، وعلى فرض وقوعها فقد ذكرنا في غير مورد من هذه الرسالة وذكر الصفوري الشافعي: «أنّها من الصدق التي لا تُثبت فضيلة ولا تخرق عادة». ثمّ تضعيفه ولادة أمير المؤمنين التي أخطب بها أئمّة الحديث، وأثبتها نقله التاريخ، وطفحت بها كتب الأنساب، ونظمتها الشعراء، وقال بها العلماء، وفيهم من ينفي أن يكون لغيره- صلوات الله عليه- مولد في البيت، وهو ما ورد عن الحاكم: «ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه». وما عن البدخشي

ص: ١٩٦

قوله: «ولم يولد في البيت أحد سواه، قبله ولا بعده، وهي فضيلة خصه الله بها».

وقد مرّ ما عن أبي داود البناكتي. وكلمة ابن الصباغ المالكي السابقة: «ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه، وهي فضيلة خصه الله تعالى بها إجلالاً له، وإعلاءً لمرتبته، وإظهاراً لتكريمته». وقول الدهلوي في (سير الخلفاء): أنه «لم يتولد أحد قبله في حصار البيت». والآلوسي في أوليات هذه الرسالة: «ولم يشتهر وضع غيره كرم الله وجهه، كما اشتهر وضعه» يوعز إلى وهن حديث حكيم، وانحياز الشهرة عنه. وقول الدهلوي في (ازالة الخفاء): «ولم يولد فيها أحد سواه قبله ولا بعده».

هذه كلمات بعض مهرة الفن وأئمة النقل، وهنا يقول الشيخ: فلو كان يُقام لولادة حكيم في البيت وزن عند هؤلاء لما أطلقوا القول بملء الأفواه أن تلك خاصية لأمر المؤمنين عليه السلام لا يشاركه فيها أحد، مع وقوفهم على أمر حكيم، وفيهم من أورد خبر ولادة حكيم في كتابه لكنه غير آبه به.

وقفه مع الدياربكري:

ويقرب من هذه الهملجة ما جاء به الدياربكري في (تاريخ الخميس) قال:

«ولد بمكة بعد عام الفيل بسبع سنين، ويقال: كانت ولادته في داخل الكعبة ولم يثبت» (١) ولم يترك الشيخ المؤلف هذا الزعم دون جواب فيقول:

وليت شعري بماذا تثبت الحقائق التاريخية؟ أبالوحي، أم بأخبار الأنبياء، وهتاف الكتب السماوية، أم أن المرجع فيها الرجل والرجلان من القلّة والرواة؟

وهل التزم الدياربكري في كتابه بأكثر من هذا؟ فما بال هذه الحقيقة التي هتفت بها المئات والألوف، وأثبتتها طبقات الناس جيلاً بعد جيل لم تثبت عنده، وثبتت لديه هفوات التاريخ، التي لو أحصيتها لخرجت عن وضع الرسالة؟ ثم ما بال الدياربكري يعتمد على (شواهد النبوة) كلما نقل عنه، ولا يرتضيه في خصوص المقام؟

ص: ١٩٧

ثم ما باله يغض الطرف عن غلظه الشائن من أنّ ولادته عليه السلام كانت بعد عام الفيل بسبع سنين، لكنّه يردّ حديث ولادة البيت بعدم الثبوت؟

أنا أدري لماذا، وأنت تدري، وقبلنا الديار بكرى يدري.

حديث الولاة والشعراء

وللشعر والشعراء قصب السبق في إثبات هذه الفضيلة للإمام عليه السلام وقد بلغت من الشهرة حتى لم تدع مجالاً لإنكارها أو التشكيك فيها.. وهنا يبدأ المؤلف هذا الفصل وقبل أن يذكر القصيدة وقائلها، بمقدمة جميلة جداً لا يسعنا تجاوزها أو اختصارها فهو يقول:

عرفت أن الحديث بلغ من الشهرة والثبوت بحيث لا يسع أيُّ مُعْتِنٍ إنكاره؛ ولذلك احتجّ به فريق كبير من المحقّقين في كتب الإمامة، وأرسله إرسال المسلمات جموع من نياقد فن الحديث في باب الفضائل، وتبجّح به زرافات من حملة العلم ونقّاده في مؤلّفاتهم، وهنالكَ لفيف لا يُستهان بعدّتهم، ولا يُعْمَز في شيء من تثبتهم وضبطهم من صيارفة القول، وصاغه القريض، وزبناء الشعر، بين عالم ضليع، وأديب بارع، وشاعر مبدع، تصدّوا لإثبات هذه الفضيلة فيما أفرغوه في بوتقة النظم، أو حاكوه على نول الحقيقة، فسار ذكرها مع الركبان وانتشر نشرها مع مهب الريح، كما مرّ عن الحميري والسرخسي والشفهيني والحرّ العاملي والأفتوني وغيرهم. ثم أخذ يذكر آخرين إتماماً لما ذكره سابقاً، أنظر الكتاب نفسه.

حديث الولاة مجمع عليه

بهذا العنوان صدر الباحث الفصل الأخير من كتابه القيم هذا، بعد أن أثبت في فصوله السابقة حديث الولاة عند الفريقين وأنه حديث مشهور عندهم حيث أعاد قول الآلوسي «إنّه أمر مشهور في الدنيا»، وأنه «في المناقب المتسالم عليها التي لا يفتقر ناقلها إلى كتاب» كما ذكر ذلك السيّد حيدر الآملي، وأنّ روايته مسندة عند الفريقين مصفّقين على نقله وهو ما عرفناه عن ابن اللوحى. وأنّ العلامة النورى

ص: ١٩٨

ترقى أكثر مصرحاً بأن تلك الفضيلة لا يبعد كونها من ضروريات مذهب الإمامية، وأنها جاءت في أخبار غير محصورة وفي كلمات العلماء وفي ضمن الخطب والأشعار في جميع الأعصار، وهو إجماع الشيعة عليه كما نقل ذلك صاحب «مدينة المعاجز» عمّا ذكره ابن شهر آشوب في مناقبه، وفي مناقب المعصومين أنه إجماع أهل البيت عليهم السلام ثم ذكر أقوال بعض علماء الشيعة حيث أرسلوا ولادته عليه السلام في الكعبة إرسال المسلمات نافين عنه أي شبهة وارتجاف، ومنهم العلامة قطب الدين اللاهجي في كتابه (محبوب القلوب) فبعد أن نصّ على أنّ ولادته عليه السلام تمت داخل الكعبة يوم الجمعة في الثالث عشر من رجب قبل الهجرة بثلاثة وعشرين عاماً قال: «ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه» مبيّناً أنّها «فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له وإعلاءً لمرتبه وإظهاراً لكرامته». ويقرب من هذا أقوال كل من السيد عباس الموسوي المكي في رحلته (نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس) والسيد نعمه الله الموسوي الجزائري (ت ١١١٢) في (الأنوار النعمانية)، ونظام الدين الساوجي في تكملة الجامع العباسي لبهاء الدين العاملي ناصراً أنّ «ولادته في جوف الكعبة».

وفي مزار «أبواب الجنان وبشائر الرضوان» أرسله إرسال المسلم الشيخ خضر العفكاوي النجفي (ت ١٢٥٥). ومن ذلك ما ذهب إليه العلامة الشريف الشيرواني في كتابه «الشهاب الثاقب» قائلاً: «إنّه ولد في مكة بيت الله الحرام» معقّباً ذلك بقوله: «ولم يولد فيه قطّ سواه لا قبله ولا بعده» مخالفاً بذلك غيره من أنّ ولادته يوم ١٣ رجب ناسباً ولادته يوم الجمعة إلى القيل. وفي «تقويم المحسنين» أثبت الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١) في حوادث رجب: ولد علي بن أبي طالب عليه السلام في الكعبة قبل النبوة باثنتي عشرة سنة وللنبي صلى الله عليه وآله يومئذ ثمان وعشرون سنة. وقد ماثله في ذلك الشيخ أبو محمد الديلمي

ص: ١٩٩

في (إرشاده) ذاكراً أنّها من فضائله عليه السلام الجمّة المخصوصة به.

وقد ماثلهم في ذلك أيضاً صاحب (منهاج البراعة) في شرح نهج البلاغة السيد حبيب الله الموسوي الخوئي بقوله «وقد خصّه الله بهذه الفضيلة على سائر الأنام، ولم يولد في البيت أحد قبله ولا بعده...».

ونهج منهجهم أيضاً العلامة السيد حيدر الكاظمي (ت ١٢٦٥) في كتابه (عمدة الزائر).. ناقلاً رواية ذكرها الشيخ في الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام:

كانت ولادته يوم الأحد لسبع خلون من شعبان، وكان بين مولده ومولد رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثون سنة، ولم يولد قبله ولا بعده في بيت الله الحرام سواه إكراماً له وتعظيماً له من الله تعالى بذلك وإجلالاً لمحلّه».

ويقول السيد مهدي القزويني (ت ١٣٠٠) في (فلك النجاة): ولد يوم الجمعة ثالث عشر رجب، وروى سابع شعبان، والأول أشهر بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاثين سنة، في الكعبة البيت الحرام،...».

وأما السيد محسن الأعرجي فقد نسب ولادته في شعبان إلى القيل ذاكراً حديث يزيد بن قعنب الذي ذكره الصدوق.

وهنا يقول شيخنا عن السيد الأعرجي: «وهذا العالم البخّاءة النيقد وجد خلافاً في شهر الولادة فأوعز إليه، لكنّه لم يجد في حديث البيت أي ترديد، فلم ينبس عنه بنت شفة، ولو كان مثله يجد شيئاً لما آثر تركه؛ وهو ذلك الصريح الشديد في البحث.

وهكذا كلّ من الشيخين عبد النبي الجزائري في (حاوي الأقوال) والشيخ أبو علي الرجالي في (منتهى المقال) وهما من أعلام الدين وقد أختبا بها ولصحتها.

وفي الحدائق النديّة في شرح الفوائد الصمديّة للسيد علي خان المدني الشيرازي (ت ١٢١٠)، قد أذعن بحقيقته وحقيّة ما نقله عن (الفصول المهمّة) لنور الدين علي الصباغ المكي المالكي (ت ٨٥٥) «ولد علي عليه السلام بمكة المشرفة بداخل

ص: ٢٠٠

البيت الحرام... ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه وهي فضيلة خصَّه الله تعالى بها إجلالاً له وإعلاءً لمرتبة وإظهاراً لتكريمته». وفي عقائد الشيعة لعلّ أصغر البروجردى الذى ذكر فيه بأن مولده عليه السلام فى وسط البيت ضحى الجمعة بعد ثلاثين عاماً من ولادة النبى الأعظم.

بعد هذا كلّه يعلن المؤلف عن اكتفائه بهذه النماذج قائلاً: ولعلّها جمعاء كقطر من بحر بالنسبة إلى ما يجده السابر لكتب علمائنا. علماء أهل السنّة:

ثمّ راح يعلن إصفاق علماء أهل السنّة ومحدّثيهم وعرفائهم معنا فى إثبات هذه المأثرة الفاضلة، وعدّ هذا من أجلى الحقائق وأثبتها. فكلام الحاكم فى مستدركه وحكمه بتواتر النقل به، وما نقله الحافظ الكنجى الشافعى عنه ذلك وما حكم بتواتره المحدّث الدهلوى وقد وافقهم الآلوسى بما نصّه ب «أنّ ذلك مشهور فى الدنيا» ومثله ما ورد عن الصفورى الشافعى وفى «تاريخ كزیده» لحمد الله المستوفى، و (مطالب السؤل) لابن طلحة الشافعى و (مرآة الكائنات) لشرانجى زاده و (سير الخلفاء) للدهلوى المعاصر وكتاب (الحسين) للسيد على جلال الدين الحسينى، وعبد الباقى أفندى العمرى والمولى الرومى، ومعين الدين الجشتى وعبد الرحمن الجامى فى شعرهم والأمير محمد صالح الترمذى فى مناقبه.

ثمّ بعد كلّ هذا أخذ شيخنا أيضاً ينقل بعض أسماء العامّة ممّن لم يمتاروا فى صحّة خبر الولادة بل فسروه خاضعين لأمره كما يصفهم بذلك شيخنا، فنور الدين الصبّاغ المكى المالكى (ت ٨٥٥) فى (الفصول المهمّة) قال صريحاً: ولد على عليه السلام بمكّة المشرفّة بداخل البيت الحرام، يوم الجمعة الثالث عشر من شهر الله الأصمّ رجب الفرد، سنّة ثلاثين من عام الفيل قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنّة،... ولم يولد فى البيت الحرام قبله أحد سواه، وهى فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له

ص: ٢٠١

وإعلاءً لمرتبتة وإظهاراً لتكريمته» (١)

وقد نقل هذه العبارة كل من الصفوري الشافعي في (نزهة الحلبي) (٢) والسيد علي خان المدني في (الحدائق النديّة) (٣) والشبلنجي الشافعي في (نور الأبصار) والسمهودي في (جواهر العقدين) وبرهان الدين الحلبي في (انات العيون)، وما ذكره السبط ابن الجوزي في (تذكرة خواص الأئمة) هو: «روى أن فاطمة بنت أسد كانت تطوف بالبيت وهي حامل بعلي عليه السلام فضربها الطلق، ففتح لها باب الكعبة، فدخلت فوضعتة فيها، وكذا حكيم بن حزام ولدته أمه فيها».

وهنا راح يفرّق بين الولادة المزعومة لحكيم بن حزام داخل الكعبة وبين ولادة علي عليه السلام داخل الكعبة فيقول:

إنّ ولادة حكيم فيها، على تقدير صحّتها- والكلام للمؤلف- من جملة الصدق والاتفاقات غير القصدية، فليس فيها فضل ما غير تلوّث البيت بالمخاض، ويجب تطهيره. وأين هذه من ولادة أمير المؤمنين عليه السلام الذي فُتِحَ لأُمّه الباب، كما في عبارة السبط نفسه (ففتح لها باب الكعبة فدخلت فيها)، ولم يُفتح لغيرها بالرغم من جهدهم في ذلك كما سبق في أحاديث كثيرة، أو انشق لها جدار البيت فدخلته كما في أحاديث الشيعة، ولا يعدو ذلك أن يكون الأمر إلهياً قصد به التنويه بشريف المولود المبارك الذي تشرف البيت بولادته فيه؟!!

وهناك حديث طويل أخرجه أبو نعيم الحافظ يبدو أنّه في فضل فاطمة بنت أسد أو في فضل ولادة علي داخل الكعبة إلّا أنّهم قالوا: «في إسناده روح بن صلاح ضعّفه ابن عدّي فلذلك لم نذكره».

وروح هذا في الوقت الذي ضعّفه ابن عدّي فإنّ ابن حبان ذكره في الثقات كما أنّ الحاكم قال عنه: ثقة مأمون (٤).

كما أن نقل ابن الجوزي حديث الولادة المباركة لعلي عليه السلام داخل الكعبة بصيغة المجهول «روى» لم يكن فيه- والكلام للشيخ- أي إعزاز إلى الوهن فيه بعدما عرفنا

١- ١ انظر الفصول المهمّة: ٣٠.

٢- ٢ نزهة الحلبي ٢: ٢٠٤.

٣- ٣ الحدائق النديّة: ١٠.

٤- ٤ انظر العسقلاني في لسان الميزان ٢: ٤٦٥.

ص: ٢٠٢

أنّ المعهود من ابن الجوزي في غير مورد من هذا الكتاب من إرداف الحديث بنقده أو تعميمه أو حذفه رأساً لضعفه، وإنّما جاء به كذلك لتكثر طرقه الموجب للإطناب إذا تصدّى لسردها، ولشهرته المغنى عن ذكر الأسانيد، وإنّما الغرض الإشارة إلى إحدى المسلّمات بأوجز بيان.

ومثل السبط ابن الجوزي مثل السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤) في كتابه «الإقبال» حيث كان يذكر رواية ولادة الإمام عليه السلام في الكعبة بصيغته المبني للمجهول فكان يقول: روى أن يوم ثالث عشر رجب كان مولد مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام في الكعبة قبل النبوة باثنتي عشرة سنة» (١).

والمتحصل من ذلك كلّ أن الولادة محل إجماعهم وتاريخها محل خلافهم.

وقفه المؤلف مع الكازروني

قال أحمد بن منصور الكازروني في (مفتاح الفتوح):

ولدت فاطمة علياً عليه السلام في الكعبة، ونقل عنها أنّها كانت إذا أرادت أن تسجد لصنم وعليّ في بطنها لم يمكّنها؛ ولذا يقال عند ذكر اسمه: «كترم الله وجهه، أي كترم الله وجهه عن أن يسجد لصنم».

وهنا يقول الشيخ: أنا لا أحاول تصديق الرجل في كلّ ما يقول غير ما أتيت به من كلامه شاهداً لموضوع الرسالة، فإنّي لا أصافقه على أنّ فاطمة كانت تسجد للصنم، وإن كان ابنها أكبر وازع عن عبادة الأوثان، ولو كنت أجوز لها تلکم الاسطورة، لما عداني اليقين بما ذكره من أمر جنينها. لكنّي أعتقد أنّ كون الإمام سلام الله عليه في بطنها حاملاً، وتقدير كونها حاملاً له عليه السلام من الله سبحانه منذ الأزل، كان عاصماً لها عن عبادة الأصنام كبرهان الربّ (العصمة) المانع يوسف عن الزنا، وهذا هو الذي نعتقه في آباء النبي والأئمة عليهم وعليه السلام وأمهاتهم، فهم مبرؤون عمّا يصمهم في دين أو دنيا.

ص: ٢٠٣

... ثم قال: إنا لا نقيم لهاتيك الرواية الساقطة وزناً، وإن وافق راويها في إخراجها ابن حجر في (الصواعق) ولقد أُسْرَ ناقلاً حسواً في ارتغاء يزيد وقيعه في أم الإمام كما تحامل على أبيه المقدس فحكم بكفره لأمر دبر بليل، فصّبها في قالب الفضيلة له وتلقاها الغير في غير ما روّيته، انتهى.

أما عبد الرحمن الجامي في (شواهد النبوة) (١) فقد أسند حديث ولادة الإمام علي عليه السلام إلى بعضهم. وإن خلط الحابل بالنابل - كما يقول عنه المؤلف - وجاء بعثرات لا تقال حول تاريخ الولادة مخالفة للضرورة والإجماع، إلّا أنّ المهم في كلامه هو إسناد حديث الولادة.

وما قاله الشيخ عبد الحق بن سيف الدين المحمّد الدهلوي في (مدارج النبوة)... وقالوا: إن ولادته كانت في جوف الكعبة» (٢).
وأما حديث الولادة الذي رواه يزيد بن قعنب فقد ذكره الأمير محمد صالح الكشفي الترمذي الأكبر آبادي في كتابه (المناقب) بأسانيد متكرّرة، وقد أرسله إرسال المسلم في كتابه المذكور، ونقل أيضاً في كتابه هذا قول أبي داود البناكتي: «لم يحظ أحد قبل الإمام عليه السلام ولا بعده بشرف الولادة في البيت» (٣).

وصدر الدين أحمد البردواني وهو من متأخري علماء السنّة في (روائع المصطفى) قال: كانت ولادته عليه السلام في جوف الكعبة...» (٤).

وشاه محمد حسن الجشني في كتاب (آئينه تصوف) قال: إنّه عليه السلام ولد في الكعبة... وميرزا محمد بن رستم البدخشي قال في (مفتاح النجا في مناقب آل العبا):... ولم يولد في البيت الحرام أحد سواه، قبله ولا بعده، وهي فضيلة خصّه الله بها». وأما العلامة الشيخ الشنقيطي المدرس بالأزهر في (كفاية الطالب لمناقب علي ابن أبي طالب) وهو شديد التحرّز من أحاديث الروافض المكدوبة كما يزعم؛

١- ١ شواهد النبوة: ١٩٨.

٢- ٢ مدارج النبوة ٢: ٥٣١ مترجماً من الفارسية.

٣- ٣ مناقب مرتضوى: ٨٧ ط بومباي سنة ١٣٢١ هـ. مترجماً من الفارسية.

٤- ٤ روائح المصطفى: ١٠ ط كابنور سنة ١٣٠٢ مترجماً من الفارسية.

ص: ٢٠٤

لأن الإمام عليه السلام في غنى عنها كما يرى الشنقيطي لكثرة ما ثبت في السنّة من أحاديث فضائله، أرسله إرسال المسلّم أن من مناقبه - كرم الله وجهه - أنه ولد في داخل الكعبة، ولم يعرف ذلك لأحد غيره إلّا حكيمة بن حزام رضي الله عنه. وقد أوضحنا القول في هذه الولادة الأخيرة المزعومة في المقدمة وفي متون هذا الكتاب فلا نعيد. وقفه أخيرة:

ويفرد المؤلف ختام فصله الأخير من كتابه القيم هذا بمناقشة مختصرة لما قاله الشيخ علي القاري في (شرح الشفا) بعد أن قال في حكيمة بن حزام: «ولا يعرف أحد ولد في الكعبة غيره على الأشهر» ما نصّه: «وفي "مستدرک الحاكم" أن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أيضاً ولد في داخل الكعبة» (١).

فيقول الشيخ المؤلف بعد ذكره لما قاله القاري:

ليت القاري لم يسحب ذيل أمانته على كلمة الحاكم الموجودة في (المستدرک)... وليته ذكر قوله: تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين في جوف الكعبة. ثم واصل الشيخ ردّه بقوله: ليت! وهل ينفع شيئاً ليت؟ عذرتة، فهو حين رمى القول على عواهنه في ولادة حكيمة بن حزام بإسناده إلى الأشهر المستخرج من غلبه مخيلته لم يكن يسعه المصاححة بأنّ خلافه ممّا تواترت به الأخبار، فلا أقلّ من التكافؤ بأن يكون كلّ منهما مشهوراً. فكان الأحفظ لسمعته والأستر لأمينه، أي (لكذبه) أن يمسح كلمة الإمام الحاكم إلى رأيت، وكان من المحتمل القريب أن لا يناقشه أحد الحساب، لكن الحقيقة لا بدّ وأن تبرز نفسها.

ص: ٢٠٥

الهوامش:

الامام على عليه السلام فى مرآة الشعر

ص: ٢٠٩

الإمام على عليه السلام في مرآة الشعر

لم يكن لغيره من الصحابة على كثرتهم وعظيم فضائل بعضهم ما كان له عليه السلام في ديوان الشعر قديماً وحديثاً منذ صدر الإسلام وإلى عصرنا هذا... (١) فقد راح الشعراء المبدعون والأدباء البارعون من المسلمين وغيرهم يحلون دواوينهم وقصائدهم بمناقب وفضائل عليّ حتى سارت بها الركبان وانتشر عيبرها..، وقد تعرّض بعض الشعراء الكبار والمكثرين من الشعر إلى اللوم والعتب مرّةً وإلى التقرّيع أخرى إذا خلا ديوانهم من قصيدة تتضمّن فضيلةً لعليّ أو شيئاً من صفاته وخصاله، وهذا الشاعر الكبير المتنبي عوتب مراراً على عدم ذكره لعلي عليه السلام، فسمّا جوابه وتألّق حيث قال:

وتركتُ مدحى للوصى تعمّداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً

وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

وها نحن أمام لفيف منهم ومقتطفات من قصائدهم التي سجّلوا فيها مواقف عظيمة ومشاهد جليّة كانت من نصيبه، ومناقب وخصالاً فريدة تحلّى بها بفضلٍ

١-١ أنظر كتاب الغدير للشيخ الأمينى، ونهاية الجزء الأوّل من كتاب فى رحاب أئمّة أهل البيت عليهم السلام وبداية المجلد التاسع من موسوعة الإمام على عليه السلام وغيرها.

ص: ٢١٠

من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله فزهت قصائدهم ولو بشيء يسير من ذلك الطود الشامخ؛ من المناقب والصفات والمشاهد لسيد المتقين ومولى الموحدين كما خلدوا بها.

ومن هولاء:

الشيخ محمد بن عبد المطلب المصري (ت ١٣٥٠) نقتبس شيئاً من قصيدته الطويلة جداً:

أبا السبطين كيف تفي المعاني نثاراً في مديحك أو نظاما

مقام دونه نُجب القوافي وإن كانت مسومةً كراما

فحسبك يا أخا الشعراء عذراً رميت بها مكاناً لن يراما

وما أدراك ويحك ما عليّ فتكشف عن مناقبه اللثاما

تبصر هل ترى إلّاعلياً إذا ذكر الهدى ذاك الغلاما

غلام يتنقى الإسلام ديناً ولما يعد أن بلغ الفطاما

وصلى حيدر فشأى قريشا إلى الحسنى فسّموه الإماما

كأنى بالثلاثة في المصلّى جميعاً عند ربهم قياما

تحبيهم ملائكة كرام وتقرئهم عن الله السلاما

يمد إلى النبي يد ابن عم بحبل الله يعتصم اعتصاما

وإذ يدعو العشرة يوم جمع لينذر في رسالته الأناما

فكهل في جهالته تولى وشيخ في ضلالته تعامى

وأيده على التقوى أخوه إذا ما خاف كل أخ وخاما

صغير السن يخطر في اباء فلا ضيماً يخاف ولا ملاما

وقد جمع الحجى والدين فيه خلّاتق تجمع الخير اقتساما

فما أوفى على العشرين حتى شهدنا من عظامه عظاما

فلن ينسى النبي له صنيعاً عشية ودع البيت الحراما

فأرخصها فدّى لأخيه لما تسجى في حظيره وناما

ص: ٢١١

وأقبلت الصوارم والمنايا لحرب الله تنتحم انتحاما
فلم يأبه لها أنفاً على ولم تقلق بجفنيه مناما
وأغشى الله أعينهم فراحت ولم تر ذلك البدر التماما
وفى أم القرى خلى أخاه على وجد به يشكو الأواما
أقام بها ليقضيها حقوقاً على الهادي بها كانت لزاما
كأنى بابن عتبة يوم بدر يعانى تحت مجثمه جثاما
ولو علم الوليد بمن سيلقى لألقى قبل مصرعه السلاما
ومن غدت البتول إليه تهدي بنى فى النجم بيتاً لا يسامى
بأمر الله قد زفت إليه عشية راح يخطبها وساما
كأنى بالملائك إذ تدلت بذاك البيت تزدحم ازدحاما
فلو كشف الحجاب رأيت فيه جنود الله تنتظم انتظاما
أطافوا بالحظيرة فى جلال صفوفها حول فاطمة قياما
تفيض على منصتها وقاراً وتكسو حسن طلعتها وساما
فلا يحزن خديجة أن تولت ولم تبلغ بجلوتها مراما
تولاها الذى ولى أباه رسالته وزوجها الإماما
قران زاده الإسلام يمناً وشمل زاده الحب الثاما
فإن تك خير من عقدت ازاراً وأكرم كل من ارخت لثاما
فإن تسأل فسائل عنه احداً غداً هناك طير الموت حاما
وحطم غمد صارمه على وذب عن النبى بها وحامى
هنالك بادر الكرار لما غدوا والرعب قد منع الكلاما
إذا ما هم أقعده أخوه وزاد إلى اللقاء جوى فقاما
مكانك يا على فذاك عمرو له الأبطال يوم وغى تحامى
فقال وإن يكن عمراً فإنى على سوف أجمه الحساما

ص: ٢١٢

فلم يك غير أن أودى ابن وُدّ وخاض السيف في دمه وعاما
 وسائل يوم خبير عن على تجديها ما أثره جساما
 ولم تغن الحصون ولا الصياصي وإن قام الحديد لها دعاما
 وأقبل مرحب في البأس يحبو وكان البأس صاحبه لزاما
 وما علم الفتى أن المنايا خططن بذي الفقار له مناما
 وإن له من الكزار يوماً عبوساً مدنياً منه الحماما
 علاه بضربة لو أن رضوى تلقاها لعاد بها هياما (١)
 وسل اهل السلام تجد علياً امام الناس يبتدر السلاما
 حوى علم النبوة في فؤادطما بالعلم زخاراً فطاما (٢) ونفساً لم تذق طعم الدنيا ولا لذت من الدنيا طعاما
 طوى عنها على الضراء كشحاوعن فاني زخارفها تسامي
 غذاها الدين مذ كانت فشبت على التقوى رضاعاً وانقطاما
 الشيخ عبد المهدي مطر:

ارصف بباب على أيها الذهب واخطف بأبصار من سروا ومن غضبوا
 وقل لمن كان قد أقصاك عن يده عفواً إذا جئت منك اليوم اقترب
 لعل بادرة تبدو لحيدرة أن ترتضيك لها الأبواب والعتب
 فقد عهدناه والصفراء منكرة لعينه وسناها عنده لهب
 ما قيمة الذهب الوهاج عند يد على السواء لديها التبر والترب
 ما سره أن يرى الدنيا له ذهباً وفي البلاد قلوب شفه السغب
 ولا تضجر أكباد مفتتة حتى يذوب عليها قلبه الحذب
 أو يسقط الدمع من عيني مولهه أجابها الدمع من عينيه ينسكب
 تهفو حشاه لأنات اليتيم بلا أم تناغي ولا يحنو عليه أب

١-١ الهيام: الرمل المهيل.

٢-٢ طام: حسن عمله.

ص: ٢١٣

هذى هى السيرة المثلى تموج بها روح الوصى وهذا نهجه اللحب
 فاحذر دخول ضريح أن تطوف به إلا بإذن على أيها الذهب
 باب به ريشة الفنان قد لعبت فأودعته جمالاً كله عجب
 تكاد لا تدرك الأبصار دقته مما تماوج فى شطانه اللهب
 كأن لجة أنواع تموج به خلالها صور الرائين تضطرب
 سبائك صبها الإبداع فارتسمت روائع الفن فيها الحسن منسكب
 يدنو الخيال لها يوماً لينعتها وصفاً فيرع منكوساً وينقلب
 أدلت بها يد فنان منقمة تعنو لروعتها الأجيال والحقب
 ملء الجوانح ملء العين رهبتها ومريض الليث غاب ملؤه رهب
 العالم الجليل السيد محمد جمال الهاشمى:

أبا الحسين

خشعت يهلل حياها ويكبر روح تموت على ولاك وتحشر
 أنى نظرت أراك ترقب نظرتى فكأن عيني فى وجودك تنظر
 هذا جمالك وهو يغمر عالمى حبا تذوب به الحياة وتصهر
 فى كل آونه أراك بصورة تخفى ملامحها على وتظهر
 كالروح تظهرها الحياة وإنما ناموسها بظهورها يتستر
 قسماً بحبك وهو أقدس ما به أزهو على كل الوجود وأفخر
 ما حاولت نجوى ولاك قريحى إلا وعص شعورى المتفجر
 فإذا نطقت فإن وحيك ناطق بغمى، وإن أمسكت فيك أفكر
 روحى فداك، وسر روحى كامن بك، فالفدا لك منك فضل يؤثر
 زدنى هوى تزدد بذاك ذخيرتى فى النشاطين، ومثل حبك يذخر

ص: ٢١٤

أ أبا الحسين، وفي حسينك صورة فيها ملامحك الكريمة تسفر
 عفواً إذا زلَّ الشعور، فموقفى يعفى به زلل الشعور ويغفر
 ناجيتُ حَقَّكَ وهو نهْبُ مطامعٍ محمومةٍ فيها الكرامة تهدر
 ونظرتُ روحك وهي من لاهوتها تستعرض المتكالبين فتسخر
 ووقفوا وسرت مع الخلود، وهكذا تبقى الحقيقة، والسفاسف تقبر
 ولأنت أقدِرُ لو أردت إمارَةً منهم، وأثبت في الجهاد وأخبر
 ولكَ المواقف لا يغيب شعاعها أبداً، ولا أطيابها تنغور
 يزهو بها بدرٌ، ويفخر خندق ويشيعها أحدٌ، ويهتف خبير
 وشواهد نبويّة ما كررت في محضرٍ، إلّا وفاح المحضر
 وتلك أوسمة إذا ما قوبلت بالشمس راح جلاها يتكور
 السيد مصطفى جمال الدين:

سيدي أيتها الضمير المصفي والصراط الذي عليه نسيرُ
 لك مهوى قلوبنا وعلى زادك تُربى عقولنا ونمير
 نحن عشاقك الملحون في العش - ق وإن هام في هواك الكثيرُ
 نحن نهواك لا لشيء سوى أنك من أحمد أخ ووزيرُ
 ومفاتيح من علوم حباها لك إذ أنت كنزها المذخورُ
 ضرب الله بين وهجيكما حدّاً فأنت المنار وهو المنيرُ
 وإذا الشمس آذنت بمغيب غطت الكون من سناها البدورُ
 بولس سلامة، من ملحمة التاريخ الكبرى (عيد الغدير):
 سمع الليل في الظلام المديد همسة مثل أنه المفقود (١)
 من خفي الآلام والكبت فيها ومن البشر والرجاء السعيد
 حزة لزا المخاض فلاذت بستار البيت العتيق الوطيد

ص: ٢١٥

كعبة الله في الشدائد تُرجى فهي جسر العبيد للمعبود
لا نساء ولا قوابل حفت بانبئ المجد والعلا والجود
يذر الفقر أشرف الناس فرداً والغنى الخليع غير فريد
أينما سار واكبته جباهه وظهوره مخلوقه للسجود
صبرت فاطم على الضيم حتى لهث الليل لهثة المكود
وإذا نجمة من الاقح خفت تطعن الليل بالشعاع الحديد
وتدانت من الحطيم وقزت وتدلت تدلى العنقود
تسكب الضوء في الأثير ديقاً فعلى الأرض وابل من سعود
واستفاق الحمام يسجع سجعاً فتهش الأركان للتغريد
بسم المسجد الحرام حبوراً وتنادت حجاره للنشيد
كان فجران ذلك اليوم فجر لنهار وآخر للوليد
هالت الأم صرخة جال فيها بعض شيء من همهمات الأسود
دعت الشبل حيدراً وتمنت وأكبت على الرجاء المديد
أسداً سمّت ابنها كأبيها لبدة الجد أهديت للحفيد
بل علياً ندعوه قال أبوه فاستفز السماء للتأكيد
ذلك اسم تناقلته الفيا في ورواه الجلمود للجلمود

يهرم الدهر وهو كالصبح باق كل يوم يأتي بفجر جديد (١) لبيب بيضون، وقصيدته في فضائل الإمام عليه السلام نذكر بعضاً منها:

هو الأمير وساقى الحوض منفرداً هو الإمام بلا شك ولا ريب
أعداؤه شهدوا بالحق إذ عجزوا أن ينكروا فضله في كل منقلب

ص: ٢١٦

قد حاولوا كتمها دوماً وما علموا أنّ الروائح ما إن تخفها تطب
وكيف يمكنهم طمساً لشمس ضحى تختال مشرقه مشبوه اللهب
نارٌ على علم في كلّ موقعة حسامه مشرق الحدّين لم يغب
ويوم موقعة الأحزاب ضربته دكت صروح العدا رأساً على عقب
وفي العبادة ما أحلى تعبه على الجبين ترى سيماء والركب
إن شنته بطلاً في الحرب منتصباً أو ساجداً تلقه والدمع في سلب
وفي السياسة حكم الله ديدنه دون الدهاء قرين الكفر والكذب
الهوامش:

حديث الغدير في ضوء الكتاب واللغة

ص: ٢١٧

حديث الغدير فى ضوء الكتاب واللغة

نورى حاتم

مصادر حديث الغدير:

قبل البحث فى دلالات حديث الغدير أجد من الضرورى إلقاء نظرة على صيغة الحديث فى مصادرهِ عند الشيعة والسنة، ليحصل الاطمئنان بأنه من الأحاديث المتواترة الثابتة فى كتب الفريقين، وللتأكيد بأن اللفظ هو (المولى) الذى نستدل به على جعل الإمامة لعلّى عليه السلام من قبل النبى صلى الله عليه وآله، موجود فى جميع الصيغ الواردة فى كتب علماء الفريقين.

حديث الغدير فى مصادر أهل السنة:

١- قال النبى صلى الله عليه وآله يوم غدیر خم:

«ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجى أمهاتهم؟ فقلنا بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (١).

٢- وعن زاذان أبى عمر قال:

سمعت علياً فى الرحبة، وهو ينشد الناس: من شهد رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدیر خم وهو يقول ما قال. فقام ثلاثة عشر رجلاً فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: من كنت مولاه فعلى مولاه» (٢).

٣- «إن النبى صلى الله عليه وآله قال يوم غدیر خم: «من كنت مولاه» فعلى مولاه قال

١- ١ مسند أحمد، رقم الحديث ٩١٥.

٢- ٢ مسند أحمد، رقم الحديث ٩٠٦.

ص: ٢١٨

(ربما الراوى وهو أبو مريم أو غيره) فزاد الناس بعد: وال من والاه وعاد من عاداه (١).

وفيه: أن هذه الزيادة ليست من الناس، بل هى رواية عن النبى صلى الله عليه وآله عن زيد عن رسول الله فى حديث رقم ١٨٥٢٢ فى مسند أحمد.

ثم إن هذه الإضافة موجودة فى مصادر الحديث الأخرى عند الطائفتين، فلا إشكال فى ثبوت صدورها عن النبى صلى الله عليه وآله، ثم إن مورد الاستشهاد إنما بصدر الحديث أى قوله صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعلى مولاه». وليس بذيله، أى: (اللهم وال من والاه...).

٤- وعن أبى سرحه أو زيد بن على عن النبى صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعلى مولاه» (٢).

٥- وقال سعد بن أبى وقاص لمعاوية بن أبى سفيان بعد أن نال الأخير من على عليه السلام: «تقول هذا لرجل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من كنت مولاه فعلى مولاه» (٣).

٦- «وعن عامر بن سعد عن سعد، أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب فقال: أما بعد، أيها الناس فإنى وليكم قالوا: صدقت، ثم أخذ بيد على فرفعها ثم قال: هذا وليى والمؤدى عنى، وال اللهم من والاه، وعاد اللهم من عاداه.

٧- وعن عائشة بنت سعد عن سعد قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد على فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

ألم تعلموا أنى أولى بكم من أنفسكم؟

قالوا: نعم، صدقت يارسول الله. ثم أخذ بيد على فرفعها: فقال: من كنت وليه فهذا وليه، وإن الله ليوال من والاه ويعادى من عاداه» (٤).

٨- «وعن عائشة بنت سعد عن سعد أنه قال: كنا مع رسول الله بطريق مكة، وهو متوجه إليها، فلما بلغ غدير خم الذى يخم وقف الناس ثم رد من مضى ولحقه من تخلف فلما اجتمع الناس قال: أيها الناس هل بلغت؟

قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد. ثم قال:

أيها الناس هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال:

اللهم اشهد ثلاثاً (ثم قال) أيها الناس من وليكم؟

قالوا: الله ورسوله - ثلاثاً - ثم أخذ

١- ٣ مسند أحمد، رقم الحديث ١٢٤٢.

٢- ٤ مسند الترمذى، كتاب المناقب - رقم الحديث ٣٦٤٦.

٣- ٥ سنن بن ماجه، رقم الحديث ١١٨.

٤- ٦ خصائص الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب: ١٧٦ حديث رقم ٩٤ و ٩٥.

ص: ٢١٩

بيد على بن أبى طالب فأقامه فقال: من كان الله ورسوله وليه فإن هذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (١).
 ٩- «روى عثمان بن سعيد عن شريك بن عبد الله، قال: لما بلغ علياً عليه السلام أن الناس يتهمونه فيما يذكره من تقديم النبي صلى الله عليه وآله وتفضيله إياه على الناس، قال عليه السلام: أنشد الله من بقى ممن لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع مقاله فى يوم غدير خم إلّا قام فتشهد بما سمع؟

فقام ستته ممن عن يمينه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وستته ممن على شماله من الصحابة أيضاً فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم وهو رافع ييدى على: من كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله، وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه» (٢).

«وفى مكان آخر من كتاب النهج ينقل ابن أبى الحديد هذه القطعة الإضافية «وأنس بن مالك فى القوم لم يقم: فقال له يا أنس! ما يمنعك أن تقوم فتشهد ولقد حضرتها؟

فقال: يا أمير المؤمنين كبرت ونسيت. فقال: اللهم إن كان كاذباً فارمه بها بيضاء لا توارىها العمامة.

قال طلحة بن عمير: فوالله لقد رأيت الوضع به بعد ذلك أبيض من عينيه» (٣).

١٠- «قال صلى الله عليه وآله يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٤).

١١- «وقام النبي صلى الله عليه وآله خطيباً وأخذ بيد على بن أبى طالب فقال: أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال: فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٥).

١٢- وقال النبي صلى الله عليه وآله للمسلمين فى عودته من حجة الوداع: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٦).

حديث الغدير فى كتب الشيعة:

ومن الواضح أن جميع كتب الشيعة التى تعرضت لسيرة النبي صلى الله عليه وآله، أو

١- ٧ ترجمة الإمام على من تاريخ دمشق ٢: ٥٣.

٢- ٨ شرح ابن أبى الحديد ٢: ٢٨٧.

٣- ٩ شرح نهج البلاغة ٤: ٤.

٤- ١٠ الصواعق المحرقة: ١٢٢.

٥- ١١ تاريخ يعقوبى ٢: ١١٢.

٦- ١٢ المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلد الرابع: الخلفاء الراشدون: ٤٤٣.

ص: ٢٢٠

لفضائل على عليه السلام ومناقبه، أو التى تعرضت لمسائل الإمامة ذكرت حديث الغدير، ونحن هنا نشير إلى بعض ماسجله علماء الشيعة فى نقل حديث الغدير كنموذج لذلك:

١- فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١).
فنادى الناس فاجتمعوا، ثم قال عليه الصلاة والسلام: (يا أيها الناس من وليكم وأولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: الله ورسوله.

فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه- ثلاث مرات-» (٢).

٢- قال النبى صلى الله عليه وآله: «إنى قد دعيت ويوشك أن أجيب، وقد حان منى خفوق من بين أظهركم وإنى مخلف فيكم ما أن تمسكتن به لن تضلوا:

كتاب الله وعترتى أهل بيتى، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.

ثم نادى بأعلى صوته: أأست أولى بكم منكم بأنفسكم؟

قالوا: اللهم بلى.

فقال: فمن كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله» (٣).

٣- وقال النبى (صلى الله عليه وآله وسلم): ألا وإنى أشهدكم أنى أشهد أن الله مولاي وأنا مولى كل مسلم وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فهل تقرّون لى بذلك وتشهدون لى به؟

فقالوا: نعم، نشهد لك بذلك.

فقال: ألا من كنت مولاه فإنّ على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله» (٤).

٤- قال النبى صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فهذا على مولاه» (٥).

٥- قال النبى صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعلى مولاه» (٦).

٦- قال النبى صلى الله عليه وآله: فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره

١- ١٣ سورة المائدة: ٦٧.

٢- ١٤ الأصول من الكافي: ١: ٢٩٥.

٣- ١٥ الارشاد، للمفيد: ٩٤.

٤- ١٦ الخصال: ١٦٦ حديث رقم ٩٨.

٥- ١٧ كمال الدين وتمام النعمة: ١٠٣.

٦- ١٨ التوحيد: ٢١٢- باب أسماء الله تعالى.

ص: ٢٢١

واخذل من خذله» (١).

وأثبت المحدث هاشم البحرانى ٨٨ حديثاً فى الغدير من طرق العامة و ٣٦ رواية من طرق الشيعة (٢).
ولقد أحصى السيد المحقق الطباطبائى فى كتابه (الغدير فى التراث الإسلامى) ١٦٤ كتاباً صنف حول واقعة الغدير.
معانى حديث الغدير:

وبعد أن ألقينا ضوءاً كافياً على أصل الحديث، واهتمام رواة الحديث وأرباب السنن بنقله، نتناول دلالة حديث الغدير على ثبوت امامة على بن أبى طالب عليه السلام بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله، ونستعرض أهم الشبهات التى اثرت على ذلك، وحاولت - بعد التسليم بصدور الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله - تفسيره بمعانٍ لا تساعد عليها اللغة والاستعمال والقرائن العامة التى حقت بالحديث.

استعمال لفظ المولى:

استعملت لفظة المولى فى القرآن الكريم فى اللغة فى معانٍ عديدة:

١- فقد وردت بمعنى (الأولى) فى تفسير قوله تعالى: فَالْيَوْمَ لَأَيُّوْخِذُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا وَأَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٣).

واختاره أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه فى القرآن (المجاز)، فى تفسيره الآية المتقدمة، واستشهد بيت لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافه خلفها وأمامها (٤).

وقال به الزجاج والفراء أيضاً.

٢- ووردت بمعنى المتصرف بالأمر فى تفسير قوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ (٥).

قال الفخر الرازى فى تفسيره ناقلاً عن القفال:

هو مولاكم: سيدكم والمتصرف فيكم (٦).

٣- وردت بمعنى المتولى فى الأمر فى تفسير قوله تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا (٧) كما اختاره أبو العباس (٨).

٤- وردت بمعنى الناصر فى تفسير قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَمَوْلَى لَهُمْ

١- ١٩ معانى الاخبار: ٦٣ حديث رقم ١.

٢- ٢٠ راجع كتاب كشف المهم فى طريق خبر غدير خم.

٣- ٢١ سورة الحديد: ١٦.

٤- ٢٢ الشافى ٢: ١٧٧.

٥- ٢٣ سورة الحج: ٧٨.

٦- ٢٤ تفسير الرازى ٦: ٢١٠.

٧- ٢٥ سورة محمد: ١١.

٨- ٢٦ الغدير ١: ٣٦٧.

ص: ٢٢٢

- (١) كما ذكر ذلك الشيخ المفيد قدس سره (٢) وفسر لفظ المولى بمعنى الولى أيضاً كما عن الحاكم الحسكاني (٣).
- ٥- ووردت بمعنى الوارث كما فى تفسير قوله تعالى: وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ... (٤) «وقال السدى: إن الموالى بمعنى الورثة وهو أقواها» (٥).
- ٦- ووردت بمعنى الصاحب فى تفسير قوله تعالى: يَوْمَ لَمَّا يُعْنَى مَوْلَى عَن مَوْلَى شَيْئاً وَلَمَّا هُمْ يُنصِرُونَ (٦) كما اختاره الطبرسى فى تفسيره (٧).
- ٧- ووردت بمعنى المالك كما فى تفسير قوله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ (٨). كما أشار إليه ابن الجوزى فى تذكرته (٩).
- ٨- وجاءت بمعنى العبد، وقيل: ابن العم (١٠) فى تفسير قوله تعالى: اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ (١١).
- ٩- ووردت بمعنى ابن العم، قال الفضل بن العباس فى ذلك: مهلاً بنى عمنا مهلاً موالينا لا تظهرون لنا ما كان مدفونا (١٢).
- ١٠- ووردت بمعنى الحليف، حيث قال الشاعر:
- موالى حلف لاموالى قرابة ولكن قطينا يسألون الاتاوى (١٣)
- ١١- ووردت بمعنى الرب ومنه قول القائل:
- «وقد وكلكم إلى المولى الكافى» أى الرب (١٤).
- ١٢- ووردت بمعنى السيد، فقد ورد فى مجمع البحرين: «وتنكيل المولى بعبده بأن يجذع أنفه» (١٥).
- وقال الخليل الفراهيدى:
- والموالى بنو العم، والموالى من أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله من يحرم عليه الصدقة.
- والمولى: المعتق والحليف والولى (١٦).
- والولى والمولى يستعملان فى ذلك كل واحد منهما، يُقال فى معنى الفاعل أى الموالى وفى معنى المفعول أى الموالى

١- ٢٧ سورة محمد: ١١.

٢- ٢٨ عدة رسائل: ١٨٦ للشيخ المفيد.

٣- ٢٩ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ٢: ١٧٤.

٤- ٣٠ النساء: ٣٣؛ راجع تفسير الميزان ٤: ٣٦٣.

٥- ٣١ التبيان فى تفسير القرآن ٣: ١٨٦.

٦- ٣٢ سورة الدخان: ٤٢.

٧- ٣٣ مجمع البيان ٩: ١٠١.

٨- ٣٤ سورة النحل: ٧٦.

- ۹-۳۵ تذكرة الخواص: ۳۷.
۱۰-۳۶ مجمع البيان ۷: ۵۲۸.
۱۱-۳۷ سورة الاحزاب: ۵.
۱۲-۳۸ التبيان في تفسير القرآن ۳: ۱۸۷.
۱۳-۳۹ تذكرة الخواص: ۳۸.
۱۴-۴۰ البداية والنهاية ۶: ۳۳۴.
۱۵-۴۱ مجمع البحرين ۴: ۳۷۳.
۱۶-۴۲ كتاب العين ۸: ۳۶۵، للخليل الفراهيدي.

ص: ٢٢٣

يُقال للمؤمن هو ولى الله ولم يرد مولاة (١).

وقد يُقال: بأنه إذا كان النبى صلى الله عليه وآله أراد أن ينصب علياً إماماً للمسلمين من بعده، فلماذا لم يذكر ذلك بلفظ يكون نصياً فى المعنى، فلا يقع النزاع بعد ذلك؟

والجواب:

إنّ حديث الغدير وما تقدمه من كلام وما تأخر عنه يدل دلالة واضحة على مراد النبى صلى الله عليه وآله فى تعيين علياً إماماً بعده، فإذا أمكن النقاش فى دلالة حديث الغدير؛ ودعوى عدم وضوحه فى إفادة المعنى، فإنه يمكن النقاش فى كل نص يرد لا يحتمل معنى آخر غير معنى الإمامة على تقدير صدوره من النبى صلى الله عليه وآله كما ردّ طلب النبى - وهو على فراش الموت - فى أن يكتب لهم كتاباً لن يضلوا من بعده أبداً، حيث رفض عمر بن الخطاب ذلك الطلب وقال: إن الرجل ليهجر (٢) أو غلب عليه الوجع كما روى ذلك البخارى بسنده عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال:

لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وآله وجعه قال: أئتنى بكتاب يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده قال عمر: إن النبى صلى الله عليه وآله غلب عليه الوجع وعندنا كتاب الله حسينا فاختلفوا وكثر اللغط قال صلى الله عليه وآله: قوموا عنى ولا ينبغى عندنا النزاع، فخرج ابن عباس يقول: الرزيئة كل الرزيئة ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين كتابه (٣).

وفى رواية أخرى روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وآله وفى البيت رجال فقال النبى صلى الله عليه وآله: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسينا كتاب الله (٤).

هذه أهم موارد استعمال لفظة (المولى) التى جاءت فى القرآن الكريم وفى كلمات العرب وشعرهم، ولكن علماء الحديث والعقائد ذكروا للفظ المولى معانٍ أخرى غير التى ذكرناها، فقد ذكر ابن الجوزى: أن علماء العربية قالوا: إن لفظة المولى ترد على عشرة وجوه وهى:

الأول: المالك، ومنه قوله تعالى:

١- ٤٣ مفردات غريب القرآن: ٥٢٣.

٢- ٤٤ على ما أخرجه أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري فى كتاب السقيفة كما روى ذلك ابن أبى الحديد ٢: ٢٠، طبعه مصر راجع كتاب الفصول المهمة فى تأليف الأمة، للسيد شرف الدين: ١٠٥.

٣- ٤٥ صحيح البخارى ١: ٣٧.

٤- ٤٦ صحيح البخارى ٥: ١٣٧.

ص: ٢٢٤

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ.
أى على مالك رقه.

والثانى: بمعنى المولى المعتق بكسر التاء.

والثالث: بمعنى المعتق بفتح التاء.

والرابع: بمعنى الناصر ومنه قوله تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَمَوْلَى لَهُمْ.

أى لا ناصر لهم.

والخامس: بمعنى ابن العم قال الشاعر:

مهلاً بنى عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

وقال آخر:

هم الموالى حتفوا علينا وإنا من لقائهم لزور

وحكى صاحب الصحاح عن أبى عبيدة أن قائل هذا البيت عنى بالموالى بنى العم، قال: وهو كقوله تعالى:
ثم يخرجكم طفلاً.

والسادس: الحليف قال الشاعر:

موالى حلف لا موالى قرابه ولكن قطينا يسألون الاتاويا

يقول هم حلفاء لا أبناء عم قال فى الصحاح وأما قول الفرزدق:

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى موالينا

فلأن عبد الله بن أبى إسحاق مولى الحضرميين، وهم حلفاء بنى عبدشمس ابن عبدمناف، والحليف عند العرب مولى، وإنما نصب

المواليا لأنه رده إلى أصله للضرورة، وإنما لم ينون مولى لأنه جعله بمنزلة غير المعتل الذى لا ينصرف.

والسابع: المتولى لضمان الجريرة وحيازة الميراث، وكان ذلك فى الجاهلية ثم نسخ بأية المواريث.

والثامن: الجار وإنما سمي به لماله من الحقوق بالمجاورة.

والتاسع: السيد المطاع وهو المولى المطلق قال فى الصحاح: كل من ولى

ص: ٢٢٥

أمر أحد فهو وليه.

والعاشر: بمعنى الأولى، قال الله تعالى: فَالْيَوْمَ لَأَيُّوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا وَأَكْم النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ أَى أَوْلَى بِكُمْ (١).

وقال أبو بكر محمد بن القاسم الانبارى فى كتابه فى القرآن المعروف ب (المشكل):

«والمولى فى اللغة ينقسم إلى ثمانية أقسام:

المنعم، المعتق، والمعتق بالفتح-، والأولى بالشىء والجار، وابن العم، والصهر والحليف، وقد استشهد على كل قسم من أقسام المولى

بشئ من الشعر» (٢) وجعلها شيخنا الامين قدس سره فى غديره سبعة وعشرين معنى (٣).

معنى لفظ المولى فى لغة العرب:

وهكذا يتضح أن لفظ المولى فى اللغة استعمل فى عدة معانٍ، ولكن نسال هل اللفظ موضوع- لغة- لمعنى الأولى، واستعمل فى سائر

المعانى على نحو المجاز كما فى استعمال لفظ الأسد فى الرجل الشجاع بمناسبة شجاعته، فىكون الاستعمال فيها مجازاً وفى الأولى

على نحو الحقيقة، أو أن تلك المعانى أيضاً معانٍ حقيقية للفظ المولى، فالاشتراك معنوى، أو أن الاشتراك فى اللفظ بنحو الاشتراك

اللفظى؟

هل لفظ المولى مشترك لفظى؟

عُرف المشترك اللفظى ب:

«أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنيين، أو لمعانٍ بأوضاع متعددة كلفظ العين للباصرة والجارية والذهب» (٤).

وقد عرفه أهل الاصول بعبارة أوضح: «اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة» (٥).

ومن الواضح أن لفظ المولى ليس كذلك، إذ معانيه ليست متباينة، إنما فيها معنى مشترك، وإن كان يوجد تفاوت فى نسبة صدق

المعنى الواحد عليها بنحو سواء، كما أنه من تتبع معانى لفظ المولى يستشعر أن اللفظ لم يوضع لتلك المعانى بنحو الوضع المستقل

لكل معنى عن وضعه للآخر.

هل لفظ المولى حقيقة فى الأولى مجاز فى غيره؟

عرف المعنى الحقيقى بأنه: «استعمال

١- ٤٧ تذكرة الخواص: ٣٧- ٣٨.

٢- ٤٨ الشافى ٢: ١٨١.

٣- ٤٩ راجع الغدير ١: ٣٦٢.

٤- ٥٠ جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون ١: ١١٨.

٥- ٥١ هامش كتاب مبادئ الوصول إلى علم الأصول عن كتاب المزهر ١: ٣٦٩.

ص: ٢٢٦

اللفظ فيما وضع له فى الاصطلاح الذى وقع به التخاطب».

وعرف المعنى المجازى بأنه: استعمال اللفظ فى غير ما وضع له فى أصل تلك المواضع للعلاقة (١).

وعرف أيضاً بأن المعنى الحقيقى هو:

«استعمال الكلمة فيما وضعت له فى اصطلاح التخاطب».

أما المجاز فهو: «استعمال الكلمة فى غير ما وضعت له فى اصطلاح التخاطب» (٢) والتعريفان متطابقان فى المضمون.

وهذا التعريف لا ينطبق على لفظ المولى فى معانيه المتعددة، وذلك لأنه كما استعمل فى معنى (الاولى) بلاقرينة، كذلك أستعمل فى سائر المعانى بلاقرينة أيضاً، مع أن الاستعمال المجازى للفظ لا يصح بلاقرينة، وهذا يدل على أن بقیة المعانى هى أيضاً معانى حقیقة للفظ المولى.

هل لفظ المولى مشترك معنوى؟

المشترك المعنوى:

«هو أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنى كلى كالانسان للحيوان الناطق» (٣).

وحيث إن هذا التعريف ينطبق على لفظ المولى للأدلة التى سندكرها لاحقاً، يكون لفظ المولى موضوعاً فى اللغة - لمعنى الأولى، غاية الأمر أن الأولوية تختلف فى كل مورد عن المورد الآخر فمثلاً النبى صلى الله عليه وآله مولى المؤمنين يعنى: هو أولى بهم من أنفسهم فى أمورهم، وله الأمر والنهى، وله عليهم حق الطاعة، والمولى بمعنى الوارث، يعنى أن الابن أو غيره من الورثة أولى من أى شخص آخر بمال مورثه المتوفى، والمولى بمعنى الناصر، كأن يقال العباس بن على مولى الحسين عليه السلام يعنى: أن العباس عليه السلام أولى الناس بنصرة الحسين عليه السلام من غيره لمعرفته به، وهكذا يكون معنى الأولوية موجوداً فى جميع معانى لفظ المولى مع اختلاف فى مصداق الأولوية كما يطلق لفظ إنسان على زيد وعمرو وبكر فإنهم جميعاً يصدق عليهم لفظ إنسان مع اختلاف كل مصداق عن المصداق الآخر ببعض الأمور.

والصحيح هو: أن لفظ المولى مشترك معنوى بدلالة تبادل معنى الأولوية منه رغم تعدد كفيات الأولوية، وبدليل صحة استعمال لفظ

١- ٥٢ مبادئ الوصول إلى علم الأصول: ٧٦.

٢- ٥٣ تلخيص المفتاح فى المعانى والبيان والبديع: ٢٦٢.

٣- ٥٤ جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون ١: ١١٨.

ص: ٢٢٧

الأولى مكان المولى، فيصح القول:

«النبى صلى الله عليه و آله أولى بالمؤمنين» بدل قولنا «النبى صلى الله عليه و آله مولى المؤمنين» ويصح القول: (الاب أولى بالولد) بدل قولنا:

(الاب مولى ولده) وهكذا، وهذا يدل على أن لفظ المولى يعنى الأولى.

برهان المعانى الباقية:

ويمكن الاستدلال على أن النبى صلى الله عليه و آله أراد معنى الأولى من لفظ المولى بالقول:

إن النبى صلى الله عليه و آله لا- يريد بالمولى المعتق أى مالك الرق الذى يملك المولى عبده وله أن يبيعه ويهبه، إذ ليس كل من ملكه النبى صلى الله عليه و آله ملكه على. ولا يريد به العبد.

ولا يقصد النبى صلى الله عليه و آله من لفظ المولى (ابن العم)، لأن من كان ابن عم النبى صلى الله عليه و آله فهو ابن عم على عليه السلام بلا حاجة إلى تجشم عناء بيان ذلك تحت أشعة الشمس الحارقة وإبلاغ المسلمين بذلك.

وكذلك لا يقصد النبى صلى الله عليه و آله بلفظ المولى (العاقبة) إذ لا معنى له فى جملة (فمن كنت مولاه فهذا على مولاه).

ولا- يمكن أن يريد به معنى الناصر؛ لأن المسلمين كلهم أنصار لمن نصره النبى صلى الله عليه و آله فلا معنى لتخصيص على عليه السلام بالنصرة عن جماعة المسلمين.

ولا يقصد به صلى الله عليه و آله معنى الحليف، لأن علياً حليف لجميع حلفاء النبى صلى الله عليه و آله.

وكذلك لا يريد النبى صلى الله عليه و آله من لفظ المولى أن علياً وارث لكل من يرثه النبى صلى الله عليه و آله.

أما معنى المتولى بالأمر والمتصرف فيه، فإنه لو قصد هذا المعنى فإنه يقصد الأولى؛ لأن المتولى للأمر والمتصرف فيه إنما يكون للأولى بالتصرف فى الأمور، أى من له حق الأمر والنهى والطاعة... وكذلك لا يريد النبى صلى الله عليه و آله سائر معانى المولى نظير الصاحب والشريك والرب والجار ويظهر ذلك بأدنى تأمل فى سياق الرواية، وفى القرائن العامة، فيبقى المعنى الوحيد المحتمل وهو الأولى بالمسلمين من أنفسهم فيجب حمله عليه.

ويدل على أولوية على عليه السلام بالخلافة من جميع الأنصار والمهاجرين اعتراف هؤلاء بأولوية على عليه السلام منهم فى ذلك، إلّا أنهم طعنوا ذلك ببعض الأمور.

فى شرح النهج لابن الحديد

ص: ٢٢٨

المعتزلى ورد:

«أن عمر قال: يا ابن عباس أما واللّه إن صاحبك هذا لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، إلّا أنا خفناه على اثنين...

فقلت: - أى ابن عباس - قال: وماهما يا أمير المؤمنين؟

قال: خفناه على حدائثه سنّه، وحبّه بنى عبد المطلب» (١).

وفيما يلى بعض الشواهد على أن المراد بلفظ المولى فى حدىث الغدير معنى الأولوية دون غيرها من المعانى:

الشاهد الأول: شعر حسان بن ثابت:

مانظمه حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وآله بعد فراغ النبى صلى الله عليه وآله من واقعة الغدير، حيث فهم منه حسان أن

النبى صلى الله عليه وآله قد نصب علياً عليه السلام ولياً للمؤمنين، وأولى بهم من أنفسهم كما أن النبى صلى الله عليه وآله كذلك -

أى ولى بالمسلمين من انفسهم - حيث إن حسان بن ثابت استأذن النبى صلى الله عليه وآله أن يقول شعراً فى الواقعة، فأذن له النبى

صلى الله عليه وآله فأنشده أبياتاً منها:

فقال له قم يا على فإننى رضيتك من بعدى إماماً وهادياً

«ويروى أن النبى صلى الله عليه وآله قال لحسان بعد أن فرغ من شعره: لا تزال مؤيداً بروح القدس مانصرتنا أو نافحت عنا بلسانك»

(٢).

وكذلك ما قاله الصحابى الجليل قيس بن سعد بن عبادة الانصارى:

وعلى إمامنا وإمام لسوانا أتى به التنزيل

يوم قال النبى من كنت مولاه فهذا على خطب جليل (٣)

الشاهد الثانى: كلام ابن منظور الديلمى

قال: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمى (إمام الكوفيين فى النحو واللغة والادب) فى كتاب (معانى القرآن): النبى

والمولى فى كلام العرب واحد وفى قراءة عبد الله بن مسعود:

«إنما مولاكم الله ورسوله مكان وليكم» (٤) وإنما يكون النبى ولياً، إذا كان أولى من كل أحد فى الأمر والنهى والطاعة من قبل

الآخرين.

١- ٥٥ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٠: ٢٠.

٢- ٥٦ تذكرة الخواص: ٣٩.

٣- ٥٧ الغدير ١: ٣٤٠. وراجع كتاب خصائص الأئمة للشريف الرضى: ٤٣.

٤- ٥٨ تلخيص الشافى ٢: ١٨٠.

ص: ٢٢٩

الشاهد الثالث: كلام ابن الجوزى

مانقله ابن الجوزى:

«قال أحمد فى الفضائل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا حبيش بن الحرث بن لقيط النخعى عن رباح بن الحرث قال:

جاء رهط إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقالوا:

السلام عليك يا مولانا وكان بالرحبة فقال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب؟

قالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدیر خم: من كنت مولاه فعلى مولاه. قال رباح: فقلت: من هؤلاء؟

فقال: نفر من الانصار فيهم أبو أيوب الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله (١).

الشاهد الرابع: تهنئة عمر بن الخطاب لعلى عليه السلام

ما ورد عن الخليفة الثانى أنه قال لعلى بعد حديث الغدير: «هنيئاً يا ابن أبى طالب أصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة» (٢).

ومن الواضح أن عمر لا يريد أن علياً أمسى ناصراً أو محباً لكل مؤمن ومؤمنة، إذ هذا المعنى صادق على الصحابة الأخيار (رض) بل

يريد ثبوت الولاية له من قبل النبى صلى الله عليه وآله، لأن هذا المعنى هو الذى يستحق التهئة عليه إذ مجرد الحب والنصرة لا يوجب

تهئة الشخص عليها، فلا بد أن يكون المراد بالمولى هو المعنى العظيم لها وهو الأولوية والامامة على المسلمين، وهو المعنى الذى

يستوجب التهئة عليه، وإن كان فى الحقيقة مسؤولية عظيمة.

الشاهد الخامس: احتجاج على عليه السلام بحديث الغدير:

احتجاج على عليه السلام على جماعة الشورى بعد وفاة عمر بن الخطاب، حين رأهم قد عزموا على مبايعة عثمان، حيث قال لهم عليه

السلام:

«نشدتكم بالله هل منكم أحد نصبه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدیر خم بأمر الله تعالى فقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه

اللهم وال من والاه وعاد من عاداه غيرى؟

قالوا لا.» (٣).

فقد استشهد على عليه السلام بهذا الحديث على أنه أولى من غيره (عثمان وغيره) بمقام الولاية، وليس هذا إلا أن حديث

١- ٥٩ تذكرة الخواص: ٣٦، وراجع شرح ابن أبى الحديد ٣: ٢٠٨.

٢- ٦٠ مسند أحمد، حديث رقم ١٧٧٤٩.

٣- ٦١ الاحتجاج ١: ١٣٦.

ص: ٢٣٠

الغدير يدل على ذلك، وأنّ النبى صلى الله عليه وآله نصبه إماماً للمسلمين فى يوم الغدير.
المخاض الأخير:

وهكذا يتضح أن لفظ المولى من المشترك المعنوى، وأن معناه (الأولى) محفوظ فى جميع مصايقه المتعددة.
ولكن حتى لو قلنا- مع القائلين- بأن لفظ المولى من المشترك اللفظى، وأنه يحتمل أن يراد به معنى الناصر، أو المحب، أو أحد المعانى الأخر غير معنى (الأولى)، فإننا يمكن أن نبرهن على أن لفظ المولى فى كلام النبى صلى الله عليه وآله فى حديث الغدير استعمل فى خصوص المعنى الاول وهو: (الأولى) دون سائر المعانى، وذلك بقرائن كثيرة نذكرها فيما يلى:
القرينة الاولى: دلالة المقدمة على المعنى

لا شك فى أن حديث الغدير قد بدأه النبى صلى الله عليه وآله بمقدمة استفهامية هى:

«ألسأ أولى بكم من أنفسكم» (١) ثم قال صلى الله عليه وآله بعدها: «فمن كنت مولاه فعلى مولاه» وفى ضوء ذلك نقول: لا شك فى أن الأولى فى المقدمة يراد به الأولى فى الطاعة، وحق الأمر والنهى للنبى صلى الله عليه وآله على الأمة بالدليل النقلى والعقلى، فلا بد أن يريد النبى صلى الله عليه وآله من لفظ المولى فى قوله: من كنت مولاه فعلى مولاه، المعنى الثابت فى المقدمة أى الأولى، دون سائر المعانى للمولى، حيث جرت عادة اللغة على تفسير اللفظ الذى يحتمل معانى متعددة، والمعطوف على نفس اللفظ السابق عليه، والذى هو ظاهر فى معنى محدد من المعانى الكثيرة بالمعنى السابق، والذى عطف عليه اللفظ الذى يحتمل معانى متعددة، فمثلاً لو قال المتكلم:

(بعت كتابى إلى عمى زيد) ثم قال بعد ذلك متصلاً: (وعمى موجود الآن فى بيتى)، فإن العم فى الجملة الثانية يحتمل أنه أراد به العم الذى اشترى الكتاب ويحتمل أن يريد عمّاً آخر، وحيث إن المتكلم عطف الجملة الثانية على الأولى حيث قال:
(بعت كتابى إلى عمى زيد وعمى موجود فى بيتى) فإن العرف يفهم أن العم الموجود فى البيت هو نفس العم الذى اشترى الكتاب أى هو زيد، وإن كان يحتمل أن يريد بالعم فى الجملة

١- ٦٢ وقد روى هذه المقدمة ١- أحمد بن حنبل. ٢- ابن ماجه. ٣- النسائى. ٤- الترمذى. ٥- الطبرى. ٦- الذهبى.

٧- الدارقطنى وخلق كثير من المحدثين العلماء.

ص: ٢٣١

الثانية عمّا آخر غير زيد الذى اشترى الكتاب، وكذلك لو قال: مطرت السماء البارحة مطراً عظيماً؛ وأنا احتفظت بشيء من ماء المطر، فإن العرف يفهم أن ما احتفظ به من ماء المطر هو من مطر البارحة، وإن كان يحتمل أنه احتفظ بماء مطر اليوم الماضى أو الشهر الماضى، والحق أن مثل هذا الاحتمال بعيد جداً.

القرينة الثانية: آية التبليغ

حدّث الحافظ الكبير الحسكاني الحنفى النيسابورى بسنده المتصل إلى ابن عباس فى قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (١) إنها نزلت فى على.

أمر رسول الله أن يبلغ فيه فأخذ رسول الله بيد على فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٢).

وحدث الحافظ الحسكاني بسنده إلى أبى صالح «عن ابن عباس وجابر ابن عبد الله قالوا: أمر الله محمداً أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته فتخوف رسول الله أن يقولوا حاباً ابن عمه يطعنوا فى ذلك عليه، فأوحى الله إليه: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك... فقام رسول الله صلى الله عليه وآله بولايته يوم غدير خم» (٣).

وقال على بن إبراهيم: «إن هذه الآية يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ... نزلت فى على عليه السلام» (٤).

وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت فى حق على عليه السلام فى غدير خم، فقد نقل المالكي فى الفصول المهمة عن الإمام أبو الحسن الواحدى فى أسباب النزول رفعه إلى أبى سعيد الخدرى أن هذه الآية نزلت يوم غدير خم فى على ابن أبى طالب، ورواه صاحب فتح القدير عن ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى، وكذلك فى تفسير الدر المنثور للسيوطى (٥) ومع هذا فإن السيوطى فى لباب المنقول فى أسباب النزول قال:

أخرج الحاكم والترمذى عن عائشة قالت: كان النبى صلى الله عليه وآله يُحرس حتى نزلت

١- ٦٣ سورة المائدة: ٦٧.

٢- ٦٤ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ١: ١٨٩.

٣- ٦٥ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ١: ١٩٢. وراجع الاحتجاج: ٥٧.

٤- ٦٦ تفسير القمى ١: ١٧١.

٥- ٦٧ تفسير الميزان ١: ٦٠.

ص: ٢٣٢

هذه الآية واللّه يعصمك من الناس فأخرج رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى اللّه. فى هذا الحديث دليل على أنها... أى الآية ليلية فراشيه!! أى والرسول فى فراشه» (١).

ولم تذكر عائشة (رض) شيئاً عن الشطر الأول من الآية، ولا عن الشىء المهم الذى إذا لم يبلغه النبى صلى الله عليه وآله فكأنه لم يبلغ شيئاً!! وكأن الآية الواحدة نزلت شطرين!.

القرينة الثالثة: آية إكمال الدين

روى الخطيب البغدادي بسنده عن أبى هريرة، قال: «لما أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد على بن أبى طالب فقال: ألسنت أولى بالمؤمنين؟

قالوا: نعم يا رسول الله.

قال: فأخذ بيد على بن أبى طالب فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه.

فقال عمر بن الخطاب: يخ بخ لك يا ابن أبى طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم.

قال: فأنزل الله عز وجل اليوم أكملت لكم دينكم.

قال أبو هريرة: وهو يوم غدیر خم، من صام كتب الله له صيام ستين شهراً» (٢).

القرينة الرابعة:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله قبل فقرة إثبات المولوية لعلى عليه السلام: كأنى دعيت فأجبت، أو أنه يوشك أن ادعى فأجيب (٣) ثم قال صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعلى مولاه» فإن تلك المقدمة تلقى ضوءاً على غرض الرسول صلى الله عليه وآله من لفظ المولى، وتعين أن المراد به معنى يرتبط فيما بعد وفاته صلى الله عليه وآله ومن الواضح أن هذا المعنى هو إمامة على عليه السلام وولايته على أمته من بعده.

المولى ترادف الولي:

وقد تثار شبهة وهى: حتى لو اتفقنا على أن معنى المولى هو الأولى، لكن الأولى لا تعنى الولي. فلو كان النبى صلى الله عليه وآله قد قال: «فمن كنت وليه فعلى وليه» لكان هذا اللفظ يدل على أن النبى صلى الله عليه وآله جعل علياً إماماً للمسلمين بعده.

والجواب:

أولاً: إذا كان إطلاق لفظ الولي على على عليه السلام يرفع الشبهة، فإن القرآن الكريم أنزل فى حق على مدحاً ووصفه

١- ٦٨ تفسير الجلالين: ٢١٦.

٢- ٦٩ تاريخ دمشق فقرة رقم ٥٦٩ من ترجمة على بن أبى طالب عليه السلام وراجع شواهد التنزيل ١: ١٥٨.

٣- ٧٠ الغدير ١: ٣٧٥.

ص: ٢٣٣

بأنه ولى المسلمين، وذلك فى قوله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** (١).

فقد روى الحافظ الكبير النيسابورى بسنده إلى ابن عباس: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** قال: نزلت فى على بن أبى طالب (٢) وبسند عن عطاء بن السائب: **«إنما وليكم الله ورسوله قال: فى على مرّ به سائل وهو راكع فناوله خاتمه»** (٣).

وإن قيل: إن لفظ الذين آمنوا عام فكيف خصصت فى على؟ قيل: «ان الروايات متكاثرة من طرق الشيعة وأهل السنة على أن الآيتين نزلتان فى أمير المؤمنين بما تصدق بخاتمه وهو فى الصلاة، فالإتان خاصتان غير عامتين» (٤).

وثانياً: أن لفظ المولى والولى معناهما واحد «فقد قال الفراء فى كتاب معانى القرآن: الولى والمولى فى كلام العرب واحد فى قراءة عبد الله بن مسعود: (إنما مولاكم الله ورسوله) مكان وليكم» (٥).

ومع كل ذلك فقد كتب عباس محمود العقاد- وهو يتحدث عن علاقة النبى صلى الله عليه وآله بعلى:-

إنّ النبى صلى الله عليه وآله كان «يحبّه ويمهد له وينظر إلى غده، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه، وأن يحين الحين الذى يكلون فيه أمورهم إليه....

وكل ما عدا ذلك، فليس بالممكن وليس بالمعقول... ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة... وليس بالممكن أن يحبهما له، وينسى فى سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة.

وإذا كان قد رأى الحكمة فى استخلافه، فليس بالممكن أن يرى ذلك، ثم لا يجهر به فى مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع...

وإذا كان قد جهر به، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره. أنهم لا يريدون ذلك مخلصين، وأنهم إن أرادوه لا يستطيعون بين جماعة المسلمين، وإنهم إن استطاعوا لا يخفى شأنه ببرهان مبين، ولو بعد حين...

١- ٧١ سورة المائدة: ٥٥.

٢- ٧٢ شواهد التنزيل ١: ١٦١.

٣- ٧٣ شواهد التنزيل ١: ١٦٨.

٤- ٧٤ الميزان فى تفسير القرآن ٦: ٥.

٥- ٧٥ الميزان فى تفسير القرآن ٦: ٥.

ص: ٢٣٤

فكل أولئك ليس بالممكن، وليس بالمعقول (١) ولا أدرى هل جعل الولاية لعلی (٢) بنص النبى صلى الله عليه وآله من قبيل إجتماع النقيضين، أو الضدين حتى يكون ذلك غير ممكن وغير معقول!

وإذا كان جعل الإمامة لعلی ليس فيه استحالة عقليّة، فلماذا لا يمكن أن يجعله النبى صلى الله عليه وآله لعلی، وهو المعروف بسابقته وقربه وجهاده وإخلاصه وعلمه وشجاعته؟ فلماذا لا يمكن أن يجعله النبى صلى الله عليه وآله ولياً للمسلمين بعده، وهل القرب من النبى صلى الله عليه وآله يوجب حرمانه من مقام يستحقه دون سائر الأصحاب، أو القرب من النبى موجب للفضيلة كما استدل أبو بكر على الأنصار بأن الخلافة فى قريش، لأنهم أقرب للنبى صلى الله عليه وآله من الأنصار؟

*** بعد الذى عرفت من وضوح أن لفظ المولى معناه (الأولى) أو على أقل تقادير أن النبى صلى الله عليه وآله استعمله فى هذا المعنى للقرائن اللفظية والمقامية التى حفت بالحديث بعد ذلك. نذكر عدة تفسيرات أخرى لحديث الغدير تستهدف تجريده عن دلالة الثابتة له بموجب اللغة:

التفسير الأول: شكايه أهل اليمن على على عليه السلام

إنّ المراد من لفظ (المولى) هو الناصر أو المحب، وذلك الحديث صدر عن النبى صلى الله عليه وآله بعد شكايه أهل اليمن علياً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: «يرشد بذلك أنه أشاد فى خطابه بعلى خاصة فقال: من كنت وليه فعلى وليه وبأهل البيت عامة فقال صلى الله عليه وآله: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتي فكان كالوصية لهم بحفظه فى على بخصوصه وفى أهل بيته عموماً وقالوا: ليس فيها- أى بالوصية وفى حديث الغدير- عهد بخلافة ولا دلالة على إمامة» (٣).

نقل الواقعة:

ومن المفيد أن ننقل أولاً الواقعة من سيرة ابن هشام ثم نعلق عليها:

«قال ابن إسحاق: وحدثنى يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى عمرة، عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة قال: لما أقبل على رضى الله عنه من اليمن ليلقى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة تعجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله واستخلف على جنده

١- ٧٦ مجموعة العقاد ٢: ١٢٨.

٢- ٧٧ المراجعات: ٢٠٢، كما ورد على لسان شيخ الازهر الشيخ سليم البشرى وهو يحاور السيد عبد الحسين شرف الدين.

٣- ٧٨ السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٦٠٣.

ص: ٢٣٥

الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حُلْمَه من البرّ الذى كان مع علىّ رضى الله عنه. فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم، فإذا عليهم الحُلل قال: ويلك اما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا فى الناس، قال: ويلك! انزع قبل أن تنتهى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال: فانترع الحُلل من الناس، فردّها فى البرّ، قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنّع بهم» (١).

والغريب أن صاحب كتاب المغازى محمد بن عمر بن واقد، نقل القصة بتمامها، ثم كتب: «أن النبى صلى الله عليه وآله دعا علياً فقال: ما لأصحابك يشكونك؟ فقال:

ما أشكيتهم؟ قسمت عليهم ماغنموا وحبست الخمس حتى يقدم عليك، وترى رأيك فيه، وقد كانت الأمراء يفعلون أموراً: يُنفلون من أرادوا الخمس، فرأيت أن أحمله إليك لترى فيه رأيك فسكت النبى صلى الله عليه وآله» (٢).

ولم يذكر الواقدي ما قاله النبى صلى الله عليه وآله تعليقاً على شكايه أهل اليمن، والذى ذكره ابن هشام فى سيرته من مدح علىّ، وأنه يغضب لله، وأنه قوى من ذات الله تعالى، ولا أدرى لماذا لم ينقل كلام النبى صلى الله عليه وآله فى حق علىّ فى تلك القصة؟! ردّ التفسير الأول:

إن قصة أهل اليمن لا يمكن جعلها قرينه على حمل لفظ (المولى) على الناصر، أو المحب وماشاكل وذلك:

أولاً: أن أهل الشكايه إنما شكوا علياً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قبل التاسع من ذى الحجة، وواقعة غدير خم فى يوم الثامن عشر منه، فالذى ينبغى لو كان الدافع إلى حديث الغدير هو تلك الواقعة أى يأتى مدح علىّ بذلك الحديث فى وقت وقوعها، كما قال النبى صلى الله عليه وآله عقب الشكايه فى روايه ابن هشام:

«ياأيها الناس لا تشكوا علياً فوالله إنه لأخشن فى ذات الله» أو فى سبيل الله من أن يشكى».

ولم يتكلم صلى الله عليه وآله بكلام آخر غير هذا.

وثانياً: أن مدح النبى صلى الله عليه وآله لعلّى إذا كان على أثر هذه الواقعة ينبغى أن يكون مناسباً مع المقام، كما قال صلى الله عليه وآله:

١- ٧٩ سيرة ابن هشام ٤: ٦٠٣.

٢- ٨٠ المغازى ٣: ١٠٨١.

ص: ٢٣٦

(إنه لأخشن فى ذات الله) وما شاكل ذلك، ومن الواضح أن حدیث الغدير وما حفّ به من قرائن وعلائم قرن فيه النبى صلى الله عليه وآله بين العترة والكتاب، وجعل علياً مولياً للمسلمين كما أنه صلى الله عليه وآله مولى لهم، وهذا يناسب جعل علي عليه السلام اماماً على الأمة، ولا يريد صلى الله عليه وآله أن يدفع عن علي عليه السلام اتهامات أهل اليمن إنما يريد إثبات مقام عظيم له، وهو مقام الإمامة بعده صلى الله عليه وآله.

وثالثاً: وقع خلط فى تاريخ الشكاية على علي عليه السلام، إذ إن النبى صلى الله عليه وآله بعث علياً إلى اليمن مرتين: الأولى فى السنة الثامنة، والأخرى فى السنة العاشرة من الهجرة، والذى نقل فى كتب التاريخ أن الشكاية على علي إنما كانت فى البعث الأول أى السنة الثامنة الهجرية وليس فى البعث الثانى أى: السنة العاشرة الهجرية، فقد روى أنه بعث رسول الله بعثين إلى اليمن، على أحدهما على بن أبى طالب، وعلى الآخر خالد بن الوليد، فقال: إذا التقيتم فعلى على الناس، وإن افترقتم فكل واحد منكما على جنده، قال: فلقينا بنى زيد من أهل اليمن، فاقتلنا فظهر المسلمون على المشركين، فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، فاصطفى على امرأة من السبى لنفسه، وقال بريدة: فكتب معى خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، يخبره بذلك، فلما أتيت النبى صلى الله عليه وآله دفعت الكتاب، فقرأ عليه، فرأيت الغضب فى وجهه، فقلت: يا رسول الله هذا مكان العائذ، بعثتنى مع رجل وأمرتنى أن أطيعه، ففعلت ما أرسلت به، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تقع فى علي فإنه منى، وأنا منه، وهو وليكم بعدى وأنه منى وأنا منه، وهو وليكم بعدى» (١).

التفسير الثانى: الحدیث جواب لأسامه بن زيد:

ونقل بعض أن حدیث الغدير إنما قاله النبى صلى الله عليه وآله على أثر نزاع شخصى بين أسامه بن زيد وبين علي عليه السلام حيث قال إسامة لعلى عليه السلام: لست مولأى إنما مولأى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال صلى الله عليه وآله بعد أن سمع بالنزاع: «من كنت مولأه فعلى مولأه» (٢).

والجواب:

أولاً: إن أراد اسامه أن علياً ليس

١- ٨١ المراجعات، للإمام السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوى: ١٥٣.

٢- ٨٢ الغدير ١: ٣٨٣.

ص: ٢٣٧

مولاه، بمعنى ليس أولى به من نفسه، وأنه ليس كالنبي صلى الله عليه وآله، وقبل أن يثبت النبي صلى الله عليه وآله إمامة على المسلمين. فإن هذا المعنى صحيح؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله بعد لم يجعل الولاية (الظاهره) حسب الفرض إذ إن النبي صلى الله عليه وآله بعد لم ينطق بذلك الكلام. وإن أراد به أن النبي صلى الله عليه وآله فقط سيده وأسامة عبد للنبي صلى الله عليه وآله وأن علياً ليس سيده فمن الواضح أن أسامة ليس عبداً رفاً للنبي صلى الله عليه وآله أو لعلى. وإن أراد أنه يطيع النبي صلى الله عليه وآله فقط ولا يطيع علياً عليه السلام أو غيره، فمن الواضح أن علياً عليه السلام لم يتأمر على أسامة ولم يتأمر على أحد إذا لم يؤمره رسول الله صلى الله عليه وآله.

وثانياً: حتى لو فرضنا أن منشأ كلام النبي صلى الله عليه وآله فى حديث الغدير المرتبط بعلى عليه السلام هو النزاع الذى وقع بينه وبين أسامة، فإن ذلك لا يوجب صرف معنى (المولى) عن معناه الظاهر فيه وهو الأولى إلى غيره، بل لعل هذا النزاع وكلام النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله عقيبه؛ يؤكد مولوية على عليه السلام على أسامة وغيره قبل يوم الغدير وبعده!! إذ معناه أن أولوية على ثابتة على أسامة حين النزاع وأن أسامة تجاوز حده فى رعايته حق على عليه السلام.

التفسير الثالث: حديث الغدير كان جواباً لبريدة:

أخرج أحمد بن حنبل فى مسنده عن بريدة قال: غزوت مع على اليمن فرأيت منه جفوة (١) فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله ذكرت علياً فتنقصته فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله يتغير فقال صلى الله عليه وآله: يا بريدة! ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلى مولاه» (٢).

والجواب:

أولاً: ماتقدم سابقاً من أنه لم ترد شكوى على على فى بعثه الثانى إلى اليمن، إنما الشكاية كانت فى البعث الأول أى السنة الثامنة، وحديث الغدير فى السنة العاشرة من الهجرة، فلا يمكن أن يكون حديث الغدير جواباً لشكاية بريدة على على عليه السلام التى تقدمت قبل عامين.

وثانياً: حتى لو سلمنا: أن قوماً، أو بريدة شكى علياً إلى النبي صلى الله عليه وآله عند العود من بعثه إلى اليمن، فإن ذلك لا

١- ٨٣ ولعل الجفوة ما تقدم فى حديث خمس اليمن من حلل غنمه على عليه السلام فى غزوته حيث إن جيش على عليه السلام لبس الحلل فى ذهابه إلى لقاء النبي صلى الله عليه وآله ثم يرى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله رأيه، أو تكون الجفوة منه لأنه لا تأخذه فى طاعة الله ورسوله لومة لائم.

٢- ٨٤ راجع الغدير ١: ٣٨٤.

ص: ٢٣٨

يوجب صرف معنى المولى إلى غير معناه الثابت أى: أولوية على عليه السلام بالمؤمنين من أنفسهم كما هى ثابتة للنبي صلى الله عليه وآله، نعم لو كان النزاع والشكايه قرينه لفظية تصحيح صرف لفظ (المولى) عن معناه وهو الأولى إلى معنى آخر من معانيه المتعددة لأمكن رفع اليد عن معنى الأولى المدلول للفظ المولى، ولكن من الواضح أن مجرد النزاع والشكايه على على عليه السلام ليست قرينه لفظية توجب صرف اللفظ عن معناه.

التفسير الرابع: على الأولى بالتفضيل

وقيل: حتى لو اتفقنا مع الشيعة بأن لفظ مولى يعنى الأولى، لكن إنما يصح الاستدلال بالحديث على إمامة على عليه السلام على تقدير القول بأن الأولى هنا لا يراد به الأولى بالتفضيل والتعظيم والاحترام، وإنما يراد به الأولى من أنفسهم فى أمرهم ونهيهم وتدير أمورهم وشؤون حياتهم، ولكن إذا قلنا بأن المراد بالأولى هنا هو الأولى بالتعظيم والاحترام، فإن ثبوت هذه الأولوية لعلى عليه السلام لا يساوق ثبوت الإمامة له.

ويرد عليه:

أولاً: أن الظاهر من الأولى عند استعمالها مطلقاً- أى من غير قرينه لفظية أو مقامية- أن المتكلم يريد الأولى بأن يأمر وينهى فإن أضيفت الأولى إلى الغير؛ وقيل مثلاً: الحاكم أولى من رعيته، فإن المراد به أن الحاكم أولى من الرعية فى الأمر والنهى وإدارة أمورهم، وهذا المعنى يساوق معنى الإمامة.

وثانياً: أن النبي صلى الله عليه وآله صدر كلامه بقوله صلى الله عليه وآله: «ألسن بأولى من المؤمنين بأنفسهم؟» ثم قال صلى الله عليه وآله بعد ذلك: «فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وهذا الصدر فى كلام النبي فيه دلالة على أن المراد بالأولوية الثابتة لعلى فى قوله صلى الله عليه وآله: «فمن كنت مولاه فعلى مولاه». إنما هى الأولوية التى تناظر الأولوية الثابتة له صلى الله عليه وآله وصرح بها فى صدر كلامه، إذ المفروض ان جملة «فمن كنت مولاه فعلى مولاه» معطوفة على صدر كلامه صلى الله عليه وآله الذى ثبتت فيه أولويته

ص: ٢٣٩

على المؤمنين من أنفسهم، فيكون صدر الكلام دالاً على الأولوية الثابتة، وأنها كأولوية النبي صلى الله عليه وآله. التفسير الخامس: على عليه السلام إمام بعد البيعة:

يرى ابن حجر فى الصواعق أن علياً عليه السلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وله عليهم حق الأمر والنهى والطاعة، إنما ذلك بعد البيعة له - أى بعد الخليفة الثالث - وإلا لكان أولى بالطاعة والأمر والنهى فى حياة النبي صلى الله عليه وآله، وهذا مما لا يمكن الالتزام به (١).

والجواب:

أولاً: أن هذا المعنى للحديث - أى أن علياً سيكون إماماً أولى بالمسلمين من أنفسهم بعد عقد البيعة - يعنى أن علياً ليس مولياً للمؤمنين ماتوا قبل البيعة له فى خمسة وثلاثين من الهجرة، وهذا يتنافى عموم مولوية على عليه السلام لجميع المسلمين، سواء الذين ماتوا قبل البيعة لعلى والذين عاشوا بعدها.

ثانياً: أما ما قيل: بأنه لو حملنا الحديث على فعلية الإمامة لا الصلاحية أو الشائنية، فهذا مما يتنافى مع فعلية أولوية النبي صلى الله عليه وآله بالأمر والنهى والطاعة، فإن ذلك صحيح لو قلنا بأن المراد بإمامة على إمامة مستقلة فى عرض وجود النبي صلى الله عليه وآله؛ ونحن لا نقول ذلك بل إنما نرى أن ولاية على عليه السلام فى طول ولاية النبي على الأمة وفى امتدادها، وليس فى عرضها. وثالثاً: لو كان مفاد حديث الغدير هو: أن علياً له حق الأمر والنهى والطاعة على الأمة وأنه أولى بالمسلمين من أنفسهم ولكن بعد البيعة، فإن هذا المعنى يشترك فيه كل من يظفر بالبيعة على وفق النظرية السياسية للمذاهب الأربعة السنية، فإن كل شخص تبايعه الأمة يكون أولى بالمسلمين من أنفسهم بعد البيعة، فلا يتميز على عليه السلام بشيء، ولا معنى أيضاً لكلام النبي صلى الله عليه وآله فى حديث الغدير، وحاشاه عن ذلك، لأنه يريد فقط أن يقول: إذا بايعت الأمة علياً فهو صالح للإمامة، فيكون معنى كلام النبي صلى الله عليه وآله وحاشاه: لو صار علياً إماماً فهو صالح للإمامة!!!

وهذا المعنى صادق على كل شخص تبايعه الأمة للإمامة - بل هذا على وفق

ص: ٢٤٠

المذهب السياسى لأهل السنة- يكون عبثاً فى الكلام، والنبي صلى الله عليه و آله يتنزه عن ذلك، فما هى ميزة على عليه السلام عن الآخرين حتى يخصه النبي بذلك الخطاب تحت الشمس الحارقة، ولماذا هذه الآيات التى نزلت بلزوم التبليغ، ولماذا نزلت آية إكمال الدين بعد حديث الغدير!!؟

التفسير السادس: تقديم المفضول على الفاضل:

وهذا التفسير ما يستظهر من كلمات المعتزلة الظاهرة فى التسليم بأن علياً أفضل الصحابة، وبالتالي هو أولى بمقام الإمامة لو لم تقم مصلحة تستوجب تقديم غيره عليه.

والجواب:

أولاً: لو كانت ثمة مصلحة من هذا القبيل لكان النبي صلى الله عليه و آله أولى من غيره بدرك تلك المصلحة، ولاقتضت تلك المصلحة تسمية الخليفة الأول لإمامة الأمة بعد النبي صلى الله عليه و آله من أجل استيفاء تلك المصلحة... وتكون تسمية على بأنه مولى المسلمين بمعنى أنه إمام المسلمين فعلاً قبيحاً يتنزه النبي صلى الله عليه و آله عن فعله.

وثانياً: إنا نعتقد بأن تنحية على عليه السلام عن مقامه فتح على الأمة ألوان المحن والبلوى، حيث افترق المسلمون إلى طوائف و فرق تتناصر على السلطان والمال كالجاهلية الأولى. وأية محنة وبلوى أكبر من هذه التى وقع فيها المسلمون نتيجة تنحية على عليه السلام عن مقامه.

الهوامش:

ص: ٢٤٣

المصلحة الإسلامية ووحدة المسلمين في منهج الامام على عليه السلام

ص: ٢٤٤

المصلحة الإسلامية ووحدة المسلمين في منهج الإمام على عليه السلام
على خير الله

المصلحة الإسلامية هي الوضع الأفضل للإسلام باعتباره دعوة ومبدأ وقاعدة للدولة، والوضع الأفضل للمسلمين بوصفهم أمة لها جانبها الرسالي وجانبها المدني، فكل ما كان يساهم في إيجاد الوضع الأفضل للإسلام والمسلمين على هذا النحو فهو مصلحة إسلامية، وعلى هذا الأساس تكون الوحدة الإسلامية أهم مقومات الحفاظ على هذه المصلحة وإدامتها في الواقع، وهي ضرورة عقلية وشرعية قد أثبت التاريخ ضرورتها في تتبعه لسير الحضارات التي نمت وترعرعت وازدهرت بالوحدة، وتدهورت واضمحلحت حينما بدأ التمزق يدب في سيرها.

والوحدة الإسلامية ممكنة التحقيق ما دامت الأمة الإسلامية تجتمع حول عقيدة واحدة، ومصالح واحدة، ومصير واحد، وتواجه عدواً واحداً وخذ صفوفه وإمكاناته من أجل إيقاف المسيرة الإسلامية، وعرقلة حركتها التاريخية لتصفيتها عقيدةً وقيادةً وكياناً، وقد جسّد الإمام على عليه السلام مفاهيم الوحدة في منهجه وسيرته وترجمها إلى أعمال وممارسات وعلاقات متجسّدة في الواقع، فقد جعل المصلحة الإسلامية العليا قاعدة الانطلاق في سكناته وحركاته، وحافظ على وحدة الدولة

ص: ٢٤٥

والأمة متوجهاً نحو الآفاق العليا المشتركة ونحو الهدف الكبير؛ وهو تقرير مبادئ الإسلام في واقع الحياة، وخير مصداق لتجسيد مفاهيم الوحدة والمصلحة الإسلامية يتمثل بموقفه من الخلفاء؛ حيث التعاون والتآزر ضمن الأهداف المشتركة، وفيما يلي نستعرض أهم المواقف والممارسات الواقعة في طريق الوحدة والنابعة من مراعاة المصلحة الإسلامية العليا.

الاعتراض السلمى

بعد أن تمخض اجتماع السقيفة عن إعلان بيعه أبي بكر اعترض الإمام على عليه السلام على هذا الاعلان اعتراضاً سلمياً بحدود تبيان وجهه نظره طبقاً للأسس والموازن المساعدة لهذا الاعتراض، وكان يقول: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم لا أبأبعكم وأنتم أولى بالبيعة لى» (١).

وكان يوجه أنظار المهاجرين إلى خصائص من هو أهلاً للخلافه طبقاً للثوابت الشرعية والعقلية، حيث يقول: «والله يا معشر المهاجرين، لنحن أحقّ الناس به، لأننا أهل البيت، ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا إلّا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنّه لفينا...» (٢).

وكان اعتراضه حقاً طبيعياً طبقاً للظروف الموضوعية واستناداً للمبررات التي تمنحه الحق في الاعتراض والدعوة إلى نفسه، وإذا غضضنا النظر عن نقاط الاختلاف في هذه المبررات من حيث التفسير والتأويل، وتمسكنا بالنقاط المشتركة التي لا يختلف فيها بين الصحابة نجد أنّ اعتراضه على الشورى أو نتائجها لا يخرج عن المؤلف من أسس وموازن ثابتة لدى الجميع وأهمها: غياب بنى هاشم وأغلب الصحابة عن اجتماع السقيفة، وبروز القبليّة في الحوار الساخن مع المغالبة والتهديد، واعتراف المشاركين بفقدان أسس الشورى، وعدم اختيار الأعلم والأفقه، والاحتجاج بالقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله على الرغم من قرب بنى

١- ١ الإمامة والسياسة ١: ١١- ابن قتيبة الدينورى- مطبعة البابى- مصر- ١٣٨٨ هـ.

٢- ٢ المصدر السابق ١: ١٢.

ص: ٢٤٦

هاشم والإمام على عليه السلام له صلى الله عليه وآله.

وفي جميع موارد ومواقع الاعتراض كان الإمام على عليه السلام محافظاً على القواعد الشرعية في أدب الحوار والنقاش والاعتراض، وكان موقفه سلمياً لا يتعدى تبيان حقه بالخلافه، ومما جاء في ذلك قوله لأبي بكر: «كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً، فاستبدتم به علينا» (١).

البيعة والوحدة الإسلامية

مهما اختلف الرواة والمؤرخون في وقت بيعة الإمام عليه السلام لأبي بكر وأسلوبها، فإن النتيجة كانت حفاظاً على وحدة الدولة الإسلامية ووحدة الأمة الإسلامية، وحاجة الدولة الفتية إلى دور الإمام على عليه السلام في إنجاح المسيرة، وفي المرحلة التي سبقت البيعة أو التي تلتها بقليل رفض الإمام عليه السلام جميع المواقف والممارسات التي تدعو إلى التباغض والعداء والتشتت، ومنها: موقفه من عتبة بن أبي لهب حينما قال:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن

فبعث إليه الإمام عليه السلام فنهاه وأمره أن لا يعود وقال: «سلامة الدين أحب إلينا من غيره» (٢).

وحينما قدم أبو سفيان المدينة قال: «... والله، إنني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم... أين المستضعفان أين الأذنان على والعباس».

وقال: «أبا حسن ابسط يدك حتى أباعك» فزجره الإمام وقال له: «إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك» (٣).

واستمر أبو سفيان في تحريضه فقال: «... فوالله إن شئت لأملأها على أبي

١- ٣ تاريخ الطبري ٢: ٢٣٦- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ط ٢.

٢- ٤ شرح نهج البلاغة ٦: ٢١- ابن أبي الحديد- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- ١٣٧٨ هـ- ط ١.

٣- ٥ تاريخ الطبري ٢: ٢٣٧.

ص: ٢٤٧

فصيل خيلاً ورجالاً» (١).

فجزه الإمام عليه السلام لأنّ موقف أبي سفيان مخالف لأهداف الإمام عليه السلام الكبرى في الحفاظ على الكيان والوجود الإسلامي؛ لأنّ الهدف من الخلافة هو تقرير مبادئ الإسلام في واقع الحياة وجعلها حاكمة على الأفكار والعواطف والممارسات، ولا يتحقّق هذا الهدف بتصديق الجبهة الداخلية وإشغالها بالمعارك الجانيّة، إذ لا قيمة للخلافة أمام تلك الأهداف السامية. وقد تعدّدت الروايات في الأسباب والعوامل التي دفعته للبيعة بين السلبية والإيجابية، ونحن نختار الايجابي منها لأنّه الأقرب للواقع ولحرص الإمام عليه السلام على المصلحة الإسلامية والوحدة الإسلامية، ومن هذه الروايات: «انّ عثمان قال له: يا ابن العمّ! إنّه لا يخرج أحد إلى قتال هذا العدوّ وأنت لم تباع، ولم يزل به حتّى مشى إلى أبي بكر، فسرّ المسلمون بذلك وجدّ الناس في القتال» (٢). وإذا تبينا رواية تهديده بالقتل فالأمر لا يختلف؛ لأنّ قتله عليه السلام سيؤدى إلى الفرقة والتشتت، وهذا ما يخالف أهدافه الكبرى في الحفاظ على وحدة المسلمين.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن موقفه الودود قائلاً: «إنّ الله لما قبض نبيّه، استأثرت علينا قريش بالأمر، ودفعتنا عن حقّ نحن أحقّ به من الناس كافة، فرأيت أنّ الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين، وسفك دمائهم، والناس حديثو عهد بالإسلام، والدين يمحض محض الوط، يفسده أدنى وهن، ويعكسه أقلّ خلف» (٣).

فكان توحيد الصف أهم من حقّه بالخلافة، وقد راعى المصلحة الإسلامية الكبرى في هذا الموقف.

وقال عليه السلام في موقف آخر: «... فما راعنى إلّا انثيال الناس على أبي بكر، وإجفالهم إليه ليبياعوه، فأمسكت يدي، ورأيت أنّي أحقّ بمقام محمّد صلى الله عليه وآله في الناس ممّن تولّى الأمر من بعده، فلبثت بذاك ما شاء الله حتّى رأيت راجعاً من الناس

١- ٦ الكامل في التاريخ ٢: ٢٢١- ابن الأثير- دار صادر- بيروت- ١٣٨٥ هـ.

٢- ٧ بحار الأنوار ٢٨: ٣١٠- محمد باقر المجلسي- مؤسسه الوفاء- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ط ٢.

٣- ٨ شرح نهج البلاغة ١: ٣٠٨.

ص: ٢٤٨

رجعت عن الإسلام، يدعو إلى محق دين الله وملة محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً وهدماً يكون المصاب بهما عليّ أعظم من فوات ولاية أموركم... فمشيت عند ذلك إلى أبي بكر فبايعته، ونهضت في تلك الأحداث، حتى زاغ الباطل وزهق، وكانت كلمة الله هي العليا» (١).

دوره في إخماد الفتنة

لم ينزل الإمام عليّ عليه السلام عن الأحداث في عهد أبي بكر، فهو وإن لم ينصب والياً أو قائداً عسكرياً إلماً أنه كان يتفاعل مع الأحداث ليؤدّي دوره في الإصلاح والتغيير وفي ترشيد وتسديد الأعمال والممارسات، فكان له دور ملموس في حركة الدولة والأمة، ففي أوائل خلافة أبي بكر اعتزل بعض الأنصار عنه، فغضب بعض المهاجرين من هذا الموقف وتطور الأمر وهجا عمرو بن العاص وأبو سفيان الأنصار وحرضوا على قتالهم، فلما سمع الإمام عليه السلام بالأمر خرج مغضباً حتى دخل المسجد فذكر الأنصار بخير، وردّ على عمرو بن العاص قوله، فلما علمت الأنصار ذلك سرّها وقالت: «ما نبألى بقول من قال مع حسن قول عليّ» (٢).

وكان لموقفه في الدفاع عن الأنصار الدور الأكبر في إخماد الفتنة؛ لأنه أحد رؤوس المهاجرين في نظر الأنصار، ولم يتطور الموقف أكثر من ذلك، فقد كانت لحكمته الدور الأكبر في تجاوز الأزمة وسكون الفتنة.

الدفاع عن الدولة وإسنادها

على الرغم من وجود فواصل فكرية وسياسية بين الإمام على عليه السلام وقادة الدولة الإسلامية إلماً أنه تعامل معها كفواصل جزئية لا تعزله عنهم، بل تتحرّك فيها الخطى والممارسات والمواقف نحو الأهداف المشتركة الكبرى، وكان يتعامل مع الأحداث انطلاقاً من المصلحة الإسلامية العليا، في ظروف تكالبت فيها قوى الكفر والشرك للقضاء على هذه الدولة، وكان أعداء الدولة والأمة الإسلامية لا يفرّقون في عدائهم بين الإمام على عليه السلام وغيره، وكانوا يتصيدون كلّ حجة وكلّ

١- ٩ شرح نهج البلاغة ٦: ٩٥.

٢- ١٠ تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٨- دار صادر- بيروت.

ص: ٢٤٩

فرصة وكل ثغرة لينفذوا منها إلى الطعن في صحّة الرسالة، وإلى بلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب وخلق الفتن في صفوف الكيان الإسلامي.

وفي هذه الظروف والأجواء دافع الإمام عليه السلام عن الدولة وساندها كما لو كان هو الخليفة، فحينما جاءت وفود أسد وغطفان وهوازن إلى أبي بكر وطالبوه بإعفائهم من الزكاة، وحينما رجعوا أخبروا عشائرهم بقلّة أهل المدينة وأطمعهم فيها، فطلب أبو بكر من الإمام عليه السلام أن ينصب كميناً على أطراف المدينة، فاستجاب عليه السلام للطلب، فلم يستطيعوا الهجوم وتراجعوا لأنّهم وجدوا أنّ المدينة محروسة (١).

ورد الإمام عليه السلام هجوم قبيلتي عبس وذبيان وبعض القبائل التي اغتنمت فرصة انشغال الجيش بإطفاء نار الارتداد (٢). وكان عليه السلام حريصاً على سلامة القيادة السياسية والعسكرية المتمثلة بأبي بكر؛ لأنّ مقتله سيشتج الطامعين على الإسراع في مخططاتهم الرامية لتفويض الكيان الإسلامي، فحينما أراد أبو بكر الخروج بنفسه لقتال المرتدين منعه الإمام عليه السلام وقال: لا تفجعنا بنفسك..» (٣).

وحينما أراد أبو بكر غزو الروم «استشار جماعة فقدّموا وأخروا، ولم يقطعوا برأى، فاستشار عليّاً في الأمر، فقال: إن فعلت ظفرت، فقال: بشّرت بخير» (٤).

فالإمام على عليه السلام لمكانته ومقامه بين المسلمين إضافةً إلى خبرته العسكرية كان رأيه بشارةً وانطلاقاً للتوجّه إلى غزو الروم، وكان الفتح حليف المسلمين.

حل المسائل المستعصية

كان أبو بكر يحترم مكانة الإمام عليه السلام العلمية، وكان يشيد به ويعترف بحقّه وفضله، وكان يمدحه في كثير من المواقف ومن أقواله في حقّه: «من سرّه أن ينظر إلى أعظم الناس منزلةً من رسول الله صلى الله عليه وآله وأقربه قرابه، وأفضله دالّة، وأعظمه غناءً عن نبيّه فليتنظر إلى هذا» (٥).

١- ١١ المنتظم ٤: ٧٥- عبد الرحمن بن الجوزي- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٢ هـ- ط ١.

٢- ١٢ لا سنة ولا شيعه: ٢١- د. محمد علي الزعبي- دار التراث الإسلامي- ١٣٩٤ هـ.

٣- ١٣ تاريخ الخلفاء: ٥٧- عبد الرحمن السيوطي- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٨ هـ.

٤- ١٤ تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٣.

٥- ١٥ مختصر تاريخ دمشق ١٧: ٣٢٠- ابن عساكر- دار الفكر- دمشق- ١٩٨٨ م.

ص: ٢٥٠

وكان يلتجأ إليه في المسائل المستعصية، سأله اليهود فأجابهم، ثم سأله عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «ولكن الحديث عنه شديد وهذا علي بن أبي طالب» فأرسلهم إلى الإمام على عليه السلام فأجابهم (١).

وسأله ملك الروم عن مسائل فأخبر بذلك علياً فأجابه، وأراد أن يقيم الحد على شارب خمر، فقال الرجل: إني شربتها ولا علم لي بتحريمها، فأرسل أبو بكر إلى الإمام يسأله، فقال: مرّ نقيين من رجال المسلمين يطوفان به على المهاجرين والأنصار وينشدانهم: هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم؟ ففعل، ثم خلى سبيله ولم يحده (٢).

عدم التدخّل في الأمور الجزئية

كان الإمام على عليه السلام لا يتدخّل في الأمور الجزئية التي لا ضرر فيها على المصلحة الإسلامية العليا، أو ليست من الأمور المهمة للمسلمين، فلم يحدثنا التاريخ أنه اعترض على تعيين بعض الولاة أو بعض قادة الجيش، وخصوصاً الذين لا يراهم أهلاً للمسؤولية، ولم يتدخّل في تبديلهم أو عزلهم، أو يقترح تعيين البعض دون البعض الآخر، ولم يعترض على بعض الأخطاء التي ارتكبت؛ لأنه وجد أنّ غيره قد اعترض عليها كبعض الأخطاء التي حدثت في حروب الردة أو حروب مانعي الزكاة.

استخلافه على المدينة في خلافة عمر بن الخطاب

أصبح عمر بن الخطاب خليفة بعهد من أبي بكر، فلم يعترض الإمام على هذا الاستخلاف، ولم يتخلف عن مختلف الأعمال والنشاطات والممارسات الميدانية التي تحتاج إلى رأيه وجهده، وكان ينفذ ما يطلب منه ما دام منسجماً مع قواعد وأسس الشريعة الإسلامية.

وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر في كثير من القضايا إلماً أنّ ذلك لم يمنع من التعاون والتآزر تحت ظل الآفاق العليا للمنهج الإسلامي.

١- ١٦ ذخائر العقبى: ٨٠- محمد بن جرير الطبري- مؤسسة الوفاء- بيروت- ١٤٠١ هـ.

٢- ١٧ مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٩٧- ابن شهر آشوب- دار الأضواء- بيروت- ١٤١٢ هـ.

ص: ٢٥١

وإذا تتبعتنا سيرة عمر نجده لم يعهد إلى الإمام عليه السلام منصباً في ولاية أو إمرة جيش أو في أى مجال آخر، وكان هذا شأنه مع الكثير من المهاجرين، ومع ذلك كان يستخلفه على المدينة، وخصوصاً في الوقائع التي يشترك فيها الخليفة أو المتوقفه على اشتراكه، فقد استخلفه على المدينة في سنة ١٤ هـ، وفي سنة ١٥ هـ، وفي سنة ١٨ هـ (١).

واستخلفه على المدينة يعبر عن ثقة عمر به، وشهادة له بالإخلاص للإسلام وللدولة الإسلامية، وإيماناً منه بتقدير المصلحة الإسلامية العليا، والعمل الدؤوب من أجل تحقيق وحدة الدولة والأمة.

الاستعانة بالإمام عليه السلام في المجال العسكري

كان عمر بن الخطاب يستعين بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حينما يريد اتخاذ موقف معين، وكان اختصاصه بالإمام على عليه السلام أكثر من غيره، وكان الإمام عليه السلام لا يبخل بإبداء توجيهاته وملاحظاته وكان مخلصاً في النصيحة ما دامت مصلحة الإسلام هي العليا.

فحينما شاوره في الخروج إلى غزو الروم، نصحه بعدم الخروج بنفسه، وقال له: «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك؛ فتلقهم فتنبك لا- يكن للمسلمين كهف دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الاخرى، كنت رداءً للناس ومثابةً للمسلمين» (٢).

وفي غزوة نهاوند نصحه بالبقاء في المدينة وإبقاء أهل الشام وأهل اليمن في بلدانهم خوفاً من هجوم الروم والحبشة عليهم من الخلف أو فراغ بلدانهم من الرجال، وكان الرأي الأمثل هو الاستعانة بثلاث أهل البصرة وثلاث أهل الكوفة، ومما جاء في نصيحته: «... إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير العرب وأصل العرب، فكان ذلك أشد لقلبهم وألبتهم على نفسك» (٣).

١- ١٨ الكامل في التاريخ ٢: ٤٥٠، ٥٠٠ وتاريخ الطبرى ٢: ٣٨١، ٤٤٩.

٢- ١٩ شرح نهج البلاغة ٨: ٢٩٦.

٣- ٢٠ المنتظم ٤: ٢٧٣ وتاريخ الطبرى ٢: ٥٢٤.

ص: ٢٥٢

وحيثما تحصّن المشركون بيت المقدس أجابوا إلى الصلح بشرط قدوم الخليفة عليهم، فاستشار الإمام بذلك فأشار عليه (بالمسير إليهم ليكون أخفّ وطأه على المسلمين في حصارهم بينهم) (١).

وقال له: «إن القوم قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذلّ والصغار ونزولهم على حكمك عزّ لك وفتح للمسلمين... حتى تقدم على أصحابك وجنودك، فإذا قدمت عليهم كان الأمر والعافية والصلح والفتح إن شاء الله» فأخذ عمر بمشورته (٢).

ولم يتخلّف أنصار الإمام على عليه السلام - وهم الذين يرون أحقيته بالخلافة - عن الغزوات والفتوحات التي قادها الخليفة أو من نصبه قائداً عسكرياً، تبعاً لإمامهم الذي ربّاهم على تحكيم المصلحة الإسلامية العليا على جميع المصالح، فاشترك أبناء عمّه العباس فيها، واشترك أبناء اخوانه فيها، ومنهم محمد بن جعفر الذي استشهد في تستر، واشترك عمّار بن ياسر وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وجابر بن عبد الله بأغلب الغزوات والفتوحات (٣).

وقد أطاعوا الخليفة وقادة الجيش كما لو كان الإمام هو الخليفة، وقد أخلصوا لهذه الدولة متعاليين على جميع الفواصل الجزئية ما دام المنهج الإسلامي هو المحور المشترك للجميع.

الاستعانة بالإمام عليه السلام في القضاء

كان عمر بن الخطّاب يستعين برأى الصحابة وخصوصاً رأى الإمام عليه السلام وكان الإمام عليه السلام يسانده ويؤازره في اختيار الموقف الأصوب، وكان يتدخّل ابتداءً لتغيير حكم أو تنفيذه، وكان عمر يمتدحه بعد نجاح الموقف ويرى أنّه السبب في إنقاذه من المواقف الحرجة في القضاء والحكم بين الناس.

استشاره في عقوبة شارب الخمر فقال: «أرى أن تجلده ثمانين، فإنّه إذا سكر هذى، وإذا هذى افتري» فجلد عمر في الخمر ثمانين (٤). وبلغه عن امرأة من قريش أمر مريب فبعث إليها يدعوها، فارتاعت وسقط

١- ٢١ البداية والنهاية ٧: ٥٥- ابن كثير - دار الفكر - بيروت.

٢- ٢٢ الفتوح ١: ٢٢٥.

٣- ٢٣ الكامل في التاريخ ٢: ٥١٢ و ٣: ٩.

٤- ٢٤ تاريخ المدينة المنورة ٢: ٧٣٢- ابن شبة النميري - مكة المكرمة - ١٣٩٩ هـ.

ص: ٢٥٣

جنيها، فاستشار جماعة من الصحابة، فقالوا: ما نرى عليك شيئا، فقال الإمام على عليه السلام: «أرى أنك قد ضمنت ديتة»، فقال عمر: صدقتني (١).

وذكر الطبري بعض الروايات في الاستعانة بالإمام في القضاء؛ وكان يتدخل أحيانا دون استشارة ليغير الحكم، فيمضي عمر حكمه عليه السلام ومن ذلك:

أمر عمر برجم امرأة حامل اعترفت بالفجور، فتلقاها علي فردها وقال: «فما سلطانك على ما في بطنها» فخلّى سبيلها. وحيء بامرأة أصابها العطش فأجبرها رجل على الفاحشة، ففعلت، فشاور عمر عليا فقال: «هي مضطرة إلى ذلك» فخلّى عمر سبيلها. وأراد عمر رجم امرأة ولدت لستة أشهر خلافا للمتعارف، فأثبت علي له صحة الحمل لستة أشهر، فرجع عن قراره. واشتكى رجل عنده على علي لأنه لطمه، فسأله عمر فقال: «لأنني رأيتك يتأمل حرم المؤمنين في الطواف»، فقال عمر: أحسنت يا أبا الحسن (٢) فلم يجد بأسا في أن يقوم علي عليه السلام بتأديب الرعية دون علمه ودون أمره.

وأراد عمر رجم امرأة محصنة فجر بها غلام فقال الإمام عليه السلام: «لا يجب الرجم لأن الذي فجر بها ليس بمدرك». وسأل رجل عمر حول حليّة زوجته التي طلقها مرة وهو مشرك ومزّين وهو مسلم، فقال عمر: كما أنت حتى يجيء علي، فأتى علي فقال: «هدم الإسلام ما كان قبله» واعتبرها تطليقتين (٣).

الاستعانة برأي الإمام في تداول الثروة

الثروة واسلوب تداولها من الامور الحساسة بعد القضاء، ولها تأثيرها الواضح على سير الأعمال والنشاطات والممارسات؛ ولهذا فإن الإمام عليه السلام بذل ما يمكن بذله من إبداء النصح والتوجيه ليكون أسلوب تداول الثروة منسجما مع أساسيات الشريعة الإسلامية ومع المصلحة العامة للدولة وللأمة وللإسلام.

١- ٢٥ انساب الأشراف ٢: ١٧٨- البلاذري- مؤسسه الأعلمي- بيروت- ١٣٩٤ هـ.

٢- ٢٦ ذخائر العقبى: ٨١، ٨٢.

٣- ٢٧ مناقب آل أبي طالب ٢: ٤٠٢، ٤٠٥.

ص: ٢٥٤

وأول بادرة للاستشارة حينما أراد عمر بن الخطاب التفرغ لتسيير حركة الدولة وحركة المسلمين استشار الصحابة في حقه في بيت المال، فاختلفت أقوالهم، فقال: ما تقول يا علي؟ فقال: «ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا المال غيره» فقال الصحابة: القول قول ابن أبي طالب (١).

وقدم على عمر مال فيه مجوهرات وذهب وفضة، فاستشار الصحابة فقال الإمام عليه السلام: «لم يجعل الله علمك جهلاً ويقينك شكاً، إنه ليس لك من الدنيا إلّا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفانيت، وإنك إن تبعته على هذا اليوم لم تعدم في غدٍ من يستحقّ به ما ليس له» فقال عمر: صدقتني ونصحتني (٢).

وشاور عمر الصحابة في سواد الكوفة، فقالوا له: تقسمها بيننا، فشاور الإمام عليه السلام فقال: «إن قسّمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن تقرّها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا». فقال عمر: «وَقَفَّكَ اللَّهُ هَذَا الرَّأْيَ» (٣).

وكان عمر متردداً في خزائن بيت الله وما فيها من أموال وسلاح، أتركها أم يوزّعها فقال له الإمام عليه السلام: «... لست بصاحبه، إنّما صاحبه منّا شاب من قريش يقسمه في سبيل الله في آخر الزمان» (٤).

وحينما وضع عمر الدواوين وفرّق بين المسلمين بالعطاء على أساس السبق في الايمان والهجرة، فقدّم المهاجرين على الأنصار، والأنصار على مسلمي الفتح، ومسلمي الفتح على المتأخرين إسلاماً، لم يعترض الإمام عليه السلام على طريقة التوزيع، وإن كان قد ساوى في العطاء في وقت خلافته كما يذكر جميع المؤرخين، فقد يكون مراعيًا للظروف الموضوعية في ذلك، أو عدم رغبته في مخالفة الخليفة أو الصحابة، أو أنّ أسلوب التداول والعطاء من صلاحيات الخليفة في حدود المصلحة العامة ولا محذور شرعي فيه، وعلى العموم فإنّ الإمام عليه السلام لم يعترض على طريقة التوزيع، ولم يخالف رأى عمر في حينه.

١- ٢٨ تاريخ الطبري ٢: ٤٥٣ والمنتظم ٤: ١٩٧.

٢- ٢٩ الكامل في التاريخ ٢: ٥١٨.

٣- ٣٠ تاريخ يعقوبى ٢: ١٥١، ١٥٢.

٤- ٣١ كنز العمال ١٤: ٥٩١- حسام الدين الهندي- مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ.

ص: ٢٥٥

بذل الإخلاص في المشورة في جميع الجوانب

كان عمر يستعين برأى الإمام عليه السلام في جميع جوانب الحياة وفي جميع المرافق التي تحتاج إلى مشورة وإلى تسديد وتوجيه، وكان الإمام عليه السلام يبدى توجيهاته ونصائحه المنسجمة مع المصلحة الإسلامية العليا.

حينما أراد عمر كتابة التاريخ ارتأى أن يكتبه من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله، وارتأى بعض الصحابة أن يكتبه من تاريخ وفاته صلى الله عليه وآله، فكان رأى الإمام عليه السلام أن يكتب من يوم الهجرة إلى المدينة، واستقر الأمر على ذلك (١).

وأراد عمر بيع أهل السواد فقال الإمام عليه السلام: «دعهم شوكة للمسلمين» فتركهم على أنهم عبيد (٢).

وبلغ عمر أن أحد عماله باع ما يحرم بيعه وجعل الثمن في بيت المال، فاستشار الإمام بذلك، فقال: «أما أن تعزله وإما أن تكتب إليه أن لا يعود» (٣).

وكان يستقى من آراء الإمام عليه السلام ويتقبلها، ففي أحد أيام الحج قبل الحجر الأسود، ثم قال: (إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبلك ما قبلك).

فقال الإمام عليه السلام: «... بل هو يضر وينفع، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود» (٤).

واستعان بأنصار الإمام عليه السلام في أعماله - إيماناً منه بإخلاص الإمام عليه السلام وإخلاص أنصاره - فعين سلمان والياً على المدائن، وعماراً على الكوفة، وأسند بعض المناصب الحساسة لأنصاره الآخرين، فكان بعضهم حلقة الوصل بين الخليفة وقادة الجند (٥).

وقد أخلصوا في أعمالهم كما أخلص الإمام عليه السلام في مشورته، فكانوا ينظرون إلى المصلحة الإسلامية العليا وإلى وحدة الدولة والأمة.

وقد عبر عمر بن الخطاب عن تلك السيرة وذلك الحرص من قبل الإمام عليه السلام

١- ٣٢ الكامل في التاريخ ٢: ٥٢٦ وتاريخ المدينة المنورة ٢: ٧٥٨.

٢- ٣٣ مناقب آل أبي طالب ٢: ٤٠٧.

٣- ٣٤ أنساب الأشراف ٢: ٧٨.

٤- ٣٥ إحياء علوم الدين ١: ٢٤٢- أبو حامد الغزالي - دار الندوة الجديدة.

٥- ٣٦ الكامل في التاريخ ٢: ٥١٢، ٥٤٨، ٣: ٩، ١٨.

ص: ٢٥٦

على المصلحة الإسلامية، وعلى حفظ وحدة الكيان الإسلامي ووحدة المسلمين؛ بأقواله بحقه، تقديراً منه للجهود التي بذلها في تسيير الأحداث والوقائع المختلفة، ومن أقواله بحق الإمام عليه السلام قوله: «لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن» و «أعوذ بالله أن أعيش في يوم لست فيه يا أبا الحسن» و «لولا على لهلك عمر» (١).

وقال لعبد الله بن عباس: «إن علياً ابن عمك لأحق الناس بها، ولكن قريشاً لا تحتمله، ولئن وليهم ليأخذنهم بمر الحق لا يجدون عنده رخصة» (٢).

الموقف من الشورى

حينما طعن عمر جعل أمر الخلافة بيد سته من الصحابة يختارون أحدهم، وأمر بقتل كل من خالف الاختيار، وكان الإمام عليه السلام يتوقع النتائج، وكان يقول:

«فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون» (٣).

ومع علمه بالنتائج إلا أنه قبل بالاجتماع واشترك فيه، فحينما قال له عمه العباس لا تدخل معهم كان جوابه: «إني أكره الخلاف» (٤).
و حينما تمخضت النتائج بترشيح عثمان خليفة من قبل عبد الرحمن بن عوف اكتفى الإمام عليه السلام بالقول: «ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» (٥)...

فقد عبر عن رأيه بلا موقف سلبي، وقال لعبد الله بن عباس: «إني رأيت الجميع راضين به فلم أحب مخالفة المسلمين حتى لا تكون فتنة بين الأمة» (٦).

ووضع عليه السلام ميزاناً ثابتاً في التعامل مع السلطة والخلافة، فقدّم مصلحة الإسلام العليا على جميع المصالح، وقدّم الوحدة الإسلامية على جميع المغنم والمكاسب الآنية والذاتية، فخاطب أهل الشورى قائلاً: «لقد علمتم أنني أحمق بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين؛ ولم يكن فيها جور إلا على خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه» (٧).

وكان يقول: «ف نظرت في أمري، فإذا طاعتني قد سبقت بيعتي، وإذا ميثاقي قد

١- ٣٧ ذخائر العقبى: ٨٢ وتاريخ الخلفاء: ١٧١ والطبقات الكبرى ٣: ٣٣٩.

٢- ٣٨ تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥٩.

٣- ٣٩ تاريخ الطبري ٤: ٢٣٠.

٤- ٤٠ الكامل في التاريخ ٣: ٦٦.

٥- ٤١ سورة يوسف الآية: ١٨.

٦- ٤٢ الكامل في التاريخ ٣: ٧١.

٧- ٤٣ الفتوح ١: ٢٣٥.

٨- ٤٤ شرح نهج البلاغة ٦: ١٦٦.

ص: ٢٥٧

أخذ لغيري، فبايعت عثمان فأديت له حقه» (١).

فقد تعالى عليه السلام على كثير من الامور حفاظاً على المصلحة الإسلامية العليا، وعلى وحدة الدولة والأمة، ووقف بجانب الخليفة الجديد لتحقيق الهدف الأكبر وهو تقرير مبادئ الإسلام في واقع الحياة، ومما نسب إليه في هذا الأمر قوله: «لو سيرني عثمان عنه إلى صرار لسمعته وأطعت الأمر» (٢). وصرار موقع على بعد عدة أميال من المدينة.

مشاركة أتباعه في الغزوات

لم يحدثنا التاريخ عن اشتراك الإمام عليه السلام في الغزوات، وإنما حدثنا عن مشاركة أتباعه وأنصاره وأبنائه فيها، فقد اشترك أبو أيوب الأنصاري وأبو ذر الغفاري في بعض الغزوات، واشترك عبدالله بن عباس في فتح افريقية، واشترك الحسن والحسين وابن عباس وآخرون في غزو طبرستان بإمرة سعيد بن العاص (٣).

وهذه المشاركة تدلّ دلالة واضحة على تأييد وإسناد الإمام عليه السلام للغزوات والفتوحات؛ لأنها بالنتيجة تقع في طريق المصلحة الإسلامية العليا متمثلة بالدعوة إلى الإسلام وإلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية وفرض سلطانها على أرجاء الأرض.

الاستعانة برأي الإمام عليه السلام

إيماناً من عثمان بن عفان بإخلاص الإمام عليّ عليه السلام للمنهج الإلهي وجهاده من أجل المصلحة العليا ووحدة المسلمين كان يستعين برأيه لترشيد وتسديد المسيرة، وكان الإمام عليه السلام يتدخل أحياناً لتغيير بعض قرارات الحكم وإن لم يستشار بها.

فقد تدخل لمنع إجراء الحدّ بامرأة، بعد أن أثبت براءتها بالأدلة الحسية (٤). وهنالك وقائع عديدة تدخل فيها الإمام عليه السلام لتكون الأحكام منسجمة مع قواعد الشريعة.

وقد وردت روايات عديدة تنصّ على أنّ عثمان إذا جاءه الخصمان (قال لأحدهما اذهب ادع علياً...) (٥).

١- ٤٥ تاريخ الخلفاء: ١٤١.

٢- ٤٦ تاريخ المدينة المنورة ٤: ١٢٠١.

٣- ٤٧ الكامل في التاريخ ٣: ٧٧، ٨٩، ١٠٩.

٤- ٤٨ مناقب آل أبي طالب ٢: ٤١٣.

٥- ٤٩ السنن الكبرى ١٠: ١١٢.

ص: ٢٥٨

وكان يستشير في اختيار الموقف المناسب من المعارضين لسياسته، فيشير عليه بإصلاح الأوضاع وتغيير بعض الولاء (١).
واتفق رأى عثمان مع رأى الإمام على عليه السلام في جمع المصاحف على قراءة واحدة (٢).
سيرة الإمام عليه السلام بعد الفتنة

بعد ستة أعوام من خلافة عثمان بدأت بوادر المعارضة له ولسيرته من قبل بعض الصحابة، ومن قبل بقيّة المسلمين في بعض الأمصار كالكووفة والبصرة ومصر، وقد خلقت هذه المعارضة جوّاً من الاضطراب والتخلخل في تماسك ووحدة الكيان الإسلامى، وفي ظلّ هذه الأجواء لم يقف الإمام على عليه السلام موقف الحياد أو الانعزال عن الأحداث وعن الميدان، وإنّما قام بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفاظاً على تماسك الكيان الإسلامى وحفاظاً على سلامة تطبيق المنهج الإسلامى من قبل الخليفة والولاء والأمة، وكان يحاول تهدئة الأوضاع والعلاقات المتشنجة؛ لكي لا تحدث الفتنة وتتوسّع ولكى لا يتمزق الكيان الإسلامى.
وكان أوّل موقف له عليه السلام أن حدّره من بعض الولاء الذين سبّبوا إثارة المعارضين؛ لأنّهم يدعون أنّ مواقفهم وأعمالهم كانت بأمر من عثمان (٣).

وكان ينصحه كثيراً كلّما خلى به، وكان يقول له: «أمّا الفرقة فمعاذ الله أن أفتح لها باباً، واسهّل إليها سبيلاً، ولكنى أنهاك عمّا ينهاك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك. ألا- تنهى سفهاء بنى أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأمواهم، والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك» (٤).

وكان يحدّره من مروان بن الحكم ومن الأخذ برأيه فيقول: «فلا تكوننّ لمروان سيقه يسوقك حيث شاء» (٥).
وكان الوسيط بينه وبين المعارضين، وكان عثمان يدعوه أحياناً للتدخل من

١- ٥٠ البداية والنهاية: ٧: ١٧١.

٢- ٥١ الكامل في التاريخ: ٣: ١١٢.

٣- ٥٢ تاريخ الطبرى- حوادث سنة ٣٤ هـ.

٤- ٥٣ شرح نهج البلاغة ٩: ١٥.

٥- ٥٤ شرح نهج البلاغة ٩: ٢٦٢.

ص: ٢٥٩

أجل تهدئة الأوضاع، قال له في أحد المواقف: «... ارددهم عني فأني أعطيتهم ما يريدون من الحق من نفسي ومن غيري». فقال له الإمام عليه السلام: «إن الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلِكَ وأنهم لا يرضون إلَّا بالرضا، وقد كنت أعطيتهم من قبل عهداً فلم تف به، فلا تغرر في هذه المرّة، فأني معطيهم عنك الحق». قال: اعطهم فوالله لأفین لهم.

فخرج الإمام عليه السلام إلى المعارضين فقال: «إنكم إنما تطلبون الحق وقد أعطيتموه وإنه منصفكم من نفسه». وكتب عثمان بينه وبين المعارضين كتاباً على ردّ كل مظلمة، وعزل كل عامل كرهوه، فكفوا عنه (١). إلما أن مروان بن الحكم اعتبر ذلك ضعفاً وأنه سيجرئهم عليه فخطب في المعارضين وقبحهم دون علم عثمان، فتأزمت الأوضاع، وتدخل الإمام مرّة أخرى فأرجع المعارضين وحدّره من مروان قائلاً: «والله ما مروان بذى رأى في دينه ولا نفسه، وأيم الله إنى لأراه سيوردك ثم لا يصدرك».

وبعد رجوعهم إلى بلدانهم أمسكوا بغلام عثمان، ويده كتاب يختمه يأمر والى مصر بقتلهم، فاقتنعوا أنه مكتوب من قبل مروان، فطالبوا عثمان بتسليمه إليهم فأبى فحدث الحصار (٢).

موقف الإمام عليه السلام بعد الحصار فشلت جميع محاولات المصالحة بين عثمان والمعارضين؛ لأنهم أصروا على تسليم مروان وأصرّ هو على عدم تسليمه، وبدأ الحصار ليستمرّ أربعين يوماً، وفي مدّة الحصار حاول الإمام عليه السلام تهدئة الأوضاع إلّا أنّ الظروف لم تساعد، واستمرّ عليه السلام على نهجه في تهدئة الأوضاع وإخماد الفتنة.

فقد وردت الأخبار أن عثمان اشتكى من موقف طلحة، فتوجّه الإمام عليه السلام إلى

١- ٥٥ شرح نهج البلاغة ٣: ١٥١.

٢- ٥٦ تاريخ الطبري- حوادث سنة ٣٥ هـ.

ص: ٢٦٠

طلحه وقال له: «يا طلحه ما هذا الأمر الذى وقعت فيه؟». فقال: «يا أبا الحسن بعدما مسّ الحزام الطيبين».

فانصرف الإمام عليه السلام حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب وأعطى الناس، فانصرفوا من عند طلحه حتى بقى وحده، وسرّ بذلك عثمان (١).

وحيما اشتدّ الحصار نصح الإمام عليه السلام المعارضين بعدم قطع الماء عنه، فلم يستجيبوا له، فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة بالماء (٢).

وبعث إليه عثمان فأتاه، فتعلّق به المعارضون ومنعوه، فحلّ عمامة سوداء على رأسه ورمأها داخل بيت عثمان ليعلمه وقال: «اللهم لا أرضى قتله... والله لا أرضى قتله» (٣).

وحيما أصبح الحصار أشدّ وطأه خرج الإمام عليه السلام ومعه الحسن والحسين عليهما السلام فحملوا على المعارضين وفرّ قوهم ثم دخلوا على عثمان، فأعفاهم عثمان من الدفاع عنه، فخرج الإمام عليه السلام وهو يقول: «اللهم إنك تعلم أنا قد بذلنا المجهود» (٤). وأرسل الإمام عليه السلام ولديه فى الدفاع عنه، فمنعوا المعارضين من الدخول إلى منزله، وقد أصابت الحسن عليه السلام عدّة جراحات فى الدفاع عنه (٥).

وكان الإمام عليه السلام من أشدّ المدافعين عن عثمان كما اعترف مروان بقوله للإمام زين العابدين عليه السلام: «ما كان فى القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم».

قال له الإمام عليه السلام: «فما بالكم تسبّونه على المنابر؟».

قال: «إنّه لا يستقيم لنا الأمر إلّا بذلك!!» (٦).

موقف وحدوى صريح

فى فترة الحصار توجه عدد كبير من المسلمين إلى الإمام عليه السلام ليصلّى بهم جماعة، ولكنّه رفض هذا الطلب وأجابهم «لا أصلى بكم والإمام محصور ولكن أصلى وحدى» (٧).

١- ٥٧ الكامل فى التاريخ ٣: ١٦٧.

٢- ٥٨ تاريخ الخميس ٢: ٢٦٢- حسين الدياربكرى- مؤسسه شعبان- بيروت- بدون تاريخ.

٣- ٥٩ الطبقات الكبرى ٣: ٦٨- ابن سعد- دار صادر- بيروت- ١٤٠٥ هـ.

٤- ٦٠ تاريخ الخميس ٢: ٢٦٣.

٥- ٦١ البداية والنهاية ٧: ١٨١ وتاريخ المدينة المنورة ٣: ١١٣١.

٦- ٦٢ أنساب الأشراف ٢: ١٨٤، وشرح نهج البلاغة ١٣: ٢٢٠.

٧- ٦٣ تاريخ الخميس ٢: ٢٦٣.

ص: ٢٤١

فقد رفض الإمام عليه السلام الصلاة بالمسلمين - وإن وجد المبرّر لها- ليحافظ على وحدة الصفّ الإسلامي ووحدة الخلافة، وليحافظ على حرمة ووقديّة منصب الخلافة، وللحيلولة دون حدوث تصدّع في الجبهة الداخليّة، ودون حدوث خلل واضطراب في العلاقات بين الصحابة وبين المسلمين عموماً.

وهكذا كانت سيرته عليه السلام في تعامله مع الأشخاص ومع المواقف ومع الأحداث، حيث كان منقاداً للمصلحة الإسلامية العليا، ولوحد الكيان الإسلامي؛ ولهذا تعاون وتآزر مع معاصريه من أجل تحقيق الأهداف الإسلامية الكبرى، ولم يشنه عن ذلك أيّ عارض أو عائق، فقد جعل الفواصل بينه وبين الخلفاء في حدودها الضيقة، وتعامل معها كفواصل جزئية من أجل أن يتوجه الجميع نحو الأفق الأوسع الذي يجمعهم تحت راية واحدة ومصلحة واحدة.

الهوامش:

ص: ٢٤٣

البعء المعنوى للحجّ فى رؤى الامام علىّ عليه السلام

ص: ٢٦٤

البعد المعنوى للحج في رؤى الإمام على عليه السلام

محمد على المقدادى

حينما نقف عند كلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول الحج، ونلاحظ أحاديثه العطرة، نجد أبعاداً فكرية ومعنوية للشخص وللمجتمع، والحق أن تلك الأبعاد هي الأسوة التي لا بد لنا منها طيلة حياتنا، فهي صالحة لكل إنسان، ولكل العصور. في هذه المقالة الموجزة بعد أن نتعرف على مواضع تحصيل المعنوية، ننتخب من آثاره عليه السلام ما له صلة بالبحث: ما هي المعنوية؟

إنّ استفتاح رحمة الله الواسعة، واستنزال بركاته الثمينة، يحتاج إلى مقدمات ومبادئ، كلما حصل منها شيء، حصل القرب إليه سبحانه وتعالى بمقدار ذلك، فالتقرب إلى الحق المبين يساوق المعنوية، فلا معنوية إلا بالتقرب. يقول بعض العلماء المهديين:

«اعلم أيها الطالب للوصول إلى بيت الله الحرام؛ أنّ للحضرة الأحديّة- جلّ شأنه العظيم- بيوتات مختلفة:

منها: الكعبة الظاهرية.

ومنها: البيت المقدّس.

ومنها: البيت المعمور.

ومنها: العرش.

ومنها: القلب.

ص: ٢٦٥

ومنها: الكعبة الحقيقية.

ولا شك ولا ريب في أنه لكل بيت من البيوت لطالبه رسوم وآداب... ثم اعلم أنه لعل الغرض من تشريع الحج أن المقصود الأصلي من خلق الإنسان هو معرفته الله، والوصول إلى درجة حبه والأنس به، ولا يمكن حصول هذين الأمرين إلا بتصفية القلب، ولا يمكن ذلك إلا بكف النفس عن الشهوات، والانقطاع من الدنيا الدنيئة، وإيقاعها على المشاق من العبادات، ظاهرية وباطنية» (١).

إن الإمام علياً عليه السلام كتب إلى الحارث الهمداني كتاباً يكون بمثابة فصل الخطاب حول تحصيل مواضع العبودية، والوصول إلى المراتب المعنوية، والآآن نذكر فقرات من ذلك الكتاب تمييزاً للفائدة:

«وتمسك بجبل القرآن واستنصحه، وأحلّ حلاله، وحرّم حرامه،... واحذر منازل الغفلة والجفاء وقلمه الأعوان على طاعة الله،... وأطع الله في جمل أمورك، فإن طاعة الله فاضلة على ما سواها، وخادع نفسك في العبادة، وارفق بها ولا تقهرها،... وإياك أن ينزل بك الموت وأنت آبق من ربك في طلب الدنيا، وإياك ومصاحبة الفساق، فإن الشرّ بالشرّ ملحق، ووقر الله وأحب أحبائه، واحذر الغضب، فإنه جند عظيم من جنود إبليس، والسلام» (٢).

فتبين من هذا أن تحصيل الكمالات يحتاج إلى العمل الصالح، والزجر والابتعاد من حرّات الله، وبهذا وبغيره يصير الإنسان وعاء صالحاً للمعنويات، ويصير أيضاً حقيقاً لاستفتاح الرحمة واستئزال البركة، وجديراً لأن يكون عالماً ربانياً. وفقنا الله لإدراك هذه المراتب والدرجات.

البعد المعنوي للحج

جرت السيرة العقلانية على الرجوع إلى الخبراء الأخصائيين، للتحقيق والبحث حول أمر ما، أو لرفع مشكل عند بروزه، وهذا أمر بديهي لا ينكره أحد، مثلاً، المريض إذا أراد أن يبرأ من المرض؛ لا يراجع غير المستشفى، ليفحص الطبيب مرضه ثم يداويه

١- ١ تذكرة المتقين، لآية الله الشيخ محمد البهاري الهمداني رحمه الله.

٢- ٢ نهج البلاغة، فيض الإسلام، الكتاب رقم: ٦٩.

ص: ٢٦٦

حتى يبرأ.

وإذا ما أردنا نحن البحث عن البعد المعنوي للحج فعلينا المراجعة إلى أخصائي خبير في هذا الموضوع، ألا- وهو الإمام علي عليه السلام، فهو الإنسان الكامل الذي بذل كل جهوده لصالح الأمة المسلمة، وهو الخبير الذي يكون كالبحر الواسع، ولا تزال تجرى من وجوده العلوم بكل فروعها، وبترشح من زلال معنوياته كل الخير.

والعجيب أنه لم يحدث حتى برواية واحدة طيلة حياة الرسول صلى الله عليه وآله، ولم ينقل منه عليه السلام خبر قط خلال تلك الفترة، إن هذا يحكى عن توقيره وشدّة احترامه لرسول الله صلى الله عليه وآله، بل الإمام عليه السلام قد بادر بأخذ العلم والحكمة من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وأخذ ما أخذ، حتى صار أفضل صحابته علماً وعملاً...

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» (١)

. ولأجل هذا قرّرنا أن نستفيد من كلماته الحكيمه (سلام الله وصلواته عليه) في هذه الوجيزه.

المناسك

إنّ المناسك التي أوجبها الله تعالى للحاج والمعتمر؛ مملوءة من الدروس والعبر، بعد أن كانت أحكاماً تبدأ من الميقات وتنتهي إلى الحلق أو التقصير، وإلى طواف النساء وصلاته، وتتجلى أهميّة هذه المناسك عندما نرى أحكامها المتعدّدة التي نحتاج لأدائها إلى ساعات بل أيام كالإحرام وتروكه، والطواف وصلاته، والسعي، والحلق أو التقصير، والوقوف بعرفات، والوقوف بالمشعر الحرام، والنفر إلى منى، والرمي، والذبح، والبيتوتة في منى أيام التشريق، وغيرها.

ولا يخفى أنّ ما يتحمّله الحاجّ من المعاناة والتعب والمشاق، يتيح له الفرصة لأن يفكر لماذا أمر الله سبحانه وتعالى عباده الأغنياء- ولا الفقراء- أن يأتوا من كلّ فجّ عميق إلى أداء المناسك؟ وقال عزّ من قائل: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٢)

. وإثر هذه الأهمية فقد كتب الإمام عليه السلام رسالة إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكّة:

«أما بعد، فأقم للناس الحجّ،

١- ١ تاريخ دمشق ٢: ٤٦٤، تحت الرقم ٩٩١ من ترجمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. ومناقب الإمام أمير المؤمنين، لمحمد بن

سليمان الكوفي القاضى، من أعلام القرن الثالث ٢: ٥٥٨.

٢- ٢ سورة آل عمران ٣: ٩٧.

ص: ٢٤٧

وذكرهم بأيام الله، واجلس لهم العصرين (١)، فأفتِ المُستفتي، وعلم الجاهل، وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفيراً إلا لسانك، ولا حاجبٌ إلا وجهك. ولا تحجبنَّ ذا حاجه عن لقائك بها، فإنها إن زيدت (٢) عن أبوابك في أول ورودها (٣)، لم تحمد فيما بعد على قضائها...» (٤)

أفاد الإمام عليه السلام خلال هذه الجمل الحكيمه، أن زائر بيت الله الحرام يحتاج إلى تعلم الأحكام والمناسك، وإذا نسي أو جهل فلا بد وأن يسأل العلماء عن كل ما يجهله. ونستفيد أيضاً لزوم مرافقه عالم ديني في هذه الأزمنه؛ للحاج أو المعتمر؛ لثلا يبقى جاهلاً، بل يبادر بتدارك أعماله العباديه طبقاً لوظيفته.

ولذلك نرى كل قوافل الحج تستفيد من عالم ديني عارف بالأحكام والمناسك، وهو يرافقهم في هذا السفر الإلهي المبارك، لأن آثار بطلان الحج والعمرة ربما تثير إلى فشل علاقات اجتماعيه، كحرمة الزواج، وحرمة المواقعه، وإلى وجوب أداء الكفارة وأمثالها. وفي ضوء ذلك يقول الإمام علي عليه السلام في كتابه إلى عامله على البصره؛ عثمان ابن حنيف الأنصاري: «... ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدى به ويستضيء بنور علمه...، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهادٍ وعفءٍ وسدادٍ...» (٥)

النظر إلى بيت الله

ومن وصاياه عليه السلام: «... إذا حججتم فأكثرُوا النظر إلى بيت الله فإنَّ لله مائة وعشرين رحمة عند بيته الحرام، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين...» (٦)

إنَّ السياحة والزياره من الأسباب التي يمكن تحصيل المعنويه بها؛ لأنَّ البصيره تحصل بالبصر. ولكن هل يكون لكل سياحه ولأى زياره هذا الأثر العظيم، أم يلزم ذلك زياره خاصه؟ والهدف من السياحة والنظر إلى الأماكن والآثار التاريخيه الموجوده في أنحاء العالم، هو الوقوف على الفنون

١-١ العصران: هما الغداة والعشي، على سبيل التغليب.

٢-٢ زيدت: أي دُفعت ومُنعت، مبني للمجهول من «ذاده يذوده» إذا طرده ودفعه.

٣-٣ بالكسر: ورودها.

٤-٤ نهج البلاغه، الدكتور صبحي الصالح، كتاب رقم: ٦٧، الصفحه: ٤٥٧.

٥-٥ نهج البلاغه، فيض الإسلام: ٩٦٦.

٦-٦ تحف العقول: ١٠٧.

ص: ٢٦٨

المعمارية القديمة وجهود الفنانين في تلك العصور، والعلم بالحضارات والثقافات الفانية التي أحدثتها الملل السابقة، وقد يكون الهدف من السياحة نفس السياحة، وليس شيئاً آخر؛ وحينئذ لا يوجد أى باعث معنوي لتلك السياحة ولذاك النظر.

نعم، قلما يتفق إثارة الباعث المعنوي، كأن يكون الزائر من الأشخاص الذين لا ينظرون إلى الظاهر فقط، بل يتوجهون إلى المعنى والباطن، وفي أثر هذا يدخرون الحسنات ليوم المعاد.

ثم إنه ليس للنظر ثواب ورحمة إلا في بعض الأشياء، كالنظر إلى وجه العالم، ونظر الولد إلى وجه والديه و...، وأما النظر إلى الكعبة الشريفة، فله ثواب أكثر لم يرد في الأحاديث مثله.

إن ساحة المسجد الحرام مملوءة بالرحمات الكثيرة، ولا يمكن الحصول على هذه الخيرات إلا في هذا المكان المقدس، فالزائر لبيت الله الحرام والمتواجد فيه، لا يخرج من هذه الحالات الثلاث:

إما أن يكون طائفاً، وإما أن يكون مصلياً، وإما أن يكون ناظراً.

فأما الطائف، تنزل لصالحه ستون رحمة.

وأما المصلي، فتنزل لصالحه أربعون رحمة.

وأما الناظر - سواء أكان جالساً في المسجد أو قائماً - عندما ينظر إلى بيت الله الحرام، فتنزل لصالحه عشرون رحمة.

وأنت ترى ما أنتج هذا السفر الإلهي من المعنويات والآثار المقدسة، فهل يمكن استئزال الرحمة في سائر الأماكن كاستئزالها في بيت الله الحرام؟

فالسير إلى ديار الوحي، والنفر من الأهل والولدان، للحضور في بلد الله الآمن الذي سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ...، ليس إلا باعث معنوي قوي؛ وهو النظر إلى الكعبة، وآيات الله البيّنات، والتوجه إلى سمات العبودية لله سبحانه وتعالى، وقطع العلاقات عن كل شيء وعن كل شخص وحتى عن نفسه.

وفي هذه الساحة المباركة - المسجد

ص: ٢٦٩

الحرام- يمكن إحساس اللحاق بالله تعالى وبالخلد والخلود والرجوع إلى الفطرة السليمة البعيدة من التلوث والانحراف، صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١)

إقرار العبد عند البيت

إنَّ عَظْمَهُ وَجَمَالَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَخُصُوصاً الْكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ، وَالْأُرُوقَةَ الْمُحِيطَةَ بِهَا، وَالْمَطَافَ، وَمَقَامَ إِبْرَاهِيمَ، وَحَجْرَ إِسْمَاعِيلَ وَالْمِيزَابَ وَالْحَطِيمَ وَالْمَلْتَزِمَ وَالْمَسْتَجَارَ وَبِثَرِ زَمْزَمَ، كُلٌّ مِنْهَا يُشِيرُ إِلَى الذِّكْرِيَّاتِ التَّأْرِيخِيَّةِ الْمَهْمَّةِ، وَأَجْمَلُ مِنْ ذَلِكَ مُنَاجَاةَ النَّاسِ فِي الْمَطَافِ الْمُقَدَّسِ بِمُخْتَلَفِ لُغَاتِهِمْ حِينَمَا يَبْدَأُ كُلٌّ مِنْهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنُوبِ.

والحقَّ أنَّ هذا المكان الرفيع المقدَّس أفضل الأمكنة للإقرار بالذنوب والمعاصي وطلب العفو من الله سبحانه وتعالى.

إنَّ الإمامَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ عليه السلام قال: «... أَقْرَأُوا عِنْدَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِمَا حَفِظْتُمُوهُ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَمَا لَمْ تَحْفَظُوهُ فَقُولُوا: مَا حَفِظْتَهُ يَارَبِّ عَلَيْنَا وَنَسِينَاهُ فَاغْفِرْ لَنَا، فَإِنَّهُ مِنْ أَقْرَبِ ذُنُوبِهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَعَدَّدَهَا وَذَكَرَهَا وَاسْتَغْفَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ مِنْهَا، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُ» (٢).

ينبغي للإنسان أن يكون عارفاً بما يفعل ويعمل، ويلزم عليه أن يحفظ في ذاكرته كل أعماله، خصوصاً ما كان منها يحتاج إلى طلب عفو، أو إعطاء حق، أو غيرهما. فإذا نسي ما لا بدَّ له من الجابر، فلا يمكن للناسي الفرار من سخط الله سبحانه وتعالى وعذابه، سيما إذا كان ذلك من حقوق الناس.

ولنعم ما قال صاحب تفسير آلاء الرحمن، العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي رحمه الله حول هذا الموضوع، حيث قال: «... إنَّ كثيراً من النسيان والخطأ ما يقع بسبب التساهل والتقصير في التحفظ لتحصيل ما كلف به، وهذا ممَّا لا تقبح فيه المؤاخذه على مخالفة الواقع، فطلبوا من الله أن لا يؤاخذهم في ذلك» (٣).

فقوله عليه السلام: «... وما لم تحفظوه فقولوا:

ما حفظته يا ربَّ علينا ونسيناه فاغفر لنا». يشعر بذلك المعنى؛ لأنَّه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء.

١- ١ سورة البقرة: ١٣٨.

٢- ٢ تحف العقول: ١٠٧.

٣- ٣ تفسير آلاء الرحمن ١: ٢٥٢-٢٥٣.

ص: ٢٧٠

قال سبحانه وتعالى: ما يلفظ من قولٍ إلهي رقيبٌ عتيدٌ (١).

وقال تعالى: إن كل نفسٍ لَمَّا عليها حافظٌ (٢).

وقال تعالى: إن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء (٣).

ثم إنه لا يخفى على المتدبر أن النسيان من النعم الكبيرة التي رزقها الله تعالى عباده، فلو لم يكن النسيان وكان الإنسان متذكراً دائماً بما أصابه من المصيبات والغموم والهموم، وبما ظلمه الظالمون، لم يبق حجر على حجر، ولكثرت الأحقاد والضغائن، والحوادث الدامية في المجتمع.

فالناظر إلى بيت الله الحرام، والحاضر في تلك الساحة المقدسة، يحق أن يباهى جميع الناس بأنه الزائر وأن المزور يغفر لزائره، ويا حبذا من هذا المقام المنيع، يقرب العبد في ذلك المكان المقدس الطاهر بذنوبه، والله سبحانه وتعالى يغفرها.

وبما أن الإنسان محل للزلة والخطأ، فلا بد وأن يجد مكاناً لغفران ذنوبه وزلاته، فهل يوجد مكان أفضل من المسجد الحرام لذلك الغرض؟ ولهذا أمرنا الإمام عليه السلام بالحضور الدائم فيه وأوصى الناس أن لا يتركوا البيت العتيق خالياً:

قال عليه السلام في وصيته لابنه الحسن المجتبي عليه السلام: «... الله الله في بيت ربكم فلا يخلو منكم ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا وأدنى ما يرجع به من أمه أن يغفر له ما سلف» (٤).

إن الإمام عليه السلام لم يوص بهذا الأمر فقط، بأن لا يخلو البيت وأن يكون دائماً مملوءاً من المستغفرين، بل إنه عليه السلام عمل بهذا المعنى ليعلمنا كيف نستغفر الله وكيف نتقرب إليه؟! وإليك بعض النصوص الواردة في هذا الأمر:

كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا صعد الصفا استقبل الكعبة ثم يرفع يديه ويقول:

«اللهم اغفر لي كل ذنب أذنبته قط، فإن عدت فعد علي بالمغفرة، فإنك أنت الغفور الرحيم، اللهم افعل بي ما أنت أهله، فإنك إن تفعل بي ما أنت أهله ترحمني، وإن تعدبني فأنت غني عن عذابي وأنا محتاج إلى رحمتك، فيامن

١- ١ سورة ق: ١٨.

٢- ٢ سورة الطارق: ٤.

٣- ٣ سورة آل عمران: ٥.

٤- ٤ تحف العقول: ١٩٨.

ص: ٢٧١

أنا محتاج إلى رحمته ارحمني، اللهم لا تفعل بي ما أنا أهله، فإنك إن تفعل بي ما أنا أهله تعذبني ولن [لم] تظلمني، أصبحت أتقى عدلك، ولا أخاف جورك، فيا من هو عدل لا تجور ارحمني» (١).

الوقوف

لقد بلغت أركان الحج مرتبة رفيعة من الأهمية، بحيث لو ترك واحدة منها لبطل الحج ويجب على التارك التدارك في العام المقبل. ومن تلك الأركان: لزوم الوقوف بالموقفين، عرفات والمشعر الحرام.

فالحاج بعد أن أحرم في الحرم يجب عليه أن يخرج من الحرم حتى يهتئ نفسه للدخول فيه مرة أخرى.

ولا يكاد يسمح للحاج الدخول في الحرم الآمن إلا بعد أن يتعب نفسه في أداء المناسك، والصبر على الحر والبرد، وصرف المال الحلال؛ لأنه إن صرف المال المشتبه في هذا السفر المعنوي لم يصح حجه، ولا يصير حاجاً، فحينئذ بقي العناء وذهب الأجر ولا العكس.

إن أمير المؤمنين عليه السلام سئل عن الوقوف بالجبل (٢)، لم لم يكن في الحرم؟

فقال عليه السلام: «لأن الكعبة بيته والحرم بابه، فلما قصدوه وافدين، وقفهم بالباب يتضرعون».

قيل له: فالمشعر الحرام لم صار في الحرم؟

قال عليه السلام: «لأنه لما أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثاني، فلما طال تضرعهم بها أذن لهم بتقريب قربانهم، فلما قضوا تفرغهم تطهروا بهامن الذنوب التي كانت حجاباً بينهم وبينه، أذن لهم بالزيارة على الطهارة».

قيل: فلم حرم الصيام أيام التشريق؟

قال عليه السلام: «لأن القوم زوار الله، فهم في ضيافته، ولا يجمل بمضيف أن يصوم أضيفه».

قيل: فالتعلق بأستار الكعبة لأي معنى هو؟

قال عليه السلام: «هو مثل رجل له عند آخر جناية وذنوب، فهو يتعلق بثوبه يتضرع إليه ويخضع له أن يتجافى عن ذنبه» (٣).

الرمى

لسنا الآن بصدد بيان فلسفة أحكام الحج وكم لها من علل وأسباب، بل

١- ١ وسائل الشيعة ١٣: ٤٧٨.

٢- ٢ المراد هو جبل الرحمة بعرفات.

٣- ٣ وسائل الشيعة، الباب ٢ من أبواب أقسام الحج، الحديث رقم ١٨.

ص: ٢٧٢

أردنا أن ننظر إلى البعد المعنوي الذي به قوام الحكم، وفي ضوئه يتضح طريق الحق ومسيرة الفلاح. ولا يستثنى الرمي هنا، إن رمى الجمار ليس المقصود به مجرد رمي الجمرات الثلاث؛ الأولى والوسطى والعقبى بعدد من الحصى، بل الرمي هو رمى الشيطان، فبالرمي يتعد الإنسان المؤمن عن الشيطان، ويتقرب أكثر فأكثر من حضرة الحق، ولا يحصل ذلك للرامي إن كان من حزب الشيطان، وبالتالي فلا يرمى لأنفسه، فيجب عليه أولاً أن يخرج من ذلك الحزب الخاسر، حتى يستطيع اللحاق بحزب الله تعالى.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الجمار إنما رميت لأن جبرئيل حين أرى إبراهيم المشاعر برز له إبليس، فأمره جبرئيل أن يرميه، فرماه بسبع حصيات، فدخل عند الجمره الأخرى تحت الأرض فأمسك، ثم برز له عند الثانية فرماه بسبع حصيات أخر، فدخل تحت الأرض موضع الثانية، ثم إنه برز له في موضع الثالثة فرماه بسبع حصيات، فدخل في موضعها» (١).

وقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«رمي الجمار ذخر يوم القيامة» (٢).

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «الحاج إذا رمى الجمار خرج من ذنوبه» (٣).

فتبين من جميع ما ذكر أن الرمي ليس عملاً عبادياً جافاً فقط، إنه عمل معنوي مقارن مع قصد القربة إلى الله سبحانه وتعالى، ويفسد هذا العمل بسبب الرياء الذي هو جند من جنود إبليس.

الذبح

إن الأضحى من الواجبات التي أوجبها الله في الحج. ويرجع ذلك إلى الامتحان الذي ابتلى إبراهيم الخليل ربّه به، وقال عزّ من قائل: ... قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (٤).

وإبراهيم عليه السلام علم في المشعر الحرام بأنّ وظيفته هي (ذبح ابنه). روى على ابن إبراهيم في تفسيره ذيل هذه الآية الشريفة رواية نقل فقرات منها:

١- ١ وسائل الشيعة، الباب ٤ من أبواب العود إلى منى، الحديث رقم ٦.

٢- ٢ وسائل الشيعة، الباب ١ من أبواب رمي جمره العقبة، الحديث رقم ٧.

٣- ٣ المصدر نفسه.

٤- ٤ سورة الصافات: ١٠٢.

ص: ٢٧٣

«ثم أمره الله بالذبح، فإن إبراهيم عليه السلام حين أفاض من عرفات بات على المشعر الحرام وهو فرع فرأى في النوم أن يذبح ابنه... وأقبل شيخ [ظهر الشيطان في صورته] فقال: يا إبراهيم! ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أريد أن أذبحه.

فقال: سبحان الله! تذبح غلاماً لم يعص الله طرفه عين!

فقال إبراهيم عليه السلام: إن الله أمرني بذلك.

فقال: ربك ينهاك عن ذلك وإنما أمرك بهذا الشيطان.

فقال له إبراهيم عليه السلام: ويلك إن الذي بلغني هذا المبلغ هو الذي أمرني به، والكلام الذي وقع في أذني...» (١).

فلما تبين أنه عليه السلام عازم جداً لذبح ابنه، أرسل الله سبحانه وتعالى له كبراً عوضاً عنه، حيث قال سبحانه:

قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَيَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٢).

وصار الذبح سنّة ودخل في الإسلام كواجب شرعي، فوجب على كل حاج أن يشتري من صفو ماله هدياً ليذبحه.

لقد ذكر العالم والعارف الرباني ملا أحمد التراقي رحمه الله كلاماً نقل منه بعض ما يرتبط بالذبح: «... إن الحاج عندما ذبح هديه، يتبته أن هذه الذبيحة تشير إلى حقيقة هي: بسبب الحج قد ظفرت على الشيطان والنفس الأمارّة وقتلت كليهما وفرغت من العذاب الإلهي. وبعد هذا (الذبح) لزم أن يتعهد على عدم تراجعها أبداً إلى فعل المعاصي التي ارتكبها سابقاً، وأن يتوب عن الأعمال القبيحة. ويلتزم أيضاً أن يكون صادقاً في هذا الميثاق. ثم إنه قد أظهر الحاج بعمله هذا أنه طرد الشيطان وبادر على تذليل النفس الأمارّة» (٣).

١- ١ تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢: ٢٢٤-٢٢٥.

٢- ٢ سورة الصافات: ١٠٢-١١١.

٣- ٣ كتاب مصباح الشريعة الباب ٢٢، الصفحة: ١٤٢، مجلة الميقات الفارسية العدد ٧، الصفحة: ٤٨، ١٣٧٣ هـ. ش.

ص: ٢٧٤

ولا يخفى أنه إذا احتاج أداء الواجب الشرعي لصرف الأموال وبذل النقود فحينئذ يكشف البخيل عن الجواد ويفترق المؤمن المنقاد عن غيره وهكذا.

إن بذل المال بلغ مرتبة من الأهمية بحيث صار تلواً لبذل النفس، قال الله عز وجل: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ... (١)

بل المال عند كثير من الناس صار أهم من النفس، فوا سواتاً! لو ترى من يعيش لجمع المال ولا يصرف المال ليعيش! والحاج حينما وصل إلى منى وصرف المال لأداء الواجب الشرعي، ألا وهو الذبح، فقد رغم أنف الشيطان وهياً أرضية مناسبة لغفران ذنبه وقبول توبته.

قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«لو علم الناس ما في الأضحية لاستدانوا وضحوا، إنه ليغفر لصاحب الأضحية عند أول قطرة تقطر من دمها» (٢)

وقال عليه السلام أيضاً: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب يوم النحر، وهو يقول: هذا يوم الثج والعج. والثج؛ ما تهريقون فيه من الدماء، فمن صدقت نيته كانت أول قطرة له كفارة لكل ذنب. والعج؛ الدعاء، فعجوا إلى الله، فوالذي نفس محمّد بيده لا ينصرف من هذا الموضع أحد إلا مغفوراً له، إلا صاحب كبيرة مصرّاً عليها لا يحدث نفسه بالإقلاع عنها» (٣)

فقد تبين أن الذبح طريق لاستئزال رحمة الله وغفرانه وقد علمنا الرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام أن هذا الطريق سبب لقبول توبة العباد وغفرانهم.

ولما للذبح من أهمية وفوائد نرى الإمام علياً عليه السلام يضحى عن رسول الله صلى الله عليه وآله ويقول في بداية الذبح: «بسم الله، وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، اللهم منك ولك، اللهم هذا عن نبيك»، ويذبح كبشاً آخر عن نفسه (٤).

١- ١ سورة التوبة: ١١١.

٢- ٢ وسائل الشيعة، المجلد ١٤، الباب ٦٤ من أبواب الذبح، الحديث رقم ٢. الحج في السنة: ٢٦٣.

٣- ٣ الحج والعمرة في الكتاب والسنة: ٢٣٥.

٤- ٤ وسائل الشيعة، المجلد ١٤، الباب ٣٧ من أبواب الذبح، الحديث رقم ٢.

ص: ٢٧٥

الهوامش:

الكعبة المشرفة: سرُّ البناء والموقع قراءة في فطبة القاصعة

ص: ٢٧٧

الكعبة المشرفة: سرُّ البناء والموقع (قراءة في خطبة القاصعة)

عبد السلام زين العابدين

احتلَّ حديث الإمام عليّ عليه السلام حول الكعبة المشرفة في خطبة (القاصعة) مساحةً واسعةً، ركّز فيها على سرّين أساسيين:

السّر الأول: طبيعة البناء (أحجاراً لا زمرد، ولا ياقوت).

السّر الثاني: طبيعة الموقع (جبالٌ خشنة ورمالٌ دمثة).

لقد كشف الإمام عليه السلام أسرار كون بيت الله الحرام من أحجار «لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع».

لماذا كانت الاسس والبناء من حجارة، وليس «من زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونورٍ وضياء»؟!

ولماذا كان الموقع الجغرافي «بأعور بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الأرض مدرّاً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبالٍ خشنة ورمالٍ

دمثة وعيون وشلّة»؟!

لماذا لم يضع الله - عزّ وجلّ - بيته الحرام ومشاعره العظام «بين جنّات وأنهار،

ص: ٢٧٨

وسهلٍ وقرار، جمّ الأشجار، داني الثمار، ملتفّ البناء، متّصل القرى، بين بُرّة سمراء، وروضة خضراء، وأريافٍ محدقة وعراضٍ مغدقة، ورياضٍ ناضرة، وطرق عامرة» (١)؟!

وبكلمةٍ واحدة: لماذا كانت الكعبة أحجاراً بوادٍ غير ذى زرع؟!

أسئلةٌ مهمّةٌ يجيب عنها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في خطبته هي من أروع خطبه التي جمعها الشريف الرضى في نهج البلاغة تسمى (القاصعة).

المبحث الأول

خطبة القاصعة: الهيكلية ودلالات السياق

جاء في الحديث عن مكّة والكعبة في سياق خطبة القاصعة منسجماً مع محورها العام، وموضوعها الأساس الذي ركزت عليه من أولها إلى آخرها، وفي جميع فقراتها.

وقد سمّيت الخطبة ب (القاصعة) لأنها تزيل الكبر عن قلب سامعها أو قارئها إذا أصغى قلبه إلى كلماتها، كما يقصع الماء العطش، من قَصَع بمعنى أزال، أو لأنها تحقر وتشجب المتكبرين والمترفين الذين ينازعون الله رداء عزّه وكبريائه، قَصَع بمعنى حقر وصغّر، وقيل غير ذلك.

يطرح العلّامة ميثم البحراني وجوهاً أربعة قد ذكرها الشارحون لنهج البلاغة في معنى (القاصعة) جاء الوجه الثالث منها: «سمّيت بذلك لأنها هاشمة كاسرة لإبليس، ومصغّرة ومحقّرة لكلّ جبار، وهو وجه حسن»، أمّا الوجه الرابع: «لأنها تسكّن نخوة المتكبرين وكبرهم فأشبهت الماء الذي يسكّن العطش، فيكون من قولهم: قَصَع الماء عطشه إذا سكّنه وأذهب» (٢).

وجاء في بحار الأنوار للعلّامة المجلسي في معنى (القاصعة) «من قَصَع فلانٌ

١-١ نهج البلاغة، خطبة ١٩٢ القاصعة.

٢-٢ ميثم البحراني، شرح النهج ٤: ٢٣٤.

ص: ٢٧٩

فلاناً: أى حقّره؛ لأنّه عليه السلام حقّر فيها حال المتكبرين» (١).

تبدأ خطبة (القاصعة) بتقرير حقيقة إذا غفل عنها الإنسان أصابه الكبر؛ ألا وهى أن «العزّ والكبرياء» لله عزّ وجلّ فحسب، لا يشاركهما فيه أحد:

«الحمد لله الذى لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحزماً على غيره، واصفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده».

المستكبرون عبر التاريخ: نماذج ومصاديق

ثمّ تبدأ فقرات الخطبة باستعراض المصاديق الصارخة لأولئك الذين نازعوا الله رداء العزّة والكبرياء، فعاشوا الاستكبار والاستعلاء، منذ مرحلة التمهيد للخلافة (دور جنّة آدم عليه السلام) وهى مرحلة ما قبل هبوط آدم، إلى الأرض، إلى (الناكثين) و (القاسطين) و (المارقين) الذين قاتلهم علىّ عليه السلام، وجاهدهم ودوّخهم!

المصداق الأول: إبليس إمام المتعصّيين وسلف المستكبرين؛ لذا فإنّ خطبة القاصعة تبدأ بمصداق الاستكبار الأول إبليس الذى هو أول من قال (أنا)، فأسيّس الأنيّة والأنانية: أنا خيرٌ منه خلقتنى من نار وخلقته من طين، لذلك أبى السجود بقوله: أسجد لمن خلقت طيناً، أسجد لبشرٍ خلقتّه من صلصالٍ من حمأ مسنون:

«ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقربين، لتمييز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب، ومحجوبات الغيوب:

إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اعْتَرَضْتَهُ الْحَمِيَّةَ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعْصَبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدَّهُ اللَّهُ إِمَامَ الْمُتَعْصِبِينَ، وَسَلَفَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصِيَّةِ وَنَازَعَ اللَّهَ رِذَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ

ص: ٢٨٠

التعزز، وخلع قناع التذلل. ألا ترون كيف صغره الله بتكبره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعد له في الآخرة سعيراً؟!». ولم يكن إبليس شخصاً عادياً، فله تاريخٌ عبادى طويل، ترسمه خطبة (القاصعة) بأبلغ وصف: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهد، وكان قد عبد الله ستّة آلاف سنة، لا يُدرى أمن ستنى الدنيا أم من سنى الآخرة، عن كبر ساعه واحدة». ثم يتساءل أمير المؤمنين عليه السلام محدراً: «فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟ كلا»

المصداق الثانى: قابيل

«ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذى أعقبه الله به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة».

المصداق الثالث: فرعون الطاغية

وفى سياق التحذير من طاعة السادات والكبراء والأدعياء «الذين تكبروا على حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم»، والاعتبار «بما أصاب الأمم المستكبرين...»

من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته» (١)، يذكر الإمام عليه السلام مصداقاً صارخاً للطاغية المستكبر الذى ما فتئ يدق على طبل «أنا ربكم الأعلى» و «ما علمت لكم من إله غيرى»:

«ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه، فقال:

«ألا تعجبون من هذين يشرطان لى دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال

ص: ٢٨١

الفقر والذلّ، فهلما ألقى عليهما أساوره من ذهب؟ إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه! ولو أراد الله لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان (١)، ومعادن العقيان (٢)، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء، ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء (٣)، وبطل الجزء (٤)، واطمحلّت الأنباء (٥)، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين (٦)، ولا لظمت الأسماء معانيها» (٧).

«ولكنّ الله سبحانه جعل رسله أولى قوّة في عزائمهم، وضعفه فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى».

وفي هذا السياق؛ سياق الحديث عن الابتلاء في ساحة الصراع، وميدان المواجهة بين المترفين والأنبياء، وسرّ ما يعيشه الأنبياء عليهم السلام، على مرّ التاريخ، من استضعافٍ ومحنةٍ ومعاناةٍ وخصاصةٍ، لأسباب ومقاصد عديدة.. عزّج الإمام عليه السلام على مكّة المكرّمة والكعبة المشرفة كمصداقٍ من مصاديق الاختبار والابتلاء، من خلال طبيعة المادّة والبناء أوّلًا، وطبيعة الموقع الجغرافي الصعب ثانيًا.

المبحث الثاني

طبيعة البناء: حجارة صماء لا ياقوته خضراء

النصّ الأول: «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم - صلوات الله عليه - إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضرب ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً!»

النصّ الثاني: «ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوته حمراء، ونورٍ وضياء، لخفف ذلك مصارعة الشكّ في

١-١ جمع ذهب.

٢-٢ نوع من الذهب ينمو في معدنه.

٣-٣ البلاء في ساحة الصراع بين المستضعفين والمستكبرين إذ لا مستضعف يتلى به المتكبرون: ص وكذلك جعلنا لكلّ نبيّاً عدوّاً من المجرمين ش.

٤-٤ لأنّ العبادات والطاعات تكون عن رهبةٍ أو رغبةٍ دنيويتين.

٥-٥ فلا رسالة ولا رسل.

٦-٦ حيث لا معاناة ولا مجاهدة ولا عطاء ولا تضحية.

٧-٧ فلا معنى لكلمة مؤمن ومجاهد وصابر وزاهد.. فتصدق الأسماء بدون مسّميات.

ص: ٢٨٢

الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الرّيب من الناس.

ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، وبتلبيهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتدلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحةً إلى فضله، وأسباباً دُللاً لعفوه.

في هذين النصّين الرائعين يرسم أمير المؤمنين سرّاً طبيعته بناء الكعبة المتواضع المتكوّن من أحجار جامدة، ينظر إليها الناظر فيراها لا تمتلك شعوراً ولا إحساساً.. فلا بصر ولا سمع، ولا ضرر ولا نفع.. ومع كل ذلك يسعى الحجيج للطواف حولها بكلّ خشوع واستكانة وخضوع. بل نراهم (يتقاتلون) على استلام الحجر الأسود والسلام عليه ومعاهدته!! وهو لا يملك بريق الزمرد، وتلاًلاً الياقوت..

وفي ذلك سرٌّ كبير يكشفه لنا أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة.. لأنّ البناء لو كان من «زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونورٍ وضياء، لخفف ذلك مصارعة الشكّ في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس في القلوب، ولنفي معتلج الرّيب من الناس».

ما معنى ذلك؟ وكيف يحصل كلُّ ذلك؟

لقد أراد الله عزّوجلّ أن يكون القصد لبيته الحرام نابغاً من معاناة ووعي وإيمان، خالصاً من الدوافع الماديّة العاجلة.. ولو كان البيت من تلك الأحجار النفيسة (الزمرد والياقوت):

أولاً: «لخفف ذلك مصارعة (١) الشكّ في الصدور»، لأنّ نفاسة تلك الأحجار هي التي تدفعهم إلى التصديق والاعتقاد بأنّ البيت بيته، كما تدفعهم إلى الطواف حولها.

ثانياً: «لوضع مجاهدة إبليس في القلوب»، لأنّ قصد البيت وزيارته تكون من منطلق الانبهار بجواهره، والتأثر بدرره ونفاسة أحجاره، والتمتع برؤيته زينته

ص: ٢٨٣

ومنظره، وليس من منطلق مجاهدة إبليس الداعي إلى التخلف عن حجه وإيثار الدعة والسلامة على قصده.
ثالثاً: «ولنفى معتلج الرّيب من الناس»، أى لزال تلاطم واضطراب الريب والشك من صدور الناس.
إشكاليته ابن أبي العوجاء:

لو لم يكن البيت من أحجار عادية لما تحقّق الابتلاء الإلهي والاختبار الرباني للإنسانية على طول مسيرتها التاريخية: «من الأولين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم»، حيث تنجلي قصّة العبودية لله عزّوجلّ، والطاعة لأوامره فيما شرعه من مناسك الحجّ من طواف وسعى ورجم قد ينظر إليها من لم يدرك أسرارها ومقاصدها أنّها حركات غير عقلانية لا يمارسها إلا الذين اختلّت عقولهم.. فما قيمة الطواف حول بيت من حجارة صماء، والسعى بين جبلين صليدين، والرجم لأحجار كبيرة بأحجار صغيرة، واستلام حجر أسود كالفحم، وما إلى ذلك من المناسك والممارسات؟

وهذا النمط من التفكير كان يراود بعضهم في زمن الأئمة عليهم السلام من أمثال ابن أبي العوجاء، فخاطب الإمام الصادق عليه السلام قائلاً:

«إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر، من فكر في هذا أو قدّر، علم أنّ هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذى نظر».

ثمّ خاطب الإمام قائلاً:

«فقل فإنّك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أسّه ونظامه؟»

فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً:

إنّ من أضلّه الله وأعمى قلبه استوخم الحقّ، فلم يستعد به وصار الشيطان وليّه، يورده مناهل الهلكة ثمّ لا يصدره».

ص: ٢٨٤

«وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحَثَّهم على تعظيمه وزيارته، وقد جعله محلَّ الأنبياء وقبله المصلين، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدِّي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال..» (١).

فقد أكد الإمام في المقطع الأوَّل من جوابه على مدى ضلال تلك النظرة، وعمى قلب صاحبها، ممَّا جعله يستوخم الحقَّ، ولا يدرك مدى دلالات وإيحاءات تلك المناسك المشحونة بالدلالات والإيحاءات.

وأعطى في المقطع الثاني بعضاً منها، كان أولها استعباد الله خلقه بهذا البيت «ليختبر طاعتهم في إتيانه».

وهكذا نلتقى بمقصد الابتلاء والاختبار الذي أكَّدته خطبة القاصعة: «ألا ترون أنَّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم- صلوات الله عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرُّ ولا تنفع...».

الحجر الأسود: تجديد العهد والميثاق

لا يتصورنَّ أحدٌ أنَّ مناسك الحجِّ هي مجردُ فعاليات تقام تعبدًا ليس إلَّا، من دون أن تختزن أسراراً وبواطن وقيماً وتأريخاً.. لننظر إلى الحجر الأسود- مثلاً- مجرداً عن كلِّ تأريخ ومعنى، بعيداً عن عالم الملكوت.

مرَّ عمر بن الخطَّاب على الحجر الأسود. فقال: واللَّه يا حجر إنا لنعلم أنَّك حجر لا تضرُّ ولا تنفع، إلَّا أنا رأينا رسول الله صلى الله عليه و آله يحبُّك فنحن نجبُّك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يا ابن الخطَّاب! فوالله ليعتته الله يوم القيامة وله لسانٌ وشفستان، فيشهد لمن وافاه، وهو يمينُ الله عزَّ وجلَّ في أرضه يبايع بها خلقه.

فقال عمر: لا أبقانا الله في بلدٍ لا يكون فيه على بن أبي طالب (٢).

وسئل الإمام الصادق عليه السلام: لأتى علَّةً وضع الله الحجر في الركن الذي هو فيه؟ ولأتى علَّةً يُقتل؟

فقال عليه السلام: إنَّ الله وضع الحجر الأسود، وهو جوهرةٌ اخرجت من الجنَّة إلى

١- ١ بحار الأنوار ٩٩: ٢٩.

٢- ٢ علل الشرائع للصدوق: ٤٢٥، والرواية عن الإمام الصادق عليه السلام ينقلها الشيخ الصدوق بهذا السند: «عن محمد بن الحسن، عن الصَّفَّار، عن علي بن حسان الواسطي عن عمِّه عبد الرحمن بن كثير الهاشمي، عن أبي عبد الله عليه السلام. راجع: الوسائل ١٣: ٣٢٠، تحقيق مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، ط ٣.

ص: ٢٨٥

آدم عليه السلام فوضعت في ذلك الركن لعلمة الميثاق، وذلك أنه لما أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذريّاتهم حين أخذ الله عليهم الميثاق في ذلك المكان..

وأما القبلة والاستلام فلعلمة العهد تجديداً لذلك العهد والميثاق، وتجديداً للبيعة ليؤدوا إليه العهد الذي أخذ الله عليهم في الميثاق، فيأتوه في كل سنة ويؤدوا إليه ذلك العهد والأمانة اللذين أخذوا عليهم. ألا ترى أنك تقول: أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة.

ووالله ما يؤدى ذلك أحد غير شيعتنا- إلى أن قال:- وذلك أنه لم يحفظ ذلك غيركم، فلكم والله يشهد، وعليهم والله يشهد بالخفر (١) والجحود والكفر...» (٢).

وروى الصدوق مثله في (علل الشرائع) عن أبيه عن محمد بن يحيى (٣).

وجاء في (علل الشرائع) عن عبدالله بن سنان قال: «بينا نحن في الطواف إذ مرّ رجل من آل عمر فأخذ بيده رجل فاستلم الحجر فانتهره وأغلظ له وقال له: بطل حجّك، إنّ الذي تستلمه حجر لا يضّر ولا ينفع، فقلت لأبي عبدالله عليه السلام...

فقال عليه السلام: كذب ثم كذب ثم كذب. إنّ للحجر لساناً ذليلاً يمشي يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة- ثم ذكر حديث خلق آدم وأخذ الميثاق على ذريّته، وأنّ الحجر التقم الميثاق من الخلق كلّهم، إلى أن قال:- فمن أجل ذلك أمرتم أن تقولوا إذا استلمتم الحجر:

أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة يوم القيامة» (٤).

ولهذا كان الناس منذ عصر النزول يتقاتلون على استلام الحجر الأسود وتقيله، رغم استحباب ذلك وعدم وجوبه، ولشدة الزحام على استلامه كان الإمام الصادق عليه السلام يترك ذلك لمن يستغرب عليه فعله: «أكره أن أؤذى ضعيفاً أو أتأذى» (٥).

وقد أجاب عن سؤال حول امرأة حجّت وهي حبلى يزاحم بها حتى تستلم الحجر؟ فقال عليه السلام: «لا تغزروا بها» (٦).

١- ١ خفر العهد: نقضه.

٢- ٢ الكافي ٤: ١٨٤، وعنه: وسائل الشيعة ١٣: ٣١٧ باب ١٣ استحباب استلام الحجر، الحديث ٥.

٣- ٣ علل الشرائع: ٤٢٩.

٤- ٤ علل الشرائع: ٤٢٥. عنه: وسائل الشيعة ١٣: ٣١٩-٣٢٠.

٥- ٥ الكافي ٤: ٤٠٩.

٦- ٦ التهذيب ٥: ٣٩٩.

ص: ٢٨٦

لذا جاء في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنِ النِّسَاءِ أَرْبَعًا، وَعَدَّ مِنْهُنَّ اسْتِلَامَ الْحَجْرِ» (١).
المبحث الثالث: طبيعة الموقع (بين جبال خشنة ورمالٍ دمهنة)

لم يكن هناك سرٌّ في طبيعة البناء فحسب، بل هناك سرٌّ بل أسرارٌ في طبيعة الموقع الجغرافي لبيت الله الحرام، والذي يعبر عنه القرآن الكريم على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: بوايدٍ غير ذى زرع.

وقد ركزت خطبة (القاصعة) على طبيعة الموقع في سياق حديثها عن الاختبار الرباني التاريخي للبشرية في طبيعة البناء: النصّ الأول: «ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الدنيا مَدرّاً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة، ورمالٍ دمهنة، وعيون وشلة، وقُرى منقطعة؛ لا يزكو بها حُفٌّ ولا حافر، ولا ظلف».

إنه وصف رائع وبلغ لمدى صعوبة ذلك الموقع على صعيد الجغرافيا.. فقد اجتمعت فيه كلّ العناصر التي تجعله موقعاً صعباً، يشقّ على الحجيج مزاره؛ فهو ليس بوايدٍ غير ذى زرع فحسب، بل إنه «من أضيق بطون الأودية قطراً» و «أقلّ نتائق الأرض مدرّاً» و «أوعر بقاع الأرض حجراً!!»، لتكون تلك البقعة للناس رغم صعوبتها وجديها وضيقها «مثابّةً لمنتجع أسفارهم، وغايةً لملقى رحالهم».

النصّ الثاني: «ولو أراد الله - سبحانه - أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام، بين جنّات وأنهار، وسهلٍ وقرار، جمّ الأشجار، داني الثمار، ملتفّ الثني، متضيلّ القرى، بين بُرّةٍ سمراء، وروضةٍ خضراء، وأريافٍ محدقة، وعراصي مغدقة، ورياضٍ ناضرة، وطرقٍ عامرة، لكان قد صغّر قدرَ الجزاء على حسب ضعفِ البلاء».

يقول العلامة ميثم البحراني بخصوص النصّ الثاني:

«صغرى قياس ضمير استثنائي حذف استثناءه. وهي نتيجة قياس آخر من متصلتين تقدير صغراهما: إنه لو أراد أن يضع بيته الحرام بين هذه المواضع الحسنة

ص: ٢٨٧

المبهجة لفضل، وتقدير الكبرى: ولو فعل لكان يجب منه تصغير قدر الجزاء على قدر ضعف البلاء، وتقدير استثناء هذه المتصلة؛ لكنه لا يجب منه ذلك ولا يجوز؛ لأنَّ مراد العناية الإلهية مضاعفة الثواب وبلوغ كلِّ نفس غاية كمالها، وذلك لا يتمُّ إلَّا بكمال الاستعداد بالشدائد والميثاق؛ فلذلك لم يرد أن يجعل بيته الحرام في تلك المواضع لاستلزامها ضعف البلاء» (١).

لقد أراد الله عزَّوجلَّ لبيته الحرام أن يكون محكماً لمدى الإرادة والعزم، والتضحية والبذل، والخشوع والخضوع، والحبِّ والعشق: «تهوى إليه الأئدة من مفاوز قفارٍ سحيقة، ومهاوى فجاجٍ عميقة، وجزائر بحارٍ منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له. قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته، ووصولاً إلى جنّته».

وهكذا نلتقى مرّة أخرى بقصّة الابتلاء والامتحان والاختبار والتمحيص..

التي هي سبب الرحمة والوصول إلى الجنّة، لتكون المعادلة كما ترسمها خطبة «القاصعة»:

«كلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل».

معادلة الجزاء على قدر الابتلاء

إنّها المعادلة ذاتها التي أراد الله للكعبة أن تكون من أحجارٍ عادية وليس من زمردٍ وياقوت، كانت مشيئة الله عزَّوجلَّ أن يكون الإنسان (آدم) من طين، يقول على عليه السلام في (القاصعة):

«ولو أراد الله أن يخلق آدم من نورٍ يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهر العقول زواؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه، لفضل.

ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة».

ص: ٢٨٨

ولكنَّ الله سبحانه يبتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفيًا للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم». وهكذا الحال في تفسيره عليه السلام للأنبياء في استضعافهم وخصاصتهم:

«ولو كانت الأنبياء أهل قوَّة لا تُرام، وعزَّة لا تُضام، ومُلْكٍ تمتدُّ نحوه أعناق الرجال، وتشدُّ إليه عُقد الرجال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائله بهم، فكانت الثبات مشتركة، والحسنات مقتسمة!»

الكعبة: الامتداد التاريخي

من خلال خطبة القاصعة ندرِك أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يكن هو المؤسس الأول لبنائها:

«ألا ترون أنَّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم- صلوات الله عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً».

يتجلى من خلال هذا النص أنَّ البيت الحرام من لدن آدم عليه السلام.. وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا...، حيث يمكن أن نفهم من الآية أنَّ القواعد كانت موجودة، وقد عمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على رفعها.

وقد يكون قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا [\(١\)](#)

، شاهداً على ذلك.

ومما يؤيد ذلك الروايات الكثيرة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام وغيرهم والتي تتحدث عن (دحو الأرض) من تحت الكعبة، نذكر منها ما جاء في علل الصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام.

«لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ أَمَرَ الرِّيحَ فَضْرِبْنَ مَتْنِ الْمَاءِ حَتَّى صَارَ مَوْجًا ثُمَّ

ص: ٢٨٩

أزبد فصار زبدًا واحداً فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد ثم دحى الأرض من تحته، وهو قول الله: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعُ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيَّكُهُ مَبَارَكًا فَأَوَّلُ بَقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ الْكَعْبَةُ، ثم مدّت الأرض منها» (١).

يرى العلامة الطباطبائي أن «الأخبار في دحو الأرض من تحت الكعبة كثيرة، وليست مخالفة للكتاب، ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك». كما يرى العلامة أن ما ورد من الروايات من أن الكعبة أول بيت بمعنى أول بقعة من الأرض، وأن الظاهر من قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعُ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيَّكُهُ مَبَارَكًا ما تشتمل عليه الروايات التي تقول: «قد كان قبله بيوت، ولكنّه أول بيت وضع للناس مباركاً»، أو «كانت البيوت قبله، ولكنّه كان أول بيت وضع للعبادة».

بينما يرى العلامة الطبرسي أن الآية فيها دلالة على أنه «لم يكن قبله بيت مبني، وإنما دُحيت الأرض من تحتها، وهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق الله تعالى السماء والأرض من تحتها...»، ثم أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام «ببنيان البيت على القواعد» (٢).

وينقل الطبرسي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث سئل عن الحطيم - وهو ما بين الحجر الأسود والباب - لِمَ سَمِيَ الْحَطِيمُ؟ قال عليه السلام: «لأنّ الناس يحطّم بعضهم بعضاً، وهو الموضع الذي فيه تاب الله على آدم عليه السلام» (٣). والبحث التاريخي يحتاج إلى وقفة أكثر تفصيلاً لا يسع لها المقام. الهوامش:

دور عليّ في فتح مكّة

١-١ تفسير الميزان ٣: ٣٥٦. نقلًا عن علل الشرائع.

٢-٢ مجمع البيان ١-٢: ٦٠٦ ط: بيروت عام ١٩٩٢ م.

٣-٣ المصدر نفسه: ٦٠٧.

ص: ٢٩١

دور عليّ في فتح مكّة

عفيف النابلسي - زهير الأعرجى

كان للإمام عليّ عليه السلام دورٌ مهمّ في فتح مكّة، وقد تكفّلت هذه المقالة بذكر هذا الدور عبر قلمين لعلمين جليلين، كلّ منهما يكمل الآخر.

بقلم عفيف النابلسي:

إن الدخول الجماعي في الإسلام الذي شهدته قبائل العرب المتاخمة لبلاد الشام بعد غزوة مؤتة لم يهز قريشاً وحلفاءها، ولم تفكر قريش بما قد تصير إليه الأحوال في قاصّ الجزيرة وأدناها، فظلت على وهمها بأن المسلمين قد هزموا في موقعة مؤتة هزيمةً نكراء، وأنهم باتوا في حالة يرثى لها، أقلها الضعف والهوان وهذا ما أعادها الى مراجعة حساباتها وردّها إلى التفكير بحرب محمد صلى الله عليه وآله، ونبذ مواقفها السابقة معه، وهي المواقف التي أجبرت فيها بعد الحديبية على التخلي عن السيطرة التي كانت لها. وقد أفقدتها تلك المواقف الهيبة التي كانت تتصف بها، وخسرت مكانتها الأولى بعد عمرة القضاء فما عليها إذن والحالة تلك إلا العمل لاستعادة تلك السيطرة كاملة، واسترداد الهيبة والمكانة اللتين كانتا لها غير منقوصتين، وهذا لن

ص: ٢٩٢

يكون إلا بمقاومة محمد صلى الله عليه و آله مقاومةً ضاريةً، والشروع في قتال من دخلوا معه بحكم عهد الحديبية (١).
صلح الحديبية:

كان صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه و آله وقريش قد قضى أنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم فليدخل فيه. وكانت خزاعة قد دخلت في عهد محمد صلى الله عليه و آله، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكانت بين خزاعة وبنو بكر ثارات قديمةً سكنت بعد صلح الحديبية، وانحاز كل من القبيلتين الى فريق المتصالحين، فلما كانت مؤتة- وصل لقريش أن المسلمين قضى عليهم- خيل الى بنو الدليل من بنو بكر بن عبد مناة أن الفرصة سنحت لهم، ليصيبيوا من خزاعة بثاراتهم القديمة، وحرّضهم على ذلك جماعة من سادات قريش منهم عكرمة بن أبي جهل، وأمدوهم بالسلاح.

وقوع الحرب:

وبينما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوتير إذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم جماعة، ففرت خزاعة الى مكة ولجأوا الى دار بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي، وشكوا له نقض قريش، ونقض بنو بكر عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه و آله، وسارع عمرو بن سالم الخزاعي فغدا متوجهاً إلى المدينة حتى وقف بين يدي محمد صلى الله عليه و آله وهو جالس في المسجد فقال:

لا هَمَّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيْنَا وَأَبِيكَ الْإِتْلَادَا

إِن قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَا

هَم بِيْتُونَا بِالْعِرَا هَجَدَا فَقَتَلُونَا رَكَعًا وَسُجْدَا

فقال له النبي صلى الله عليه و آله: نُصرت يا عمرو بن سالم!

ثم خرج بُدَيْل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا

ص: ٢٩٣

النبي صلى الله عليه وآله بما أصابهم، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم، عند ذلك رأى النبي صلى الله عليه وآله أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مكّة.

وعاد وفد خزاعة فرحاً بما حظى من التأييد، وظهرت مخاوف قريش، واجتمع حكماؤها وقرروا بعث أبي سفيان لتجديد العهد، وتمديده الى عشر سنوات.

أبو سفيان في المدينة:

تأهب أبو سفيان، وسار من وقته وساعته حتى وصل المدينة على وجل خصوصاً بعدما رأى بُديلاً ورفاقه على بعض المياه، وجعل وجهته ابنته أمّ حبيبة زوجة النبي صلى الله عليه وآله التي تزوجها النبي بعدما تركها زوجها وتنصر في أرض الحبشة فخطبها إلى النجاشي. وعادت بعد فتح خيبر مع جعفر بن أبي طالب عليه السلام وجماعته الذين كانوا مهاجرين إلى الحبشة.

وأُمّ حبيبة كانت قد عرفت ما حدث، وعرفت ما نوى عليه النبي صلى الله عليه وآله، فلم تهتم بأبيها المشرك. ولما أراد أن يجلس على فراش النبي صلى الله عليه وآله وطوته عنه فسألها أبوها: أطوته رغبتك بأبيها عن الفراش أم رغبتك بالفراش عن أبيها؟

فكان جوابها: هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه. وفوجئ أبو سفيان بما لم يكن يتوقعه من ابنته التي وجهت إليه صفة جعلته ذليلاً مهيناً فقال لها: لقد أصابك بعدى شرٌّ، قالت: بل هداني الله تعالى للإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، وا عجباً منك وأنت سيد قريش وكبيرها! قال: أترك ما يعبد آبائي وأتبع دين محمد؟

وخرج أبو سفيان بعد هذه الصفة مكلوم الفؤاد مضعضع الفكر، مهزوز الجانب مهيض الجناح، لا يدرى ماذا يفعل، أيرجع قبل أن يحقق شيئاً، أو يستمر في محاولة يائسة. فذهب إلى المسجد لعله يرى محمداً صلى الله عليه وآله ودخل على الفور يكلمه في توثيق المعاهدة وزيادة المدّة، إلا أن الرسول صلى الله عليه وآله لم يرد عليه بشيء، وألح أبو

ص: ٢٩٤

سفيان والنبى صلى الله عليه وآله لا يجيب، وأصابته الحمى من هذه الصفة الثانية فخرج على بعض من كان يعرف من الصحابة، فلم ير من يساعده على مهمته، أو يتكلم مع النبى صلى الله عليه وآله حوله.

دور عليّ عليه السلام:

الدور الأول:

وكان لابن أبي سفيان - الذى يعرف مواقع القوة - من أن يلجأ الى بيت عليّ حيث دخل على أمير المؤمنين عليه السلام فوجده مع زوجته وعندهما ولدهما الحسن والحسين عليهم السلام.

فقال: يا عليّ! أنت أمس القوم بى رحماً، قد جئت فى حاجة؛ فلا أرجع كما جئت خائباً، اشفع لنا عند محمد صلى الله عليه وآله.

فقال على عليه السلام: ويحك يا أبا سفيان! واللّه، لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وآله على أمر فلا نستطيع أن نكلّمه فيه.

وأدرك أبو سفيان حراجه الموقف فالتفت الى فاطمة عليها السلام قائلاً: وأنت يا بنت محمد! هل لك أن تأمرى ابنك هذا - يعنى

الحسن - فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر؟

قالت فاطمة عليها السلام: واللّه، ما بلغ ابني هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال: يا أبا الحسن! إنى أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنى.

فقال: واللّه، ما أعلم شيئاً يُغنى عنك، ولكنك سيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال: أو ترى مغنياً عنى شيئاً؟!

قال أبو الحسن: لا واللّه، ما أظن؛ لكنى لا أرى غير ذلك.

وقام أبو سفيان فأتى المسجد، قائلاً: أيها الناس! إنى قد أجزت بين الناس،

ص: ٢٩٥

ولم يلبث أن خرج بركب بعيره، وينطلق عائداً الى مكّة، خالي الوفاض، يجزّ أذيال الخيبة والهزيمة، إذ لم يستطع أن يحقق شيئاً مما جاء اليه.

وقدم أبو سفيان على قومه، فسألوه ما وراءك يا أبا سفيان؟

قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله، ما ردّ عليّ شيئاً، ثم جئت بعض أصحابه فوجدتهم أعدى الناس إليّ، ثم جئت عليّ بن أبي طالب فوجّهته ألبين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فوالله، ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا؟

قالوا: وبما أمرك؟

قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت.

قالوا: فهل أجاز محمداً ذلك؟

قال: لا.

قالوا: ما زاد الرجل عليّ أن لعب بك، فما يغني عنا ما قلت (١).

أرأيت إلى علي الشاب النابغة الذي يزن الرجال بميزان، ويعرف كيف يضرب ضربته الذكية؟ فهو كمن يطعن خصمه في المعركة فيرديه بكلامه وموقفه ودرايته، ويجعل الخصم المجرب قائد القوم وكبيرهم ولدداً وطفلاً لا يدري ماذا يفعل. أرأيت علياً كيف طعن خصمه السياسي دون أن يخرج السيف من غمده؟

أرأيت إلى العقل الموجه، كيف يفعل فعلته فيشوش على خصومه ما يجعلهم حيرى لا يدرون ما يفعلون؟

هكذا تعامل علي العبقري الشاب مع شيخ قريش وسيد كنانة، وأرجعه طفلاً. وهكذا فهم أبو سفيان، وفهم معه قومه أن علياً لعب بأبي سفيان، وضربه ضربته موجهة بعد الضربتين اللتين تلقاهما من ابنته أم حبيبة ومن الرسول صلى الله عليه وآله هذا هو الدور الأول الذي لعبه علي لتسفيه أبي سفيان واذلاله وجعله كالطفل الصغير.

الدور الثاني:

بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله يخطط لغزو مكّة وفتحها، فأمر بشحذ السلاح وجمعه،

١- ١ خاتم النبیین، ٢: ٦٢٠- الطبری، ٢: ١٦٣.

ص: ٢٩٦

وبعث إلى القبائل المحيطة بالمدينة أن يتأهبوا ويأتوا إلى المدينة، فكانت الوفود تأتي ولكنها لا تعرف وجهه المسير، ووضع الحرس والعيون على المدينة يراقبون كل خارج منها وكل داخل إليها، ويفتشون من يمرّ ليلاً ونهاراً. وبينما هو يتهايم للمسير نحو مكّة تسرّب الخبر إلى أحد أصحابه وهو حاطب بن بلتعنه الذي رأى أن رسول الله إذا ذهب بهذا الجيش الجزّار إلى مكّة ربما تكون نهاية قريش وعزّ عليه ذلك، وكان له فيها أرحام وأقارب، وقد تكون العاقبة لقريش فيكون له عندها يد.

هكذا أصحاب النفوس الضعيفة يفكرون في علاقات ذاتية حتى في أخرج الأوقات، ويتخذ لنفسه حصناً يأوى إليه عند تقلبات الأحوال، وهكذا يقوم حاطب بن بلتعنه بعملية خيانية لا عهد للمسلمين بها، وهي إيصال أخبار عسكرية سرية إلى الأعداء.

وفكر حاطب في إيصال الخبر كثيراً؛ لأنه خاف من تفضي الأسرار، وافتضح أمره، فعمد إلى امرأة قينة مغنية أغراها بالمال، وكان هواها في قريش، ولم تكن أسلمت بعد، واتفقا على كيفية وضع الكتاب في ضفائرها لقاء أجر باهض ونسى حاطب أن الله مطلع على كل شيء، وأن الوحي يوصل الأخبار السرية بأقل من لمح البصر. وكان الكتاب يحتوي على أسرار عسكرية بالغة الخطورة عن أهمية الجيش، وعدد الفرسان والرجال، وكثرة السلاح والخيل والبغال والجمال.

وخوفاً من التفتيش العسكري وضعت الكتاب مطويّاً في ضفائرها، بحيث لا يمكن لأحد حتى - لو فتشها - أن يهتدي إلى الكتاب، ثم خرجت تسلك طريقاً بعيداً عن عيون الحراس، توهمهم بالحشمة والحياء، وتتستر بهذه المظاهر، لتخفي جاسوسيتها على الدين وعلى الرسول.

وما إن غادرت المدينة حتى نزل الوحي المبارك يخبر النبي صلى الله عليه وآله بالكتاب، وأين موضعه، وما فعل حاطب، فدهش النبي صلى الله عليه وآله لهذه المفاجأة، وهذه الخيانة من أحد أصحاب بدر، فدعا علياً على الفور، قائلاً له: إن أحد أصحابي كتب إلى أهل مكّة

ص: ٢٩٧

يطلعهم على أخبارنا، وقد كنت سألتُ الله عزَّ وجلَّ أن يعمي أخبارنا عنهم، وقد حملت الكتاب امرأة سوداء فها أدرکها وانتزع منها الكتاب. ثم استدعى الزبير وقال له: اذهب مع ابن عمك وأعنه على تخفيف مأربه، وخرج على ومعه الزبير فأدرکها في (الخليفة)، وتقدم منها الزبير فسألها عن الكتاب فأنكرت عليه التعرض لها من جانب، والسؤال عما لا يعنيه من جانب آخر، كما أنكرت عليه هذه التهمة الشنيعة، مما جعل الزبير يتردد أولاً، ثم يعود الى عليّ يُقنعه بأنه ليس عندها شيء، بعدما بكت المرأة لهذا التعرض والإهانة، وبدأت دموع التماسيح على خديها، وأوشك قلب الزبير أن يرق لها فارتد نحو عليّ يقول: لم أر معها كتاباً يا أبا الحسن، ولم يلتفت الزبير الى لازم قوله هذا، الذي يعنى تكذيب الوحى، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وما كاد عليّ يسمع هذا القول من الزبير حتى غضب وصاح: ويحك يا زبير! يخبرنى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بأنها تحمل كتاباً، ويأمرنى بأخذه منها، ونأتى لذلك ثم تقول أنت: إنه لا يوجد معها كتاب!

وتظهر قدرة علي عليه السلام وبراسته، وتصديقه المطلق الذى لا شك فيه، ويظهر ضعف الزبير وأنه غير صالح للقيام بهذا الدور إلا برفقة علي عليه السلام. ولم يلبث علي عليه السلام أن اخترط السيف، وتقدم من المرأة قائلاً وعيناه تقدحان شرراً قائلاً لها: أما والله، لتخرجن الكتاب، أو لنكشفنك، ثم لاضربن عنقك بسيفى هذا، وحاولت المرأة أن تراوغ كما راوغت مع الزبير، ولكنها رأت عناداً واصراراً، مما جعلها تتأكد بأن الرجل متأكد من وجود الكتاب الذى تحمله، وأنها إن لم ترضخ للطلب سوف تنال عقابها المناسب، وقد يكون هو الموت، وإزاء هذا التخوف على حياتها قالت له: أعرض بوجهك عنى، وأشاح علي بوجهه عن المرأة الماكرة فإذا بها تحل ضفائرها، وتخرج منها الكتاب، ثم تدفعه الى عليّ، فيأخذه عليّ عليه السلام دون أن يقول لها شيئاً، ثم يأتى الزبير معه الى رسول الله صلى الله عليه وآله يسلمانه الكتاب (١).

أرأيت معى - أيها القارئ - موقف الزبير الذى يعنى أنه لو اقتنع بكلام المرأة

١- ١ خاتم النبیین، ٢: ٦٢٧- البحار، ٢١: ٩٤ وكل من ذكرها من المؤرخين.

ص: ٢٩٨

لكذب رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى، ولكان يعنى أن تفضى الأسرار العسكرية إلى الأعداء فيعرفون خطط الهجوم فيفشل.

ولكن اليقين الثابت في صدر علي بصدق رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي جعله يقف موقفاً مميزاً وحاداً، وأنه غير مستعد لسماع كلامها، وقبول أى موقف آخر منها؛ لأنه على يقين بأن الكتاب معها. أخبره بذلك من لا ينطق إلا عن وحي يوحى به إله السماء والأرض، والمطلع على خفايا الأمور وظواهرها.

وعليّ هو الحريص كلّ الحرص أن يبقى للجيش الفاتح هيئته حينما يباغت الآخرين، ويغزوهم في عقر دارهم لتنتهي معركة الفتح دون إراقة دماء. وهيئات هيئات أنى لنا بمثل عليّ وهو النسخة الفريدة والشخصية الوحيدة في عالم اليقين والصدق والاحلاص.

الدور الثالث:

بعدما عثر الإمام علي عليه السلام على الكتاب مع المرأة التي لا تعرف من مضمونه شيئاً، أعمى الأمر علي قريش، فلم تعرف شيئاً عن استعداد الرسول صلى الله عليه وآله لفتح مكّة، وكان النبي صلى الله عليه وآله قد دعا ربّه أن يعمى أخبار جيشه عن قريش حتى يباغتها كي لا تقع معركة طاحنة في مكّة. فالنبي صلى الله عليه وآله يريد الحفاظ على شرف الحرم، وإن كان أهله يستحقون الذبح، لمعاداتهم الشديدة لرسول الهداية، ولكنه محمداً رسول الإنسانية، المحافظ على القيم. فقد هيا النبي صلى الله عليه وآله كلّ مقدمات المعركة، وأمر الجيوش بالزحف الهادئ، واستمر حتى وصل إلى مر الظهران - وقيل إنه بالجحفة - وهناك أمر الجيش بالنزول، وكان الوقت عشياً فطلب من الناس أن يوقدوا النار، كلّ واحد يشعل ناراً، وكان الغرض من هذا اظهار عظمة الجيش، وقوة العسكر بهذه النار التي ترى من بعيد، حتى تأخذهم الدهشة ولا يفكرون إلا بحماية أنفسهم إما بالإسلام أو بالهروب من المواجهة، ويكون بهذا قد حقّق الفتح الهادئ الذي يحافظ فيه علي شرف الكعبة.

ص: ٢٩٩

وهناك التحق به عمّه العباس، الذي كان بقاءه بمكة بأمر النبيّ حيث كان يقدم المعلومات عن قريش، ومظاهرها العسكرية وقوتها الاقتصادية، وما كانت تكيد وتدبر لحرب الرسول صلى الله عليه وآله.

ولما رأى العباس عظمة هذا الجيش الفاتح وقوته تأكّد لديه أن الجيش إذا دخل بهذه القوة والعنجهية ستذهب قريش والى الأبد. فكان يحاول أن يساعد النبيّ صلى الله عليه وآله على الفتح الهادئ حتى لا تراق في هذا الفتح محجمة دم.

وبينما هو غارق في التفكير لاح بخاطره أن يجول على أطراف المعسكر، لعله يرى آتياً أو ذاهباً، يمكنه أن يوصل خبراً لقيادة قريش حتى تأتي وتستأمن لدمها وأموالها، فتحفظ قريش ويحفظ الحرم.

وبينا هو كذلك إذا بأبي سفيان ومعه نفر جاءوا يستمعون الأخبار، وقد أذهلهم ما رأوا من نيران حتى أن بعضهم قال: هذه نار خزاعة، قال أبو سفيان:

خزاعة أقل وأذل. وينادي العباس أبا حنظلة! فيجيبه أبو سفيان فداك أبي وأمي بعدما عرفه، وهو مندهش من هول ما رأى عدّة وعدداً، ثم خاطبه ما ترى في أمرنا؟ قال: الإسلام- التحق بي حتى لا يقتلك الناس، وأردفه خلفه مؤمناً له مانعاً قتله حتى وصل إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وعرض عليه الإسلام، ولكنه كان صلب الشكيمة، شديد السخيمة يعزّ عليه فقدان اللات والعزى والهبل الأعلى، وقد حاول عمر بن الخطاب قتله عن طريق إثارة النبيّ صلى الله عليه وآله، وأن الله قد أمكن منه بلا عهد ولا عقد، ولكن العباس الحريص على الإسلام رأى الحكمة في بقاءه، ليرى عزّة الإسلام، وشرف النبيّ المطرود، وذلة قريش وصغار أبي سفيان، وطلب من أبي سفيان أن يسلم فتمهل، ولكن النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعّمه العباس: أبقه عندك الليلة، وآتني به صباحاً.

وفي الصباح أسلم بعد محاورّة قصيرة، وقال العباس للنبيّ: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله في معرض توصياته لرؤساء الجند

ص: ٣٠٠

وقادة الكتائب: من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل بيته وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وكان الغرض من ذلك أن يذهب أبو سفيان، ويخذل الناس عن الحرب ويجلس في بيته، لأنه رجل له قوة تحريضية هائلة على إثارة البلابل، فاسكتة النبي بهذه المكانة المتساوية مع رجل أغلق بابه، ولا شيء غير ذلك.

وفرح أبو سفيان بهذه الرتبة الجديدة والشرف، وذهب مسرعاً إلى مكة يطلب إلى الناس أن يدخلوا داره، وهو لا يعنيه من الشعارات إلا أمان داره، وهو قادر على تجبير الجو لصالحه، فصار يدعو إلى داره فقط ليوهم الناس أنه وحده قد حظى بهذا الشرف، وهذا ما جعل الآخرين إما يلتزمون بيوتهم، أو يهربون إلى الجبال المحيطة بمكة.

ويزحف الجيش الإسلامي المقدام، ويدخل مكة من طرق أربعة يطوقها من كل مكان حتى لا يفكر أحد في إراقة دم في بيت الله الحرام، وفي البلد الحرام.

وذكروا أن النبي صلى الله عليه وآله كان داخلاً وقلبه خاشع لله على هذا التوفيق، ولسانه يردد إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً.

ومضت فرق الجيش تدخل مكة دون أدنى مقاومة، وقد أخذت الحمية سعد ابن عباد الأنصاري وهو يمزّ أمام أبي سفيان بن حرب فقال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى أو تستحل الحرم. وتردد قوله بين المسلمين فنقلوه إلى النبي صلى الله عليه وآله وقالوا: يا رسول الله! ما نأمن أن يكون لسعد في قريش صولة. وقيل: إن العباس سمع ذلك فقال للنبي صلى الله عليه وآله: يا رسول الله! أما تسمع ما يقول سعد؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله لأمر المؤمنين عليه السلام: يا علي! أدرك سعداً، فخذ الراية منه، وكن أنت الذي تدخل بها مكة.

فأدركه أمير المؤمنين عليه السلام فأخذها منه، ولم يمتنع عليه سعد بل دفعها إليه.

ولم ير رسول الله صلى الله عليه وآله أحدًا من المهاجرين والأنصار يصلح لأخذ الراية من

ص: ٣٠١

سيد الأنصار سوى أمير المؤمنين علي عليه السلام.

قال الشيخ المفيد رضى الله عنه: واعلم أنه لو رام ذلك غيره، لامتنع عليه سعد، وكان في امتناعه فسادُ التدبير، واختلاف الكلمة بين الأنصار والمهاجرين، ولم يكن وجه الرأي تولى رسول الله أخذ الرأية بنفسه، وولى ذلك من يقوم مقامه، ولا يتميز عنه، ولا يُعظم أحدٌ من المقرين بالملّة عن الطاعة له، ولا يراه دونه في الرتبة، وفي هذا من الفضل الذى تخصص به أمير المؤمنين عليه السلام ما لم يشاركه فيه أحد، ولا ساواه في نظير له مساو، وكان علم الله تعالى ورسوله فى تمام المصلحة بانفاذ أمير المؤمنين عليه السلام دون غيره ما كشف به عن اصطفاؤه لجسيم الأمور كما كان علم الله تعالى فيمن اختاره للنبوة وكمال المصلحة ببعثه كاشفاً عن كونهم أفضل الخلق أجمعين (١).

وهذا الدور لا يحتاج الى تعليق، لأن وضوح أخذ الرأية من سعد لا يتم إلا برسول الله صلى الله عليه وآله حيث لا يتنازل سعد زعيم الأنصار إلا للنبي صلى الله عليه وآله، ولما كان سعد يعرف أن علياً هو الرجل الثانى فى الإسلام، وأنه سيصبح الرجل الأول سلم الأمر إليه بلا تنازع.

الدور الرابع:

التفاف الجيش الإسلامى على أطراف مكة المكرمة، مكّن النبي صلى الله عليه وآله من السيطرة العامة على المدينة، حيث لم تحدث أية مشكلة تذكر، وطبقت أوامر النبي بعدم سفك الدماء فى البلد الحرام.

وأسلم على أثر الفتح سادة مكة، منهم حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، وجبير بن مطعم، وأقبل أبو سفيان يركض فاستقبلته قريش، وقالوا: ما وراءك وما هذا الغبار؟ قال: محمد فى خلق عظيم، ثم صاح وهو مدعور: يا آل غالب! البيوت البيوت! من دخل دارى فهو آمن، فعرفت هند زوجته فجعلت تطردهم، ثم قالت: اقتلوا الشيخ الخبيث لعنه الله من وافد قوم، وطلية قوم. قال لها: ويلك إنى رأيت ذات القرون، ورأيت فارس أبناء الكرام، ورأيت ملوك كنده وفتيان

ص: ٣٠٢

حمير يسلمن آخر النهار، ويلك اسكتي، فقد والله جاء الحقّ ودنت البلية.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد عهد إلى المسلمين أن لا يقتلوا بمكة إلا من قاتلهم سوى نفر كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وآله منهم مقيس بن صبابه، وعبد الله بن أبي سرح، وعبد الله بن خطل، وقينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. فأدرك ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عماراً فقتله وقتل مقيس بن صبابه في السوق، وقتل علي عليه السلام إحدى القينتين وأفلتت الأخرى، وقتل أيضاً الحويرث بن نفيل بن كعب.

وبلغ علياً عليه السلام أن أخته أمّ هاني بنت أبي طالب قد أوت ناساً من بني مخزوم، منهم الحارث بن هاشم، وميس بن السائب، فقصد نحو دارها مقنعاً بالحديد فنادى:

أخرجوا من آويتهم، فجعلوا يذرقون كما تذرق الحبارى خوفاً منه، فخرجت إليه أمّ هاني وهي لا تعرفه فقالت: يا عبد الله أنا أمّ هاني بنت عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأخت عليّ بن أبي طالب، انصرف عن داري، فقال: أخرجوهم. فقالت: الله! لأشكونك إلى رسول الله. فنزع المغفر عن رأسه فعرفته فجاءت تشتد حتى التزمته فقالت:

فديتك، حلفت لأشكونك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لها: اذهبي فبري قسمك فإنه بأعلى الوادي. قالت أمّ هاني: فجئت إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو في قبة يغتسل وفاطمة عليها السلام تستره، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله كلامي، قال: مرحباً بك يا أمّ هاني، قلت: بأبي وأمي ما لقيت من علي اليوم، فقال صلى الله عليه وآله وقد فهم ما تريد: قد أجزت من أجزت، فقالت فاطمة عليها السلام تشكين علياً عليه السلام، لأنه أخاف أعداء الله، واعداء رسوله، فقلت:

احتمليني فديتك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قد شكر الله سعيه وأجزت من أجزت أم هاني لمكانتها من علي بن أبي طالب (١).

هل قرأت معي كيف نفذ الأوامر، وقتل الأعداء، ولاحقهم ولم يتراجع، ولم يراعِ بذلك بيوت أهله وأقاربه، ولا بيت أخته الوحيدة، التي لم يرها منذ زمن؟

ص: ٣٠٣

ولكنه عليّ المعروف بفنائه بالحقّ، ومعاداته لأهل الباطل، وهو القائل: ما ترك لي الحقّ صاحباً. فيينا ترى بعض الصحابة يخاف عليّ أهله لتصور شيطاني، أو يخاف عليّ مستقبل وضعه لظنه أو احتمال غلبه قريش، فإذا به يفتش الأسرار العسكريّة، أو يتراجع حين البأس ويفرّ من المعركة، أما عليّ هو هو في المسجد والمحراب وفي المعركة والمواقف مع الأهل والأخت والبنات والأولاد عليّ حدّ سواء، لا يقدم عليّ الحقّ أحداً.

الدور الخامس:

بعدما لوت مكة جيدها، وأذعنت ليريق النبوة، وتحولت الى سلطة الرسول صلى الله عليه وآله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً حيث خرجت الرجال من مخابثها، وأسلمت وخرجت النساء من خدورهن واسلمن، وانضوى الناس في ظل الرسالة الإسلامية، وعادت مكة الى دورتها الأولى يوم خلق الله السماوات والأرض، وعاد البلد الحرام حيث يحرم فيها سفك الدماء، وأصبحت واحه الأمان والراحة والاطمئنان، دخل النبي صلى الله عليه وآله فاتحاً لا كما يدخل الفاتحون عنوةً بل كما يدخل الرسل المتواضعون ذاكراً ربّه، ناظراً الى قبروس فرسه، لم يدخل مستعلياً ولا مستكبراً وإنما دخل ذاكراً شاكراً مسيحاً مستغفراً.

وبما أن مكة المكرمة كانت مجمع عبادة العرب، ومركز التجمع الصنمي أيضاً، وكان الغرض الأساس من الحرب الفكرية والنفسية والمادية إزالة دولة الصنمية، وتأسيس دولة الإله الواحد الحقّ مكانها، كان لابد من تركيز الألوهية في أذهان الناس، وتحطيم المظاهر الصنمية وقلعها من الأذهان، وتحطيم كل المظاهر الصنمية الموجودة في الكعبة وفي جوارها. قال الإمام الرضا عليه السلام - كما في البحار - وكانت ثلاثمائة وستين صنماً حول الكعبة عندما فتح النبي صلى الله عليه وآله مكة فمر بها وجعل يطعنها بمخصره في يده ويقول: جاء الحقّ وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، فجعلت تكب لوجهها (١). وفي رواية ابن شهر آشوب: إن الإمام علياً عليه السلام صعد عليّ أكتاف

ص: ٣٠٤

النبي وكسر الأصنام الموجودة على ظهر الكعبة.

واذكر بعض الآيات التي أروىها من حافظتي، وكنت قد حفظتها قبل أكثر من ثلاثين عاماً، والمصدر الآن غير موجود في مكتبتى التى أحرقتها الظالمون.

وهذه هى الآيات:

قيل لى قل فى على مدحاً ذكرها يطفى ناراً مؤصدة

قلت هل أمدح من فى فضله حار ذو اللب الى أن عبده

والنبي المصطفى قال لنا ليلة المعراج لما صعد

وضع الله على ظهرى يداً فأحس القلب أن قد برده

كان هدف الإسلام محو الصنمية من الوجود الخارجى، بل الوجود الذهنى أيضاً، والعقيدة الصنمية حالة مستعصية، مركوزة فى الذهن والوجدان، وبعضهم رضع عقيدة الصنم وعبادة الصنم مع الحليب فأنتى له أن يترك هذه العبادة ولو كانت خرافة فوقها خرافة؟ والذى عشق الخرافة ورضع الخرافة، لا يراها خرافة وإنما يراها صحيحة، وهذا هو الجهل المركب. ومشكلة الرسالة كانت مع هذا الجهل المركب، مع التعقيد النفسى والذهنى. فهل كان الرسول بإمكانه غرس العقيدة الإلهية دون إزالة العقيدة الصنمية من الأذهان؟ وهل يمكن محوها من الذهن قبل محوها من الواقع؟ ومن الذى يساعده على هذه المهمة الصعبة إلّارجل الصعاب، رجل المواقف، إلا على الذى صعد على كتف النبى، وحمل فأس النبوة بيده القوية وزنده المتين، حتى كسرها تكسيراً؟ وبذلك تم الانتصار الحقيقى للإسلام بازالة كل آثار الصنمية ومحوها من الوجود.

الدور السادس:

سدانة البيت العتيق فى الجاهلية والإسلام مكانة مرموقة، وكان أولاد أبى طلحة قد ثبتوا هذا الشرف، ولا ينافسهم فيه غيرهم من قريش وظلوا على ذلك

ص: ٣٠٥

زماناً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال لعثمان بن أبي طلحة - يوماً من الأيام -: ربما يأتي زمان يكون هذا المفتاح في يدي أضعه حيث أشاء، فهزغ عثمان بهذا الكلام.

ومن الطبيعي بعد سقوط مكة وفتحها بهذا الجيش الجرار، أن يركز فيها المواقع الأساسية كالسدانة والسقاية والولاية وما إليها، وأحس عثمان بأن أيامهم انتهت فأغلق الباب، وصعد بالمفتاح على السطح، وكأنه أراد أن يختبئ وينجو بهذا العلو فوق سطح الكعبة قائلاً: لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه - يعني بقي على عناده بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً - وعندها أمر النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أن يصعد السطح، ويأخذ المفتاح منه، ولما وصل عليّ عليه السلام إلى عثمان حاول التمتع، ولكن علياً أمسكه فحاول الانفلات، ولكن هيهات فقد أمسكه ذو قوة لو اجتمع جيش عرمرم على ازالته منه لما أمكنه ذلك، ثم لوى يده وأخذ المفتاح منه، وفتح باب الكعبة ودخل الرسول صلى الله عليه وآله إلى الكعبة فصلى ركعتين، فلما خرج سأله عمه العباس أن يعطيه المفتاح فنزل قوله تعالى: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها فأمر النبي صلى الله عليه وآله علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان، فقال: يا علي! أكرهت وأديت ثم جئت برفق. قال لقد أنزل الله عز وجل بشأنك قرآناً، وقرأ الآية عليه، فأسلم عثمان فأقره النبي صلى الله عليه وآله في يده (١).

كل دعوة تحتاج - مهما كانت محقة - إلى قوة تساندها، قوة المال، وقوة الزند والسيف، وقد كان رسول الهداية محمد صلى الله عليه وآله وكل آله يحتاج إلى الاثنين معاً كغيره من أصحاب الدعوات الصالحة، وقد وفق الله بجمال خديجة فانفقت حتى لم يبق منه شيء، وبقي زند على عليه السلام الذي رافق الدعوة الإسلامية حتى ثبت أركانها.

وفروسيه على وقوته وشجاعته كانت لا تخفى على أحد، وكانوا يهابونه صغيراً وكبيراً، وإذا تصدى على عليه السلام لموقف كانوا يعرفونه لا يرجع حتى يفتح الله على يده.

من هنا لم يكن بإمكان عثمان بن طلحة ولا غيره أن يختبئ، أو يصعد على

ص: ٣٠٦

سطح الكعبة هروباً من وجود هذا الجيش، خصوصاً وجود الذراع التي تطوى الحديد. فهل بإمكانه مقاومة هذا الساعد الذي يحمل الفرس والفرس أو يضرب الفرس المقنع بالحديد فيقده نصفين؟

ظنّ عثمان أنه بإمكانه أن يمتنع وهو بعد لم يعرف قدرة عليّ، وشدة ساعده، كان يسمع في عليّ وقوته، والآن تحقق له عندما أمسك عليّ بيده ماذا حلّ به. كيف استلم دون مقاومة كأنه كان أمام أمرين إما أن يقع بدون حركة، أو يقدم المفتاح بدون ضجيج، فكان التسليم للصاعقة الإلهية لسيف عليّ وساعده؛ ليدخل النبي الكعبة وليعلن موقفه واضحاً دون قتال في هذا البيت العتيق.

الدور السابع:

لا يكفي أن يفتح النبي صلى الله عليه وآله مكة المكرمة ويترك ما حولها من جيوب، يترك المحيط بعيداً عنها عقائدياً وأخلاقياً، بل لابد من الدعوة الشاملة والخير العميم حتى تعود مكة بجوارها وقراها، لتعود أم القرى بأولادها وأحفادها كما أراد لها ربّ العزة، تمشي في الطريق السوي ليدخل الناس في دين الله أفواجاً.

ومن هنا عندما هدأت العاصفة، واستتبّ الأمن في البلد الحرام، وأمن من آمن، وقتل من قتل، وتحقق النصر الإلهي، ونصر الله عبده وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. بث السرايا إلى القرى المجاورة تدعو الناس للإسلام، وكانت القرى - التي سمعت بنصر الله، وخذلان قريش - على شيء من الاستعداد تنتظر هذه السرايا؛ لتعلن كلمة التوحيد وتنصوي تحت لواء الدين الجديد.

وكان ممن بعث خالد بن الوليد على رأس سرية إلى بني جذيمة، وكانت بنو جذيمة قد أصابت في زمن الجاهلية عوف بن عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة، وكان من أقارب خالد، فلما وصل خالد إلى القبيلة حملوا السلاح في وجهه، فطلب اليهم إلقاء السلاح فلم يقبلوا لخوف من أخذ الثأر منهم، قال رجل منهم يقال له جحدم: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد والله، ما بعد إلقاء

ص: ٣٠٧

السلاح إلا- الأسر، وما بعد الأسر إلا القتل، فأخذته رجال من قومه، وقالوا يا جحدم تريد أن تسفك دماءنا؛ إن القوم قد أسلموا، ووضعت الحرب وأمن الناس وما زالوا به حتى نزعوا منه سلاحه، ووضع القوم السلاح امتثالاً لطلب خالد، فلما وضعوا السلاح أمر بهم فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فلما انتهى الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وآله رفع يديه إلى السماء، ثم قال: اللهم انى أبرأ إليك مما صنع خالد (١).

ثم دعا علياً عليه السلام فقال: يا علي أخرج الى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج حتى جاءهم، ومعه مال قد بعته رسول الله صلى الله عليه وآله فودى لهم الدماء، وما أصيب من الأموال حتى إنه ليدى ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا- وداه، بقيت معه بقية من المال. فقال لهم علي عليه السلام حين فرغ منهم: هل بقي لكم دمٌ أو مالٌ لم يود إليكم؟ قالوا: لا. قال: فإني أعطيتكم هذا المال الباقي احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وآله مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل ووافقوا شاكرين، ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره الخبر. فقال: أصبت وأحسنت، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى بياض ما تحت منكبیه وهو يقول: اللهم انى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات (٢).

إنّ تثبيت الدولة يكون بإرخاء رواسى العدل والمساواة بين الناس، والإسلام جاء ليمحو أوضاع الجاهلية وما عليها من شتآن ويمشى فى الناس بالحق والعدل ولا تزر وازرة وزر أخرى. وما قام به خالد لا علاقة له بالإسلام، بل هو الراسب الجاهلى المتحكم فى عقل هذا الرجل الذى أسلم متأخراً ولا تزال رواسب الجاهلية فى كيانه، فهو لم يستطع أن يترفع عنها مع أن النبى قال فى خطبته البليغة أمام أهالى مكّة: كل دم فى الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين. وكأن خالد لم يسمع أو لم يع ما قاله المصلح الكبير، ولهذا تبرأ منه النبى صلى الله عليه وآله ومن أفعاله، وتأثر لهذه الحادثة النكراء، وبعث علياً الذى هو نفسه ليمثله فى رأب الصدع واستنكار الجريمة ودفع

١- ١ الطبرى، ٢: ١٦٤.

٢- ٢ نفس المصدر.

ص: ٣٠٨

الدييات وتعويض الخسائر المادية، حتى يبلغه الكلب- أي الجرن الذي يشرب منه الكلب، وهو وعاء من حجر أو خشب لا قيمة له- حتى يثبت الحق ويرسى دعائم العدل، ومن أولى من عليّ الأعلم الأفضى بفك الخصومات، وحلّ المشاكل وإرضاء الناس، وإعادة الأمور إلى نصابها؟ عليّ الحكيم في القضاء، والحكيم في المواقف ومداراة عواطف الناس حتى رجع والقوم مطمئنون كأنه لم يصبهم شيء، فبورك عليّ وبورك هذا اللطف الرسالي الذي يحمله بين حناياه، عالماً وقاضياً ومدافعاً عن الإسلام الحقّ.

وقفه عتاب خفيفة مع محمد حسين هيكل:

بلغ كتاب هيكل مجده، حيث وزع على أكثر الدول العالمية المهمة بالتراث، خصوصاً أن هيكل كتب كتابه وفق الأنظمة الحديثة للكتابة، حتى يجعله مرجعاً سهلاً للباحثين الغربيين والشرقيين على السواء، ولكل من أراد أن يدرس حياة محمد صلى الله عليه وآله. والحق أن الكتاب اختصر التاريخ وأجاد كاتبه في كثير من المناسبات، بل حلق في بعض المواقف. والكتاب موفق كما ونوعاً ومنهجاً واسلوباً.

غير أننا ونحن نعتر بأحد أهم كتاب العصر الحديث، نأسف لكاتب من هذا النوع- وهو يسير أغوار التاريخ ويشهد الحقائق بكل نصاعتها- أن يبقى في ذهنه شيء من روايب الماضي العفن حيث الحزبية والطائفية المقيتة ونرباً به أن يكون في ذهنه شيء على عليّ إمام المتقين وقائد الغر المحجلين، خصوصاً أن له موقفاً مميزاً في كتابة الطبعة الأولى من كتابه المطبوع في مصر عندما يتحدث عن يوم الدار، ويثبت فيه الوصية لأمر المؤمنين عليه السلام ويثور عليه المتعصبون أتباع بني أمية، ويقولون له:

هذا عين ما تقوله الشيعة، فيقول لهم: هذا عين ما يقوله التاريخ، ثم يمحو ويحذف هذا الكلام من الكتاب عندما يتفق معه على شراء خمسمائة نسخة في الطبعة الثانية، فيهدم بهذا هيكل كل ما بناه من تحقيق علمي نزيه وبحث موضوعي مجرد.

وهنا في هذا الموضوع عندما يتعرض لموضوع فتح مكة المكرمة يجرد علماً

ص: ٣٠٩

عن أي مكرمة بحذف مقصودٍ واهمال مقصود، وإذا اضطرت حقائق التاريخ التي يكتبها الطبري وابن الأثير واليعقوبي وابن هشام وغيرهم ممن تعرضوا لأكثر تفاصيل الفتوحات المباركة، يختصرها اختصاراً يكاد معه يمحو ذكر الحادثة. فهو مثلاً في مسألة الرأي لا يذكر العباس ولا يذكر علياً عليه السلام، وفي مسألة أم هانئ لا يذكر علياً وفي مسألة هدور دم الأعداء الألداء في العداوة الذين أمر النبي صلى الله عليه وآله علياً بقتلهم لا يذكر علياً، وفي مسألة تكسير الأصنام يتجاهل علياً تماماً، وهكذا يبدو هيكل وكأنه في حرب مع علي عليه السلام غير معلنة بل معلنة... (١) بقلم السيد زهير الأعرجي:

كانت مكة معلماً شاخصاً في حياة الامام أمير المؤمنين عليه السلام. ففيها ولد، وفيها ترعرع صبيّاً بجنب رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيها آمن برسالة السماء يوم كان الشرك يخيم عليها. لقد كانت مكة بالنسبة للامام عليه السلام مدينة تحمل كل معاني الصراع بين الحق والباطل. فقد بقي عليه السلام أياماً بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله منها يرد الامانات، وكان له دور رئيسي تحت امره رسول الله صلى الله عليه وآله في فتح مكة، وكان عليه السلام المؤهل الوحيد الذي بعثه النبي صلى الله عليه وآله لتبليغ سورة براءة في حج السنة التاسعة للهجرة.

وبكلمة، فإن لمكة المكرمة في حياة امير المؤمنين عليه السلام وضعاً خاصاً في النشاط الديني الاجتماعي، نعرض له في الصفحات التالية، بإذنه تعالى.

علي عليه السلام وفتح مكة

فُتحت مكة المكرمة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وخبرها أنه كان من شروط صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين قريش أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وآله وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وآله وعهده.

ص: ٣١٠

ولكن بنو بكر وقريش تظاهرت على خُزاعه واصابوا منهم مقتلاً ونقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله. فقدم عمرو بن سالم الخزاعي الى المدينة ووقف على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو جالس في المسجد بين الناس، فقال يستثيره على قتال اهل مكة من المشركين:

ياربّ إني ناشدُ محمداً حَلَفَ أبينا وأبيه الأثلدا (١)

قد كنتمُ وُلدًا وكنا والداً ثمّت أسلمنا فلم ننزع يدا (٢)

فانصير هداك الله نصرًا أعتداو ادعُ عبادَ الله يأتوا مددا (٣) فيهم رسولُ الله قد تجردا إن سيم حشيفا وجهه تربدا (٤) في فيلق كالبحر يجرى مُزبدا إن قريشاً أخلفوك المؤعدا (٥) ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رُصدا (٦) وزعموا أن لست ادعو أحدا وهم أذلّ وأقلّ عددا

هم بيتونا بالوتير هُجدا وقتلونا رُكعًا وسُجدا (٧) وأحست قريش بعظمة الجريمة التي ارتكبتها ضد المسلمين. وتسارعت الاحداث، فقدم ابو سفيان المدينة و اراد أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وآله لتصحيح ما ارتكب من خطأ فادح بنقضه العهد مع المسلمين ولكنه لم يفلح، فلم يردّ صلى الله عليه وآله عليه شيئاً.

فعندها «دخل على علي بن ابي طالب رضوانُ الله عليه، وعنده فاطمة بنتُ رسول الله صلى الله عليه وآله، وعندها حسنُ بن علي غلام يدبّ بين يديها. فقال: يا عليّ، إنك أمست القوم بي رحماً (٨)، واني قد جئتُ في حاجة فلا ارجعن كما جئتُ خائباً، فاشفع لي الى رسول الله. فقال: ويحك يا ابا سفيان! والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وآله علي أمر ما نستطيع ان نكلمه فيه. فالتفت الى

فاطمة فقال: يابنه محمد، هل لك أن تأمرى بُنيك هذا فيجبر بين الناس، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر؟ قالت:

والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يُجبر بين الناس، وما يُجير أحدٌ علي رسول الله صلى الله عليه وآله.

١-١ ناشد: طالب ومدكّر. والاتلدا: القديم.

٢-٢ يريد ان بنى عبد مناف امهم من خزاعه، وكذلك قصي امه فاطمة بنت سعد الخزاعية.

٣-٣ أعتد: حاضر، والمدد: العون.

٤-٤ تجرد: شمر وتهياً للحرب. وسيم: طلب منه وكلف. الخسف: الذل. وتربد: تغير الى السواد.

٥-٥ الفيلق: العسكر الكثير.

٦-٦ كداء: موضع باعلى مكة.

٧-٧ الوتير: اسم ماء باسفل مكة لخزاعه. والهجد: النيام.

٨-٨ عندما خسر ابو سفيان كل شيء اراد الضرب على وتر الرحم والدم، وهو الذي قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام من بنى هاشم اشد القتال. لكنه اليوم يتحدث عن علاقة بنى امية بنى هاشم من ناحية الرحم والاجداد!

ص: ٣١١

قال: يا أبا الحسن، إني أرى الامور قد اشتدت عليّ، فانصحنى.

قال عليه السلام: واللّه ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كِنَانَه، فقم فأجز بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال: أو ترى ذلك مُغنياً عني شيئاً؟

قال عليه السلام: لا واللّه، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام ابو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجزت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟

قال: جئت محمداً فكلّمته فواللّه ما ردّ عليّ شيئاً... ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد اشار عليّ بشيء صنعته، فواللّه ما أدري هل

يغنى ذلك شيئاً أم لا؟...» (١).

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالجهاز، فتجهز عشرة آلاف من المسلمين، ولم يتخلف عنه أحد. وخرجوا جميعاً نحو مكة. فلما

نزل رسول الله صلى الله عليه وآله «مرّ الظهران» قدم ابو سفيان يستظهر الخبر، فأخذه العباس بن عبد المطلب الى رسول الله صلى الله

عليه وآله. فلما رآه صلى الله عليه وآله، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك ان تعلم انه لا إله الا الله؟ قال: بآبي انت وأمي، ما

أحلمك وأكرمك وأوصلك! واللّه لقد ظننت ان لو كان مع الله إله غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد. قال: ويحك يا ابا سفيان! ألم يأن

لك ان تعلم أني رسول الله؟ قال: بآبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه واللّه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، فاسلم!

قال العباس: قلت يارسول الله، إن ابا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: «نعم. من دخل دار ابي سفيان فهو آمن، ومن

اغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» (٢).

وعندما رأى ابو سفيان جنود الله تمر من امامه في مضيق الوادي التفت الى

١- ١ سيرة ابن هشام ٤: ٣٩.

٢- ٢ سيرة ابن هشام ٤: ٤٥-٤٦.

ص: ٣١٢

العباس وقال: «والله يا اباالفضل، لقد اصبح مُلكُ ابن اخيكَ الغداةَ عظيمًا، قال العباس: يا ابا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم اذن» (١).
 وحينما دخلوا قال سعد بن عباد: اليومُ يومُ الملحمة، اليومُ تُستحلُّ الحُرمة! وهو رأى لم يُستشر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله،
 ويدلُّ على الآثار المترسبة ما قبل الاسلام على اولئك المسلمين. فتدارك النبي صلى الله عليه وآله الموقف الذي يمكن ان يتطور الى
 سفك دماء، وقال صلى الله عليه وآله لعلي بن ابي طالب عليه السلام: أدركه، فخذ الراية منه، فكن انت الذي تدخل بها (٢). وهكذا
 كان، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه وآله وبيد علي عليه السلام الراية ثم جيش النبي صلى الله عليه وآله من ورائهما.
 وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه وآله قد عهدَ الى امرائه من المسلمين، حين امرهم ان يدخلوا مكة، ان لا يقاتلوا الا من قاتلهم. لكنه
 امرهم بالخصوص بقتل اربعة نفر هم: عبد الله بن سعد بن ابي سرح، والحويرث بن نفيل، وابن خطل، ومقبس بن ضبابه.
 وأمرهم ايضاً بقتل قينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وآله. وقال صلى الله عليه وآله: اقلوهم وإن وجدتموهم
 متعلقين باستار الكعبة. فقتل علي عليه السلام الحويرث بن نفيل واحدى القينتين وأفلتت الاخرى. وقتل مقبس بن ضبابه في السوق.
 وادرك ابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة، فاستبق اليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عماراً فقتله.
 اما عبد الله بن سعد الذي كان قد ارتد مشركاً بعد ان كتب بعضاً من الوحي وحزفه، فظفر به ولكن عثمان بن عفان غيبه وطلب له
 الامان من رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه وآله في قصة ذكرت في سيرة ابن هشام. ثم ولاه عمر بن الخطاب بعض اعماله في خلافته، ثم
 ولاه عثمان بن عفان بعد عمر (٣)!!
 ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه وآله مكة، دخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنون ان السيف لا يرفع عنهم. فاتي صلى الله عليه وآله
 آله الحرم وقام على باب الكعبة فقال: «لا اله الا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، الا كل مأثرة
 او

١-١ سيرة ابن هشام ٤: ٤٧.

٢-٢ سيرة ابن هشام ٤: ٤٩.

٣-٣ سيرة ابن هشام ٤: ٥٢.

ص: ٣١٣

دم او مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت (١) وسقاية الحاج... يامعشر قريش، إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، و آدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم الآية كلها. ثم قال:

يامعشر قريش، ماترون انى فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن اخ كريم.
قال: اذهبوا فانتم الطلقاء» (٢).

وكان الله سبحانه قد امكنه من رقابهم عنوة فكانوا له فيئاً، فلذلك سُمى اهل مكة الطلقاء.

و «لما فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه و آله امر النبي صلى الله عليه و آله علياً (كرم الله وجهه) ان يصعد على منكبهِ ليقذف الصنم التي كانت اعظم الاصنام عن المسجد الحرام» (٣).

وتفصيل ذلك على لسان علي بن ابي طالب عليه السلام كما يرويها احمد بن حنبل، قال عليه السلام:

«انطلقت أنا والنبي صلى الله عليه و آله حتى أتينا الكعبة فقال لي رسول الله صلى الله عليه و آله: اجلس وصعد على منكبى فذهبت لانهض به فرأى منى ضعفاً فنزل وجلس لي نبي الله صلى الله عليه و آله وقال:

اصعد على منكبى، فصعدت على منكبى، فنهض بي. قال: فانه يخيل لي انى لو شئت لثلثت افق السماء حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر او نحاس، فجعلت ازاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه حتى اذا استمكننت منه قال لي رسول الله صلى الله عليه و آله: اقذف به، فقفبت به فتكسر كما تنكسر القوارير» (٤).

. وفي رواية اخرى أن علياً عليه السلام لما عالجه كان رسول الله صلى الله عليه و آله يقول له: ايه ايه... جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً (٥).

« (٦).

تصرفات خالد بن الوليد: آثار ما قبل الاسلام

وعندما فتحت مكة، بعث رسول الله صلى الله عليه و آله السرايا فيما حول مكة تدعو الى الله عزوجل، ولم يأمرهم بقتال. وكان ممن بعث خالد بن الوليد وأمره أن يسير بأسفلِ تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب: سليم بن منصور، ومذلج بن

١-١ سدانة البيت: خدمته.

٢-٢ سيرة ابن هشام ٤: ٥٤-٥٥.

٣-٣ مفتاح النجاء، البدخشي: ٤٦.

٤-٤ مسند احمد، رواه احمد بن حنبل باسناده عن ابي مريم عن علي عليه السلام ١: ٨٤.

٥-٥ سورة الاسراء: آية ٨١.

٦-٦ المستدرک على الصحيحين ٢: ٣٦٦.

ص: ٣١٤

مُرَّةً. فوطئوا بنى جذيمة بن عامر. فلما رآه القوم اخذوا السلاح. فقال خالد: ضعوا السلاح، فان الناس قد اسلموا. فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك. فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وآله رفع يديه الى السماء، ثم قال: اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد (١). فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله على بن ابي طالب (رضوان الله عليه)، فقال: يا على، اخرج الى هؤلاء القوم، فانظر فى امرهم، واجعل امر الجاهلية تحت قدميك. فخرج على عليه السلام حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وآله، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الاموال، حتى انه ليدى لهم ميلغة الكلب (٢).

حتى اذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وداه، بقيت معه بقيه من المال. فقال لهم على (رضوان الله عليه) حين فرغ منهم: هل بقى لكم بقيه من دم او مال لم يود لكم؟ قالوا: لا. قال: فانى اعطيكم هذه البقيه من هذا المال، احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وآله مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل. ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخبره الخبر، فقال صلى الله عليه وآله: أصبت وأحسنت. ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى انه ليرى ما تحت منكبيه، يقول: «اللهم انى ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات» (٣).

الدلالات العلمية للنصوص

هناك دلالات علمية يمكن استنباطها من النصوص التى اوردناها فى فتح مكة. ومن تلك الدلالات: تنبأ الدين ببقاء الحق وزوال الباطل، والطراز الرفيع لفتح مكة بين الفتوحات، وبطولة الامام عليه السلام التى كان من اهم آثارها: فتح مكة وانكسار دولة الشرك الى الابد.

١- الحق والباطل: من زاوية فلسفية

عندما تكسرت اصنام قريش فى فتح مكة على يدى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى بن

١- ١ سيرة ابن هشام ٤: ٧٢.

٢- ٢ ميلغة الكلب: شىء يحفر من خشب، ويجعل ليلغ فيه الكلب. وكان يستعمل عند اهل البادية واصحاب الغنم.

٣- ٣ سيرة ابن هشام ٤: ٧٢-٧٣.

ص: ٣١٥

ابى طالب عليه السلام، قال صلى الله عليه و آله: ايه ايه جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً (١).

فما هو الباطل الذى حُكِم عليه بالموت والزوال؟ وما هو الحق الذى اقر له بالحياة؟

يعبّر الحق عن صفات الكمال المطلق، وكل شىء يتصل بالله سبحانه هو حق: هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق (٢).

فتعالى الله هو الملك الحق (٣).

، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبا (٤).

، ذلك بان الله هو الحق وانه يحيى الموتى (٥).

. بينما لا يمتل الباطل الا الشيطان وكل ما يدعو اليه هو شر وفساد، كما اشار تعالى: فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون (٦).

، ذلك بان الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل (٧).

أ- الباطل:

هناك تساؤل وجيه يمكن ان يُطرح فى هذا المقام وهو: هل الباطل قضية متعلقة بالاخلاق ام انه قضية متعلقة بالدين؟ وهل يمكن طرد الباطل من العقل، ثم من الحياة الاجتماعية، من دون مساعدة الدين؟

طبيعياً، يعدُّ الباطل حقيقة مستقلة بذاتها بسبب قابلية النفس الانسانية على الاقتراب منه او الابتعاد عنه. واهم مصاديق الباطل: الفجور والكفر. فقد خلق الله سبحانه النفس الانسانية والهمها الفجور والتقوى فقال: ونفس وما سواها. فالهمها فجورها وتقواها... (٨).

فالنفس الانسانية كيان يمتلك القدرة والعلم والحكمة، وقد سواها سبحانه وتعالى ورتب خلقها ونظم قواها واعضاءها. والقى فى روعها وافاض عليها صوراً علمية من التصور والتصديق، وعزفها صفات الافعال من التقوى والفجور.

فالعنوان المشترك بين التقوى والفجور هو متن الفعل. مثال ذلك: اكل المال وهو مشترك بين اكل مال اليتيم وهو فجور، واكل المال الحلال وهو من التقوى. ومثال آخر: المباشرة وهو عمل مشترك بين الزنا وهو فجور، والزواج الشرعى وهو من

١- ١ سورة اسراء: آية ٨١.

٢- ٢ سورة التوبة: آية ٣٣.

٣- ٣ سورة طه: آية ١١٤.

٤- ٤ سورة الكهف: آية ٤٤.

٥- ٥ سورة الحج: آية ٦.

٦- ٦ سورة يونس: آية ٣٢.

٧- ٧ سورة الحج: آية ٦٢.

٨- ٨ سورة الشمس: آية ٧- ٨.

ص: ٣١٦

التقوى. ومثال ثالث: العبادة وهو عمل مشترك بين عبادة الصنم وهو فجور، وعبادة الله سبحانه وهو تقوى. والمحصل من الآيات الشريفة هو ان الله عز وجل عرف الانسان بخصائص الافعال من فجور او تقوى، وميز له الافعال المتصلة بالتقوى والاخرى المتصلة بالفجور.

ومن تلك الآيات الشريفة نستلهم أن هناك تناقضاً منطقياً بين الحق والباطل. فلا بد ان يهزم احدهما الآخر ويدحره، ولا يمكن ان يجتمعا في مكان واحد في نفس الوقت. بل لابد من استقلالية تحمي احدهما عن الآخر. فاما هذا واما ذاك. اي اما الفساد والظلم والشيطان: وهو الباطل. واما الخير والصلاح والعدالة: وهو الحق.

ولم يقف القرآن الكريم موقفاً حيادياً من الباطل بل ادانه في مواطن عديدة، فخاطب اهل الكتاب: يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون (١).

، وخاطب عبدة الاوثان: أفلالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (٢).

، ونقل عن المنكرين: ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق (٣).

. ونقل عن الكافرين ومجادلتهم بالباطل لدحض الحق: وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٤).

، وخاطب المسلمين بضرورة مراعاة شرعية التعامل التجارى عبر قوله: يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارةً عن تراضٍ منكم (٥).

، وادان الكافرين اجمالاً بقوله: والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون (٦).

ومن ذلك نفهم ان طبيعة الاشياء فى الكون تتناغم مع الخير والصلاح والعدالة والتوحيد، ومع كل ما يمثله الحق من مفاهيم وافكار. وعندما يقوم الانسان بفعل الباطل من فساد وظلم وعبادة للشيطان والوثن، فانه انما ينتهك

١- ١ سورة آل عمران: آية ٧١.

٢- ٢ سورة النحل: آية ٧٢.

٣- ٣ سورة الكهف: آية ٥٦.

٤- ٤ سورة غافر المؤمن: آية ٥.

٥- ٥ سورة النساء: آية ٢٩.

٦- ٦ سورة العنكبوت: آية ٥٢.

ص: ٣١٧

طبيعة الاشياء التي خلقها الله سبحانه. فهنا لا بد من دحر الباطل الذي ينتهك النظام الكوني المبني على اساس العدالة والخير والتوحيد. كما قال تعالى: ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض... (١).

ومجيء الاسلام كان انذاراً للباطل بالتوقف عن الوجود في ذات المؤمن على الاقل. فالمؤمن بتعاليم الدين السماوي يؤمن بالحق ويبنى وجوده الاجتماعي والذاتي الجديد على اساس ايقاف الباطل وحذفه من حياته. وهذا يعنى اننا اذا الغينا الباطل من الساحة الاجتماعية، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام بتحطيم الاصنام، فان ذوات الناس سوف تفتح على الخير والاستماع الى الحق. وهنا يتخير الانسان بحريته، في ذلك الجو المنفتح وتلك الارضية الواسعة، بين الحق والباطل.

ولو كان الباطل قضية متعلقة بالاخلاق لاستطاع الانسان دحها من دون مساعدة الدين، بل لكان العقل سلاحاً كافياً من اسلحة دحر الباطل. ولكن الحقيقة تقول بان للباطل كياناً مستقلاً لا يقف امامه الا الدين. فمع ان العقل يدعو الى التوحيد والعدل، الا ان العقل المجرد عن الايمان قد يدعو الى الفساد والدمار والشرك. فالعقل لوحده لا يستطيع دحر الباطل. ولو كان العقل كافياً لادراك معاني الوجود لانتفى دور الدين في الحياة الانسانية. فقضية الباطل اذن ليست متعلقة بالفلسفة الاخلاقية فقط، بل ان ازالة الباطل موكولة الى تعاليم الدين ومقدار ادائها من قبل المؤمنين.

فلاشك ان زوال الباطل يتحقق عندما يمارس المكلفون تكاليفهم الشرعية ويتعمون برحمة القوانين الدينية، وعندها ينتفى الفساد والظلم والشرك. فتشيت الحق مرهون بتقوية شوكة الدين. ومن هنا نفهم مغزى مخاطبته صلى الله عليه وآله لعل عليه السلام: ايه... جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً (٢).

. فبتحطيم رمز الوثنية والشرك في مكة، بدأ الازعان لتقبل فكرة انتصار الاسلام وانتشار قيمه السماوية.

١-١ سورة المؤمنون: آية ٧١.

٢-٢ سورة الاسراء: آية ٨١.

ص: ٣١٨

في الخير والعدالة والمحبة والصلاح على مبادئ الظلم والفساد والشرك. ومن هنا جاء الحق وزهق الباطل بكل ما تحمله تلك الالفاظ من معانٍ ومفاهيم وافكار.

فقد جاء الحق عبر رسالة السماء محملاً بمفاهيم العدالة والخير والاخوة والمحبة والتعاون، وعندها انفتح الباب للانسان لاختيار طريق الخير بدل طريق الشر، وعندها كانت الحكمة الالهية: لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي... (١)

لان الانسان بطبيعته يختار الخير على الشر، ويختار الحق على الباطل.

ذلك ان الباطل يؤدي دائماً الى الالم والمعاناة على صعيد الانسانية، ولا- يؤدي الشر الا- الى الحرب، والظلم، والاجحاف بحقوق الآخرين. ولذلك فان الدين يحارب الباطل أينما وُجد؛ لان الدين لا ينمو ولا يستقر بوجود الباطل. فالدين يدعو الى الصفاء، والامانة، والمحبة، والولاء. بينما يدعو الباطل الى الخيانة، والبغض، والدماء، والاضطراب.

وبكلمة فان الشر يحطم الروح الانسانية، ويعكر الصفاء الذهني والنفسي الذي يجلبه الدين، ويدمر الفرص العقلانية لانتخاب الدين كبديل في الحياة تمشياً مع قوله تعالى: لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي... (٢)

. اما الخير- وهو احد مصاديق الحق- فانه يجلب على الانسان سعادة ابدية، لان الخير يربط الانسان بالله سبحانه، ويربط الافراد بعضهم ببعض عن طريق القيم العليا في الحب والتعاون والتآخي. وجوهر الفكرة ان العقل لا ينهض الى مستوى طرد الباطل. فلا بد من تدخل الدين في طرد الباطل من النفس اولاً ثم سحق الباطل على المستوى الاجتماعي واحقاق الحق عن طريق الادارة الدينية للمجتمع.

ب- الحق:

ان الحق في ذاته امرٌ حسنٌ له قيمة اخلاقية عليا في حياة الانسان. فالحق يشمل الخير في كل جوانبه، ولذلك وصف الله سبحانه نفسه بانه الحق المبين كما

١- ١ سورة البقرة: آية ٢٥٦.

٢- ٢ سورة البقرة: آية ٢٥٦.

ص: ٣١٩

قال: ويعلمون ان الله هو الحق المبين (١).

ولكن يمكن تصنيف الحق الى صنفين: الحق على الصعيد الذاتي، والحق على الصعيد الموضوعي.

فعلى الصعيد الذاتي: فقد وصف الله عز وجل نفسه بالحق، لان الحق يمثل كل جوانب الخير، فهو تعالى الحق الذي يحقق كل شيء حق، ويجري في الاشياء النظام الحق. فالمولى عز وجل هو الذي يمسك باسباب الخير والعدالة والقوة والعزة والقدرة. وهو الذي خلق الخلق والحياة وصمم الكون والاشياء لتكون خيراً بذاتها. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على ذلك. فهو علمه جميع العلل من اليجاد والتدبير والمملك والإماتة والبعث، كما في قوله: ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الا له الحكم (٢)

، فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فاني تصرفون (٣)

. والامر كله بيده فهو الخالق لكل شيء المدبر لكل امر، وليس لغيره الا- الاوهام من اجل الابتلاء والامتحان، فقال: هنالك الولاية

لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً (٤)

، فتعالى الله الملك الحق... (٥)

، ذلك بان الله هو الحق وانه يحيى الموتى (٦)

، ويعلمون ان الله هو الحق المبين (٧)

. وتلك بديهيات لا ستار عليها بوجه من الوجوه. فالحق من اسماء الله الحسنی لثبوته تعالى بذاته وصفاته ثبوتاً لا يقبل الزوال ويمتنع عن التغيير.

وعلى الصعيد الموضوعي: فان الحق - بقيمه الاخلاقيه - قد تمثل بالاسلام.

فالاسلام ليس فرداً ولا شخصاً ولا مفردة، بل هو موضوع للخير العام. فهذا الدين يمثل حالة معنوية لنشر العدالة بين الناس، ويعكس صورة لنظام في ادارة صلة الانسان بربه، وصورة لنظام الادارة الاجتماعية والحقوقية. ولذلك عُبر عن الدين بانه الحق، كما يُستخلص من التأمل في قوله تعالى: فاما الذين امنوا فيعلمون انه الحق من ربهم (٨)

، انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً (٩)

، فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه (١٠)

، ولا تتبع اهواءهم

١- ١ سورة النور: آية ٢٥.

٢- ٢ سورة الانعام: آية ٦٢.

٣- ٣ سورة يونس: آية ٣٢.

٤- ٤ سورة الكهف: آية ٤٤.

٥- ٥ سورة طه: آية ١١٤.

٦- ٦ سورة الحج: آية ٦.

٧- ٧ سورة النور: آية ٢٥.

٨- ٨ سورة البقرة: آية ٢٦.

٩-٩ سورة البقرة: آية ١١٩.

١٠-١٠ سورة البقرة: آية ٢١٣.

ص: ٣٢٠

عما جاءك من الحق (١)

، هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق (٢)

. وفي الآيات الكريمة دلالة ظاهرة على ان الدين الذي نزل على محمد صلى الله عليه وآله هو حق فيما وافق ما بين يديه من الكتب، وحق فيما خالفه لكون القرآن مهيمناً على جميع الكتب السماوية السابقة.

وبذلك يكون الحق الذي بشر بمجيئه رسول الله صلى الله عليه وآله عندما كان على عليه السلام يكسر الاصنام يمثل كل معاني الخير والعدالة والتوحيد والعبودية لله الواحد القهار. وان كان ذلك الحق يغطي مساحة قانونية او معنوية او انسانية او طبيعية، فانه انما يدل على شمولية الدين لكل تلك الحقوق. فالدين يحفظ حق الانسان في التعبد، وحق الانسان في العيش بكرامة تحت اجواء الخير. وبكلمة، فان الحق هو بشرى السماء للبشرية المعذبة التي تبحث عن طريق للهداية والنجاة من العذاب.

٢- فتح مكة: طراز الفتوحات الكبرى

لو اردنا ادراك اهمية «فتح مكة» باطار الفهم المعاصر الحديث، لافترضنا اننا يجب ان نفهم آثارها او مقتضياتها بنفس درجة فهم اسبابها او عللها. فمع ان شجاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وامير المؤمنين عليه السلام الفائقة كانا من اهم عللها، فان آثارها كانت خطيرة للغاية. ذلك أن فتح مكة وضع القيادة الدينية الاجتماعية للعالم بيد المسلمين بعد ان كان المشركون يعيشون في الارض فساداً. فدخل الناس، مؤمنين باطناً او ظاهراً، في دين الله افواجا. وقد تنبأ كتاب الله المجيد بتلك الاحداث بالقول: اذا جاء نصر الله والفتح* ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا* فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً (٣).

وتلك سورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة. حيث كانت السورة إخباراً بتحقيق أمر لم يتحقق بعد. وهو الوعد الجميل بالنصر والفتح. وتلك السورة تنطبق على فتح مكة الذي هو أم فتوحاته صلى الله عليه وآله في حياته، حيث تكمل ذلك النصر بهدم بنيان الشرك في جزيرة العرب. ولذلك طلب الله عز وجل من

١- ١ سورة المائدة: آية ٤٨.

٢- ٢ سورة التوبة: آية ٣٣.

٣- ٣ سورة النصر: آية ١-٣.

ص: ٣٢١

رسوله صلى الله عليه و آله أن يسبحه و ينزهه بقوله: فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً الآية. حيث تم اذلال الشرك و تعزيز التوحيد و ابطال الباطل و أحقاق الحق.

و اصبح الاسلام بعد فتح مكّة قوة عالمية تستطيع مواجهة قوى الفرس او الروم و الانتصار عليهما، و تثبيت الامن العالمى فى ذاك الوقت تحت شعار: لا اله الا الله، محمد رسول الله. وهذا كله يمثل مصداقاً من مصاديق المقولة القرآنية: جاء الحق و زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

ولا شك أن فتح مكّة لم يكن مجرد عملية انهيار قوة عالمية و هى قوة المشركين، و انتصار قوة اعظم فى المبدأ و العقيدة و هى قوة المسلمين. بل كانت عملية بدء عصر جديد يستمر فيه الاسلام حياً نابضاً فعلاً الى يوم القيامة؛ لان الاسلام بطبيعته دين عالمى و ليس ديناً محلياً يهتم بعرق معين او طائفة معينة.

و يؤيده قول الله تبارك و تعالى: وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً و نذيراً (١)

وقد كان للبطولة الخارقة دور حاسم فى فتح مكّة و تحطيم الاصنام فوق الكعبة و حولها، كما بحثنا ذلك سابقاً. و بتحطيم الاصنام أزف الوقت لإعلان عدم شرعية الشرك فى معقل المشركين بمكّة بقوة السلاح و الايمان، و اعلان انتقال السلطة العالمية من يد الشرك الى يد الايمان، و انتهاء التحدى الفكرى للشرك القرشى ضد الاسلام.

و من منطلق تلك الاحداث لا بد من ادراك مقدار المكاسب التى حققتها بطولته اهل بيت النبوة عليهم السلام فى المعارك الاسلامية الكبرى. فقد دمر ذلك التفانى العجيب من اجل الدين، كل احلام الوثنية فى البقاء. فلم تكن تلك المعارك صراعاً شخصياً بين بنى هاشم و بنى امية. ولم تكن مواجهة شخصية بين رسول الله صلى الله عليه و آله و ابو سفيان، او بين حمزة و ابو جهل، او بين على عليه السلام و معاوية.

بل كان الصراع بين الخير و الشر و الحق و الباطل صراعاً تاريخياً بين معسكرين ذى مبدأين متصارعين الى ابد الدهر. ولم يكن تسامح رسول الله صلى الله عليه و آله مع

ص: ٣٢٢

اهل مكة الطلقاء ليغير من موقف النخبة الجاهلية. فحتى مع اظهار اسلامه، لا يزال ابو سفيان في قلبه شىء من رسالة محمد صلى الله عليه وآله، ولا يزال يؤمن بانه المُلْك الذى حازه محمد صلى الله عليه وآله واصبح عظيماً به، لا النبوة الخاتمة. ولا يزال خالد بن الوليد يتصرف على ضوء عنجهيته الجاهلية فيقتل من لا يجوز قتله، وعندها يتبرأ رسول الله صلى الله عليه وآله من افعاله.

ان العداء التاريخى الذى كانت تكنه قريش للاسلام ولرسول الله صلى الله عليه وآله ولعلى عليه السلام لم يكن ليزول باعلان الشهادتين على اللسان دون القلب. ذلك ان فتح مكة كان اظهار قدرة الله سبحانه على اعزاز الاسلام وتكريمه وتجليل خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله. وقد نصر الله الاسلام على رغم انوف صنديد قريش من الذين تشربت في قلوبهم عبادة الاوثان والاصنام.

ولذلك كانت النبوة امراً لا تستطيع قريش هضمه او استيعابه. فما هى تلك القوة الهائلة التى تستطيع ان تحرك القلوب نحو الله ضد الشيطان والشرك والرجس؟ وما هو سر ذلك التسامى العظيم لرسالة محمد صلى الله عليه وآله بين الامم؟ وما هو سر شجاعة على عليه السلام الفائقة وتفانيه فى حماية الرسالة السماوية؟ وما هو السر فى استبسال تلك النخبة المؤمنة التى كانت تحيط برسول الله صلى الله عليه وآله وتصحبه؟ لاشك ان تلك النخبة كانت اشد تماسكاً فى اتباع قائدها صلى الله عليه وآله من غيرها من نخب الملل والمذاهب، فهذا على عليه السلام يصعد على كتف رسول الله صلى الله عليه وآله ليحطم الاصنام، فى وقت كان شعارهما: جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً. وكان حمزة (رض) متفانياً فى الدفاع عن الاسلام ونبىه صلى الله عليه وآله، وكان ابو طالب ومواقفه الاجتماعية العظيمة تفصح عن عمق ايمانه برسالة محمد صلى الله عليه وآله، وكان تفانى جعفر بن ابى طالب مشهوداً من اجل الاسلام ورسالته السماوية للبشرية.

وبذلك فقد كان الشعور الوجدانى بين النخبة المؤمنة هو ان يزدهر الخير بين البشر وتتحقق كلمة التوحيد وعبادة الله سبحانه. وبذلك كان فتح مكة اعادة لبناء

ص: ٣٢٣

التركيب السياسي والاجتماعي للعالم على ضوء الدين الجديد. في وقت كان العالم يبحث فيه عن قيادة جديدة تحقق العدل الاجتماعي والامان والتوحيد، فكانت قيادة رسول الله صلى الله عليه وآله تحقق ثبات دولة الايمان العالمية ونظامها الامني والحقوقى. والسبب في ذلك ان العالم يتضمن شعوباً متباينة في التقاليد والعادات واللغات، ولا يمكن ان يجمعها الا دين سماوي واحد. فكان الاسلام هو الدين القادر على جمع ذلك العدد الهائل من البشر تحت سقف خيمة واحدة في ظل لواء واحد. ولا يستطيع احد تحمل مسؤولية ادارة ذلك التجمع العالمي اجتماعياً وسياسياً الا رسولاً يوحى اليه. فكان رسول الله صلى الله عليه وآله هو حامل المسؤولية العالمية.

وكان من خلفه المؤهل الاول لتسلم القيادة الدينية بعده صلى الله عليه وآله امير المؤمنين عليه السلام.

فقد كان عليه السلام موضع ثقة رسول الله صلى الله عليه وآله في فتح مكة. فعندما قال الناس: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمه. دعاه النبي صلى الله عليه وآله لتدارك الوضع الخطير الذي كان سيؤدي حتماً الى سفك الدماء. فكان علي عليه السلام منقذ الموقف. وعندما قام خالد بن الوليد بقتل من قتل من بنى جذيمة، وداهم رسول الله صلى الله عليه وآله فبعث علياً عليه السلام لتسوية الوضع.

وقبلها كان علي عليه السلام ثقة ابو سفيان رأس الشرك الذي حارب الاسلام والنبي صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام اشد حارب. فكان علي عليه السلام، اذا صحت الرواية، أئنيهم معه. وهكذا كان خلق الانبياء والاوصياء عليهم السلام. وهكذا تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة مع الطلقاء.

ويمكننا الآن ان نقول باطمئنان بان فتح مكة كان من طراز الفتوحات الكبرى للاسباب التالية:

١- رجع رسول الله صلى الله عليه وآله منتصراً الى البلدة التي حاربتة واضطهدته وتآمرت على قتله واخرجته بالإكراه. فبعد ثمان سنوات فقط من الهجرة الكبرى من مكة الى المدينة، رجع المصطفى صلى الله عليه وآله الى بلده مكللاً بالانتصار.

٢- دخل خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله الكعبة وبجنبه على عليه السلام وحطما الاصنام التي كانت تعتبر رمز الشرك في عالم ذلك الزمان، وفي كل زمان. وارجع صلى الله عليه وآله للكعبة الشريفة

ص: ٣٢٤

حرمته النبوية التي وضعها النبي ابراهيم عليه السلام ولوثتها جاهلية الاوثان والاصنام.

٣- كان رداء المصطفى صلى الله عليه وآله التسامح مع ألد اعدائه: مشركى قريش. فاعطاهم الامان، وقال لهم: اذهبوا فاتم الطلقاء. وكان هؤلاء قد ارتكبوا اعظم الفظائع ضد الموحدين المسلمين.

٤- كان بفتح مكة سقوط الجزيرة العربية تحت سلطان الاسلام. وتهيؤ رسول الله صلى الله عليه وآله لمحاربة القوى الاخرى فى العالم.

٣- فتح مكة: استراتيجية جاء الحق وزهق الباطل

ان الآيه الشريفه: وقل جاء الحق وزهق الباطل. ان الباطل كان زهوقاً (١)

حلبى بالمعاني العديدة التي يمكن ان يستظهرها ذهن العالم باحكام الدين وتشريعاته. ومن تلك المعانى نظريه «حتمية اذهاق الشرك والظلم وحتمية انتصار الدين» على المدى البعيد. فتلك النظرية تعرض علينا امكانية صياغة استراتيجية الاسلام بالنسبة للدنيا والتاريخ. فالدين هو الحق، والكفر هو الباطل.

ولابد ان ينتصر الدين ويندحر الباطل ويموت. لان الحق باقٍ الى الابد، والباطل ميتٌ الى الابد بظهور الاسلام وانتشاره فى آفاق الارض. وفى الآيه دلالة على ان الباطل لا- دوام له ومصيره الهلاك كما قال تعالى فى مكان آخر عن الباطل حيث مثله بالشجرة الخبيثة:.... مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار (٢).

وفى هذه المناسبة لابد من استخدام بعض المصطلحات الحديثة التي دخلت قاموس اللغة الاجتماعية والسياسية وهما اصطلاحا: البعيد المدى «الاستراتيجية»، والقصير المدى «التكتيك». وهما مصطلحان اعجميان دخلا اللغة العربية. فالمعروف فى الاوساط العلمية: ان التكتيك هو حركة ميكانيكية لاجسام وضعت فى مسار بواسطة الخطة الاستراتيجية. وبتعبير اوضح ان الاعمال التي تتطلب زمناً طويلاً فى الانجاز تحتاج الى خطة وتصميم مسبق، وتحتاج ايضاً

١- ١ سورة الاسراء: آية ٨١.

٢- ٢ سورة ابراهيم: آية ٢٦.

ص: ٣٢٥

الى من يقوم بالحركة الآن هو ما يسمى بالمدى القصير او التكتيك. فحركة السيارة او العربء هو تكتيك لخطء يضعها السائق من اجل الوصول الى المدينة المقصودة «الاستراتيجية».

واذا كانت الحرب تكتيكاً قصير المدى، فان التخطيط لها واستثمار نتائجها في النصر هو استراتيجية بعيدة المدى. وقد كان فتح مكة من هذا القبيل. فقد كان الفتح جزءاً من خطء مستقبليء بعيدة المدى لنشر الاسلام خارج حدود الجزيرة العربية ليصل العالم الواسع كله. وبصورة اخرى، فان النهوض باعباء الرسالة السماوية من اجل نشرها في العالم الى يوم القيامة لا يمكن ان يتم ما لم يجتاز المسلمون مرحلة الانتصار النهائي على الشرك في الحروب التكتيكية التي كان يخوضها على عليه السلام جنباً الى جنب مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم ينتقلون الى مرحلة الاستراتيجية البعيدة المدى. فهنا انتقل المسلمون من مرحلة الدائرة المحلية الى مرحلة الدائرة العالمية. فالاسلام انذار وبشارة... كافة للناس (١)

، بعد ان كان الانذار محصوراً ب... ام القرى ومن حولها (٢)

ومن قبلهم ب... عشيرتك الاقربين (٣).

ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان يخطط لاهداف استراتيجية بعيدة المدى في المعارك التي كان يخوضها، لانه كان قائداً عسكرياً ملهماً من الطراز الاول، ولانه كان صلى الله عليه وآله مكلفاً بدعوة الناس جميعاً الى الاسلام. وكان على عليه السلام الى جنبه دائماً الوسيلة القوية «التكتيك» التي تحقق نبؤات المصطفى صلى الله عليه وآله وطموحاته في نشر الدين على بقاع المعمورة. والاستراتيجية لا يمكن ان تحقق اهدافها ما لم يكن التكتيك فعالاً وحيوياً.

ولاشك ان تكتيك المعركة في ذاك الوقت كان ينصب على شجاعة المقاتل بالدرجة الاولى وبطولته القصوى في انتزاع النصر من العدو؛ لان معارك الاسلام الاولى ضد الشرك كانت معارك بريء سلاح رئيسى واحد هو السيف. فلم تكن

١-١ سورة سبأ: آية ٢٨.

٢-٢ سورة الانعام: آية ٩٢.

٣-٣ سورة الشعراء: آية ٢١٤.

ص: ٣٢٦

هناك معارك جوية وبحرية وبرية كما هو الحال اليوم مع عشرات الانواع من الاسلحة المعقدة. ولذلك فان اي معركة اسلامية تقع بدون وجود بطل استثنائي مقدم كعلي عليه السلام لا يُكتب لها النصر. فلم يحقق المسلمون شيئاً في معارك غاب عنها علي عليه السلام كمعركة ذات السلاسل، ومعركة خيبر قبل استلامه عليه السلام الراية، ومعركة مؤتة.

ان فلسفة الزمان والمكان تدعونا للايمان بان نزول الرسالة السماوية في ذلك الوقت وفي تلك البقعة من الارض، كان له معانٍ سامية تبقى مع التاريخ والبشرية الى يوم القيامة. فقد كان ذلك الزمان وسطاً بين تأريخ سابق وتأريخ لاحق، وكان ذلك المكان ولا يزال قلب العالم قديماً وحديثاً. وبذلك، فان احداثاً جسيمة - كاحداث الاسلام ومعاركه ضد الشرك - ستبقى في ضمير البشرية يمكن فهمها واستيعاب معانيها الجليلة الى آخر يوم يعيش الانسان فيه على وجه الارض.

ولاشك ان احداثاً جسيمة كتلك كانت تقتضى وجود بطل عظيم مطيع يزود عن رسول الله صلى الله عليه وآله المخاطر، ويستوعب اهداف الرسالة، وعلى استعداد تام للتضحية من اجل مبدئه. فكان علي عليه السلام يمثل ذلك الرجل المثالي الذي تفهمه البشرية في كل وقت وتفهم بطولته النادرة وتضحياته الجسيمة من اجل الاسلام.

وبلحاظ فلسفة الزمان والمكان لا بد من الايمان بان اساليب القتال تتغير وتتبدل من زمن لزمان ومن مكان لمكان، الا ان الثابت الذي نفهمه في كل جيل هو اخلاقيه الحرب وتعامل المحاربين فيها وطبيعه دوافعهم الخيرة. واذا فهمنا ذلك وآمنا بان اخلاقيه الاسلام في الحروب كانت القمة في الكمال، استطعنا فهم بطولته علي عليه السلام وتضحياته في سبيل مبدئه وعقيدته. واذا كان قول النبي صلى الله عليه وآله للامام عليه السلام:

«ايه ايه. جاء الحق وزهق الباطل. ان الباطل كان زهوقاً» يفسّر بان الحق قد انتصر وسوف ينتصر، وان الباطل قد سُحق وسوف ينهزم في كل مرة يتواجد فيها مؤمنون مخلصون متفانون، فاننا لا بد ان نؤمن بان تلك هي اهداف استراتيجية

ص: ٣٢٧

بعيدة المدى للاسلام ولرسالته السماوية. ومن هنا نفهم ان فتح مكّة كان البوابة العظمى للانفتاح على البشرية في القلب والعقل والادراك على طول الزمن.

وهناك دوران مهمّان للإمام عليّ عليه السلام في مكّة، تعرّض لهما السيّد الأعرجي وللضرورة نذكرهما:

اخلاقية رد الامانات الى الناس

اقام على عليه السلام بمكّة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله الى المدينة يرّد الودائع ويقضى الديون (١). وكان وضعه عليه السلام مع المشركين في مكّة خطيراً للغاية، فما الذي دعاه لذلك؟

إنّ الحديث عن رد الامانات الى الناس يقودنا الى الحديث عن الاخلاقية الدينية عند عليّ عليه السلام والتي تعلّمها من رسول الله صلى الله عليه وآله.

فلاشك ان اهم ثمار الشخصية الاخلاقية التي كان يحملها عليه السلام هو أن سلوكه بين الناس كان ترجمة عملية لمفاهيم الدين. فهو الاسلام المتحرك في المجتمع، ومن هنا كان سلوكه الاخلاقي متطابقاً مع النظرية الاخلاقية للسماء. ومن الطبيعي فان السلوك الاخلاقي في رد الامانات والودائع وقضاء الديون يساهم في نشر الانسجام الديني والاخلاقي بين الناس. ومع ان مجتمع مكّة كان مشرّكاً، الا ان العديد من افراده كانت عندهم القابلية على اعتناق الاسلام اذا لمسوا من الدين تغييراً في حياتهم الاجتماعية والاخلاقية. فكان رد الامانات التي كانت بعهد رسول الله صلى الله عليه وآله الى الناس مهمة - من الناحية الاخلاقية - الى درجة ان تلك الاهمية كانت متناسبة مع حجم الخطورة التي كان يواجهها عليّ عليه السلام وهو في مكّة دون مناصر. ورد الامانات تعدّ من القيم الاخلاقية التي يحنّ لها المجتمع الانساني ايّاً كان منشؤه وايّاً كانت اهدافه وطموحات اعضائه ومنتسبيه. ولاشك ان فضيلة الوفاء برد الامانة كان قد

ص: ٣٢٨

امضاها الدين الحنيف، بينما اوكل رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بتنفيذ تلك المهمة الصعبة. ومن هنا نفهم امضاء الدين الاتفاق الاجتماعى حول الوفاء برد الامانة، لانها عمل خير يؤدي - عاجلاً او آجلاً - الى استتباب الامن الاجتماعى والاقتصادى بين الناس، واظهار الروحية المثلى للمسلم الملتزم بتعاليم الاسلام. وبذلك فقد عمل الاسلام فى انارة الامور التالية:

اولاً: ان الوفاء برد الامانات كان عملاً اخلاقياً امضى فيه الاسلام عمل رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة وبعدها. حيث اؤتمن صلى الله عليه وآله باموال الناس وحاجاتهم، ولذلك شاع عنه صلى الله عليه وآله بانه الصادق الامين. ثانياً: لم تؤخذ فى قضية الوفاء برد الامانة حجم الخسارة والربح من حيث احتمالية مقتل على عليه السلام من قبل مشركى قريش او انزال مطلق الاذى به عليه السلام. وبذلك يعدّ الوفاء برد الامانة من الاعمال الاخلاقية التى تنظر الى قيمة العمل، لا الى حجم الربح والخسارة.

ثالثاً: ان الوفاء برد الامانات طُبّق على المجتمع الوثنى الكافر. حيث ان اغلب الذين ائتمنوا محمداً صلى الله عليه وآله بعد البعثة ولم يهاجروا الى المدينة وبقوا فى مكة كانوا من الذين لم يسلموا بعد. ولذلك بقى على عليه السلام فى مكة لردّها. ولو اسلموا لهاجروا. نعم بقى عدد قليل من المسلمين فى مكة فى الخفاء. ولكن لسان دليل الروايات المتعلقة بهذه المسألة لا يخص تلك القلة، بل إن ظهور اللفظ يدل على اطلاقها على المسلمين وغيرهم. وفيه قوله تعالى: إن الله يأمركم أن تؤدّوا الامانات الى اهلها (١).

وردّ الامانة الى الكافر فضلاً عن المسلم تعدّ قيمة اخلاقية مثلى تبناها الاسلام، وحثّ اتباعه والمؤمنين به على تطبيقها فى حياتهم. رابعاً: متانة الرابط بين الاخلاق والدين. فالاسلام هو الذى أمر برد الامانات الى اهلها، حتى لو كان اصحابها من المشركين. فيكون الوفاء برد الامانات من القيم الدينية الاجتماعية. ذلك أن الدين واحكامه الشرعية تدعوان

ص: ٣٢٩

الى القيم الاخلاقية الفاضلة، وضرورة تطبيقها على النظام الاجتماعي.

خامساً: كان الوفاء برد الامانات من قبل الدين احتراماً للفرد المؤمن، ولا يمثل احتراماً لسلطة المشركين من قريش. وبذلك فقد كان الحكم هنا تحكيمياً للحق على الباطل على مستوى شريحة خاصة من الافراد من الذين وضعوا ثقتهم برسول الله صلى الله عليه وآله. وبكلمة أخيرة، فان الوفاء برد الامانات الى اهلها كشف عن قدرة الدين الفعالة على التمييز بين الابعاد الموضوعية والذاتية للقيم الاخلاقية. فقد كانت تضحية الامام عليه السلام في البقاء ثلاثة ايام متواصلة في مكة تضحية ذاتية، رغم المخاطر المحيطة به، من اجل ان يبقى موضوع الوفاء برد الامانات حكماً ثابتاً يلتزم به المؤمنون الى يوم القيامة.

على عليه السلام وسورة براءة: «لا يؤدي عنى الا رجل من اهل بيتي»

رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة. وفي ذى الحجة من نفس السنة تحرك المسلمون بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله لاداء فريضة الحج وكان على امرتهم ابي بكر. فلما «نزلت سورة التوبة (براءة) قيل له: يا رسول الله، لو بعثت بها الى ابي بكر. فقال صلى الله عليه وآله: لا- يؤدي عنى الا- رجل من اهل بيتي. ثم دعا علي بن ابي طالب (رضوان الله عليه)، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى، انه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وآله عهد فهو الى مدته... فعندما كان يوم النحر قام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه)، فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: ايها الناس، انه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وآله عهد فهو الى مدته. وأجل الناس اربعة اشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم الى ما منهم او بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة الا أحد كان له

ص: ٣٣٠

عند رسول الله صلى الله عليه وآله عهد الى مدة، فهو له الى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان (١). وسورة براءة امرت بنقض ما بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين المشركين من العهد العام الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم، واليهود الخاصة بينه صلى الله عليه وآله وبين بعض قبائل العرب، وتحدثت عن تخلف من المنافقين عنه في تبوك، فكشفت سرائر الناس خصوصاً المنافقين. فكان على عليه السلام البديل الوحيد لرسول الله صلى الله عليه وآله في تبليغ تلك السورة المبعثرة المقشقة الحافرة، بكل قوة، في مكة. فهو لا يخاف مشركاً ولا كافراً ولا شجاعاً ولا فارساً ولا راجلاً، بل انه ارعب في ساحات الوغى ابطال المشركين وقتلهم شر قتلة. وكان اطهر الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله واكثرهم خشوعاً وتعلقاً بالله سبحانه واكثرهم زهداً وتعففاً عن الدنيا.

ولذلك كان على عليه السلام ابليغ المؤمنين في توصيل سورة (براءة) الى عالم ذلك الزمان، من اجل ايحاء اقصى التأثير بهم، ليؤمنوا وتخشع قلوبهم لذكر الله سبحانه.

الهوامش:

الامام على عليه السلام باقلام المعاصرين

ص: ٣٣٤

الإمام على عليه السلام بأقلام المعاصرين

ماجد محمد على

مقدمة

لم تختلف أمة في دنيا الناس على عظيم من عظمائها كما اختلفت الأمة الإسلامية حول شخصية الإمام على عليه السلام ولعل سر هذا الاختلاف هو حكمه وجود الاختلاف نفسه بين بنى البشر، وذلك لتجلية فلسفة التدافع والابتلاء، وإتمام رحلة التكامل والارتقاء التي يقضى الإنسان عمره كله كادحاً لقطعها نحو خالقه سبحانه يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه.

وكلما اشتد الاختلاف، تعمق الوعي وألقيت الحجة وتكشفت الحقيقة، رغم ما فى ذلك من ألم ومرارة ومعاناة لا بد من دفع ضريبته لمن يريد الوصول إلى الحقيقة، فيتكامل من يتكامل ويتسافل من يتسافل، وفى رحلة كدح ومكابدة سيكون شعارها يوم الحساب اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

لم نكن فى هذا العرض الموجز راغبين فى تقديم قراءة واحدة لشخصية الإمام على عليه السلام بأقلام الكتيّاب الشيعة القدماء والمعاصرين، وإنما صار الخيار أن نقدّم هذه القراءة بأقلام أخرى حُسب بعضها على التشيع وبعضها لم يُحسب... فكان منها مثلاً (سلطة الحق)

ص: ٣٣٥

للمفكر الشيوعي المعروف عزيز السيد جاسم، وأخرى للكاتب المصري الأستاذ صالح الورداني، ومثلها للكاتب المغربي إدريس الحسيني وعلى شاكلتها قراءة الشيخ معتصم سيد أحمد من السودان، وقراءة للكاتب المصري عبد الكريم الخطيب في كتابه «على بن أبي طالب - بقیة النبوة وخاتم الخلافة» لنعيش ساعة أو ساعتين مع ما كتبه هؤلاء من مشارب مختلفه وأقطار مختلفه في العالم الإسلامي، وحول شخصیه عظیمه أَلهها أناس وعبدوها، فيما شتمها آخرون بعد رحيلها، ثمانين عاماً كاملاً، لُتمنح الدهر كله بعد ذلك خلوداً وعزاً ومجداً.

فإلى بعض القطرات التي ابتلت بها أصابع هؤلاء الكتاب من بحر هذه الشخصية الفريدة، وإلى بعض السطور مما اقتطفناه نحن من إنصافهم وموضوعيتهم وشرف كلماتهم وبحثهم عن الحقيقة والحق.

السيف والسياسة: صالح الورداني: هذا هو عنوان كتاب معروف للكاتب والصحفي المصري الأستاذ صالح الورداني، وقد وسمه بعنوان آخر مرادف هو «صراع بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي» مؤكداً أن السياسة بدأت تلعب لعبتها بعد وفاة الرسول مباشرة حيث انشطر الإسلام شطرين وتوزع على خطين (خط الإسلام القبلي) و (خط الإسلام النبوي) - حسب تعبيره - وراح الأخير مشتبهاً في ساحة المواجهة يُصارع السيف تارةً، والسياسة تارةً أخرى ويصارعهما معاً تارةً ثالثة.

يؤكد الكاتب في معرض كتابه أن رائد الإسلام النبوي في هذه المعركة هو الإمام على عليه السلام ويصفه بالقول:

«هذه الشخصية الربانية تربت على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وارتوت من معينه، وهذا أمر له دلالاته وانعكاساته على شخصية الإمام، فتربية الرسول له ثم مصاهرته إنما يعنى الاصطفاء، فكما أن الرسول تم اصطفاه فإن علينا أيضاً تم اصطفاه» (١).

ويروح الأستاذ الورداني يستدل على الاصطفاء هذا من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم نفسه التي منها:

ص: ٣٣٦

«أنت منى بمنزلة هارون من موسى» (١).

«علّي منى وأنا منه» (٢).

«من كنت مولاه فعلي مولاه» (٣).

«لا يحبّه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلّا منافق» (٤).. ويضيف الكاتب قائلاً:

«ويكفى في حقّ عليّ شموله بقوله تعالى:

«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّرهم تطهيراً معلّقاً: وهذا النصّ دليل ساطع وبرهان قاطع على ربانيته» (٥).

كما يؤيد بأنّ علي بن أبي طالب هو الأفضّل من بين جميع صحابة النبي، فيقول:

«وقد تفوّق الإمام علي بفقهه على جميع الصحابة ولم يضاهاه في ذلك أحد حتّى إنّ عمر بن الخطّاب الذي يشهدون له بالفقه والعلم

شهد لصالح عليّ وأقرّ بتفوّقه عليه» (٦)، ويضيف:

«وهناك شهادات للإمام علي على لسان كثير من الصحابة وعلى رأسهم عمر نفسه الذي كان يستعين بعليّ في كلّ معضلة وكان يتعوّذ

بالله من معضلة ليس فيها (أو لها) أبو الحسن» (٧).

وفي دليل آخر، أو أدلّة أخرى على اصطفاء علي عليه السلام واختياره من قبل النبي في إعداد خاصّ وتربيته خاصّة، يشير الورداني في

كتابه هذا إلى هذه الحقيقة قائلاً:

«يروى ابن عباس: دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية إلى عليّ وهو ابن عشرين سنة» (٨).

«وقال الرسول صلى الله عليه وسلم يوم خيبر:

«لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله؛ فلما كان الغد دعا عليّاً فدفعها إليه» (٩).

«وكان الصحابة - والكلام كلّه هنا للاستاذ صالح الورداني - يردّون:

«لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي».

وقد قتل أشهر فرسان العرب يوم الخندق وأصاب المشركين بنكسة معنوية كبيرة» (١٠).

ويستدلّ الكاتب على الدور الذي أُنيط بعليّ وعلي المهمة التي اختُرن لها في مسلسل الرسالة السماوية بقوله:

«وشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لعليّ في حجّة

١- ١ انظر البخاري ومسلم - كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي... وانظر الترمذي.

٢- ٢ انظر صحيح البخاري.

٣- ٣ انظر مسند أحمد ج ١.

٤- ٤ انظر مسلم كتاب الإيمان.

٥- ٥ السيف والسياسة: ١٠٧ عن مسلم: كتاب فضائل الصحابة - مناقب علي وآل البيت.

٦- ٦ نفس المصدر السابق: ١٠٧ عن: طبقات ابن سعد ج ٢، ومسند أبو داود الطيالسي.

٧- ٧ نفس المصدر السابق: ١٠٨، عن: طبقات ابن سعد، ومستدرک الحاكم، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، وسير أعلام

النبلاء للذهبي.

٨-٨ نفس المصدر: ١١٠ عن الطبراني.

٩-٩ نفس المصدر: ١١٠ عن البخارى مسلم، باب فضائل على، ومسند أحمد ج ٢.

١٠-١٠ نفس المصدر: ١١٠.

ص: ٣٣٧

الوداع أمام أكبر حشد من الصحابة والمسلمين في تاريخ الدعوة إنما تؤكد هذه الخاصية وهذا الدور الذي وكل إليه، وهي تؤكد من جانب آخر شرعية هذا الدور وارتباط خطوات الإمام ومواقفه المستقبلية بحدود الشرع وبالإسلام النبوي» (١) مضيفاً:

«يروى أن علياً نشد الناس قائلاً:

من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدیر خم إلقاءً، فقام اثنا عشر بدرياً فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعليّ يوم غدیر خم: أليس الله أولى بالمؤمنين؟ قالوا: بلى، قال: اللهم من كنت مولاه فعليّ مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٢).

ويبدو من دراسة السيد الورداني لهذا الاصطفاء وتحليله له أنه أراد التمييز بين الإسلاميين المذكورين لئلا يُذَرَّ الرماد في عيون المسلمين ولكي لا تلتبس عليهم خطوط الإسلام النبوي عن الآخر الأموي، فيقول مندداً بمن يحاول تسطيح الفكرة أو عدم التمييز بينهما:

«إن محاولة رفع بنى أمية، أو التقليل من شأن الإمام على، أو مساواته بمعاوية كما هي عقيدة (البعض) ليس فقط تؤدي إلى التمويه على حقيقة الصراع الذي دار بين الإمام وخصومه كما هو الهدف الظاهر منها، وإنما سوف تؤدي إلى التمويه على حقيقة الإسلام النبوي الذي يمثله الإمام نيابةً عن الرسول صلى الله عليه وسلم وبالتالي سوف تكون النتيجة ارتفاع الإسلام القبلي، إسلام بنى أمية وعلو مكانته على حساب الإسلام النبوي» (٣).

وهذا ما هو حاصل فعلاً - كما يرى الكاتب - وما تبرّم منه ويتبرّم متأماً متوجعاً حيث يقول:

«وتلك هي النتيجة التي استقرت عليها الأمية بعد وقعة صفين وبعد اختفاء الإسلام النبوي وسيادة الإسلام القبلي على يد بنى أمية، ذلك الإسلام الذي تعبّر عنه عقيدة أهل السنة، والذي تحوّل إلى دين الأغلبية بدعم الحكومات المتعاقبة من عصر بنى أمية وحتى اليوم» (٤) وهو الإسلام المزيف الذي روج لمفاهيم عجيبة غريبة وصفها أنها «لا تخرج عن كونها أطروحات

١-١ نفس المصدر: ١١١.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ١١١ عن مسند أحمد ج ١.

٣-٣ نفس المصدر السابق: ١١٢.

٤-٤ نفس المصدر السابق: ١١٢.

ص: ٣٣٨

فرضتها السياسة وباركها الفقهاء» (١) مشيراً إلى بعض هذه المفاهيم بقوله:

«لماذا يحاول الفقهاء إجبار الأمة على الاعتقاد بضرورة الصلاة وراء كل برّ وفاجر؟ ولماذا تحيّر فقهاء السلف لرأى يناقض القرآن والعقل؟» (٢).

وعلى طريقته في التنديد والتحليل والإثارة وإلفات نظر جمهور المسلمين إلى المسألة الجوهرية في سرّ تمزق وحدة المسلمين، وسرّ عدم موفقيتهم في الوصول إلى الهدف المنشود، يقول الورداني ويتساءل:

«كنت على الدوام أطرح على نفسي السؤال التالي: هل ما بين أيدينا تراث أم دين؟» (٣) ويضيف:

«ليس هناك ما يُسمّى بشيعة أو سنّة أو شافعية أو مالكية أو أحناف أو حنابلة.. فكلّ هذه تسميات تاريخية من اختراع السياسة.. والحقّ أنّ هناك إسلام حقّ وإسلام باطل وإسلام ربّاني وإسلام حكومي.. ولكن الذي ساد على مرّ التاريخ هو الإسلام الحكومي، والذي اختفى هو الإسلام الربّاني..» (٤).

وللخروج من هذا المأزق ولتأكيد حقّانية الإمام على عليه السلام في اصطفائه وريادته أو ضروره ريادة (أي ريادة منهجه) للإسلام النبوي يوصي الورداني بأنّ الباحث عن الحقّ يجب أن يتبع النصّ وليس أقوال الرجال؛ لأنّ الثاني يجعل بين الباحث والنصّ وسائط، وهؤلاء يجعلون (الباحث رهين الرجال لا- رهين النصّ) حسب تعبيره- وحتى في مسألة هؤلاء الوسائط يشير الكاتب إلى أنّ النصّ الشيعي، أو التراث الشيعي يعتمد على آل البيت، فيما يعتمد الآخر على الصحابة، وفيما يرفض التراث الشيعي التعايش مع الحكام يؤكّد تراث الآخر على التعايش معهم، وقاعدة الشيعة تركز على متن الرواية فيما يعتمد الآخر على سندها وهكذا (٥).

ومن هنا جاء نصّ روايته مالك أو تمّ الاحتفاظ بها، والقائلة «إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وسنتي» وحجبت، أو اختفى نصّ روايته مسلم التي تقول «كتاب الله وعترتي» (٦).

أما فكرة (عدالة الصحابة) التي

١- ١ الخدعة، صالح الورداني، طبعه ١٩٩٥: ٣٠.

٢- ٢ نفس المصدر السابق: ٢٩ حتى وصل الأمر حسب قول الورداني أيضاً إلى «أن تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهره وأخذ بالملك» عن كتاب «الامارة وطاعة الأمير» صحيح مسلم.

٣- ٣ الخدعة، المصدر السابق: ٣٩.

٤- ٤ نفس المصدر السابق: ٤٥.

٥- ٥ نفس المصدر السابق: ٤٥- ٥٠.

٦- ٦ نفس المصدر السابق: ٦٦.

ص: ٣٣٩

فَئِدْهَا الاستاذ أحمد حسين يعقوب فى كتابه الشهير (نظريه عدالة الصحابة) وضمَعف عدالة الكثير منهم بالأرقام والوثائق التاريخية المعتمدة، والتي غمطت حقّ على عليه السلام باعتباره واحداً من (الصحابة) فقط دون أى امتياز، فإنّ الوردانى فئد هو الآخر هذه الفكرة مفنداً معها فكرة الإجماع التي أفرزتها السياسة قائلاً:

«إنّ الهدف من فكرة الإجماع هو نفس الهدف من فكرة العدالة، كلاهما يدفع الأئمة إلى الاستسلام للخط السائد وإضفاء المشروعية عليه. وكما أنّ فكرة العدالة من اختراع السياسة، فإنّ فكرة الإجماع أيضاً من اختراع السياسة» (١).

إنّ مواجهة الهدف هو الذى قاد المؤسسة الدينية الشيعية لأن تقف فى حالة صدام مع الواقع الظالم أو الحكام الظلمة رافضةً مبدأ الطاعة المذكور، فيما جاءت المؤسسة الدينية للآخر عكس هذا الاتجاه، فهي كما يقول الوردانى:

«مؤسسة مرتبطة بالحكام وواقعة فى دائرة نفوذهم ويتقاضى الفقهاء منهم أجورهم من الحكام، ومن ثمّ فإنّ ولاءهم يتّجه على الدوام نحو الحاكم وليس نحو الجماهير، وفتاواهم تصدّر لحساب الحاكم لا لحساب الجماهير..» (٢).

ومن هنا تأتي ضرورة الاصطفاف مع الجماهير قبال الحكام، والعمل على إقناع الحكام بتحقيق مطالب الأئمة، وليس إلزام الأئمة بتحقيق مصالح الحكام، وانطلاقاً من وصية الإمام على عليه السلام لواليه على مصر مالک الأشر والتي جاء فيها:

«وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها فى الحقّ وأعمّها فى العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإنّ سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يفتقر مع رضا العامة» (٣).

إدريس الحسينى - نموذج آخر

فى كتابه (الخلافة المغتصبة) فقد عبّر عن تقديره وإجلاله لشخصية الإمام على عليه السلام - موضوع بحثنا - ودور هذا الإمام العظيم فى ترسيخ كيان الإسلام ولو على حساب حقّه الشخصى وسكوته عن أولئك الذين اغتصبوا

١- ١ نفس المصدر السابق: ١٠٢.

٢- ٢ نفس المصدر السابق: ١٥٣.

٣- ٣ نهج البلاغة ج ٣.

ص: ٣٤٠

الخلافة- حسب تعبيره- فيقول:

«أدرك الإمام على عليه السلام بعد كل ما وقع أنه قد وقع في مأزق وداخل شراك خطير، فالعرب تظاهرت عليه واستضعفته وتيار الاغتصاب لم يركب الخلافة فحسب، وإنما طوّق بيت الإمام عليه السلام وحاصره بعد أن مدّ جسور التعاون مع المنافقين...». وهذا يعنى أنّ على الإمام أحد طريقين لفكّ هذا الحصار وتدمير هذا التعاون غير المقدّس: فهو إمّا أن يثور ويجهز على هذا التيار المتحالف ضده مع ما فى ذلك من مجازفة قد تأتى على الإسلام كلّه ورجاله المخلصين، وإمّا أن يصبر حتّى يعيد الأمور إلى نصابها. يقول إدريس الحسينى فى هذا السياق:

«.. أمّا الخيار الأوّل فهو يسير على على عليه السلام وهو من أروع بسيفه العرب واهترّ لشجاعته الأبطال، وتيار الاغتصاب كان مدرّكاً لكلّ ذلك، غير أنّهم أدركوا أنّ أبا الحسن لا يُقاتل فى أمر لا مصلحته للشرع فيه، أدركوا ذلك على مدى سنوات من الجهاد الذى كان يتزعمه. ولذلك تجاسروا عليه وأبدوا بطولاتهم المزيّفة...» أمّا الخيار الثانى، والقول للكاتب طبعاً، «والإمام على وهو ينتظر، لم يقف مكتوف اليدين، لم يكن انتظاره سلبياً كما يبدو للكثير..

كان نشيطاً يعمل حسب ما تسمح به الظروف متحرّكاً خلف الحصار المفروض عليه (١).. (كان مقدّراً سلام الله عليه) أنّ الذين التّفوا حوله لم يكونوا على نفس الدرجة من الإخلاص (وربّما الوعى)..

ويذكر اليعقوبى أنّه اجتمع جماعة إلى على بن أبى طالب يدعونه إلى البيعة فقال لهم:

«اغدوا علىّ محلّقين الرؤوس فلم يغدُ إلّا ثلاثة نفر» (٢).

وهنا يقول الإمام على عليه السلام: «لو وجدتُ أربعين ذوى عزم لناهضتهم» ثمّ قال قوله المشهورة: «فأيتُ الصبر على هاتا أحجى، فصبرتُ وفى العين قذى وفى الحلق شجى» (٣).

وحين اشتدّ الحصار، وكثر الابتعاد عن الدين وتحوّل الخلاف إلى صراع حقيقى بين ما كان يفعله عثمان وما يريده

١- ١ تاريخ اليعقوبى ٢: ١٢٦، وهم- كما هو معروف- أبو ذر والمقداد وسلمان.

٢- ٢ المصدر السابق نفسه.

٣- ٣ شرح نهج البلاغة ١: ١٥١.

ص: ٣٤١

الإمام، راح الإمام يعلن اعتراضه على عثمان بشكل واضح وصريح. يقول السيد إدريس الحسيني في هذا الإطار: «لقد كان ثمة صراع حقيقي بين عليّ وعثمان، وبلغ بالإمام أنه بدأ يُبدي اعتراضه الصريح على عثمان ولا يأبه بأى تهديد منه، كيف يسكت على وهو لم يسكت قبلها، إذ سكت إلّامرعاةً لحرمة الإسلام وحواريي الرسول صلى الله عليه وآله. أما وقد بدأ عثمان يختلف في الدين ويستهنئ بشريعته، وينزل من مقام حوارى الرسول ويرفع من شأن الطلقاء» (١)، «فلم يكن السكوت أحجا وليكن ما يكون» (٢).

ولعلّ أكثر مواقف الصراع بين الرجلين هو ما يذكره التاريخ عن نفى عثمان لأبى ذر ووقوف الإمام مع الثانى فى تشييعه له وتوديعه، وما ينقله الكاتب إدريس الحسينى عن كتب التاريخ المعبرة، إذ يقول:

«إنّه عندما أزمع عثمان على تسيير أبى ذر الغفارى رضى الله عنه إلى الربذة ومنع الناس أن يسيروا معه، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه على بن أبى طالب ومعه ابناه وعقيل أخوه وعبدالله بن جعفر وعمّار بن ياسر، فاعترض مروان فقال: يا على ان أمير المؤمنين (عثمان) قد نهى الناس عن أن يصحبوا أباذر فى مسيره ويشيّعوه.

فإذا كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتُك، فحمل عليه على بن أبى طالب بالسوط وضرب بين أذنى راحلته، وقال: تنح نحاك الله إلى النار. ومضى مع أبى ذر فشيعه ثم ودّعه وانصرف. فلما أراد الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحمكم الله أهل البيت إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرتُ بكم رسول الله صلى الله عليه وآله.

فشكا مروان إلى عثمان ما فعل على بن أبى طالب، فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرني من على؟ ردّ رسولى عمّا وجّهته له، وفعل كذا، والله لنعطينه حقّه. فلما رجع عليّ استقبله الناس، فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر، فقال: غضب الخيل على اللجم» (٣).

وفى محاولة جادة من قبل الاستاذ إدريس الحسينى لإعادة كتابة التاريخ، والانعتاق من الموروث المؤدلج

١-١ الخلافة المغتصبة: ١٠٣.

٢-٢ مروج الذهب ٢: ٣٥٢.

٣-٣ الخلافة المغتصبة، مصدر سابق: ١٠٤، عن مروج الذهب ٢: ٣٥١.

ص: ٣٤٢

والمصوبغ بأصبغ الحكومات ومعجون السياسة، أى محاولة إعادة الحق إلى نصابه بعد تغييب متعمد أو غير متعمد دام قروناً عديدة، وخاصة فيما يتعلق بمنهج الإمام على عليه السلام مقارنةً بمنهج غيره، يقول الكاتب:

«لقد كان وما يزال أغلب المؤرخين والناقدين للتراث، يسبحون في بحر التكرار، ويننون إبداعاتهم النقدية على عناصر وهمية، ومعطيات جاءت بها رغبة الخلفاء وطمع المؤرخين. وإذا ما انتبهنا إلى الماضى ومجريات أحداثه سوف يتبين لنا الأمر على درجة كاملة من الوضوح، فالسياق التاريخى الذى ظهر فيه التدوين والتأريخ هو نهاية العصر الأموى والعصر العباسى، وهو سياق شهد نمواً خطيراً ومنظماً لتيارات مختلفة الاتجاه، وشهد - أيضاً - صراعاً سياسياً حاداً تفتق عن صراعات ايديولوجية. ولما كانت السلطة طرفاً فى هذا الصراع، كان من الطبيعى أن تستثمر إمكانياتها وموقعها كسلطة صاحبة القرار فى سبيل تدمير الأطراف الأخرى، وتشكيل ايديولوجية الدولة.

وكان الدين دائماً هو الضحية الأساس.

لأن تشكيل الايديولوجية هذه لا يستقيم إلا بإجراء سلسلة من التحريفات ليكتمل التناغم والانسجام بين الاثنين..» (١).

خلاصة الذى أراد ويريد الكاتب إدريس الحسينى قوله فى كتبه الثلاثة؛ (الانتقال الصعب)، (الخلافة المغتصبة) وآخرها (لقد شيعنى الحسين) أن الإمام علياً عليه السلام استشهد مهضوم الحقّ مظلوماً، لم يعرف التاريخ حقه والمؤرخون بعد، ولئن كانت حلت أزمة التاريخ بعد توفر الدراسات العلمية الدقيقة فإنّ أزمة المؤرخين لم تحلّ بعد، وهذا ما يقتضى استنهاض هؤلاء لإنصاف دينهم ورسالتهم ودعوتهم لدراسة التاريخ بعيداً عن الايديولوجية الجاهزة، ومحاولة التعرف على الرجال من خلال الحقّ وليس العكس.

على بن أبى طالب - سلطة الحقّ:

عزيز السيد جاسم

جاء هذا العنوان أو هذا الكتاب بقلم عزيز السيد جاسم عضو اللجنة

ص: ٣٤٣

المركزية للحزب الشيوعي العراقي في الستينيات ومسؤول صحيفة (الثورة) العراقية في الخمسينيات، فراح يلقي أضواء جديدة على إمام المتقين ومدينة العلم وبابها- حسب تعبيره- ويوضح لماذا وكيف اصطفاه الرسول صلى الله عليه وآله ليصبح وريث علمه والمحافظة على سلالته؟

ويستعرض الكاتب في كتابه هذا حياة الإمام على عليه السلام واقفاً على أهم أحداثها بالتحليل والدراسة ابتداءً من جهاده مع الرسول صلى الله عليه وآله مروراً بمحتى الجمل وصفين وحتى استشهاده موضحاً أهم صفات أو سمات شخصية هذا الإمام العظيم الأخلاقية والفكرية والنفسية، وكذلك سياساته الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ومنهج حكمه الذي يُعتبر أو يتمحور العدل فيه درة لم يتخل عنها حتى مع قاتله (١)، وينتهي الكاتب مع الإمام في اسلوب الإمام الخطابي وبلاغته الفذة التي عبّر عنها أو عبّر عنها البلغاء والفصحاء أنّها تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، ثم أفصح الكتاب عن شخصية الإمام كقدوة تحتذى، محرّكاً سيرته وملامح شخصيته من بطون كتب التراث إلى حيث نبض الحياة وعراقتها- حسب تعبير الكاتب أيضاً- ليتحقق الهدف الأكبر من دراسة هذه الشخصيات الخالدة وهو التواصل بين التراث وهمومنا المعاصرة، أي كى لا- يبقى هؤلاء العظماء مجرد قمم شامخة في سماء الناس معلقين في الهواء للإعجاب والانبهار والتجارة بالسير والكلمات والمواقف.

يقول الكاتب في مقدّمة كتابه هذا:

«ثمّة قادة عسكريون كبار، ومفكّرون، وفقهاء عظماء، وبلغاء وزهّاد وعباقره، وعلماء وأدباء. وفي التاريخ هناك الاسكندر العظيم يعشق الفلسفة، فيأخذ معه (ارسطو) استاذة، وهناك (افلاطون) الفيلسوف واستاذة سقراط، وهناك بوذا وكونفوشيوس، وقادة الثورات والمصلحون، كلّ متخصّص في ميدانه، أمّا على بن أبي طالب، فهو الحاوي على جميع سمات العبقريات المتعدّدة، فهو الخليفة القائد، وهو المحارب العظيم، وهو الفيلسوف، وهو الاستاذ في العدل والمؤسس لعلم

ص: ٣٤٤

النحو، وهو الفقيه، القاضى، العالم بالحساب والفلك، وهو أمير البلاغة والشاعر، والحكيم والحافظ لثراث محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو الأخلاقى الرفيع، والأنموذج فى كل شىء» (١).

ويضيف:

«يستطيع المرء أن يتعلم أشياء كثيرة من على أو يعلم عنه ولكنه لا- يستطيع أن يكون مثله.. فكان فى زمنه وحيداً إلا من قلبه مخلصه إخلاصاً نادراً، ومن أنصار ومؤيدين يجتمعون ويتفرقون لأمر أو أمور كان على أعلم بها من غيره. وحين خذلت المحنة فى زمنه، أنصفه التاريخ، إذ أصبح أفواج المحييين من رجال الفكر والكفاح الإنسانى، والعدل والمعرفة، يتصلون به بحسب الفكر والإيمان ونسبهما، وأصبح حبّ على بن أبى طالب حقيقة موضوعية يقرب بها المحبّ والمبغض» (٢).

أمّا لماذا ناوأه المناوئون وناجزه المناجزون، واعترض عليه المعترضون، فقد اختصر ذلك عزيز السيد جاسم بأروع اختصار وأجزه بأجمل إيجاز قائلاً:

«كان الرجل وحيداً فى عبقرياته، عجبياً فى مسلكه، لذلك لم يكن جميع أعدائه من طينته واحدة، فبعض الذين حاربوه كانوا يرون فيه عدوهم الأكبر، أى عدوّ باطلهم، أو كفرهم أو شركهم أو ظلمهم، وبعض الذين حاربوه رأوا فيه المقياس الذى يكشف عن بُعدهم من الحقّ والعدل، رأوا- من خلاله- هزلهم فى حين كانوا يحسبون أنفسهم مهمين. فإذا بهم فى الضالّة، بالمقارنة مع شخصية على. وكانوا يهيئون أنفسهم لدور كبير بين أتباعهم، فأفل نجمهم أمام شمس على التيرة، فحاربوه لافتصاحهم بالمقارنة ولعجزهم عن الارتفاع إلى مستوى الحقّ والصدق...» مضيفاً:

«أما الذين تركوا معسكره- وهم كثرة- فإنهم إنّما فعلوا ذلك لأنهم لم يطبقوا عدله، وحقّه وصدقته» مستشهداً بمقولة الاستاذ عباس محمود العقاد الذى يُفسّر هذه الظاهرة قائلاً:

«وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة فى ديارها وبين آلهة وأنصارها، فالعلاقة بينه وبين كبار

١- ١ على بن أبى طالب، سلطة الحقّ: عزيز السيد جاسم- مقدّمة الطبعة الثانية: ١٠.

٢- ٢ نفس المصدر السابق: ١١.

ص: ٣٤٥

الصحابة كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الإلفة. والعلاقة بينه وبين الخصوم كانت علاقة حسد غير مكفوف وبغض غير مكتوم، والعلاقة بينه وبين سواد العامة كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون إلى لبابه. وإن قاربه الناس معجبين، وباعده أناس نافرين. تلك أيضاً آية الشهيد.

ثم يعلق السيد عزيز السيد جاسم على هذا ويروح يتساءل:

«هل كان ممكناً نجاح شخصية على بن أبي طالب- في عصرها- نجاحاً سياسياً على ما هو عليه من (الحقانية) التامة والعدل التام؟»
ويضيف:

«لقد أحبه- في زمنه- أناس حباً خارقاً وبالغ بعضهم في الحب فألهوه وكفروا، فأمر بالقذف بهم في النار، وهم غير نادمين. وهذا أمر عجيب نادر. يفرض نفسه في طلب التحليل لظاهرته الغريبة المثيرة» (١).

هذه التساؤلات وغيرها، وهذا التدافع في تحليل شخصية الإمام، وهذا الاستغراق في دراسة مواقفه ومواقف الناس منه وموقفه من الناس ترك للتاريخ والناس لكي يغترف كل غارف غرّفه، ويقول كل محلل قوله، وهذا هو العمق وحيازة التاريخ والخلود...
يقول عزيز السيد جاسم في هذا السياق:

«لقد حسم اغتيال الإمام على المناقشة.. وقطع الطريق أمام محاولته التصدي للهجمة المضادة، ووجد في الموت فوزه الأكبر وهو يرقب مغادرة روحه: «فرت ورب الكعبة» واستمرّ الناس فيما همّ عليه من صراعات سياسية ودينية ومصلحية» (٢).

ويصف الكاتب عجزه عن دراسة هذه الشخصية العظيمة بالحب العظيم له وكيف أنه (سلام الله عليه) جدير بالحب والاحترام والإكرام من قبل كل إنسان حرّ ذي ضمير نجيب- حسب تعبيره-... وكيف أن كل شيء يمكن أن يختتم إلّا الكتابة عن على فإنها لا تختتم. ولا يجد الكاتب مناصاً للتعويض عن عجزه هذا إلّا الاستشهاد ببعض كلمات وصية الإمام عليه السلام لولده الحسن حيث يجد فيها ناموساً فكرياً

١-١ نفس المصدر السابق: ١١.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ١١.

ص: ٣٤٦

وأخلاقياً، ودليلاً للضمير، ودستوراً للناس، وخاصة حين يسمعه يقول في هذه الوصية الخالدة:

«يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تُحب أن تُظلم، واحسن كما تحب أن يُحسن إليك واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك... وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك...» ..

ويروح الكاتب في معظم فصول الكتاب يضع عناوين شاخصة معبرة يستظهر من خلالها دلالات واضحة على عظمة الإمام وعدم تكرار نموذج في دنيا الناس، فيضع عنوان الفصل الأول مثلاً: «مشيئة الرب» مؤكداً أنّ للإمام على مواقف وصفات وسمات لم يشاركه أحد فيها من دنيا الناس على الإطلاق. ويأتي عنوان الفصل الثالث «شجاعة على: البدء المتطابق» وما يحمله هذا العنوان من دلالة التطابق بين على الإنسان وعلى النموذج الفريد، وكيف أنّ جميع الذين أسلموا لم يكونوا بطبيعة الحال مؤمنين، ولم يحافظ جميع الذين أسلموا على جوهر الإسلام، فمنهم من ارتدّ مكشوفاً، ومنهم من كانت ردّته خفية أو حتى لا شعورية..

مع أنّ الإسلام في زمن الابتداء كان ذروة التربية وثورة التربية» (١) إلأعلى الذي تطابق إسلامه مع إيمانه ولم يحد لحظة أو قيراطاً. ويأتي عنوان الفصل الخامس والسادس على التوالى: «السياسة العسكرية لعلى بن أبى طالب، وتاريخ لأوليات سياسية» ويقول العنوان الثانى:

«من المؤكّد مع أنّ اللوحة الاجتماعية العامة للكثير من الصراعات فى زمن الجاهلية كانت تشير إلى صراعات اقتتالية بين أبناء العمومة فى العشيرة الواحدة، بأن أشهر الحروب وأخطرها كانت حروباً من النوع المذكور، فحرب (البسوس) التى استمرّت ما يقارب الأربعين عاماً كانت حرباً بين (بكر) و (تغلب) ابنى وائل بسبب ناقه كانت تملكها امرأة عجوز من بكر تدعى البسوس، وكذلك كانت حرب (داحس والغبراء) وهى حروب

ص: ٣٤٧

قيس بن عابس وذبيان ابني بغيض بن وريث بن غطفان، واستمرت أيضاً أربعين عاماً..» ليؤكد أن جذور هذه الأوليات هي تلك حتى شاءت تلك المقدمه (الدراماتيكية) - حسب تعبيره - أن توفر ما توفر بين بني عبد شمس وبني عبد مناف (١).

وحين يصل الكاتب إلى الفصل السابع من كتابه يضع عنوانه المفصح المعبر: «سلطة الحق في رفض السلطة» ليكون عنوان الكتاب نفسه، وفيه، أي في هذا الفصل يضع الكاتب ديباجته من كلام صريح واضح للإمام عليه السلام يقول فيه:

«أما والذي فلق الحية وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا- سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها...» ويشير عزيز السيد جاسم أن السلطة ليست مهمة بحد ذاتها وأنها ليست هدفاً للعظماء بحد ذاته وإنما هي مهمة بمقدار النتائج التي يحققها صاحب السلطة للناس وللأجيال والتاريخ، فيقول:

«ولا يهتم البشرية أن يقال هذا حاكم قوي، وذاك حاكم ضعيف، فقد حفل التاريخ الإسلامي مثلاً بالآلاف الأمثلة في ذلك دون فائدة تذكر» ويضيف:

«إن البشرية بحاجة إلى الحاكم النيراس الذي يقدم للمجتمعات ثماراً أبدية في العدل وفي الفكر، وفي الممارسة. أي أن المقياس في تقويمات كهذه، هو مقياس موضوعي يخص الفوائد الوطيدة للبشر، وليس مقياساً فردياً، كما يجنح عادة بعض الكتاب والمؤرخين إلى تفصيل الخصائص الشخصية والعائلية للحاكم...» (٢).

ولا يقتصر هذا الخلط على الكتاب والمؤرخين والنخب السياسية والاجتماعية، بل إنه يمتد ويكون خطره أفظح حين يعم كل مساحة الناس ممن سماهم الإمام عليه السلام «الهمج الرعاع: أتباع كل ناعق (الذين) يميلون مع كل ريح، ولم يستضيئوا بنور العلم. ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

وهنا يدعو السيد جاسم إلى تحرير

١-١ نفس المصدر السابق: ١٢٢.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ١٦٦.

ص: ٣٤٨

النفس البشرية من هذه الرعوية والهمجية والغوغائية، والتي هي كما يسميها طبيعة حيوانية غير مهذبة فيقول: «وشخص على تشخيصاً فذاً تلك المجاميع من الجماهير، التي هي من طراز الهمج الرعاع، وهي مجاميع لا تشكّل جوهر المجتمع، وليست هي الجماهير بتمامها بل هي شرائح اجتماعية رهينة شروطها الفكرية الذاتية وبت الخلف الطويل المقيم.. وأولئك الهمج الرعاع أعداء كلّ تقدّم، وتطوّر، واستقرار، وهم يعاكسون إرادة الحقّ، ومسار العلم، واتجاه العدل، ويعطون الشرعية التهريجية للظالمين، فهم خدمهم الذين يُنفذون إرادتهم الطغيانية، وهم لا مانع لديهم من استبدال سلطان بآخر، فهم مع الأقوى والمنتصر. وكان على في رؤيته متنبئاً بما سيحمله (الشرق) من كوارث سياسية، سببها الصراعات الدامية حول السلطة، ودور الهمج الرعاع في تأجيجها وفي دفعها إلى الثورة...» (١).

هؤلاء الهمج الرعاع الذين ينقون مع كلّ ناعق ويميلون مع كلّ ريح والذين لا ينصرون حقاً ولا يخذلون باطلاً ويحدّدون مواقفهم (مع مَنْ غلب) كما يقول التاريخ هم الذين ملأوا قلب الإمام على قبحاً وشحنوا صدره غيضاً.. والأسوأ منهم هم أعوان الظلمة وحواشيمهم وبطانتهم من الذين تنقل الروايات أنّ منادى يوم القيامة يعلو صوته منادياً: «أين أعوان الظلمة قبل الظلمة» باعتبارهم أذرع السلطان وأدواته التنفيذية الذين مكّنوا الظالم وحكّموه وتحكّموا به...

هذا التشخيص الواعي للإمام على بن أبي طالب (سلام الله عليه) هو الذي جرّعه ألوان الغصص، فلا- هو قادرٌ على مجاراة الهمج الرعاع أو مسايرتهم في أهوائهم وأطماعهم، ولا هو قادر عن التخلّي عنهم وهو المسؤول عن تربيتهم وتأديبهم... فلا هم أطاعوه ليرتاح من زجرهم وتقريعهم ولا فهموه لكي يستقرّ على قرار... فبقى حياته كلّها مقارعاً مستغيثاً نادياً حظه وحظهم إذ ابتلى بهم وابتلوا به كما يقول عليه السلام وحيث أرادهم لدينه وأرادوه لديناهم، وشتان بين الإرادتين...

ص: ٣٤٩

على بن أبي طالب، بقيته النبوة، وخاتم الخلافة: عبد الكريم الخطيب

هذا هو العنوان الذي اختاره عبد الكريم الخطيب لكتابه وذيله بحديث شريف للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول فيه: «يا علي لا يُحِبُّكَ إلَّا مؤمن، ولا يبغضك إلَّا منافق»، ثم راح يدوّن في تقديمه لكتابه هذا قائلاً:

«إنّ تاريخ العظماء ليس مجرد حياة وموت، وأحداث وقعت فيما بين الحياة والموت فضبطتها صحف التاريخ، وختم عليها الزمن بخاتمه، وإنّما تاريخ حياتهم ميراث كريم تتوارثه الإنسانية كلّها، وتقتدى بما فيه من عظات وعبر، وتقطف من مجانيه، ما تطول يدها وتبلغ همّتها من قدوة صالحه ومثّل كريم» (١).

وحين يصل إلى الإمام على عليه السلام بعد زفراّت طرحها على ما حلّ بالمسلمين من اختلاط مروياتهم عن صحابة رسول الله وكيف اختلط فيها الحقّ بالباطل والصدق بالكذب، والواقع بالخيال) - حسب تعبيره - راح يقول:

«... وعلى - كرم الله وجهه - هو بقيته النبوة، وخاتم خلافة النبوة، وحياته كلّها معركة متّصلة في سبيل الله، وإيثار سخى لإعزاز دين الله، وإعلاء راية الإسلام التي حملها رسول الله، والتفّ حولها المهاجرون والأنصار، فكانوا جند الله وكتيبة الإسلام... واحتملوا تبعات الجهاد في سبيل الله، صابرين مصابرين... أمّا عليّ، فقد كان صدره درعاً واقياً لدعوة الإسلام، من أوّل يوم الإسلام إلى أن تداعت حصون الشرك، وذهبت معالمه..» وأضاف:

«وكان سيفه شهاباً راصداً، يرمى أعداء الإسلام بالمهلكات، ويشيع في جموعهم الخزي والخذلان، ويلبس أبطالهم وصناديدهم المذلّة والهوان، حتّى ليكون سيفه علماً يسمّى (ذا الفقار) وحتّى ليكون صاحب السيف مثلاً يحدّث الناس به في مواقف البطولات الخارقة فيقال (فتيّ ولا كعلّي)» (٢).

وحين يأتي إلى موضوع الخلافة ككاتب يرى رأياً آخر - لا يجد مناصاً من التصريح بالحقيقة رغم مرارتها فيقول:

١- ١ على بن أبي طالب، بقيته النبوة، وخاتم الخلافة، عبد الكريم الخطيب، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٥: ٨.

٢- ٢ نفس المصدر السابق: ٢١.

ص: ٣٥٠

«فقد كانت الخلافة أقرب إليه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من أى صحابى آخر» ولكنه يضيف:

«فلَمَّا تَمَّت البيعة لأبى بكر، توقّف قليلاً وأمسك يده عن البيعة له بالخلافة، حتّى إذا رأى القبائل تتنادى بالردّة والخروج عن طاعة الخليفة الجديد، بادرَ فسَدَ هذه الثغرة، وأعطى الخليفة كلّ ولائه ونُصحه» (١).

ويأتى عبد الكريم الخطيب إلى فتنة الخليفة الثالث عثمان بن عفّان وابن عمّه مروان ويفتح ملفّها ولا يستطيع غلقه فيقول:

«أسلم الحكم (والد مروان) عام الفتح إسلام الطلقاء، وكان طريد رسول الله صلى الله عليه وآله ولعينه... وقد قال فيه البلاذرى: إنّ الحكم بن العاص كان جاراً لرسول الله صلى الله عليه وآله في الجاهلية وكان أشدّ جيرانه له أذىً فى الإسلام... وكان قدومه إلى المدينة بعد فتح مكّة، وكان مغموصاً عليه فى دينه (أى مطعوناً عليه ومتهماً فى دينه)» (٢).

وبعد رحيل النّبى صلى الله عليه وآله كَلَّمَ عثمان أبا بكر فى ردّ الحكم وولده فكان جوابه «ما كنتُ لأوى طرداء رسول الله» ولمّا استُخلف عمر، قال قول أبى بكر، ولما استُخلف عثمان أدخلهم المدينة فأنكر عليه المسلمون إدخالهم المدينة، ثمّ ولى الحكم صدقات قضاعة (حى فى اليمن)- والكلام للخطيب طبعاً- فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه...

ومات الحكم (طريد رسول الله) فى خلافة عثمان فضلّى عليه عثمان وضرب على قبره فسطاقاً» (٣).

وعن مروان بن الحكم ينقل الخطيب ما ذكره ابن سعد فى طبقاته حين قال:

«فلم يزل مروان مع ابن عمّه عثمان ابن عفّان، وكان كاتباً له، وأمر له عثمان بأموال، وكان عثمان يتأوّل فى ذلك صلة قرابه، وكان الناس ينقمون على عثمان تقيبه مروان وطاعته له، ويرون كثيراً ممّا ينسب إلى عثمان لم يأمر به، وأنّ ذلك عن رأى مروان، دون عثمان، فكانّ الناس شنعوا بعثمان، لما كان يصنع بمروان ويقربه» (٤).

ومن هنا جاء تعليق الإمام على عليه السلام على الفتنة التى أودت بحياة عثمان مخاطباً الثوّار: «جزعتم فأسأتم الجزع،

١-١ نفس المصدر السابق: ٢٢.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ٤٥.

٣-٣ نفس المصدر السابق: ٤٦ عن أنساب الأشراف للبلاذرى ٥: ٢٧.

٤-٤ نفس المصدر السابق: ٤٦.

ص: ٣٥١

واستأثر فأساء الأثره».

«والحق أن علياً كان أوفر الناس حظاً، وأطولهم صحبةً لرسول الله صلى الله عليه وآله، فمنذ وُلد عليّ، وهو بين يدي محمد، قبل النبوة بعدها. لم يفترق عنه في سلم أو حرب، وفي حل أو سفر، بل كان بين يدي النبي، وتحت سمعه وبصره إلى أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى، وهو علي صدر عليّ، حيث سكب آخر أنفاسه في الحياة» (١) ويضيف:

«فقد كان علي بطل الإسلام دون منازع... وكان فقيه الإسلام، وعالم الإسلام، وحكيم الإسلام، غير مدفوع عن هذا أو منازع فيه...» إلى أن يقول:

«ولو أن إنساناً غير علي بن أبي طالب، أمّتحن بما امتحن به من شدائد وأهوال، لتبّلدت مشاعره، وعظمت ملكاته، ولما وجد العقل الذي يفكر ويقدر ولا- اللسان الذي ينطق ويبين! ولكنها النفس الكبيرة العميقة، تمرّ بها الأحداث المزلزلة، والكوارث المكربة، كما تمرّ الأعاصير بالجبال الشامخة فتتطاحن عندها وتتخاشع بين يديها، وتتكسر متداعية تحت قدميها...» (٢).

وفي مقاربة معبّرة بين زواج الخليفة عثمان من بنتي رسول الله صلى الله عليه وآله رقية وأمّ كلثوم ومنحه لقب (ذى النورين)، وبين زواج الإمام علي من فاطمة عليها السلام يقول عبد الكريم الخطيب أو يكتب قائلاً:

«.. فإنّ في زواج عليّ من فاطمة شيئاً أكثر من هذا الذي ظفر به عثمان! فأولاً، فاطمة (رض) اختُصت من بين أخواتها بهذه الدرجة الرفيعة التي رفعها الله إليها فجعلها في مقام مريم ابنة عمران، حيث وصفها الرسول صلى الله عليه وآله بأنّهما خير نساء العالمين، وثانياً: أنّ فاطمة- وحدها من دون أبناء النبي وبناته- هي التي كان منها سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين ومنهما كلّ نسل رسول الله. وإذ ننظر إلى هذا الأمر- والكلام للخطيب- مع ضميمته ما سبق من مواقف في هذا المقام، نجد أنّ ذلك الموقف متسق مع ما سبقه، جار على الغاية المنجحة له، والبالغة باين أبي طالب، ما أراد الله له من كرامة وتكريم!

١-١ نفس المصدر السابق: ٥٨.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ٨٨.

ص: ٣٥٢

فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله يكون له بنين وبنات ثم يختارهم الله جميعاً إلى جواره في حياة الرسول، عدا فاطمة (رض)، ثم لا يقف الأمر عند هذا، بل يكون من حكمه الله ألا يعقب أحد من أبناء الرسول وبناته ولداً، ومن كان له ولد من بناته مات هذا الولد صغيراً..

وهكذا يصبح الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لا يرى له ولداً غير فاطمة، ولا نسلاً متصلاً إلا ما كان من فاطمة وعلي» (١).
ويأتى الخطيب إلى قضية حساسة يحاول أن يتجاوزها بفدلكة وذكاء وذلك عند تمييزه بين شخص الرسول ورسالته، فيقطع الطريق على الرأي الآخر القائل بأن الإمام علياً عليه السلام إنما هو امتداد لرسالة الرسول وإن كان لشخصه فيه النصيب الأوفى، فيقول في هذا الإطار معترفاً ممزراً:

«فإذا قيل: إن علياً أخو النبي وزوج ابنته فاطمة، سيده نساء العالمين، وأبو السبطين، ريحاتي شباب الجنّة، الحسن والحسين.. ثم إذا قيل: إن علياً هو الشخص القائم مقام الرسول في كل موقف يُلتمس فيه شخص الرسول، لا رسالة الرسول، إذا قيل ذلك في (علي) فإنه لا يعطى أكثر من دلالة واحدة، هي أن علياً أقرب الناس إلى الرسول، وألصقهم به وأولاهم، فيما يمس ذاته، ويتصل بشخصه!» (٢).

وعن عدل (علي) وترفعه عن حطام الدنيا واندكاه بمبادئ الدين وعدم اهتمامه بما تقوله السياسة ورجالها فيه، يقول عبد الكريم الخطيب:

«روى أنه حين تفرّق أصحاب علي بعد مقتل الخوارج ودخل مسجد الكوفة فخطبهم، وكشف لهم عن الحال التي صاروا إليها، وما ينتظرهم من ذلّ علي أيدي أهل الشام بعدها، قام إليه بعض أصحابه فقال:
«يا أمير المؤمنين... أعط هؤلاء هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش علي الموالى، ممن يتخوف خلفه علي الناس وفراقه، إن هذا هو الذي كان يصنعه معاوية بمن أتاه، وإنما عاقبة الناس همهم الدنيا، ولها يسقون، وفيها يكدحون، فاعط هؤلاء الأشراف، فإذا استقام ذلك ما تريد

١-١ نفس المصدر السابق: ١٢٦.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ١٢٨.

ص: ٣٥٣

عُدت إلى أحسن ما كنت عليه من القشم» (١).

ويواصل الخطيب رؤيته هذه معلقاً:

«هذه هي السياسة التي كان يمكن أن يغلب بها الإمام، وأن يستكثر بها من الأنصار والأتباع! ولكنه يأبى بأن يستجيب لهذا الرأي، ويردّ على أصحابه قائلاً:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور.. فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم، والله لو كان المال مالى لسويت بينهم! فكيف وهي أموالهم».

هذا هو حكم الدين - والتعليق هنا للخطيب طبعاً - ودعوة الحق والعدل! ولكن أين الناس من الدين، ومن الحق والعدل؟! لقد تعثرت أقدامهم على هذا الطريق وثقل خطوهم عليه، وتقطعت بهم الأسباب دونه... أتريدون شاهداً؟ وهل شاهد بعد أن نرى علياً وحده في الميدان، لا يقوم تحت رايته غير خمسين رجلاً؟» (٢).

لكن المؤلم المؤسف أن الخطيب نفسه وفي طول الكتاب وعرضه استمرّ مدارياً متهيباً يقترب من قول الحقيقة الساطعة وينسلّ منها، وتسطع شمس فضائلها غيمه الموروث وغمامة الحكم الجاهز وكأني به يريد أن يقول شيئاً ولكن الضريبة باهضة والموقف صعب والحق مرّ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الحقيقة الضائعة: الشيخ معتصم سيد أحمد:

رغم أن (الحقيقة) لا - تضع ولن تضع، وإن كانت ضُيعت أو عُيبت لهذه الفترة أو تلك، إلماً أن (الحقيقة) عند الاستاذ والكاتب السوداني الشيخ معتصم سيد أحمد قد ضاعت، أي ضاعت عليه هو نفسه فراح يبحث عنها في كتابه هذا بجديّة وصدق وإخلاص حتى عثر عليها موفقاً مسدداً إن شاء الله.

ولعلّ أول ما يبدأ به الكاتب في بحثه عن الحقيقة هو تنقيبه الدقيق وفحصه الأكثر دقة لمتون وأسانيد الحديث الشريف: «إني تارك فيكم الثقلين:

كتاب الله وسنتي، أو عترتي أهل بيتي» وصراعه بين هذين الاثنين

١-١ نفس المصدر السابق: ٥٦٦ عن: الإمامة والسياسة: ١- ١٦٠.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ٥٦٧.

ص: ٣٥٤

(سنتي أم عترتي) وارتياحه في اكتشاف الخيط الدقيق بين سنته رسول الله صلى الله عليه وآله وعترته أهل بيته وعلى رأسهم أو في مقدمتهم الإمام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام.

وبعد فراغه من هذا البحث الذي قال: إنه كلفه «مجهوداً فكرياً ونفسياً، وجعلني أعيش صراعات مع ضميري وأخرى مع زملائي وأساتذتي في الجامعة» (١) وانتهائه إلى أن الآية القرآنية الكريمة إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون إنما نزلت في علي عليه السلام وان لها دلالة خاصة - حسب رؤية الكاتب - راح غائصاً في تفصيها والبحث في مغزاها وأسباب نزولها.

بعدها راح الكاتب يبحث في مغزى الآية القرآنية الكريمة الأخرى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس وكيف أن هذا الأمر الإلهي الواجب تبليغه صار يوازي تبليغ الرسالة فإذا لم يبلغه فكأنما لم يبلغ الرسالة» (٢) ويضيف:

(وإن هذا الأمر، هو مردّ خلاف عظيم بين الناس، بل إن الرسول خاف على نفسه من الناس ولذا طمأنه الله تعالى بقوله عزّ من قائل: والله يعصمك من الناس) (٣).

ومن استجلاء معاني هذه الآيات البيّنات وغيرها يروح الاستاذ معتصم يلقي باللائمة على المؤرّخين الذين يكتمون الحقائق ولا ينقلونها إلى الناس، وهذا ما يقصده بضياح الحقيقة إذ يقول:

«وما تعانيه الأئمة الإسلامية اليوم من فرقة وشتات وتمزق في الصفوف ما هو إلّانتاج طبيعي للانحرافات التي حدثت في التاريخ من تدليس المؤرّخين وكتهم للحقائق.. من أجل مصالح سياسية (ودنيوية).. وهو مخطط استهدف مدرسه أهل البيت على كافة الأصعدة والمستويات ليشكل تياراً آخر ذا مظهر إسلامي في قبال الإسلام الحقيقي الأصلي» (٤).

ولم تكن المسألة مسألة مصالح سياسية فقط وإنما مسألة رعب ورهبة

١-١ الحقيقة الضائعة: الشيخ معتصم سيد أحمد، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ: ١٠٩.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ١٦٥.

٣-٣ نفس المصدر السابق: ١٦٥.

٤-٤ نفس المصدر السابق: ١٧٢.

ص: ٣٥٥

وخوف لمن يجرأ ويكشف الحقيقة إذ «كان مجرّد التظاهر بالحبّ لعلي بن أبي طالب وأهل بيته كفيل بهدم الدار وقطع الرزق، حتّى تتبع معاوية شيعة على قائلاً: اقتلوهم على الشبهة والظنّ، وحتّى بات ذكر فضائلهم جريمة لا تغتفر..» (١).

وأكثر ما يجرح قلب الكاتب ويمزق فؤاده في مواقف هؤلاء المؤرّخين هو جنائهم التكتّم على مظلوميّة الإمام على عليه السلام وحذفهم لرسائل عديدة مهمّة كان عليه السلام بعثها إلى معاوية وحذف أخرى بين هذا الأخير ومحمد بن أبي بكر، وراح الكاتب يندّد بموقف الطبري كمثال قائلاً:

«أخفى المؤرّخون وأولهم الطبري الرسائل التي جرت بين محمد بن أبي بكر ومعاوية بن أبي سفيان..

فاعتذر الطبري بعدما ذكر إسناد الرسالتين، بأنّ فيهما ما لا يتحمّل العامة سماعه، ثمّ جاء من بعده ابن الأثير وفعل ما فعله الطبري، ثمّ سار على نهجهم ابن كثير فأشار إلى رسالة محمد بن أبي بكر، وحذف الرسالة وقال (فيها غلظة) إلى أن يقول (أى الكاتب):

«وما فعله المؤرّخون الثلاثة هو من أشنع أنواع كتم الحقائق، وهو يكشف بكلّ وضوح عدم أمانتهم العلمية» (٢).

ولم يتردّد الكاتب في ذكر بعض فقرات هذه الرسالة التي (فيها غلظة) وينقلها عن مروج الذهب للمسعودي، وجاء فيها:

«من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر، وبعد الثناء على النبي وكيف أنّ الله أرسله رحمةً وبعثه رسولاً ومبشراً ونذيراً، فكان أوّل من أجاب وأنا بآمن وصدّق وأسلم وسلم أخوه وابن عمّه على بن أبي طالب:

صدقه بالغيب المكتوم وآثره على كلّ حميم، ووقاه بنفسه كلّ هول وحارب حربه وسالم سلمه... لا نظير له...

أتبعه ولا-مقارب له في فعله، وقد رأيتك تُساميه وأنت أنت، وهو هو، أصدق الناس نبيّة، وأفضل الناس ذريّة، وخير الناس زوجة... وأنت اللعين ابن اللعين لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وآله الغواية وتجهدان

١-١ نفس المصدر السابق: ١٧٣.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ١٧٩.

ص: ٣٥٦

في إطفاء نور الله، تجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال، وتؤلبان عليه القبائل، وعلى ذلك مات أبوك وعليه خلفته...» إلى أن يقول:

«فكيف يا لك الويل! تُعدل أو تقرن نفسك بعلي وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيته وأبو ولده؛ أول الناس اتباعاً وأقربهم به عهداً، يخبره بسرّه، ويطلع على أمره، وأنت عدوّه وابن عدوّه، فتمتّع في دنياك ما استطعت بباطلك وليمددك ابن العاص في غوايتك، فكأنّ أجلك قد انقضى وكيدك قد وهن ثمّ يتبين لمن تكون العاقبة العليا...» (١).

أما رسالته معاوية في الردّ على محمد بن أبي بكر، فقد جاء فيها، ما تهيب عن ذكره المؤرّخون الثلاثة المذكورون سابقاً، ولكن الشيخ معتصم أورد بعضاً من نصوصها كما جاء في مروج الذهب أيضاً. نذكر فقرات منها خدمةً للقارئ الكريم وبدون تعليق:

«من معاوية بن صخر، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر... ذكرت ابن أبي طالب، وقديم سوابقه وقرابته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومواساته إيّاه في كلّ هول وخوف فكان احتجاجك عليّ وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك، فاحمد ربّاً صرف هذا الفضل عنك وجعله لغيرك، فقد كُنّا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقّه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنيّيه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتمّ له ما وعده، وأظهر دعوته وأبلج حجّته، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزّه حقّه وخالفه على أمره، على ذلك اتّفاقاً واتساقاً، ثمّ إنّهما دعوه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما، فهما به الهموم وأرادا به العظيم. ثمّ إنّّه بايعهما وسلّم لهما وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرّهما حتّى قبضهما الله...» إلى أن يقول:

«أبوك مهّيد مهاده وبنى لملكه وساده، فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبدّ به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك قبل ما خالفنا ابن أبي طالب وسلّمنا إليه، ولكن رأينا أباك فعل ذلك به قبلنا فأخذنا بمثله، فعبّ

١-١ نفس المصدر السابق: ١٧٩-١٨٠ عن مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢٠ تحقيق محمد محيي الدين، دار المعرفة- بيروت.

ص: ٣٥٧

أباك بما بدا لك أو دع ذلك. والسلام على من أناب» (١).

وهنا لا يملك الشيخ معتصم نفسه فيروح مديعاً ما استفز سريره واستصرخ وجدانه فيقول:

«وقد عرفت بذلك السر الذي منع الطبرى وابن الأثير وابن كثير من نقل هذه الرسالة؛ لأنها تكشف واقع الصراع والخلاف الذى حدث

بين المسلمين فى أمر الخلافة، التى هى حقّ لعلّى - كما يرى طبعاً - ويضيف:

«فهذا معاوية يعترف بذلك ولكنه يعتذر بأنّ خلفته هى امتداد لخلافه أبى بكر وشنع بذلك على ابنه... ولكن لا عليك يا معاوية-

والكلام للكاتب- فإن لم يسكت محمد بن أبى بكر ولم يستر أمره فقد سكت عنه الطبرى وابن الأثير وابن كثير...» (٢).

وهكذا هو التاريخ والمؤرخون على امتداد العصور والأزمان، يُظهرون نصف الحقيقة، ويسدلون الستار على نصفها الآخر فيتركون

الناس فى طرائق شتى لا يهتدى فيها الضال ولا يستيقن المهتدى، وكلّ ذلك من أجل مصالح خاصة أو مواقف سياسية مدفوعه الثمن

تروح ضحيتها الحقيقة أو المؤرخ، وما أعظم المؤرخ الذى يروح ضحية للحقيقة! وما أعظم الحقيقة التى لا يعتمها مؤرخ ولو غيبتها

الزمن والسلطين وسنين طويلة من عمر الدهر الخؤون!

الهوامش:

١-١ نفس المصدر السابق: ١٨١ عن مروج الذهب ٣: ٢١.

٢-٢ نفس المصدر السابق: ١٨١.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعيدته جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتيه، ثقافته و علميته...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمساائل الديتية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافته على أساس معارف القرآن و اهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" ومفترق "وفائي" / بناية "القائمة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

